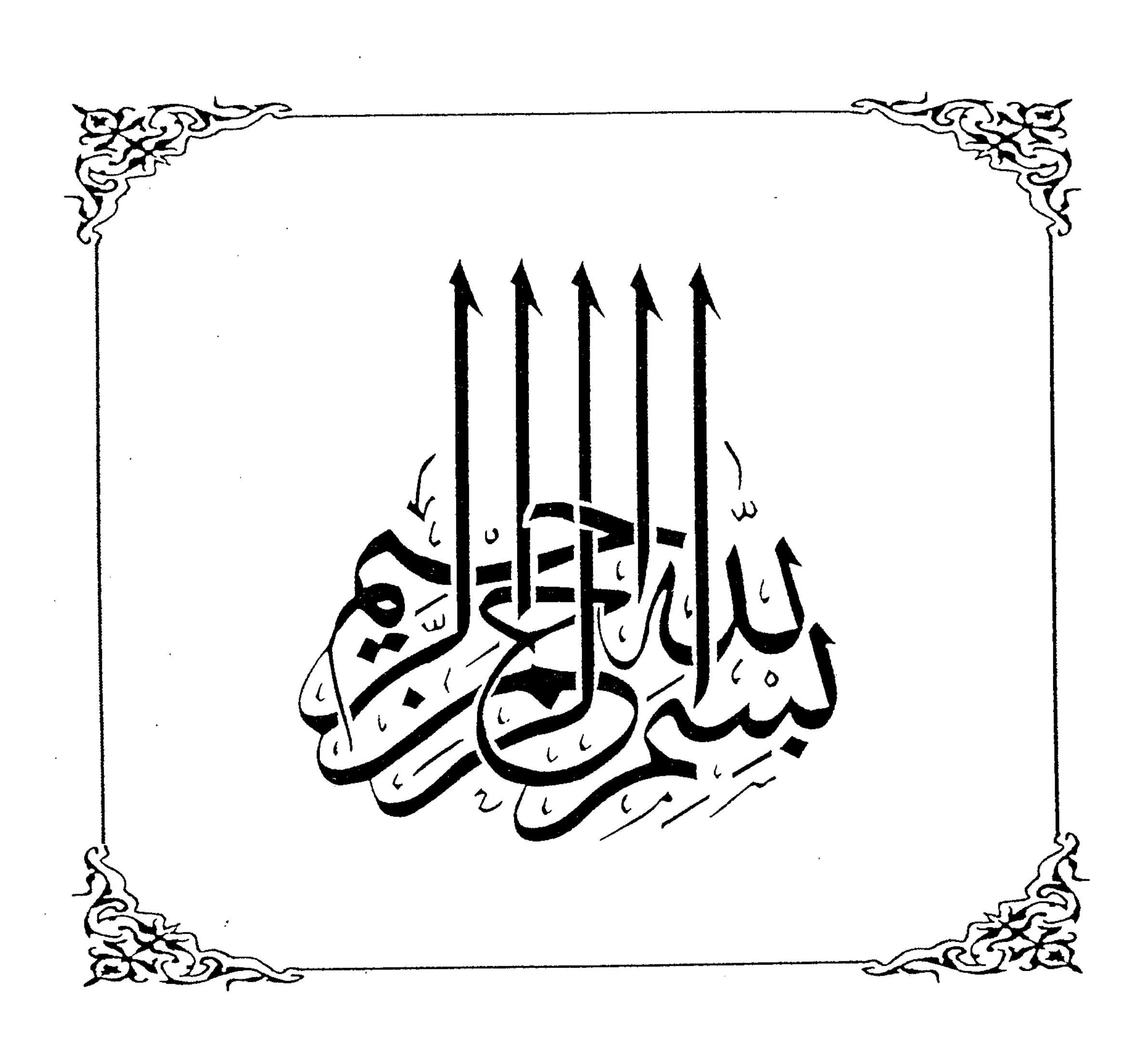

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العربية العليا



رسائل

الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري إلى ولده

مضامين الخطاب وتقنياته

" بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب "

إعداد الطالب

أحمد بن حسن بن يحيى المزّاح

إشراف الأستاذ الدكتور

حسن بن عبدالكريم الوراكلي

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

" رسائل الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري إلى ولده مضامين الخطاب وتقنياته "

هو عنوان هذه الدراسة التي تمحورت جهودها في المحاور التالية :

أ- المقدمة : التي اتجهت إلى الكشف عن دوافع اختيار الموضوع ، والإشارة إلى الدراسات السابقة فيه ، وإلى تحديد منهج الدراسة وعلاماتها ، ، وإلى ذكر الصعوبات التي واجهت الدارس ، ومن ثم توجيه بعض رسائل الشكر .

ب- التمهيد : الذي انصرفت فيه هذه الدراسة إلى إلقاء الأضواء الخاطفة على "الأدب الأبوي " في الأدب العربي ، مع تركيز الأضواء على " الرسالة الأبوية" ومتابعة نماذجها منذ أقدم " نص " عثر عليه الدارس ، وحتى آخر نص وفد على الساحة الأدبية .

جـ- مضامين الخطاب : وهي البؤرة الأولى التي استأثرت بالقدر الأوفر من جهود هذه الدراسة ، إذ عمدت هنا إلى قراءة النص الممدود على مساحة أربعين وثمانمائة صفحة قراءة رصد وتنظيم وعرض للقضايا الأبرز التي حملها خطاب الشيخ إلى متلقيه في مستواه الأول ، تلك القضايا التي تبلورت بعد تلك العمليات القرائية في خمس دوائر تبدأ بـ " الإبداع " وتنتهي بـ " التربية " مروراً بـ " الذات " و " الواقع التاريخي الوطني والعربي والإسلامي والعالمي " و " الكون المطلق " .

د- تقنيات الخطاب : وهي البؤرة الثانية التي وجهت الدراسة إليها قدراً لا بأس به من اهتمامها ، عندما عمدت إلى تركيز أضوائها على خمس من التقنيات التي اتكأ عليها خطاب الشيخ لحمل قضاياه إلى المتلقي بدءاً بتقنية " الحوار " وانتهاءً بتقنية " الصورة " مروراً بتقنيات " الحكي " و " التناص " و "الرمز "

هـ- خاتمة : وقد انصرفت هذه الدراسة في هذا المحور إلى استيعاب رؤية الدارس لقيمة هذا العمل الإبداعي على الصُعيد الشخصي والتاريخي والفلسفي والفكري واللغوي والأدبي والتربوي .

و- فهرسان لمكتبة الدراسة ومحتوياتها .

الطالب	المشرف	عميد الكلية
أحمد بن حسن المزاح	أ.د/ حسن بن عبدالكريم الوراكلي	أ.د/ صالح جمال بدوي
١٤٢١/١١/٢٤هـ		

نافذة

ولدي

ما أقوله - الآن - فيه شيء من تجربتي الخاصّة، وفيه شيء من ملاحظتي في السوق العامة.

مررت بالتجربة؛ فندمت، وأذلني الندم أمام نفسي.

تابعني ما دمت واقفاً على الشاطئ العام، ولم تركب تياره.

أصغ إليّ لعلك تستفيد ولو شيئاً قليلاً!

الرسائل ٢/٣٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الدراسة

إشارة :

الحمد لله العزيز الكريم ، رب العالمين ، الذي قال : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ [1] ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، بيده أمر كل شيء ، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [2] . والصلاة والسلام على معلم الأمة وهاديها إلى الرشاد ، وحاديها إلى الفلاح الذي قال : ((إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى)) [3] ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الأبرار ، ومن تبعهم ببر وإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فثمة في سجلّ الأدب العربي صنف من الأدب جدّ مميز ، تتمثل فيه العواطف الإنسانية في أصدق معانيها ، ويتجلى فيه الشعور الإنساني المتدفق في أنبل صوره وأكثرها إشراقًا وتألقًا ، وتنعكس فيه الروابط الإنسانية في أقوى خيوطها ، وتتجسد فيه معاني التجرد والإخلاص في أجمل ملامحها ، وأكثرها وضوحًا .

ذلك الصنف المميز بخصوصيته هو ما يمكن تسميته هنا بـ [أدب الأبوة] [4] ، ثم إن هذا الصنف ـ الذي يمتد في خط عريض على طول صفحة الأدب العربي (شعره ونثره) يتجزأ إلى خطوط متمايزة متوازية أصغر ، يشكل كلاً منها منظومة متجانسة من النصوص ، فعلى أحدها انتظمت نصوص ((الوصية الأبوية)) ، وعلى ثان نصوص ((الموعظة الأبوية)) ، وعلى ثالث نصوص ((التوجيهات الأبوية)) ، وعلى رابع ((السيرة الأبوية)) ، وعلى خامس ((المقال الأبوي)) .....

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٣ .

(٣) رواه البخاري في كتاب : الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي .

(٤) سيتم التعريف بهذا المصطلح في التمهيد .

لكن واحدًا من هذه الخطوط هو الأكثر تميزًا ؛ لأنه الأخصب مادة ، والأرقى فنًا ، فيه دفء الحنان ، وصدق المشاعر ، وتلاشي الحواجز ، ومتانة التواصل ، إنه الخطّ الذي انتظمت عليه نصوص ((الرسالة الأبوية)) ، أو ((رسائل الآباء إلى أولادهم)) .

هذا الصنف من ((الأدب الأبوي)) أو من ((أدب الرسالة العربية)) قديم جديد ، قديم لأن له جذورًا موغلة في تاريخ الأدب العربي ، وجديد من حيث أسلوبه الممتاز ، ومن حيث رؤياه بالغة الاتساع والعمق ، ثم إنه - إلى هذا وذاك - عظيم الأهميّة والخطورة من جهة ؛ لاعتماده خطابًا يستمد مضامينه - مع شموها - من قناعات كاتبه العقدية و المذهبية [1] والمنهجية الحقيقية [2] ، ومن جهة ثانية لأدبية بنائه لما يتوفر عليه من آلية تعبير ، وأساليب معالجة ، ولما يتسم به - عند كثير من مبدعيه ، أو منشئيه - من قدرة على النفاذ إلى الأعماق ، التي لا يصل إليها إلا غوّاص مميز [3] ، ومن جهة ثالثة لقدرته على رسم معالم العلاقات الإنسانية القائمة بين الآباء وأولادهم لدى أمة ما ، في عصر ما ، في مختلف جوانبها ، وصولا إلى رسم معالم الشخصية الأبوية والبنوية في تلك الأمة في ذلك العصر ، ومن ثم إلى رسم ملامح الكيان الأسري ، وربما الاجتماعي هناك ، يُضاف إلى ذلك - كله - ما له من قيمة تربوية وموضوعية عالية ، كما سيتجلى في هذه الدراسة إن شاء الله .

* * *

قررت - بعد استخارة الله - أن أتخذ هذا الخط معبرًا إلى الماجستير ، وكان عليّ أن أختار رفيق الرحلة الذي سيقودني إلى هدفي ، فوقع اختياري على رفيق ليس كسواه ، رفيق صعب المراس ، جامح ، محلّق ، آسر ، يأبى إلا أن يأخذني إلى كل شيء ، وأن يمر بي عبر كل شيء ، لكني رغم ذلك أعجبت به ، أحببته ، ولم أكن معه صخرة الوادي ، أسلست الحبال بيني وبينه ، وأعطيته من مساحات حريته في الحركة بقدر ما هو متاح لي من مساحات حريتي ، أتعبني كثيرًا ، لكنه علمني أكثر ، إنه واحد من أبرز نصوص ((الرسائل الأبوية)) في الأدب العربي ، بل هو أبرزها - حتى الآن - في نظري لأسباب موضوعية بحتة ليس هنا مجال سردها ،

---

(١) بمعناها العلمي - راجع مادة ((ذهب)) المعجم الوسيط .

(٢) إذ لا يتصور أن يسكب في وجدان ولده ما لا يؤمن به .

(٣) هذا يخالف الرأي الذي أرسله الجاحظ حين قال " المعاني مطروحة في الطريق " .

إنه أحد أبرز إفرازات القريحة الإبداعية العربية الأصيلة المعاصرة ، إنه : رسائل إلى ولدي ، إنه ((حتى لا يصيبنا الدوار)) ، و ((منازل الأحلام الجميلة)) ، للشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري .

* * *

عرض

أولاً : دوافع اختيار الموضوع :

حفزني إلى اختيار هذا الموضوع : ((رسائل الشيخ / عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري إلى ولده : مضامين الخطاب وتقنياته)) ليكون مجالاً للدرس في إطار رسالتي للماجستير حوافز عدة ، منها :

١ - اقتراح أستاذي الفاضل المشرف الدكتور / حسن بن عبدالكريم الوراكلي - بعد أن لمس مني رغبة أكيدة في الاشتغال بدراسة جانب من جوانب الأدب السعودي الحديث جملة موضوعات كان في مقدمتها هذا الموضوع ، ولم أكن قد قرأت هذا المؤلَّف من قبل ، ولا علمت به ، وهي يد فضل سأظل مديناً بها لأستاذي الفاضل .

٢ - جدة الموضوع ، وطرافته ، وجدارته بالدرس النقدي .

٣ - إعجابي بهذا الصنف من ((الرسالة الأدبية)) لما يتمثل فيه من المشاعر الإنسانية الشفافة في أصدق صورها وأوضحها ، ولما يعكسه من الروابط الحميمة في أقوى مظاهرها .

٤ - رغبتي في خدمة الأدب السعودي الحديث ، والإسهام في بلورة واجهة من واجهاته المميزة ؛ لا سيما مع قلة الدراسات التي انصرفت إلى دراسة النثر السعودي ، إذا ما قُورنت بما أنجز منها في دراسة الشعر ، وشعوري العميق أني بذلك أؤدي واجبًا من واجباتي تجاه تراث العربية الأصيل ، مما أبدعه كتاب وأدباء مهد العربية وآدابها الأول ، وصلوا بها ماضي العطاء الأدبي البهي في أدب الجزيرة بحاضره المتألق .

٥ - كون هذا الفن الأدبي (الرسالة الأبوية النثرية) في الأدب السعودي الحديث ، على وجه خاصّ ، لم تحظ من قبل بدراسات علمية متخصصة تسبر أغواره ، وتكشف عن قضاياه الموضوعية وظواهره الفنية .

٦ - كون هذا الفن الأدبي (الرسالة الأبوية النثرية) في الأدب السعودي - وفي غيره كذلك - لا يقف عند حدود الإفصاح عن الروابط بين الآباء وأولادهم ؛ بل يتجاوز ذلك إلى آفاق رحبة ، تعكس آراء الكتاب ، وتصوراتهم للإنسان والحياة والكون ،وتكشف عن تجارب إنسانية ثرية بالعظات والعبر .

٧ - تميز النص المطروح للدراسة هنا، وارتفاع قيمته الموضوعية والفنية كما سيتجلى لاحقًا .

٨ - طموحي إلى إضافة نموذج آخر إلى الدراسات النقدية التي تصدت لدراسة مؤلفات بعينها ؛ دراسة موضوعية وفنية مغلقة .

٩ - كون هذا النص الإبداعي الهادف قد أجاب على كثير من التساؤلات التي تشغلني ، وعالج كثيرًا من القضايا التي تهمني ، وعبّر بدّقة عما في أعماقي .

* * *

ثانيًا : الدراسات السابقة في هذا الموضوع :

لم تظفر ((الرسالة الأبوية النثرية)) في الأدب العربي — ومنه الأدب السعودي - في حدود علمي - بأية دراسات نقدية متخصصة ، كذلك لم أجد فيما رجعت إليه من فهارس وأدلة للرسائل الجامعية أي دراسة أنجزت عن رسائل الشيخ التويجري إلى ولده بالذات ، وعلى ما بذلت من جهد ومن تتبع — في هذا السبيل — سواء بالبحث في المكتبات العامة والتجارية وحتى الخاصة ، أو بالاستفسار من المراكز المتخصصة كمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ومكتبة الملك فهد .... ، أو بمساءلة أهل الخبرة والاختصاص ، أو بالاطلاع على الكتب المتخصصة في حصر الرسائل والأطروحات العلمية في المملكة ومنها ، كتاب ((دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية ، للدكتور / زيد بن عبدالمحسن آل حسين)) ، فإنني ما وجدت شيئًا من ذلك ،وما ظفرت به في

هذا المجال لا يعدو أن يكون إما مقالات قصيرة عن هذا الفن في الأدب العربي [1] ، وإما قراءات عابرة تهتم بسرد النماذج أكثر من قراءتها [2] ، وإما شيئًا لا يستحق الذكر [3] .

* * *

ثالثًا : منهج البحث :

أ. صلب المنهج :

١ - مثّل عنوان هذه الدراسة الإطار المتين الذي ظل يتحكم في مسارها ، ويحدد الأبعاد التي تمتد إليها ؛ ومن هنا فقد كان تركيز الجهود القرائية على خط واحد؛ يتمثل في رصد وتنظيم وعرض قضايا الخطاب الموضوعية وظواهره الفنية المحورية، دون الالتفات إلى ما هو خارج هذا الخطّ ، أو التوقف أمام شيء من القضايا أو الظواهر المدروسة توقف استنطاق أو تحليل أو تفسير ، أو متابعة تمدداتها خارج الرسالة ، ودون الانشغال بشيء من قضايا التنظير التمهيدية إلا عند الضرورة القصوى ، وقليل ما هي .

٢ - عند دراسة المضامين ؛ لم أفرض على النصّ المدروس مخططًا قبليًّا جاهزًا أضعه بين يديّ ، ثم آمر النصّ بالتشكل فيه ، وما أبى ذلك جزرته وألقيت به إلى الخارج ، كما أنني لم أحتذ في هذه الدراسة نموذجًا سابقًا أترسم خطاه ، وأسير في أثره ، ولكني اعتمدت منهجًا تفكيكيًّا تركيبيًّا وصفيًّا على نحو خاصّ ، قمت فيه بتفكيك النصّ الكامل إلى وحداته الموضوعية الصغرى - في مستواها القرائي الأول - ثم طلبت إلى كل واحدة منها اتخاذ موقعها المناسب من السياق الموضوعي العام ، فاستجابت لذلك - تارة بعد إلحاح ، وأخرى بدونه - حتى إذا تم ذلك قمت بعملية لحم (إعادة بناء) هذه الوحدات - شيئًا فشيئًا - تاركًا للنص حرية التشكل في النظام البنائي الذي يلائمه ؛ في إطار الخطّ العام الذي تنتهجه هذه الدراسة ، وقد تمخضت عمليات اللحم هذه عن

---

(١) انظر : محمد عبدالغني حسن ، رسائل الآباء إلى الأبناء ، مجلة الثقافة عددي : (٦٣٧) في ١٢ مارس ١٩٥١م ، ص١٢ - ١٤ ، و(٦٣٩) في ٢٦ مارس ١٩٥١م ، ص ١٨ - ٢٠ .

(٢) انظر : إيفان جونس ، رسائل الآباء إلى الأولاد من الأدبين العربي والغربي ، ترجمة : لطفي الخوري ود. محمود الأمين ، مراجعة وتقديم د. مصطفى جواد .

(٣) يُشار هنا إلى ((خلسة ليل)) أسماها صاحبها : رسائل الآباء إلى الأبناء في الأدب العربي ، وأصدرها عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

بناء متناسق الخطوط ، يشكل لُحمة واحدة متجانسة تبدأ بالتمهيد وتنتهي بالخاتمة ، ووجدت الدراسة - التي حدد النص ذاته مخططها - قد تشكلت في النظام التالي :

المقدمة : وهي مدار المعالجة هنا .

التمهيد : وقد تم من خلاله :

أ - إلقاء نظرة سريعة على ((الأدب الأبوي في الأدب العربي)) .

ب - عرض موجز لـ ((الرسالة الأبوية)) في الأدب العربي .

المدخل : وقد اشتمل على ثلاثة محاور :

أ - توثيق الرسائل .

ب - وصف عام للمؤلَّف مدار الدراسة .

جـ - موقع هذا المؤلف من منظومة إبداع الشيخ .

الفصل الأول : وقد انتظم فيه الخطاب المشغول بعناصر الإبداع الثلاثة .

الفصل الثاني : وقد انتظم فيه الخطاب المشغول بقراءة الشيخ ذاته .

الفصل الثالث : وقد انتظم فيه الخطاب المشغول بقراءة الواقع التأريخي .

الفصل الرابع : وقد انتظم فيه الخطاب المشغول بقراءة الوجود الكوني .

الفصل الخامس : وقد انتظم فيه الخطاب المشغول بالمضمون التربوي المباشر .

الفصل السادس : وقد خُصّص لرصد وعرض خمس من تقنيات الخطاب .

الخاتمة : وقد انصرفت إلى استيعاب رأي الدارس في هذا العمل الإبداعي .

الفهارس :

١ - فهرس المصادر والمراجع .

٢ - فهرس المحتويات .

* * *

ب ـ علامات الدراسة :

تتناثر على صفحة هذه الدراسة مجموعة من العلامات التي استخدمتها استخدامًا دلاليًّا أو تنظيميًّا أو إحاليًّا ، وفيما يلي عرض وتفسير لهذه العلامات :

١ ـ (   ) هلالان متقابلان في نص الدارس : لإسقاط الوحدة الخارجية التفسيرية التي بداخلها في متن النصّ الذي وردت هذه العلامة في عرضه .

٢ ـ [   ] (-) معقوفان ، بإحالة رقمية : للإشارة إلى ملاحظة هامشية على ما بين القوسين .

٣ ـ [   ] معقوفان دون إحالة داخل نص الشيخ : للتحوير في الوحدة الموجودة داخلهما لتتناسب أسلوبيًّا مع ما هو خارج قوس التنصيص .

٤ ـ ((   ))(-) قوسا تنصيص مزدوجان بإحالة رقمية : لحصر النصّ المقتبس بلفظه ومعناه والإحالة إليه ، ويلاحظ أن طول النصّ المقتبس يحدده ثلاثة أشياء .

الأول : ترابط النصّ في الدلالة على ما سيق من أجل بيانه .

الثاني : رغبة الدارس في استكمال بعض الجوانب التي يعرضها النصّ تكثيفًا للفائدة ، وتعميقًا للفكرة مدار العرض ، وتدعيمًا لجهود الخطاب على ذلك الخط .

الثالث : افتراض عدم توافر المؤلَّف المدروس لدى من يطلع على هذه الدراسة مما يستدعي استكمال النصّ لتتضح الصورة لديه .

٥ ـ "   "(-) فاصلتان مزدوجتان وإحالة : للتنصيص على نص داخلي مدرج في نصّ الشيخ وتخريجه .

٦ ـ "   " لتمييز الوحدة التي بداخلها .

٧ ـ ﴿   ﴾ قوسان مزهران : لاقتباس النص القرآني الكريم بلفظه ومعناه والإحالة إليه .

٨ ـ ((   )) هلالان مزدوجان دون إحالة : للتنويه إلى ارتكازية ما بين القوسين .

٩ ـ ....(-) هلالان صغيران فوق العبارة بإحالة : للإحالة إلى إن ما تحت الهلالين في مصدر خارجي ، أو لاقتباس النص بمعناه دون لفظه .

١٠ ـ ... ثلاث نقاط على السطر في صدر العبارة المحصورة بين أقواس التنصيص : للدلالة على امتداد النص المقتبس في فكرته إلى الأمام .

١١ ـ .... أربع نقاط على السطر : للإشارة إلى الحذف اختصارًا .

١٢ - ..... خمس نقاط على السطر : للإشارة إلى استمرار انفتاح الفكرة ، وإمكانية مواصلة الكلام عنها .

١٣ - ...... ست نقاط على السطر ، وربما لحقتها علامة تعجب أو تأثر للإشارة إلى الحذف التلميحي .

١٤ - العناوين الكبرى - داخل الفصل - تظهر من خلال البنط الأعرض ، ويتدرج بنط العنوان في الصغر كلما ازدادت جزئية ذلك العنوان .

١٥ - تأتي رسائل الشيخ إلى ولده في جزأين :

الأول : حتى لا يصيبنا الدوار : وقد رمزت له في الإحالة الهامشية بالرقم (١) .

الثاني : منازل الأحلام الجميلة : وقد رمزت له في الإحالة الهامشية بالرقم (٢) .

واعتمدت العنوان الكلي للجزأين " رسائل إلى ولدي " في الإحالة ، ورمزت له بلفظة "الرسائل " .

وللتوضيح ، فإنه عند الإحالة - مثلاً إلى الصفحة (١٠٠) من " حتى لا يصيبنا الدوار " تكون الإحالة بالصياغة التالية :

" الرسائل : ١/١٠٠ " .

وعند الإحالة إلى الصفحة (٢٠٠) من " منازل الأحلام الجميلة " تكون الإحالة بالصياغة التالية :

" الرسائل : ٢/٢٠٠ " .

١٦ - حينما تلتقي مجموعة من نصوص الرسالة على فكرة واحدة فإنني أختار أعمقها تعبيرًا عن هذه الفكرة ، وأحيل على النصوص الأخرى في مكانها .

١٧ - عند إيراد المصدر أو المرجع لأول مرة في الهامش ، أبدأ فيه باسم المؤلّف، يتلوه اسم المصدر أو المرجع ، يتلوه رقم الجزء - إن تعددت أجزاؤه - ثم رقم الصفحة ، أما معلومات النشر فقد رحّلت إلى الفهرس العام تحاشيًا لتكرار إيراد المعلومة في غير ضرورة .

١٨ - عند تتابع الإحالة إلى المصدر أو المرجع ذاته ؛ فإنــه يستغنى عن ذكر اسم الكتاب بعبارة " المصدر - أو - المرجع نفسه " .

١٩ - إذا كان المصدر المحال إليه ديوانًا شعريًا وقد سبقت الإحالة إليه ؛ أكتفي بذكر اسم الشاعر ورقم الجزء والصفحة .

٢٠ - قدّم كل فصل على حدة من خلال فهرس جزئي يحيل إلى خطوطه المحورية ، أما التفاصيل فقد رُحّلت إلى الفهرس العام .

٢١ - رتبت المصادر والمراجع في الفهرس حسب ترتيبها الهجائي اعتمادًا على عنوان الكتاب لا على اسم المؤلّف .

* * *

رابعًا : الصعوبات التي واجهت الدارس :

واجهني في هذه الدراسة مجموعة أكثرها بروزاً :

١ - طول النص الذي يمتد على مساحة أربعين وثمانمائة صفحة .

٢ - قدرة النص على التشكل ، لصناعة احتمالات قرائية جديدة من خلال اتكائه على تقنيات تعبيرية ذات طاقات إحالية عالية .

٣ - اتكاء الشيخ في رسالته الكاملة على هذه التقنيات أخذ المحتويات الفكرية إلى أبعاد استنزفت مني جهودًا مضاعفة في سبيل تحقيق التوغل إليها ، حتى إذا حققت ذلك التوغل المجهد وجدت الكثير من تلك المحتويات وقد تحررت من سياقاتها الحقيقية ، مما أعطاها قدرة فائقة على التوالد من جانب ، وعلى الانضواء في سياقات أخرى من جانب آخر ، فأدى ذلك إلى ظهور مشكلة حقيقية في ضبط تلك المحتويات ، ولعل مما ضاعف هذه المشكلة ورشحها للتعقيد حساسية الدارس وتجاوبه مع تلك الكائنات المتحررة إلى أبعد مدى ، مما جعله يقف حائرًا أمام نص ما – وما أكثر ذلك – وهو يتساءل : أين مكانه الحقيقي ؟ ولعل ذلك السبب الحقيقي الكامن وراء ظهور مقطع ما في أماكن عديدة من فصول ومباحث هذه الدراسة .

٤ - توغل النص ـ بالاتكاء على تلك التقنيات ـ إلى أبعاد يتعذر على هذه الدراسة أن تتوغل إليها ؛ لما يحف بذلك التوغل من مخاطر السقوط في دوام لا قرار له ، ولذا اكتفت في أماكن عديدة بمجرد التعاطي إليها من بعيد ..... وإن آلمها ذلك كثيرًا .

٥ - مجانبة المثال ، ذلك أنني لم أحتذ في دراستي هذه مثالا أنهج نهجه ، وأقتفي أثره ؛ بل تركت للنص حرية التشكل في النظام المنهجي الذي يلائمه ، الأمر الذي استنزف مني كثيرًا من الجهد ، ومن الوقت !

* * *

خامسًا : رسائل شكر سريعة :

الرسالة الأولى : إلى جامعة أم القرى ممثلة في كلية اللغة العربية ، وقسم الدراسات العليا فيها ومسئوليهما على ما أتاحوه لي من فرصة لمواصلة دراستي العليا أولاً ، وعلى أن تحملوني وأخذوني في رحابة صدورهم لقاء طول المدة التي قضيتها في إنجاز هذه الدراسة ، قبلوا التأجيل أولاً ، ثم مددوا ثانيًا ، ثم صبروا عليّ بعد ذلك حتى أنجزت عملي ، وعذري الذي أقدمه لهم : إن هذا لم يكن أبدًا وليد الإهمال ، ولا العجز ، ولا وليد انعدام الشعور بالمسئولية - كلا وا لله - وإنما هو وليد ظروف صحية ، كان المشرف الفاضل على علم تام بها .

الرسالة الثانية : إلى الأستاذ الدكتور / حسن باجودة ، عميد الكلية السابق الذي أحفظ له فضله ، وأحفظ له يد المعروف التي مدها إليّ عندما طلبت إليه نقل إشرافي إلى أستاذي الفاضل / حسن الوراكلي .

الرسالة الثالثة : إلى الأستاذ الدكتور سليمان العايد الذي سهّل موضوع نقل إشرافي هذا ، وأبدى تعاطفه معي .

الرسالة الرابعة : إلى الرجل الذي فتح لي قلبه وأخذني إلى رياضه الرحبة ، وأشرع في وجهي أبواب مدرسته العالية ، فنهلت من علمه الكثير ، ونهلت من أدبه الكثير ، أرجو من ا لله أن أكون قد استوعبت دروسًا كثيرة قدمها لي بسلوكه العملي في الحلم ، والتواضع ،

والصبر ، ونقاء الطوية والشعور بالمسئولية الخاصة والعامة إلى آخر هذه الدروس التي لا تنتهي ، إلى الرجل الذي ما أغلق بابه في وجهي لا ليلاً ولا نهارًا منذ بدأت علاقتي به ، إلى الرجل الذي فتح لي صدره وأخذني إليه تلميذًا صغيرًا ، إلى أستاذي الفاضل ؛ الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي .

لا أجد ما أقول سوى هاتين الجملتين ، شكرًا يا سيدي ، وجزاك الله عني خيرًا .

الرسالة الخامسة : إلى الرجل الذي علمني - بالفعل - كيف تكون النفوس كبيرة ، وكيف أنها يمكن أن تتسع للحوار وللجدل وللرأي الآخر ، إلى شيخي الذي علمني - بالفعل - كيف ((يكون)) الأدب ، وكيف ((أقرأ)) الأدب .

إلى شيخ الأدباء ، معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري : شكرًا ؛ يا سيدي على ما أسبغته على ((ابنك)) من تجربتك ، ومن وقتك ، ومن تواضعك ، وحلمك .

الرسالة السادسة : إلى زوجتي وأولادي الذين صبروا على الكثير من المعاناة نتيجة انشغالي عنهم .

هذا وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

الدارس

التمهيـــد

تمهيد

من الأدب الأبويّ في الأدب العربي

على صفحة الأدب العربي الواسعة (شعره ونثره) خطّ بارز الملامح ، عميق البدايات يمتد معها إلى أقصى ما تصل إليه في صدر العصر الجاهلي ، ويهبط معها ـ كذلك ـ باتجاه الحاضر إلى يوم الناس هذا .

ذلك الخط الأصيل ـ الذي يزداد مع الأيام اتساعًا وعمقًا ونضوجًا ـ هو ما يمكن أن تطلق عليه هذه الدراسة مصطلح : ((الأدب الأبويّ)) ؛ أي الأدب المنسوب إلى الأبوين أو أحدهما ، والصادر عنهما أو عن أحدهما باتجاه أولادهم ؛ مع ما تختزنه لفظة ((أبوي)) من مكنون وجدانيّ نبيل أصيل فياض ؛ هو المولّد الأساس لحركة الإبداع على هذا الخط .

وعند الدنّو من هذا الخط وتركيز الرؤية عليه ـ في قدر من التأنّي والتدقيق ـ فإنه لا يلبث أن يتشكل في عين القارئ في خطوط متوازية أصغر تمتد بامتداد ذلك الخط الكبير ـ الذي تتلاحم لتكوينه ـ مجسدة بذلك الخطوط الموضوعية والشكلية العامة التي يتدفق فيها هذا الأدب ؛ بما يمكن تمثيله في الخطوط الجزئية التالية :

الخط الأول : أدب الأبوة المجازية :

وهو ذلك الأدب الذي يوجه فيه الأديب خطابه الإبداعي (شعرًا أو نثرًا ، شفويًّا أو نثريًّا) من موقع الأبوة المجازية أو ما يوازيها ؛ كأن يتجه به من موقع المعلّم أو الداعية أو ما في حكم ذلك إلى الجيل الناشئ كله في خطاب إبداعي يتقمّص فيه الأديب دور الأب ومسئولياته ؛ متخذًا من مفردات من قبيل ((يا ابني))[١] ، ((يا بنيّ))[٢] ، ((أي بنيّ))[٣] ،

---

(١) انظر : على الطنطاوي . " يا بنتي ويا ابني " .

(٢) انظر : محمد بن عبدا لله الدويش : " يا بني لقد أصبحت رجلاً .... " .

(٣) انظر : عبدالعزيز بن عبدا لله الخويطر " أي بني " .

((ابنـــتي)) [١] ، ((يـا بنـــتي)) [٢] ، ((أيهـا الولـــد)) [٣] ، ((يافتـــاة)) [٤] ، ((أيهـــا الشباب)) [٥] ... أسلوبًا يسبغ على تواصله مع متلقيه السلطة العاطفية على أقـل تقديـر ، وممـا يمكن ضبطه على هذا الخطّ :

١ - الوصية الأبوية .

٢ - الموعظة الأبوية [٦] .

٣ - الرسالة الأبوية [٧] .

٤ - الحوار الأبوي [٨] .

٥ - المقال الأبوي [٩] .

* * *

الخط الثاني : أدب الأبوة الحقيقية :

وهو ذلك الأدب الذي يوجه فيه الأديب خطابه الإبداعي - كذلـك ــ مـن موقـع الأبـوة الحقيقية إلى ولده - ذكرًا أو أنثى ، جمعًا أو مثنى أو مفردًا - سواء استهدف بخطابـه ذلـك " ولـده الحقيقي " دون سواه، وقصره عليه دون غيره ، كما هو في الرسالة الشخصية [١٠] ، أو قصد بـه "ولده " ومرّره من خلاله إلى الجيل الموازي والأجيال التالية ، كما هو فـي الرسائـل الأدبيـة الـتي

---

(١) انظر : د/ نجاة حافظ " رسالة إلى ابنتي " ، زينب الغزالي الحبيلي : " إلى ابنتي " .

(٢) انظر : علي الطنطاوي . " يا بنتي ويا ابني " .

(٣) انظر : أبو حامد الغزالي . " أيها الولد " .

(٤) انظر : أبو بكر الجزائري . " إلى الفتاة السعودية (والمسئولون) عنها " .

(٥) انظر : الإمام حسن البنا : " مجموعة رسائل " ص ١٧١ .

(٦) ويمكن أن يمثله : " أيها الولد " .

(٧) ويمكن أن يمثله : " رسالة إلى ابنتي " .

(٨) ويمكن أن يمثله : " يا ابني لقد أصبحت رجلاً ..... " .

(٩) ويمكن أن يمثله : " يا بنتي ويا ابني " ، " أي بني " ،" ، "إلى بنتي " في جزأين ، زينب الغزالي الجبيلي .

(١٠) سيتم الوقوف عندها بعد قليل .

يصرح فيها أصحابها بهذا التمرير [١] . ويمكن ضبط الإبداع الأدبي على هذا الخط (شعره ونثره) في أنماط منها :

أ. الوصية الأبوية :

ويقصد بها النصّ الشفهي أو التحريري الموظف لاستيعاب تكليف الأب (الموصي) للابن (الموصَى) بأمر ما على سبيل الإلزام ، إذ الأبوان يوصيان ولدهما (ذكرًا أو أنثى) عند دنوّ التفارق لسفر أو موت أو زواج أو نحوه .

وهذا النوع من الأدب ممتد مع خط الأدب الأبويّ منذ العصر الجاهلي إلى يوم الناس هذا ، وموضوعاته تتسع لكل شيء ، ومما يمثل هذا النمط الأدبي كتاب " إنباء الأبناء بأطيب الأنباء " للألوسي ، وهذا النوع نصّ شفهي في الأصل ولكنه يحرر للتوثيق .

ب. الموعظة الأبوية :

وهي النص الشفهي أو التحريري الذي يتجه به الأب إلى ولده على سبيل النصح والإرشاد لا الإلزام أو الفرض ، وهو كسابقه ممتد الجذور إلى العصر الجاهلي .

وهو أيضًا نص شفوي في الأصل ، ولكنه يحرر رغبة في التوثيق أو التأليف ونحو ذلك ، وتغلب على هذا النوع النزعة الإصلاحية الدينية والأخلاقية .

جـ. الحوار الأبوي :

وهو النص الشفهي أو المكتوب القائم على أساس التحاور المباشر أو غير المباشر بين الأب وولده .

---

(١) انظر مثلاً :

عبدالصبور مرزوق : " إليك يا ولدي " ، ص٥ .

عبدالعزيز التويجري : حتى لا يصيبنا الدوار ، ص١٨ ، ٢٠٨ .

د/ داود عبدالغفور سنقرط : رسالة إلى ولدي ، ص ٧ .

د/ نعمات أحمد فؤاد : رسائل إلى ابنتي ، ص ٩ .

د- المقال الأبوي :

وهو النص المقالي الموضوعي المكتوب الذي يوجهه الأب إلى ولده عبر منبر إعلامي ما ، كمجلة أو جريدة أو نحوهما ، على ألا يتقمص شخصية نوع آخر من هذه الأنواع ، وهدفه الأول موضوعي ، ولكن المؤلف وجهه إلى ولده لعلاقته القويّة به .

هـ- الرسالة الأبوية :

وهي النص الشفهي أو المكتوب الذي يتجه فيه الأب بالخطاب مباشرة إلى ولده . إن مضامين هذا النمط الأدبي شفهية في الأساس ، وكان يمكن إيصالها بالتحادث المباشر ، لكن بعد المسافة بين طرفي الاتصال (الأب والولد) والرغبة الملحة في التواصل دفعت " الأب " إلى تحرير هذه المضامين ، ومن ثم الدفع بها إلى " ولده " الغائب زمانًا أو مكانًا أو وجدانًا .

ولكي يكون النص الإبداعي " رسالة " - بالمعنى المعجمي للفظة " رسالة " - لا بد أن تتوافر له العناصر التالية :

١- عناصر تكوينية ، وهي :

أ - المرسل .   ب - المرسل إليه .   جـ - الرسالة .

٢- عناصر شكلية ، وهي :

أ - تصدير ،ويكون بما يأتي أو ببعضه :

١ - صيغة :البسملة غالبًا والتحية ، وربما الحمدلة .

٢ - صيغة : من فلان إلى فلان أو ما في حكمها ....

٣ - صيغة : أما بعد ... - أو - وبعد ...

ب - عرض الموضوع .

جـ - الختام ، من خلال ما يأتي أو بعضه :

١ - إعادة تحية التصدير .

٢ - الدعاء للمرسل إليه .

٣ - عبارة وداع أخرى .

هذه العناصر الثابتة في شخصية الرسالة بمفهومها الحرفي والعرفي في الأدب العربي منذ

أقدم نماذجها وحتى يوم الناس هذا ، وهي العناصر التي يستطيع القارئ أن يحكم من خلالها ما إذا كان النص المقروء رسالة أو أنه شيء آخر ، ولا يتصور سقوط عنصر من عناصر التكوين الثلاثة .

أما عناصر الشكل الثلاثة فإنه لو سقط منها شيء خرجت من كونها رسالة إلى نص مكتوب يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون رسالة .

٣ـ عناصر ثانوية ، ومنها :

أ ـ البعد الزماني أو المكاني أو النفسي بين طرفي الاتصال .

ب ـ حصول التواصل .

جـ ـ وجود الواسطة .

ولكن هذه العناصر الثانوية تفقد أهميتها عند القارئ الأجنبي ؛ فلا يهم القارئ في القرن العشرين كثيرًا أن يكون هناك بعد زماني أو مكاني أو وجداني بين معاوية رضي الله عنه وابنه يزيد أم لا ، وما إذا كان قد حصل الاتصال فعلاً أم لا ، وما إذا كانت قد توفرت الواسطة أم لا ، ما يهمه هو الرسالة ذاتها .

وإذا قد اتضح مفهوم هذه الدراسة الخاص للرسالة ، فإنها قد عمدت إلى تمرير نصوص " الأدب الأبوي " التي تتوافر فيها هذه العناصر الثابتة على محك الدرس التصنيفي ، في محاولة للتوصل إلى تحديدات أكثر دقة ؛ فوصلت إلى أن ما توفر لها من هذه النماذج من الرسالة الأبوية ينماز حسب الوظيفة الأولى التي أنشئ من أجلها إلى الأضرب التالية :

الأول : رسالة الوصاة الأبوية :

وهي النص الشفهي أو المكتوب ـ الذي تحققت فيه ضوابط الرسالة التكوينية والشكلية على أقل تقدير ـ ، الموجه من " الأب " إلى " ولده " ، الموظف ـ بالدرجة الأولى ـ لاستيعاب وصية الأب إلى ولده على سبيل الفرض والإلزام .

إنه نص يخاطب به الوالد ولده ، وتحققت فيه ضوابط " الرسالة " فدخل بذلك في باب " الرسائل الأبوية " و تحققت فيه ضوابط " الوصية " ، من حيث كونه على سبيل الفرض والإلزام ، فأبقت عليه في باب " الوصايا " فكان بذلك الازدواج " رسالة وصاة أبوية " .

الثاني : الرسالة الأبوية الوعظية :

وهي النص الشفوي أو المكتوب الذي تحققت فيه ضوابط الرسالة الثابتة ، الموجه من " الأب " إلى "ولده " ، الموظف - بالدرجة الأولى - لاستيعاب نصائح الأب وإرشاداته لولده ، وتذكيره بما يجب وما لا يجب ، وما يحسن وما لا يحسن ؛ لكن على وجه لا إلزام فيه .

إنه نص يخاطب به الأب ولده ، كان في أساسه موعظة أبوية - بضابطها المنوه عنه آنفًا - ولكن توافر ضوابط الرسالة فيه أدخله في باب الرسائل فكان بذلك " رسالة أبوية وعظية " .

ومن هذا الضرب الرسالة التي كتبها معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - إلى ولده يزيد ، وقد بلغه مقارفة يزيد للذات ، وانهماكه في الشهوات ، والتي يقول فيها [١] :

((من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية : أما بعد : فقد أدت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بك ما فجع الأمل فيك ، وباعد الرجاء منك ، إذ ملأت العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمال الراغبين ، وهمم المتنافسين ، وشحت بك فتيان قريش وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجرّة المهوعة ، والكظّ الجش ، اقتحمت البوائق ، وانقدت للمعاير ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر ، فليتك (يزيد) إذ كنت لم تكن ، سررت يافعًا ناشئًا ، واثكلت كهلاً ضالعًا ، فواحزناه عليك (يزيد) ....

انتبه (يزيد) للفظة ، وشاور الفكرة ، ولا تكن إلى سمعك أسرع من معناها إلى عقلك ، واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان ، مما يحسن عندك قبحه ، واحلولى عندك مره ، أمر شركك فيه السواد ، ونافسكه الأعبد، لا لأثرة تدعيها أوجبتها لك الإمرة ، وأضعت بها قدرك ، فأمكنت بها من نفسك ، فكأنك شانيء نفسك ، فمن لهذا كله ؟

اعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة ، بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير ، كما قال الله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ [٢] وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهرًا .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ٦: ٣٨٧ ، وأحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ٢: ٦٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٢٨ ، ١٢٩ .

اعلم (يا يزيد) أن أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة ، وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى ، والفجعة الكبرى : ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها ، وهو من أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، وإظهار العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سرك ، ولا تعقد على فعلك ، فما خير لذة تعقب الندم ، وتعفي الكرم .

وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة ، واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم عليه ذهنك ، ترشد إن شاء الله تعالى . وليبلغ أمير المؤمنين ما يرد شاردًا من نومه ، فقد أصبح نصب الاعتزال من كل مؤانس ، ودريئة الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن)) .

ومما ينساق في هذا الضرب :

١ - كتاب عمر بن الخطاب إلى ولده عبدالله بن عمر رضي الله عنهما [١] .

٢ - كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى ولده عبدالله [٢] .

٣ - كتاب يحيى بن خالد البرمكي إلى ولده جعفر [٣] .

٤ - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد للإمام ابن الجوزي [٤] .

يقول المرسل في تقديمه لهذه الرسالة الوعظية :

((بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب ، ....

أما بعد : فإني لما عرفت شرف النكاح وطلب الأولاد ، ختمت ختمة ، وسألت الله - تعالى - أن يرزقني عشرة أولاد ، فرزقنيهم ، فكانوا خمسة ذكور ، وخمس إناث ، فمات من الإناث اثنتان ، ومن الذكور أربعة ، فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم ، فسألت الله

---

(١) انظر : ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ٢٨٦/١ ، الحصري القيرواني : زهر الآداب ٧٢/١ ، جمهرة رسائل العرب ١: ٢٤٩ .

(٢) نقلاً عن جمهرة رسائل العرب ٣١٣/٢ .

(٣) الطبري : تاريخ ١٠ : ٨٣ ، وجمهرة رسائل العرب ١٩٠/٣ .

(٤) وهي رسالة وعظية طويلة طبعت في كتيب صغير الحجم .

تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح ، وأن يبلغ به المنى والمناجح ، ثم رأيت منه نوع توان عن الجدّ في طلب العلم ، فكتبت له هذه الرسالة أحثه بها وأحركه على سلوك طريقي في كسب العلم ، وأدله على الالتجاء إلى الموفق سبحانه وتعالى ....)) [(١)] .

الثالث : الرسالة الأبوية التوجيهية :

وهي النص الشفهي أو المكتوب ، الذي تحققت فيه ضوابط الرسالة ، الموجه من الأب إلى ولده ، الموظف أساسًا لاستيعاب توجيهات الأب لولده باتخاذ موقف أو مواقف ما تجاه قضية ما ، على نحو رسمي جادّ ، المفروض ألا يكون " للولد " خيار في تنفيذه .

ومع أن النصّ من هذا القبيل يحمل ضابط الإلزام ؛ إلا أنه لا يدخل في " رسالة الوصايا الأبوية " لأنه لا يرتبط بمناسبة التفارق الطارئ بين الأب وولده بالإضافة إلى سيطرة النبرة السلطوية الرسمية الآمرة على صوته .

وينساق في هذا الضرب رسالة طاهر بن الحسين إلى ولده عبدا لله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينها سنة ٢٠٦هـ ومنه [(٢)] :

((بسم ا لله الرحمن الرحيم .

أما بعد فعليك بتقوى ا لله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رغبتك ، .... فإن ا لله أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم ....

وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض ا لله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر ا لله فيها ، وترتل في قراءتك ، وتمسكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعةً من معك وتحت يدك ....)) .

وهكذا يمضي المرسل ليسرد على ولده الكثير من التوجيهات على مدى إحدى عشرة صفحة من القطع الكبير .

---

(١) الإمام أبو الفرج بن الجوزي " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ص ٤٨ ـ ٥١ .

(٢) الطبري : ١٠: ٢٥ ، جمهرة رسائل العرب ٣ : ٤٠٦ .

ومما ينساق - أيضًا - في هذا الضرب الرسالة التي كتبها عبدالحميد الكاتب على لسان الخليفة الأموي مروان بن محمد إلى ولده وولي عهده عبدالله بن مروان سنة ١٢٩هـ ، حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي [١] .

وهي رسالة مطولة تمتد على مساحة خمسين صفحة من القطع الكبير ، ويوجهه فيها بالتزام مجموعة من السلوكيات الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ، لكن هذه الرسالة - وإن كانت قد كتبت على لسان الخليفة من قبل كاتب متمكن ، هو إلى ذلك أعرف الناس بالخليفة وبمنهجه العام لما هو معلوم بينهما من أواصر العلاقات الحميمة الصادقة ، ولا بد أنه قد اطلع عليها قبل إعلانها أو إرسالها ووافق عليها بما يكفي للقول : إنها تعكس إلى حد ما شخصية هذا الخليفة الدينية والأخلاقية والاجتماعية والعسكرية والسياسية - لا تعكس شخصية مروان " الوالد " ورؤاه وتصوراته وتجاربه ومواقفه ، من الأشياء ؛ بقدر ما تعكس شخصية عبدالحميد ذاته ورؤاه وتصوراته ومواقفه ، وعلاقته بولي العهد ، ورؤيته الخاصة فيما ينبغي أن يسوس به رعيته ونفسه في مختلف السياقات المنوه عنها آنفًا ، ولما كانت هذه هي عادة عبدالحميد في رسائله ، ولما كانت الرسالة صادرة إلى خليفة الغد - الأمر الذي يصعب معه توجيه الرسالة إليه على نحو مباشر - فقد وجد عبدالحميد في رغبة صديقه الخليفة القائم في توجيه ولده إلى محاربة الضحاك فرصة حينما اتخذ من ذلك وسيلة إلى توجيه خليفة الغد وتربيته في خطاب قويّ يضمن له تحقيق هدفه بأسلوب سلطوي - على ما يلحظ فيه من لين وتودد واعتذار - قائم على الأمر والنهي والتوجيه ، في الوقت الذي يبقي فيه باب العلاقة بينه هو وبين ولي العهد مفتوحًا، ويحافظ فيه على نفسه بمنأى تام عن سخط ولي العهد أو تذمره أو توليد أية خلفيات نفسية لديه قد يكون لها انعكاس مستقبلي على علاقته به ، ولذلك غدا عبدالحميد يتواصل مع ولي العهد ويوجه سلوكه في مختلف السياقات من تحت كرسي الخليفة.

إن هاتين الرسالتين اللتين أدرجتا نموذجين على هذا الضرب من " الرسالة الأبوية التوجيهية " ، وإن ظهرت عليهما بعض سمات " الرسالة الأبوية الأدبية " - التي سيتم عرضها بعد قليل - إلا أنهما تبقيان لهما خصوصيتهما التوجيهية من حيث صدورهما من مركز السلطة الآمرة إلى مركز الجهة المنفذة ، ومن حيث اشتمالهما على مجموعة من التوجيهات التي لا بد من

---

(١) صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ ، جمهرة رسائل العرب ٢/٤٠٦ .

تنفيذها ؛ وإن جاءت في ثوب أدبي قشيب .

لكن نماذج هذا الضرب لا تقتصر على هذين النموذجين ؛ إذ يمكن أن يلحق بهما مجموعة أخرى من الرسائل ذات المضامين التوجيهية ، ومن ذلك رسالة يحيى بن خالد البرمكي إلى ولده الفضل التي يوجهه فيها بإنفاذ أمر الخليفة بالتخلي عن الوزارة لأخيه جعفر [١] ، ومن ذلك رسالة يحيى بن خالد البرمكي إلى ولده الفضل - أيضًا - التي يوجهه فيها بالإقلاع عن سوء السيرة التي ترامت منه إلى أذن الخليفة [٢] .

الرابع : الرسالة الأبوية الشخصية :

وهي النص الشفهي أو المكتوب الذي تحققت فيه ضوابط الرسالة ، الموجه من الأب إلى ولده ، الموظف لاستيعاب مشاعر الأب تجاه ولده ، ومواقفه منه ، وآرائه تجاه قضية محددة ـ في الغالب - في الإطار الثنائي الخاصّ .

ومما ينساق في هذا الضرب كتاب عبدالملك بن مروان إلى بعض ولده ـ وقد خالفه في شيء - يعاتبه فيه ، وينكر عليه صنيعه حين يقول :

((أما بعد : فإني أمرتك بأمر فأتيت غيره ، ووصيتك بوصية فأبيت إلا عصيانها ، وخفت أنك بمنزلة الصبي الذي إذا أمر بشيء أباه ، وإذا نهي عن شيء أتاه ، فيُحتال له فيما ينفعه بأنه ينهى عنه ، وفيما يضره بأن يؤمر به ، ويا سوءتي لمن هذه حاله ! والسلام.)) [٣] .

ويوافق هذه الرسالة في هذا كتاب ابن عبد كان على لسان أحمد بن طولون إلى ولده العباس حين عصى عليه بالإسكندرية ينذره ويوبخه فيه [٤] ، ويدخل فيه - أيضًا - رسالتا بديع الزمان الهمذاني على لسان والده إليه [٥] ، ومثلها رسالة الملك محمد بن يوسف الخامس ملك

---

(١) زهر الأداب ٤١٩/٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٧/٤ ، جمهرة رسائل العرب ٣: ١٥٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٤ :٢٨ ، جمهرة رسائل العرب٣ :١٥٦ .

(٣) نقلاً عن جمهرة رسائل العرب : ٢١١/٢ .

(٤) انظر : صبح الأعشى ٧ : ٥ ، جمهرة رسائل العرب ٤ : ٣١٦ .

(٥) انظر : رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني : ص١٩٣ ، ١٩٤ ، ورسالة هشام إلى ولده : جمهرة رسائل العرب :٣٦٨/٢ .

المغرب إلى ولده ، ولي عهده الحسن بمناسبة عيد مولده السابع والعشرين [١] .

لكن من أكثر نماذج هذا الضرب دلالة عليه ، وتجسيدًا لملامحه ، وإفصاحًا عن شخصيته مما هو منشور مجموعة رسائل الأديب السعودي الراحل حمزة شحاته إلى ابنته شيرين [٢] ، ولعل هذا الضرب (الأخير) من الرسائل الأبوية يعكس تمامًا الرسالة في الأدب العربي في أبسط صورها ، وأكثرها تمثيلاً لمعنى لفظة " رسالة " ، وأوسعها انتشارًا ؛ إذ لا يظن أن هناك من لديه القدرة على التعبير إلا وهو قادر على إنشاء هذا الضرب من الرسائل الشخصية ، لا في شكلها الشفهي فحسب ؛ بل في شكلها التحريري - أيضًا - على اعتبار توافر إمكانية الإملاء .

* * *

لكن قبل مغادرة هذا المقام يحسن الإجابة على التساؤل التالي :

هناك من أضرب الرسالة الأبوية التي أُحيل إليها رسائل لم تتوافر لها عناصرها الشكلية تمامًا ؛ كأن يسقط منها الصدر ، أو الخاتمة ، أو كلاهما في بعض تلك الرسائل ، ومع ذلك سلكت هنا في فن الرسائل الأبوية ، ثم إن هناك تداخلاً ملحوظًا بين هذه الأضرب ؛ فما توجيه ذلك ؟

أما عن سقوط بعض عناصر الرسالة فتوجيهه كالتالي :

أولاً : بعد فحص هذه النماذج تبين أنها أقرب إلى الرسالة منها إلى أي نمط فني آخر من موعظة أو وصية .

ثانيًا : لقد بقيت لها شخصيتها التكوينية كاملة .

ثالثًا : جاء الرد من المرسل إليهم على بعضها ، أو كانت هي ردودًا على رسائل المرسل إليهم .

رابعًا : بقيت لها وظيفة الرسالة من توجيه أو عتاب أو إبلاغ .

خامسًا : من الواضح أن مثل هذه النماذج التي سقطت منها بعض عناصرها الشكلية تمثل عنصر " العرض " في الرسالة ، وهو ما يهم المؤلف الذي عمد إلى انتزاعه من مكانه دون العنصرين الآخرين أو أحدهما .

سادسًا : نُصَّ - في مصادرها - على أنها رسائل أو كتب .

---

(١) انظر : إيفان جونس ، رسائل الآباء إلى الأولاد ص ٤٠ .

(٢) انظر : حمزة شحاته ، إلى ابنتي شيرين .

سابعًا : إذا لم تكن رسالة ، فماذا تكون ؟

أما عن تداخل أضرب الرسائل هنا ، فذلك أمر لا سبيل إلى دفعه ، ولكن تصنيف الرسالة ، وتوجيهها إلى مكانها إنما كان استجابة للصوت الأعلى فيها ، وبالنظر إلى وظيفتها ، فإذا كانت موظفة للنصح والإرشاد العام ، وعلا فيها صوت هذه الوظيفة على سواه فهي " رسالة وعظية " ، وإذا كانت موظفة للتوجيه الإلزامي والتكليف فهي " رسالة توجيهية " ، وإذا كانت موظفة لمعالجة القضايا الثنائية الخاصة بين المرسل والمرسل إليه ، في سياق العلاقة بينهما بصورة مباشرة فهي " رسالة شخصية " ، وإذا كانت موظفة للتأليف ، ولمعالجة قضايا عامة بمنأى تام عن الأوامر والتوجيهات الإلزامية ، وفي إغفال ملموس للشئون الشخصية الخاصة بطرفي الاتصال ، وفي نمط إبداعي يتجاوز مضامين المواعظ والوصايا وأساليبها ، وإذا علا فيها صوت الإبداع الأدبي على أصوات الوعظ والوصايا والتوجيهات الرسمية والشئون الخاصة فهي " رسالة أدبية " .

ولعل هذا التصنيف صالح للتطبيق على " فن الرسائل في الأدب العربي " ؛ فلا أعلم بوجود دراسة تنظر إلى ((أدب الرسائل)) من هذه الزاوية ، لكن معظم المتاح من التصانيف لهذه الرسائل يقسمها إلى رسائل إخوانية وديوانية وأدبية وذلك من خلال نظرة مزدوجة ؛ تلمح أطراف التخاطب في الرسالة في جزء من هذا التقسيم ، وتلمح طبيعتها الفنية في الجزء الآخر [1] . في إغفال تام للوظيفة الأولى للرسالة ، ولذلك كان التداخل بين هذه الأصناف .

يجب أن ينظر أولاً إلى الوظيفة التي أنشئت الرسالة - أساسًا - للقيام بها ، ثم بعد ذلك تصنف إلى محاور أصغر ، فالرسائل التوجيهية - مثلاً - تقسم إلى : توجيهات الآباء ، توجيهات المعلمين ، توجيهات الخلفاء ، توجيهات الوزراء ، توجيهاء العلماء ....

وكذلك الوعظ ، فمنه وعظ الآباء ، وعظ العامة ، وعظ الخلفاء ، ووعظ .... ومن ثم تدرس ((رسائل)) كل محور على أساس تصنيفيّ عادل .

---

(١) انظر مثلاً : أ - مجدي وهبة ، كامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص١٧٨ .

ب - د/ محمد التونجي ، المعجم المفصل في الأدب ، ٤٧٨/٢ - ٤٧٩ .

الخامس : الرسالة الأبوية الأدبية :

وهـي النصّ الشفـوي ـ نادرًا ـ أو المكتوب ـ غالبًا لطوله ـ ، الذي تحققت فيـه ضوابـط الرسالة التكوينية والشكليـة على أقل تقدير ، الموجه من الأب إلى ولده ، المنتج إنتاجًا إبداعيًّا ، مميـزًا فـي تقنياته ، شموليًّا في موضوعاته ، جادًا في معالجاته ، عامًـا في قضايـاه ، مرتبطًـا في غاياتـه بالمرسل إليه ، وموجهًا لمصلحته ولمصلحة الجيل الناشئ الموازي والتالي من خلاله .

وعند التدقيق في هذا الضرب من الرسائل الأبوية تتجلـى للقـارئ المدقـق الملامـح العامـة لنمطين متمايزين منه :

النمط الأول : الرسالة الأبوية الموضوعية :

وهي رسائل أدبية فيها من المقال روحه ، ومن الرسالة جسدها ، إنها في حقيقتها مقالات أدبية مطولة تغلب عليها مواصفات المعالجة الموضوعية البحتة بشـكل ملمـوس ، إنهـا تنصـرف ـ غالبًا ـ إلى طرح ومعالجـة قضايـا عامـة في الديـن والتربيـة والتعليـم والمجتمـع والسياسـة والتـاريخ والأخلاق معالجة منهجية شديدة المباشرة ـ وإن كانت تخف حدة المنهجية والمباشـرة هـذه ـ عنـد كاتب عنها عند كاتب آخر ـ إلى درجة يبدو معهـا هـذا الضـرب مـن الرسـائل أقـرب إلى المقـال الأدبي منه إلى الرسالة لولا أنه تقمص شخصية الرسالة بعناصرها التكوينية والشكلية الثابتة ؛ بـل وحتى الثانوية المؤقتة في كثير من نماذجه .

ومما ينماز إلى هذا النمط مايلي :

١ـ رسائل أحمد حافظ عوض بك إلى ولده :

وهي عبارة عن ثمان عشرة رسالة امتدت علـى مسـاحة مئـة وثلاثـين صفحـة مـن القطـع المتوسط ، كتبت على الأرجح في العقد الأول من القرن العشرين الميـلادي ، يتكـئُ فيهـا المؤلـف إلى جملة " ولدي العزيز " التي صدر بها كل واحـدة مـن رسـائله هـذه دون أن تتكـرر في صلـب الرسالة مرة أخرى ، مما يدل على انصرافه إلى معالجة الموضوع انصرافًا جادًا ، لكنـه لا ينسـى أن يختتمها بتحية ولده والدعاء له .

قال عنها ولده جمال الدين " المرسل إليـه " في معرض تقديمه لها : ((هذه مجموعة رسائل

كان يبعث بها إليّ والدي من مصر وأنا طالب في الكلية الأمريكية ببيروت ، ....)) [١] .

بينما قال عنها المرسل (نفسه) في صدر أولاها وهو يخاطب ولده :

((إلى ولدي العزيز :

قبل أن تقرأ هذه الرسائل التي وضعتها حبًا فيك ، وشغفًا بك ، وحرصًا على مستقبلك ، وهداية لك وإرشادًا في سبيل حياتك ، أحب أن أشرح [٢] لك العوامل التي دفعتني إلى توجيهها إليك ....)) [٣] .

لكنه لم يذكر من هذه العوامل غير " الحب " الذي يقول عنه :

((هذا الحب الكامل [وكان قد شرح مفهومه للحب الأبوي] هو الذي يملي علي ما أوجهه لك ولإخوتك من النصح والإرشاد)) [٤] .

وإذًا فهذه الرسائل مرسلة إلى جمال وإخوته ، وهي - كما يسميها المرسل - نصوص من " النصح والإرشاد " ، وهي صادرة عن عواطف الأبوة الجياشة في نفسه .

وهي - في روحها - أقرب إلى المقالات الأدبية ؛ إذ تغلب عليها المعالجة الموضوعية البحتة حين تنصرف إلى معالجة قضايا تربوية وتعليمية صرفة في أسلوب شديد المباشرة ، لكنها تجسدت في جسد الرسالة لأسباب لا يتسع هذا المقام لمناقشتها ، ولعل مما يؤكد هذا ، ويكشف - بوضوح - عن ملامح شخصية هذه الرسائل - في خطوطها العامة - قول المرسل في صدر رسالته السادسة ، وهو يخاطب ولده : ((في رسائلي السابقة إليك وضعت لك أساسيات التربية والتعليم من الوجهة العامة ؛ أي من حيث حب العلم ، وحب المعلم ، وتدريب العقل ، وتمرينه ، وتقوية الجسم وتمتينه، والآن أريد أن أوجه إليك في هذه الرسالة وما يليها شيئًا من النصائح والإرشادات فيما يختص بأجزاء العلوم والمعارف التي يجب أن تقبل عليها وتتوسع في دراستها ، وأعرض

---

(١) أحمد حافظ بك ، من والد إلى ولده ، تقديم الكتاب .

(٢) وأي شرح بعد هذا ؟؟!!!

(٣) المصدر نفسه ص١ .

(٤) المصدر نفسه ص٣ .

عليك آرائي في أنواع هاتيك المعارف ، وكيفية الاستفادة منها على الطريقة التي أراها نافعة لك في مستقبلك ، مذللة للعقبات التي تقف في طريقك عند جهادك في الحياة المقبلة عليك)) [١] .

* * *

٢ ـ رسائل أحمد أمين إلى ولده :

وهي عبارة عن تسع عشرة رسالة ، منها سبع عشرة موجهة منه إلى ولده ، وواحدة موجهة منه إلى ابنته ، وواحدة موجهة من ولده إليه .

تمتد هذه المجموعة على مساحة مئة وسبعين صفحة من القطع المتوسط ، ويتكيء فيها المرسل إلى صيغة ((أي بني)) كثيرًا ، و ((يا بني)) نادرًا ، في رسائله إلى ولده ، و ((أي ابنتي)) ، و ((أي بنيتي)) في رسالته إلى ابنته .

وهي في جوهرها لا تعدو كونها مقالات أدبية [٢] ، عالج المؤلف من خلالها الكثير من قضايا الواقع ، وضمنها ملحوظاته وتجاربه وأراءه في حركة الحياة والناس ، والفكر والدين والعادات والأخلاق والاجتماع والطبائع الإنسانية والتربية والتعليم والسياسة والحضارات .... مشفوعًا بكم وافر من التوجيهات والنصائح والإرشادات ، وربط ذلك ـ كله ـ بحياة ولده ، وبما يقترح أن تكون عليه حركته ومواقفه في تلك السياقات ؛ ولا سيما في المجتمع المغاير الذي كان يعيش فيه ولده عند كتابتها .

لكن هذه الرسائل لا تخلو من الانعطاف ـ بين فينة وأخرى ـ إلى استيعاب بعض الأحداث والمناسبات الشخصية المرتبطة ـ مباشرة ـ بحياتهم وعلاقاتهم الأسرية الخاصة .

ولعلّ مما يميط اللثام عن الشخصية الحقيقية لهذه الرسائل ـ كما هي في عين مؤلفها نفسه ـ وكما هي مستقرة في وعيه ـ قوله في معرض تقديمه لها عند نشرها :

((طلبت إليّ مجلّة " الهلال " في آخر سنة ١٩٤٩م أن أكتب لها سلسلة مقالات بعنوان " رسالة إلى ولدي " تنشر خلال عام ١٩٥٠م ، فأتممتها اثنتي عشرة مقالة [٣] في كل شهر مقالة،

---

(١) المصدر نفسه ص٢٨ .

(٢) كما يصرح المؤلف بذلك في معرض تقديمه لها في كتابه .

(٣) ينص المؤلف على مقالتيها .

وجهت فيها نصائحي ونتائج تجاربي إلى ولدي . وصادف [١] أن كان لي ابن يتم تعليمه في إنجلترا فاستحضرته في ذهني عند كتابتها .... فلما تمت أشار عليّ بعض الإخوان أن أفردها في كتاب ، فاستصغرها الطابع ، وطلب أن أضمّ إليها مثلها أو نصفها فاستقبلت هذا الطلب قبولاً حسنًا [٢] ، إذ كانت هناك معان عندي لم تكتب في الرسائل الاثنتي عشرة فكتبتها [٣] .... والمأمول أن ينتفع بها الجيل الحاضر كما انتفع بها ابني ، .... ولعلي ـ بذلك ـ أكون قد قمت بواجب عليّ نحو أبنائي من صلبي ، وأبنائي من شبان الجيل الحديث)) [٤] .

إن هذا النصّ يجسد بوضوح تام شخصية هذه الرسالة في خطوطها الزمانية والمكانية والجنسية والوظيفية ، وفي مرجعيتها الوجدانية .

* * *

٣ ـ رسائل عبدالصبور مرزوق إلى ولده :

وهي عبارة عن أربع عشرة رسالة مطولة موجهة من المؤلف إلى ولده ، وإلى الجيل كله من خلاله .

تترامى هذه المجموعة من الرسائل على مساحة خمس وتسعين ومئة صفحة من القطع كبير المتوسط ، ويتكيء فيها المؤلف إلى لفظة " ولدي " وتتكرر كثيرًا في صلب كل رسالة ، ويأخذ فيها ـ في أسلوب أدبي شائق ولكن في تركيز موضوعي ـ بيد ولده إلى السياحة الحرة في آفاق الواقع في خطوطه الدينية والإنسانية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والتربوية والتاريخية ....

ولعل ما يساعد على تحديد ملامح الشخصية العامة لهذه الرسائل في خطوطها الموضوعية والفنية والمرجعية قول مؤلفها ـ في معرض تمهيده لها عند نشرها ـ وهو يخاطب ولده :

((واليوم ـ يا ولدي ـ وقد غدوت شابًا ، وبلغت مبلغ الفتيان ، أرى من واجبي ـ وأنا

---

(١) فكان سيكتبها على أي حال أوجد ابنه أم لم يوجد ؛ أغاب أم حضر .

(٢) تم تأليفها بطلب من المجلة أولاً ، ثم تم تكبيرها بطلب أو اقتراح من الطابع بعد ذلك .

(٣) فالموضوع هنا هو الأساس ، وهو المحور الذي تدور حوله حركة إبداع هذه الرسائل .

(٤) أحمد أمين ، إلى ولدي ص ٧ ـ ٩ .

أجتاز الأعتاب إلى خريف العمر - أن أقول لك ما لم أقله لأحد ، وأن أضع بين يديك عصارة حياتي ، ورصيد أيامي وتجاربي ، لعل فيها ما يقويك في رحلة الزمن ، ويحصن وجودك في مصارعة الحياة .

ولدي ...

إن كل أملي فيك .. وما أنت في أسرتنا الصغيرة إلا نموذج لعشرات الملايين من أمثالك في بيوت الآخرين ، يعلق عليهم وطننا الكبير كل آماله في المجد ، وفي العظمة وإخضاع الحياة ..

فإليك يا أملي في أسرتنا الصغيرة .. وإلى إخوتك جميعًا في كل أنحاء وطننا أبعث بهذه الرسائل .

أبوك)) [١] .

يقول المؤلف عن هذه الرسائل وعن ولده :

إنها نماذج منتزعة ((من نهر الحياة .... للإنسان في شرياني)) [٢] .

٤- رسائل داوود عبدالغفور سنقرط إلى ولده :

وهي عبارة عن ست وثلاثين رسالة ، تمتد على مساحة أربع وخمسين ومئة صفحة من القطع الكبير ، ألحق بها ثلاث عشرة رسالة ردٌ من ولده .

يتواصل فيها المرسل مع متلقيه من خلال لفظة "بني " التي تتكرر في الرسالة الواحدة عدة مرات .

في هذه الرسائل يأخذ المرسل ولده ليجول به في فجاج الحياة والموت والإنسان والمجتمع والتاريخ والدين والأخلاق والقيم والمبادئ والمعرفة والنزعات والطبائع والمشاعر الإنسانية والسياسة ، في جولات إبداعية تتراوح بين المقاربة الموضوعية المباشرة ، والقراءات الفلسفية المحلقة في أسلوب أدبي جذاب ، لكنه لا يبارح موضوع الرسالة الذي وظفت - بكاملها - لعلاجه ، وذلك كله في مسعى حاسم إلى بناء شخصية المرسل إليه بناءً دينيًا أخلاقيًا إنسانيًا سياسيًا مسئولاً .

---

(١) إليك يا ولدي ص ٥ .

(٢) انظر : المصدر نفسه - الغلاف .

ومما يسهم في الكشف عن الملامح العامة لشخصية هذه الرسائل قول المؤلف في معرض تقديمه لها :

((قارئي الكريم ، هذه الرسائل موجهة إلى ولدي ، وكل مولود في الوطن العربي ، أو في العالم الإسلامي ، هو ولدي ، لا فرق . إنني إذن أوجه الرسائل إلى جميع أولاد العرب والمسلمين ، وقد وضعت لهم فيها ذوب نفسي وروحي ، ونتاج دراستي وتجاربي ، وكل عواطفي وأحاسيسي ، علني أشعل بها شمعة في ليل حياتهم الدامس .. فلئن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام ..... والرسائل ـ كما ترى قارئي العزيز ـ أشبه ما تكون بباقة أزهار ، جمعت من كل روض زهرة ، ولبست ثوبًا منسوجًا تداخلت فيه سداه بلحمته ... الرسائل تنتظمها وحدة عاطفية ، لا وحدة فكرية .. فهذه طبيعتها ، وطبيعة كل الرسائل ، إلا أن تكون رسالة واحدة تتناول موضوعًا معينًا)) [1] .

هذه هي شخصية هذه الرسائل كما يراها مؤلفها ، والحق أن هذه المجموعة على مستوى أدبي راق ، إنها تباشر علاج قضاياها بروح إبداعية مميزة لا تخضع للقيود المنهجية ، ولا تقعدها عن التحليق المباشرة ، ولولا أنها ظلت ـ على الرغم من ذلك ـ أسيرة الواقع في كل واحدة منها ؛ للحقت بالنمط التالي مباشرة .

٥ـ رسائل الدكتورة / نعمات أحمد فؤاد إلى ابنتها وولدها :

وهي عبارة عن مجموعة من المقالات ، قسمت بحسب تشاكلها الموضوعي إلى أربعة فصول وأخرجت في كتاب عدد صفحاته ثمان وخمسون ومئة صفحة من القطع الكبير .

إنها مقالات موضوعية ، تباشر قضاياها في الإنسان والحياة والمجتمع والعلاقات والدين والثقافة والتربية .... مباشرة واقعية ، في لغة أدبية سهلة واضحة ترتفع نبرتها حينًا وتنخفض أحيانًا .

لست أرى فيها ما يرشحها لأن تسلك في باب " الرسائل الأبوية " ما عدا إشارات ذابلة لعل أبرزها عنوان الكتاب الذي جمعت فيه هذه المقالات ، وهو ما دفع هذه الدراسة إلى

---

(١) رسالة إلى ولدي ص ٧ ـ ٨ .

إدراجه في هذا النمط مع تحفظها التام ، ولولا هذا العنوان الذي ليس من حق هذه الدراسة إلغاؤه أو تجاهله لكان مكان هذه المقالات في باب " المقالة الأبوية " إنه كما قالت عنه المؤلفة : ((حديثي اليوم بث .... النصيحة فيه دعاء لا دعوة ، ورأي لا إلزام ... لابنتي أن تعمل به أو تطرحه ... فحريتها في التفكير والتعبير والإرادة أغلى ثمنًا من الطاعة العمياء .

الكتاب يا ابنتي هديتي إليك فاجعليه هديتك إلى رفيقاتك فإنهن أيضًا مقصودات به ، ....))[1] .

إنه ـ إذن ـ " حديث " ؛ لا رسالة ، و " كتاب " مفصل ؛ لا رسائل ، وليس له من الرسالة إلا عنوانه ؛ وتصديره إلى المرسل إليه في المقدمة .

لكن ، ينبغي ألا يفهم أن هذا حطٌّ من قيمة هذا الكتاب أو انتقاص منه ؛ كلا ففيه تجربة إنسانية ثرية تحتاج إليها كل فتاة ، ويفيد منها القارئ أيًا كان ، لكن المقصود أن له شخصية تتأبى على الانضواء في سياق الرسائل الأبوية بهدوء ، وبدون تعسف ، إن مكانه الطبيعي في سياق " المقالة الأبوية " .

٦ ـ رسائل منيف الرزاز إلى أولاده :

وهي عبارة عن اثنتين وعشرين مقالة تمتد على مساحة تقارب العشر والمئة صفحة ، وتشكل في مجموعها السيرة الذاتية الخاصة بالمؤلف .

لا علاقة لها بالرسائل إلا من ناحيتين .

الأولى : عنوان الكتاب .

الثانية : تصديرها بجملة ((أبنائي الأحبة))[2] .

إن المكان اللائق بهذا هو في باب " السيرة الأبوية " أي النص الذي يتجه به الأديب إلى أبنائه ليعرض لهم سيرته الذاتية من خلاله .

---

(١) رسائل إلى ابنتي . ص٩ .

(٢) منيف الرزاز . رسائل إلى أولادي ص١٩ .

٧ ـ رسائل الدكتور / سليمان بن عبدالرحمن الحقيل إلى ولده :

يقول المؤلف في سياق تقديمه لهذه الرسائل عند نشرها :

((ولدي :

يتألف هذا الكتاب الذي بين يديك من (٣١) رسالة ، وملحقًا، وقد حاولت في حدود الاستطاعة أن تكون هذه الرسائل مختصرة ومفيدة ، حيث اقتصرت على إيراد ما أراه من المعلومات لازمًا وضروريًا لمن يريد أن يتحقق من أخطار وأضرار هذه السموم . وأثبت في معظم الرسائل مراجع لمن يريد التوسع في مواضيعها . وقد ركزت على تفنيد الأسباب التي يروج لها تجار المخدرات لدفع الشباب إلى تعاطي المخدرات والمسكرات بهدف إيضاح أن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى تعاطي المخدرات ، بحجة أنها تزيل الهم والقلق والحزن ... وتحقق السعادة ما هي في حقيقة الأمر إلا أوهام ، ....

ولدي :

هذه الرسائل موجهة لك ولإخوانك وزملائك وأبناء وطنك ، وقد كتبتها بأسلوب ميسر ، لأنني أعتقد أن بساطة الأسلوب ووضوح العبارة وصدق اللهجة والتزام الموضوعية في عرض الحقائق يحقق الهدف من أخصر الطرق))[١] .

هكذا ((٣١ رسالة)) ، ((مختصرة)) ، ((معلومات ضرورية)) ، ((مذيلة بمراجع)) ، ((مخدرات ومسكرات)) ، ((تفنيد)) ، ((إيضاح الأسباب)) ، ((لك ولإخوانك وزملائك وأبناء وطنك)) ، ((أسلوب ميسر)) ، ((وضوح عبارة)) ، ((صدق لهجة)) ، ((التزام الموضوعية في عرض الحقائق)) ، ....

هي رسالة أبوية موضوعية ـ إذًا ـ تمتد على مساحة ثمان وثلاثين ومئة صفحة يتواصل فيها الأب مع ولده من خلال لفظه ((ولدي)) التي تتكرر بمعدل عال في كل رسالة ، يعرض في كل واحدة منها جانبًا معينًا من الموضوع الكلي ، ويختتمها بالدعاء غالبًا .

---

(١) د/ سليمان بن عبدالرحمن الحقيل ، رسائل من والد إلى ولده ، ص ٩ ـ ١٠ .

٨ـ رسائل الدكتور / حسن بن عبدالكريم الوراكلي إلى ابنته :

هي عبارة عن مجموعة من الرسائل التي كان يبعث بها مؤلفها المقيم في مكة المكرمة إلى ابنته المغتربة في بلاد ((الأندلس)) لطلب العلم ، تواصلاً معها ، وتسلية لها ، وتدعيمًا لتماسك ((ندى)) روحيًّا ووجدانيًّا وفطريًّا وسلوكيًّا في وسط مغاير تمام المغايرة ؛ لا تتماسك فيه الكثير من الأبنية .

بين يديّ ـ الآن ـ ست من هذه الرسائل .

الرسالة الثالثة ــــــ حوار الماء والإيمان .

الرسالة الرابعة ــــــ " الميزاب " ينتظما .

الرسالة الخامسة ــــــ كتابي محدثي وجليسي .

الرسالة السادسة ــــــ رحلة إلى يثرب .

الرسالة السابعة ــــــ الأرق من السلب إلى الإيجاب .

الرسالة الثامنة ــــــ " نجد " الأصل والفرع .

من خلال هذه النماذج الستة ؛ يمكن القول : إنّه تتنازع هذه الرسائل ثلاثة أصوات :

الأول : الصوت الشاعري المحلّق ؛ الذي يرمق موضوعه من " فوق " السحاب [١] .

الثاني : الصوت الأدبي الموضوعي ، الذي يحضر فيه الأدب من خلال طائفة من التقنيات من قبيل ، الحكي والتصوير والتداعي والإحالات الرمزية والبيانية والايحائية بالإضافة إلى دفق العاطفة الأبوية الصادقة ، بينما يحضر فيه الموضوع الديني أو التاريخي أو الثقافي التربوي الجاد على امتداد النصّ ، وهذا الصوت هو الأكثر استئثارًا بنصّ المؤلّف .

الثالث : الصوت العلمي البحت ، وذلك عندما يحضر ((الأكاديمي)) ((الدكتور)) ، ((أستاذ الجامعة)) على مسرح النصّ حضورًا كاملاً [٢] .

وفي كل الأحوال ، فقد كان المؤلّف يتواصل مع ((ندى)) من خلال صيغ ندائية ثلاث هي : ((عزيزتي ندى)) و ((ابنتي العزيزة)) و ((أي ابنتي العزيزة)) ليحلق بها في آفاق الدين

---

(١) انظر صدري الرسالتين الثالثة ، والرابعة .

(٢) انظر المقطع الأخير من الرسالة الثالثة .

والتاريخ والأدب والتربية ؛ من خلال لغة تتكئ - كثيرًا ـ إلى المعجم التراثي الأصيل ، ومعالجة تستلهم النصّ الإسلامي والعربي وتوظفه بتمكن ، تحضنها ((رسائل)) تتراوح مساحتها ما بين ست وعشر صفحات ((ببنط عريض)) ، وبمساحات بيضاء واسعة .

لكن هذه الرسائل ما زالت في حكم ((المخطوط)) ، ولم ينشر منها - حتى الآن - سوى رسالتين عبر ((المجلة العربية)) ، الأولى منهما في عدد جمادى الأولى عام ١٤٢٠هـ ، رقم (٢٦٩) ، والثانية في عدد رمضان عام ١٤٢٠هـ رقم (٢٧٢) ، ثم أوقف المؤلف نشرها ، وقد علمت أن هذه الرسائل ستنشر قريبًا إن شاء الله تحت عنوان ((فيوض)) .

ولكي تكتمل صورة هذه الرسائل أسوق التقرير التالي الذي تضمن الإشارة إليها .

((الرسائل الأدبية

في ندوة " الأدب الإسلامي " بمنزل د/ محمود زيني ٢٧ شوال سنة ١٤١٩هـ .

في مساء الأحد - ليلة الاثنين - " ٢٧ شوال سنة ١٤١٩هـ .بمكة المكرمة البلد الأمين " التقى رواد ندوة الأدب الإسلامي في منزل صاحب الندوة وراعيها ، وهنأ الجميع بعضهم البعض بسلامة العودة ، وبدء الفصل الدراسي الثاني ، وتبادل الحضور النقاش والحوار حول عدة قضايا أدبية .

ثم ألقى الأديب الناقد أ .د/ حسن الوراكلي .. عدة رسائل أدبية أرسلها إلى ابنته المغتربة في طلب العلم .

وكانت الرسائل ذات إيقاع مؤثر .. تدركه ولا تكاد تلمسه ، يتغلغل في شعاب النفس والروح قبل أن يستوعبه السمع ، وتتلقفه الأذن ، واتسمت هذه الرسائل بالعبارة الفنية الدالّة المحلقة ، والعاطفة الأبوية الصادقة ، والتنوع المعرفيّ ، والحس الإسلاميّ ، والحدْس الحضاريّ ، والرؤية الإيمانيّة لواقع الحياة ، ومستقبل شباب أمة الإسلام .

ودار الحوارُ .. حول دوْر الرسائل بكل أنواعها في إثراء الحياة الأدبية ، وتواصى الجميع بضرورة العمل إبداعيا ونقديا على بعث هذا الفن الأدبي الراقي ونشره في الحياة الأدبية من جديد .

ونوه الحاضرون بقيمة هذه الرسائل الفنية ، وقد وعد أ.د / حسن الواركلي بتقديم المزيد من هذه النماذج الأدبية العالية رؤية وبناءً ، وا لله الموفق ،

مع تحيات أخيكم صابر عبدالدايم مكة المكرمة ت/٥٥٦٤٢٢٠)) .

* * *

تلك هي أبرز مجموعات الرسائل التي أمكن ضبطها في سياق " الرسالة الأبوية الموضوعية " ، التي تتحرك في بؤرة الواقع أو قريبًا منه شكلاً ومضمونًا .

النمط الثاني : الرسالة الأبوية الحرة :

هي رسالة تتحقق فيها ـ كما في أختها " الرسالة الأبوية الموضوعية " ـ مواصفات الرسالة الأبوية الأدبية ـ بحدها المنوه عنه ـ ، ولكنها تختلف عنها من حيث ، تمردها على الضوابط المنهجية في المعالجة، وتحررها من القيود الموضوعية في الطرح ، وأخذها نفسها إلى أبعد مدى عن المباشرة .

ومن الرسائل التي يمكن رصدها في هذا السياق :

١ـ رسائل سعد البواردي إلى ابنته ((نازك)) :

هي عبارة عن إحدى وستين رسالة قصيرة نسبيًّا ، تترامى على مساحة ست وسبعين ومئة صفحة من القطع المتوسط ، يتواصل مع طفلته فيها من خلال معابر وجدانية من قبيل "صغيرتي"، " بنيتي " .

غير أن الشفرة الوجدانية التي قل أن يخلو منها مقطع واحد من مقاطع كل رسالة هي جملة ((يا نازك)) ـ بما فيها من عذوبة ورشاقة لفظية ، وبما يتصور في معادلها المعنوي من براءةٍ وجمال ولطف الطفولة، وبما يمكن أن يكون فيها من شحنة رمزية محلقة ـ وما إن يمضي القارئ في قراءة صفحات قليلة من هذه الرسائل حتى يعتاد على هذه الشفرة الوجدانية ؛ بل ويحبها ويستعذب المرور عبرها ، ويشتاق إليها كلما طال طريقه إليها أو طريقها إليه .

يستهل البواردي رسائله برسالة تحت عنوان "خوف عليها " بقوله : ((صغيرتي نازك ..؟ لقد احتار والدك .. احتار في أن يضع العنوان لهذه التفاهات أهي رسالة قصة ؟ أم هي قصة

رسالة ؟ أهي تاريخ تفاهة ؟ أم أنها تفاهة تاريخ ؟ أحتار في أن يسمى التفاهة بأكثر من أنها رسالة لقصة تافه يلفظ أنفاسه المسعورة في فضاء مسعور و(بقضاء مسعور) أيضًا ....)) [١] ......

لكنه لا يختمها إلا بعد إحدى وستين رسالة وست وسبعين ومئة من الصفحات حين يقول في ذيل الرسالة الحادية والستين :

((نريد يا نازك أن نكون قوة للخير .. وأفضل مجهود يقدمه فرد لتدعيم أسس الخير هو أن تسلط الأضواء لتباعد بين الإنسان وبين الظلام ومهاويه .

نريد يا نازك أن نكتب الحقيقة بلا نسيان ... نكتبها بأعمالنا .. وندلل عليها بواقعنا .. وأن نؤكد بذلك لأحفادنا بالآثار الكريمة القوية التي ستنطق بتاريخنا .. ستتحدث عنا ..

نريد أن تكون لنا ترجمان خير وعزة وخلود .

وليحفظك الله أخيرًا يا نازك .. ليحفظك .. ويرعى جيلك .. وتلك مني هي رسائلي إليك .. بعض رسائلي .)) [٢] .

فكأنه ـ بحركته الفلسفية هذه ، المقصودة قطعا ـ جعل الكتاب كله جسدًا واحدًا ، وجعل من كل رسالة فيه عضوًا من أعضاء ذلك الجسد . وهي حركة فنية راقية أراد البواردي أن يوصل بها رسالة ما ، الأمر الذي يحتاج إلى دراسة غير نمطية .

يحلق البواردي في هذه الرسائل بابنته ((نازك)) في آفاق النفس الإنسانية وطبائعها ، والحياة والموت والكون والدين والعادات والمجتمع والتربية والتاريخ والسياسة ليرصدها من خلال رؤية فلسفية بالغة العمق تعيد تشكيل الواقع ـ في وعي المتلقي ـ في مفهوم مغاير للمفهوم السائد.

٢ ـ رسائل الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري إلى ولده [٣] :

إن المدقق في هذا الطراز الأخير من " الرسالة الأبوية " يلمس ـ لأول وهلة ـ أنها نمط خاص لا يخضع لأية سلطة منهجية أو موضوعية أو لغوية ، إنها نمط مميز يعتمد على الانثيال التلقائي ، والتداعي الفكري أو الوجداني أو الخيالي أو الفلسفي أو الموضوعي في البناء ، وعلى

---

(١) سعد البواردي ، رسائل إلى نازك ، ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٤ .

(٣) سيتم التعريف بهذه الرسائل وبصاحبها إن شاء الله في المبحث التالي مباشرة .

النزعة الفلسفية الخيالية المحلقة لا العقلية المقيدة في الطرح ، وعلى الإحالة العميقة والصورة المكثفة واللفظة الموحية في العرض ، على نحو يبدو معه الموضوع ـ وإن علت أهميته ـ عاجزًا عن استدراج المبدع إلى ربقة الواقع الذي تكبل فيه حركة الإبداع بقيوده ، إنك لا تراه في هذا النمط إلا محلقًا في سماء الإبداع لا يعيق حركته زمان ولا مكان ولا تتماسك في طريقه الحواجز ، يحلق في آفاق الأشياء ممتطيا إليها رواحله الحسية ، فإذا بركت تركها إلى ظهور مطاياه الفكرية ، فإذا بركت عدل عنها إلى صهوات جياده الخيالية ، فإذا ثوت هذه هجرها إلى أجنحة طيوره الوجدانية ، وإذا غزا الواقع ـ فيما يغزو وهو فاعل ذاك ـ أخذ الواقع ولم يأخذه الواقع ، وأسر الواقع ولم يأسره الواقع ، وقيد الواقع ولم يقيده الواقع .

إن هذا النمط من " الرسائل الأبوية الأدبية " هو في رأي الدارس [1] ألصق أضرب " الرسالة الأبوية " بروح الأدب وأمكنها فيه ، ذلك أن الأدب ينزع إلى التحرر من القيود المنهجية في التعبير عن قضاياه ، وبمقدار ما يتحقق له من حرية ؛ تتاح الفرصة لحضور العناصر التي تتحقق بها أدبية النص من خيال ومن عواطف ، والعكس صحيح ، فكلما قيدت هذه الحرية انسحبت تلك العناصر من النص حتى تتوارى نهائيًا ليستقر النص بعد ذلك في قبضة العلم المجرد تحكمه سلطة العقل .

لكن ما وقع في يد الدارس من الرسائل التي تمثل هذا النمط تمثيلاً حقيقيًّا قليل .

هذان هما نمطا " الرسالة الأبوية الأدبية " كما تجليا في عين هذه الدراسة في النماذج المتاحة ، ومن الملموس ـ تمامًا ـ أن هذا الضرب بشقيه " الموضوعي والحر " هو أرقى أضرب الرسالة فنًا ، وأنضجها معالجة ، وأطولها نفسًا ، وأوسعها موضوعًا ، وأعمقها رؤية ، وأخصبها تجربة ، وأكثرها نفعًا ، وأقدرها انتشارًا ، وأشدها إحساسًا بالمسئولية ، وأبعدها نظرًا ، وأعلاها همة وطموحًا ، وأقلها أنانية ، وأخلصها نية ، وأصدقها إيثارًا ....

ومن هنا كان إنشاء هذا الضرب من الرسائل مقصورًا على صفوة المثقفين، وكبار الأدباء ، من ذوي التجربة الطويلة ، والخبرة المعمقة، والشفافية في الإحساس، والقدرة الفائقة

---

(١) يرجو الباحث ألا يتهم بالتحيز ، ذلك أن هذا الرأي ناتج قراءة معمقة في هذا الباب .

على التواصل العميق مع الأشياء ، ولذلك ندر أن تجد شيئًا من هذا الضرب - قل أو كثر - إلا ورأيته يصدر عن شخصية أدبية عالية الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عميقة الرؤية ، شفافة الإحساس ، عريضة التجربة ، طويلة الخبرة ، عركتها الحياة وعركت الحياة حتى نضجت في رأسها الثمار واستوت ، ومن هنا ندر - أيضًا - أن تجد هذا الضرب من الرسائل يصدر عن أديب شاب .

بذلك - كله - كانت الرسالة من هذا الضرب على هذا المستوى من المواصفات الفنيّة ، وعلى سعة من المواصفات الموضوعية حتى يظن لك الظن أن المرسل من سعة الآفاق التي ترودها رسالته ، ومن عمق معالجاته متخصص في كل مجال ، وإنك لتدهش وتتساءل وأنت تقرؤه : من أين له كل هذا ؟

كانت هذه قراءة سريعة في صفحات ((الأدب الأبوي)) المشرقة ، بصورة عامة ، ثم في صفحات ((الرسالة الأبوية)) بشيء من التفصيل ، كما تمثلت تلك الصفحات في نظر هذه الدراسة ، وما من شك أن هذا الجانب ؛ أعني ((الأدب الأبوي)) في الأدب العربي لا يزال بكرًا ، ولا يزال في أشد الحاجة إلى جهود الباحثين في تتبعه ورصده وإخراجه إلى ساحة الاستهلاك القرائي ودراسة قضاياه وظواهره ، ولا سيما وهو من أكثر أنواع الأدب خصوصية وصدقًا .

* * *

* *

قال : ما عنوان موضوعك ؟

قلت : ((رسائل الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري إلى ولده)) ، سأدرس مضامينها وتقنياتها إن شاء الله .

قال : هل أنت متأكّد أن هذه الرسائل له ؟

لم يكن يخطر ببالي شيء مما يخطر بباله ، ولم أكن أتصور - أبدًا - شكل هذا السؤال ولا مضمونه .

قلت : بالتأكيد هي له ! أليس اسمه مكتوبًا عليها ؟

ابتسم الرجل ابتسامة لها مغزى ؛ فهمته فيما بعد ؛ وأخذ الحديث إلى مسار آخر .

في طريقي إلى منزلي استعدت الموقف ؛ استعدت تساؤله ، واستعدت ابتسامته ، ...... وبدأت - حينئذ - العواصف الهوجاء تضرب الأشجار في رأسي ، وبدأت الصواعق والبروق تملأ أرجاء ذهني بالرعب ، لم أنم تلك الليلة ، ولم أكد أصدق - وأنا أسمع صوت المؤذن لصلاة الفجر - أن اليوم الجديد الذي انتظرته على أحرّ من الجمر قد أتى ؛ ذهبت مباشرة لأداء الصلاة ، دعوت ربي ، ودعوته ، ودعوته ! ....

عدت إلى منزلي لأشاغل نفسي عن مرارة انتظار الوقت الذي سأجد فيه هذا الرجل في مكتبه .

عند الساعة الثامنة تحركت إلى موقع مكتبه ، وانتظرته ، وكان كل ما أخشاه أن يشغله عن الحضور ذلك اليوم شاغل ، ما كنت لأطيق الانتظار يومًا آخر ، لكن الرجل ما لبث أن وصل ، فحمدت الله كثيرًا ، وولجت معه إلى مكتبه ، وما كاد يستقر به مكانه حتى قلت له : أستاذ ....

قال : نعم !!!

قلت : بالأمس طرحت عليّ سؤالاً ما استطعت - حينها - لملمة أطرافه ، ولا الإحساس بثقله ، ولا بخطورته .

أريد أن أفهم يا سيدي !!!

ابتسم الرجل ، وقال : ما هو ؟

قلت : سألتني عما إذا كانت الرسائل للشيخ عبدالعزيز أم لا !!

قال : نعم !

قلت : ما معنى هذا ؟

قال : يقولون إنها تكتب له .

يا للهول !!!

هل تعني ما تقول يا سيدي ؟

قال : نعم .

قلت وأنا في قمة الذهول والإحباط : كيف يكون هذا ؟

قال : لا أدري !

قلت : من يكتب له إذن ؟

قال : يُقال ......

قلت : وهل هذا الأمر شائع بين الناس ؟

قال : جدًّا .

قلت : ولكن ؛ أنت ما رأيك ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة : الوحي رفع منذ أربعة عشر قرنًا !!!

قلت : سبحان الله !!!...... ألا يمكن أن يكون ما تقول إشاعة لا حقيقة لها ؟

قال : إنه رجل بسيط ، تعليمه بسيط جدًّا ، كان مجرد مدير للمالية في القصيم ، وفجأة أصبح وكيلاً للحرس الوطني !!!

خرجت من عنده وأنا مثقل بالهموم ، حيرة ، شك ، إحباط ، ألم ......

كيف أستطيع العمل على إبداع مجهول النسب ؟

يا إلهي ماذا أفعل ؟

بعد عدة أيام سوداء قررت السعي إلى الالتقاء بالشيخ للبحث عن الحقيقة .

لكن كيف أصل لها ؟

اتصلت بمكتبه في الحرس الوطني ، وتم على الفور تحديد موعد للقاء به في منزله .

كان همي ينحصر في كيفيّة العثور على الحقيقة ؟

لكن ؛ كيف ؟ لا أستطيع أبدًا أن أواجه الشيخ بما يقوله الناس .

أنا لا أعرفه معرفة شخصية، قد يغضب، قد ينفعل...... قد...... وقد...... وأنا ......

ماذا أفعل يا ربّ ؟

ليس من سبيل ـ إذن ـ إلا أن أخوض مع هذا الشيخ أطول معركة ممكنة من التساؤلات عن كل شيء ، وفي كل شيء ..... لكي أفحص رؤاه ، تصوراته ، مواقفه ، معجمه ، تعبيراته ، صوره ، أسلوبه ـ دون أن يشعر ـ لأعرضها على ما في مؤلفاته ، وأوزانها به .

ذهبت إليه ـ في منزله ـ وأنا أحمل قائمة طويلة جدًّا من التساؤلات الوجيهة وغير الوجيهة ، أريده أن يتكلم فقط !!! ...... وأحمل معي أيضًا أداة تسجيل ، وخمسة من أشرطة التسجيل الطويلة ، وقد آليت على نفسي ألا أعود إلا بملئها ......

دخلت عليه ، وجدت شيخًا عليه سمات الجلال والمهابة ، حيّاني ؛ وحييته ، قلت في نفسي حينها وأنا أسترق النظر إليه : أيعقل ذلك من هذا ؟؟؟!!!

جلسنا وحدنا ، وأخبرته أنني بصدد دراسة رسائله ، وتساءلت عما إذا كان سيسمح لي بطرح مجموعة كبيرة من الأسئلة ((المهمة)) ـ كما قلت له ، وإن بدا له أنها بلا معنى ـ للدراسة .

قال : اسأل ـ يا ولدي ـ كما تشاء !!! وعمّ تشاء فأنا أب منشرح الصدر !!!

شعرت ـ عندها ـ براحة عميقة ، وقلت في نفسي ، هذا فأل حسن .

فتحت جهاز التسجيل ، ومضيت أطرح السؤال تلو الآخر ؛ ما يكاد الشيخ ينتهي من الإجابة على سؤال ما ، حتى أتبعه بأخيه ، وأنا أتأمل بعمق في عيون الشيخ ، وأستمع بإنصات إلى نبرات صوته ، وأتابع باهتمام خياله وتداعيات معانيه وهو يسرد على مسمعي قصته مع كل شيء ......

لكن الأمر لم يطل بي حتى أغلقت جهاز التسجيل ، ولملمت الأشرطة التي كنت قد هيأتها أمامي ، وأغلقت دفتري ، ووضعتها كلها في حقيبة اليد التي كنت أحمل فيها مستلزمات التحقيق ، ومضيت أستمع إلى الشيخ ، وأحاوره ، وأسأله ، ليس من أجل العثور على الحقيقة التي ما أتى بي من جبال عسير إلى اليمامة إلا طلبها ، لأني قد عثرت عليها ؛ ولكن للاستمتاع بالسفر مع هذا الشيخ إلى كل مكان .

استطاع الشيخ خلال ساعة واحدة أن يزيل ـ بتواضعه، وببساطته، وبسعة صدره الذي لا يضيق بشيء، وبصدق نبرته ـ آخر الحواجز التي كنت أتصورها تعيق حركة التواصل الحرّ الطليق فيما بيني وبينه ، وأخذني الاطمئنان لهذا الشيخ بعيدًا حينما وجدت نفسي أقول له وقد فتحت جهاز التسجيل من جديد :

سيدي ، في أعماقي حبيس دميم الخلقة ، ولكني أريد أن أعرف رأيك فيه ، فهل تحتمل رؤيته ؟

قال : أطلقه - يا ولدي - وأرح نفسك !!!

قلت : أو تحتمله ؟

قال : نعم .

قلت : يُقال : إن هناك من يكتب لك ؟

قال : نعم ، أنا أملي ، ولا أكتب !!!

قلت : ما قصدت هذا يا سيدي !

قال : ماذا تقصد ؟

قلت : يُقال : إن هذه المؤلفات ليست لك في الحقيقة ، ولكن هناك من ألّفها لك !!!

كنت أراقب حركاته وسكناته، وكنت أرصد أثر كلامي الموجع هذا على ملامح وجهه .

اعتدل في جلسته ، وقال : وأنت ما رأيك ؟

قلت : أثاروا الغبار في وجهي ، لكنه - الآن - قد تبدد .

قال : إنّما يهمني أنت ، أما هم فهم وما يشاؤون .

ثم مضى الشيخ يقول ونبرات صوته تقطر بالألم .

عجيب أمر هؤلاء !!!

لقد خدمت هذه الدولة خمسًا وستين سنة ، تعاملت فيها على نحو مباشر مع الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أكثر من عشرين سنة ، ثم مع أولاده من بعده : سعود وفيصل وخالد وفهد وعبدالله ، فهل خفي أمري على كل هؤلاء الرجال العظماء ؟ وهل استطعت أن أخدعهم جميعا ؟

عمري الآن اثنتان وثمانون سنة و لله الحمد ، فهل استطعت أن أخفي حقيقتي هذه عن أهلي ، وأصدقائي الكثر ، وعمن يعرفونني كل هذه السنوات ؛ ليأتي أحدهم ممن لم يرني ليقول : إنه يعرف عني ما لا يعرفه هؤلاء جميعًا .

أنا اليوم أتوكأ على عصاي قادمًا على ربي ، وعائدًا إلى المنازل التي تتكشف فيها العورات ، فهل يجمل بي أن أدلف إلى تلك الربوع على هذه الصورة البشعة التي يحاول أخي الإنسان أن يحبسني فيها عن حسن نية أو سوء نية ؟....

وهكذا تمضي خواطر الشيخ تتدفق في هذا السياق وتتداعى على نحو تلقائي من خلال صوت مخنوق بمرارة الألم والحسرة ، وأنا أستمع إليه باستمتاع وألم .

بعد أكثر من ثلاثين دقيقة من الكلام المتواصل في هذا الجانب ، صمت الشيخ فجأة ، ثم أعاد تشكيل جلسته ، والتفت إليّ قائلاً :

هل من سؤال آخر ؟

قلت : أبدًا يا سيدي [(١)] .

نهضت ، وودعته ، وخرجت من عنده وأنا أعاتب نفسي على ما فعلته بالشيخ ، وأتساءل عما إذا كنت محقًا فيما فعلته ، أم أنني قد ارتكبت خطأ فاحشًا في حق الشيخ ، وجرحت مشاعره ، لكني ما لبثت أن قلت لنفسي : ((إن مواجهة هذه القضية ـ الآن ـ بشجاعة وحزم ـ مهما ترتب على ذلك من آلام ومعاناة ـ ستخف تدريجيًا وتبقى ثمارها ـ لهو خير ألف مرة من مداراتها أو تجاهلها مع بقائها معلقة على ذمة التاريخ)) .

عدت من عند الشيخ وقد هدأت نفسي ، وتبددت من سمائي سحب الشك والحيرة ، واستقرت الحقيقة في عيني .

لكن هاجسًا ما ظل يلّح عليّ ، ويأبى مفارقتي .

لقد وصلت إلى الحقيقة ، ولكن ذلك لم يتسن لي إلا من خلال لقائي بالشيخ واستماعي المباشر له ، فكيف بأولئك الذين أثيرت أو ستثار في أذهانهم سحب الشك والحيرة ، ممن لم يروا الشيخ ، أو يستمعوا إليه ، سواء من جيل اليوم أو من أجيال الغد ؟

فكرت ، وفكرت ، ثم قررت .

قررت أن أطلب من الشيخ أن يثبت ماديًا ، وعلى نحو قاطع صحة انتساب هذه المؤلفات إليه ، فهو الوحيد الذي يملك ذلك ، ولا أحد في هذا العالم يستطيعه سواه .

اتصلت به ، وطلبت منه ـ دون أن أخبره بنواياي ـ أن يحدد لي موعدًا للقاء ، ففعل ـ أطال الله عمره ـ ، وفي الموعد المحدد اتجهت إليه وأنا أحمل معي مسجلاً وشريطًا وسؤالاً .

دخلت عليه في مكتبه بمنزله ، وكان معه من أولاده حمد ومحمد ، وفيما أنا أهيء نفسي لإلقاء السؤال الصعب دخل علينا معالي الدكتور / محمد بن أحمد الرشيد ، وزير المعارف ؛ وكان قد جاء ليُسلم على الشيخ بعد عودته من سفر ، شعرت ـ فعلاً بحرج شديد لكوني من منسوبي وزارته ، ولكن لم يعد هناك مجال للتراجع عما عزمت عليه ؛ بل لعل الخير في ذلك .

---

(١) لقاء خاص تم يوم الأربعاء ١٤١٧/١٠/١٩هـ .

جلس الشيخ أمامي ، وجلس معالي الوزير على المكتب ، وجلس ابنا الشيخ على مقاعد مجاورة .

عرّف الشيخ معالي الدكتور بي ، ثم التفت إليّ قائلاً بنبرة استفهام : عندك أسئلة يا ولدي !!!

قلت وقد استجمعت كل قواي الأدبية :

سيدي أريد ما يثبت أن هذه المؤلفات هي فعلاً لك !

التفت إليّ الجميع في ذهول واستغراب ، إلا الشيخ ، فإنه ابتسم وقال : ماذا تريد مني من دليل .

قلت : سيدي ، الآن لا يخالجني أدنى شك في شرعية انتساب هذه المؤلفات إليك ، ولكن هذه القناعة الشخصية عديمة الجدوى علميًّا ، ولذلك أريد أدلة عقلية ومادية لا سبيل إلى دفعها .

قال : هل في نفسك شيء معين ؟

قلت : شيئان !

قال : ما هما ؟

قلت : أُصولُ الرسائل في شكلها المخطوط !

قال : هذه دفعت بها إلى الناشر قبل خمس عشرة سنة ولا أدري ما فعل الله بها !

قلت : تقول يا معالي الشيخ إنك تملي رسائلك ولا تكتبها !

قال : نعم !

قلت : أريد أن ألتقي بهؤلاء الذين أمليت عليهم رسائلك إلى ولدك لأستمع إلى شهادتهم !

قال : كنت أمليها على واحدة من بناتي !!!

عندها ؛ تدّخل الدكتور محمد وقال : أنا أشهد أنني كتبت له مجموعة كبيرة من رسائله إلى المتنبي .

تهللت أسارير قلبي ، وقلت : أشكرك يا دكتور ، هذه شهادة بالغة الاعتبار ، لا تدفع ، لكني لا زلت أبحث عن المزيد .

قال الشيخ : عمّ تبحث ؟

قلت وجبيني يتصبب عرقًا ......

قُلتَ يا سيدي إنك تملي رسائلك !!!

قال : نعم !!!

قلت : إذن فإن الدليل الذي لا يدفعه إلا ممارٍ ، أو جاهل ، أو حاسد ، هو أن تملي عليّ الآن ، وفي التوّ واللّحظة ، وبحضور الدكتور محمد رسالة ، ولتكن - مثلا - موجهة إلى قيس وليلى !!!

ابتسم الشيخ ، وقال بلهجته النجدية ، وبنبرة استفهامية : بَسْ !

قلت : نعم !

قال : أعندك أوراق ؟

قلت : لا !

قام بنفسه إلى دولاب في صالة مجاورة ، وأحضر منه ((بوكًا)) رسميًّا ودفع به إليّ ، ثم قال : لا أريد أن يتكلم أحد منكم أو يرد عليّ ، اكتب !

فتحت أداة التسجيل ، وأخذت القلم ، ثم بدأت أكتب :

((ابني العزيز أحمد !

تحية طيبة وبعد

في لقائك بي في اليوم الأول ، وفي هذا اللقاء الذي أحييك فيه أكرم تحيّة ، وأحيي البلد الذي أتيت منه ، البلد الذي أحمل له في نفسي أجمل الصور وأغناها ذكرياتٍ عن مكارم أخلاقكم يا أبناء جبال عسير .

في ذلك اليوم البعيد الذي أنخت فيه مطيتي في وادي ((ابن هشبل)) ، وبنيت خيمتي على ترابه ؛ عشت أيامًا وليالي في أحلامٍ سعيدة ملأت روحي وعقلي إشراقة أضاءت لي عتمة النفس .

ولما لتلك الذكريات الغالية على نفسي عن أرضك وبلدك ؛ التي هي بلادي وبلاد شم الأنوف ؛ قضيت فترة من الزّمن أتعرف على بلاد أهلنا هناك ، قرأت ، ثم قرأت ، وآخر شيء قرأته ترجمة لأحد أبناء عسير لأحد المستشرقين جاء فيها عن المؤلّف : ((إن عقيدة الدرعية الطاهرة ، الثائرة على الظلم حين تكالب عليها الأعداء ، وأرادوا اغتيالها حملها أبناء عسير ، وقاتلوا دونها بعظمة الرجال ، وبجلال الأفعال)) .

لذلك - كله - قبلت اختيارًا وطواعية أن أكون بتجربتي الطويلة ، وبقراءاتي ، وبعملي خمسًا وستين سنة في الدولة تلميذًا لك يا ابن جبل عسير الشامخ ، وهذا شيء لا يعيبني ؛ بل يعمق في نفسي الرؤية الناصعة في وعيي وفي عقلي أن الإنسان لا يفسد عليه حياته وسلوكه غير الكبرياء والمكابرة .

ابني العزيز !

إني أشعر شعورًا بالغًا بصدق إحساسك ، ونبل هدفك في أن تتأكد قبل أن يتصبب عرقك من سهر الليالي والأيام في رسالتك ، ثم يُقال لك : مسكين أنت ، رسائل مَنْ هذه ؟ لا أريد لك ذلك .

بين يديك رسائلي ، ما كتبتها لأرضي بها عمرًا أو زيدًا ، لكني أرثي لإنسان وضع في جيبه شهادة ، وظن أنه بذلك صار مثقفًا ، وأن من حقه أن يحرس ثقافته من أن يأتي طفيلي على الكتابة فيكتب .

من حقه أن يشكك ، أن يتهم ، ومن حقك ـ أيضًا ـ ابني العزيز أحمد أن تتردد ويربكك الشك .

لكن ، ألا تعلم أنت وهو أن هذه الجزيرة العربية ، جزيرة امرىء القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وحاتم الطائي ، وفارس عبلة ، وقيس بن الملوح ، وجميل بثينة ، وعروة بن الورد ؛ أمير الصعاليك من قال :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ماذا في نفسك ؟ وماذا في نفس الأخ الذي يشك فيما يكتبه عبدالعزيز عن سوق عكاظ ، عما يسمى جاهلية العرب ؟

أي جامعة خرجوا منها وتعلموا فيها ؟

أليست الفطرة في الإنسان هي جامعته متى ما أصغى لما هو حوله ، ولما هو بعيد عنه في هذا الكون ؟

الإنسان ـ ذاته ـ عالم واسع ، سعته أكثر من سعة هذا الكون .

ألا يمكن أن يكون من هذه العوالم الذاتية أستاذ ، أو أساتذة ؟ مدرسة أو جامعة ؟

شيء عجيب ، وعجيب جدًا ، وخسارة جدًّا في مثقف يتعالى بشهادة مدرسة أو جامعة ، ولا يدرك من هو ؟ وماذا معه من عوالم لو أصغى إليها لعلمته التواضع ، ولقالت له : اعرف نفسك ، لكن الإنسان ((ظلومًا جهولاً)) . وأنا واحد من هؤلاء .

من أكون ؟ ماذا أكتب ؟

أي شيء بهر الأخ المشكك فيما كتبته ؟ وا لله إنّي فيما كتبته وطرحته أشعر أني عريت نفسي ، وفضحت هذه النفس بجهالتي .

إنني أستحي ، نعم أستحي ، وأخجل مما خلفته ورائي ، وحفظته ذاكرتي عن حياتي . بالرغم مما فيها من حلو ومرّ ، وبالرغم من اليتم ، ومن الضياع في سكك القرية ، وبالرغم من كوني من جيل ما قبل النفط ، لا مدرسة ، ولا جامعة ، ولا معلم غير الحياة ، بالرغم من ذلك كله ، وسهر الليالي والأيام ؛ أسائل نفسي : من أنا ؟ ما طريقي ؟ ما البعد الذي أخافه ؟ ما المجهول فيه ؟

ليعلم الأخ المتشكك أنني بكيت على صدر أمي يتيمًا ، وليعلم الأخ الذي ما ذاق مرارة اليتم وما عاش أيام ما قبل النفط أنه محتاج إلى أن يتواضع ، ويدرك أنه سيتعرض لأزمات قد لا يصحو منها إلا حين يصل آخر العمر .

ابني العزيز !

قيس بن الملوح الذي رغبت أن أمرّ عليه فيما أكتب الآن لم يعد قيس العرب ، ولم يعد قيس ليلى ، من قال عنها :

يقولون دارها بشرقي نجد كل نجد للعامرية دار

إذا لم تخني الذاكرة ؛ فقد قرأتها في فلسفة ((جوته)) الشاعر الألماني ، وفي فلسفة ((أراغون)) أحد شعراء فرنسا ؛ ((مجنون إلسا)) أي ((مجنون ليلى)) .

لم تعد ليلانا وحدنا ، ولم يعد قيسنا في الجزيرة العربية ؛ بل إنه رمز عظيم إلهي الروح ، علينا أن نتذكره ، أن نعتز به ، أن نلجم غرائزنا كما ألجمها ، أن نتابعه في الصحارى والقفار وهو يذرف الدمع غزيرًا ، يطرده الأهل والأعمام ؛ وليلاه تباع وتشترى بالإبل ، يأخذها من شراها من أبيها إلى المخدع وهي تبكي وتبكي ، وهل هناك ما هو أبشع من اغتيال حرية الإنسان ، والجور عليها ؟ !!

عزيزي أحمد !

لو جلست وإياك أيامًا وليالي نتذكر ، وتقبل عواطفنا وذكرياتنا فم الورق لأتعبتك ؛ ولا أقول : أتعبتني .

إن أكثر من ثمانين عامًا أقرأ فيها نفسي ، وأقرأ فيها حركة الكون ، والرياح وتموّج البحار ، ودمدمة الرعود في السحب ؛ كلها عِبَر وألسن ناطقة ، ولكن ، أين أوراقنا الذاتية التي تتقبل لغتها وما تمليه علينا ـ نحن العرب والمسلمين ـ ، لا شيء ، لا أوراق لدينا ، نحن لا نعرف

الأوراق الذاتية في آخر أيامنا ، أوراقنا أحرقت في ابن الهيثم والكندي والرازي والبيروني إلى آخر القافلة .

سل أخاك المشكك في هذا الشيخ المسن الذي تسنده عصاه ؛ أيعرف هؤلاء ؟ لا أدري!!! أتساءل ولا أحكم .

وإذا قال : إني أعرفهم ، سله : أين معمله ؟ وأين إنتاجه الفكري ؟ سله : هل يمكن أن يفسر لنا تلك الفتاة الصغيرة التي ابتكرها العقل الإنساني ، وحمّلها رسالته إلى المريخ ، ذهبت إليه في رحلة أسرع من الضوء ، قيل : إنها لم تصل إلا بعد ثلاث سنوات ، سله : هل وقف أمام هذه الآيات العظمى التي اكتشفها العلم ؟ هل بُهر ؟ هل عرف أنه إنسان مسكين مثلي ؟

أختلف وإياه أنه جريء على الظلم ، أما أنا فقد وضعت على نفسي قيودًا من الوعي بقدري وصغر حجمي ، فلا المسئولية ، ولا كل ما ملكته يساوي عندي شيئاً أعتز به أو أدخره لنفسي ، أبدًا ، ما لم يكن عملي واجتهادي في سبيل خدمة ديني وواجبي تجاه أمتي ودولتي ، فماذا لو أنه أخذني الغرور وأصبحت ملكاً ل(الأنا) التي توصلني إلى التعالي حتى لا أرى إلا نفسي ؛ ماذا يمكن أن ينتج عني غير فقدان الأمانة أو جزءٍ منها ، ما أعتز به هو هذا الذي يطعنني فيه ابن العم والأخ المتشكك .

أنت الآن معي ، أملي عليك هذه الحسرات والعتاب الأخويّ على من جعلك حائرًا في أوراقي تنشد الحقيقة .

أنت حر فيما تختار ، إذا تغلب عليك هاجس لا تستطيع الخلاص منه فدعني وأوراقي وما كتبت ، وأنت وتوفيق الله لك في حسن الاختيار .

وحتى تعرف أكثر مدى إعجابي بك ، وباحترامك لنفسك ، ولاختياراتك ؛ لا تظن أنني بهذا الذي طرحته عليّ وتطرحه منزعج ، أبدًا ؛ بل احترمتك أكثر ، وقدرتك أكثر ، فمن يسعى إلى طلب الحقيقة هو الإنسان الحرّ الذي لا تعتقله كبرياء ، ولا مخاوف ، ولا يقيده قيد مهما كان هذا القيد عن السعي إلى معرفة الحقيقة .

إكرامًا لك ، ها أنذا أملي عليك نظرتي لرسالتك ، ولأحاسيسك الممزقة بين من يقال عنه : إنه يستعير لأوراقه من أفكار الآخرين ، وبين حرصك على معرفة الحقيقة .

إلى هذا الحدّ أقف ، حتى لا أشق عليك ، وإذا كان في نفسك أي سؤال أو غموض فأنا أب منشرح الصدر ، لا من أجل أن تأخذ ماجستير على رسائلي ، فما كتبت من أجل أن أعلم أحدًا أو أرضي أحدًا أو أغضبه ، لكن الإنسان تزدحم داخل نفسه قبائل من الهموم والمسرات ، والشيء وضده ، فلا يجد له متنفسًا غير أن يحاكي أوراقه بقدر استعداده الذهني .

أخيرًا . أحمل تحياتي واحترامي لكل من قــال : لا تغلـط ، وشـكك ؛ فـإني أعـذره كـل العذر ، وأرحمه كما رحم أبو الطيب مثيلاً له حين قال :

وأرحم أقوامًا من العيّ والغبا وأعذرهم في بغضي لأنهموا ضد

ابني !

إني فيما أمليه عليك الآن ، وبهذا الشكل الذي تراه مشـوش الذهـن ، متـألم كـل الألم لمحاولـة أذى الإنسان لأخيه الإنسان ، ولا أذى كهذا الأذى الذي يوجع الذهن ويوجع العقل ويضـني المشـاعر والأحاسيس .)) [1] .

* *

أملى عليّ الشيخ هذه الرسالة فيما لا يتجاوز خمس عشرة دقيقة ، وكنت ألجأ إلى تهدئتـه بـين اللحظة واللحظة لكي أستوعب تدفقه المدهش على نحو ما رأيته في حياتي .

خرجت من عنده مبهورًا ، لا أكاد أصدق ما رأيته ، ولكني كنت في غايـة السـعادة لما حققـه الشيخ لي .

عندما عدت إلى الفندق خطرت لي بعض التساؤلات، فقررت أن أعود إليه عصر اليوم التالي.

بعد صلاة العصر من ذاك اليوم اتصلت به ، وأبلغته أنني أريـد الالتقـاء بـه للإجابـة علـى بعض التساؤلات ، فوافق على اللقاء بي حالاً ، ذهبت إليـه علـى الفـور ، وعندمـا دخلـت عليـه مكتبـه وجدت لديه الأستاذ محمــد رضا نصر الله ، وقبل أن يسـتمع الشـيخ إلى أي سـؤال مـني قال : اكتب :

فتحت أداة التسجيل ، وتناولـت الأوراق ، وقلت في نفسي وأنا في غاية السعادة : رائعة أخرى إذن !!!

قال :

((ابني العزيز !

في ليلة البارحة حين ذهبت إلى فراشي ؛ أوقفتني أيامي الطويلة ، وسألتني قائلة : أصحيـح أن في مجتمعـك هــذا مــن يتشكك في كل ما كنت عليه ، وسعيت من أجله ؟ ولماذا هذا ؟ أهو

---

(١) أملاها الشيخ على الدارس في لقاء خاصّ تم يوم الأربعاء ١٤١٨/٥/١٠هـ ، وكان للدارس شرف أن يكون إملاء هذه الرسالة مشهودًا من قبل معالي وزير المعارف الدكتور : محمد بن أحمـد الرشـيد الـذي حضر أثناء حواري مع الشيخ للسلام عليه .

عيبك أنت ، أم أن الإنسان الآخر من السهل عليه أن يقذف أخاه بالحجارة وهو لا يعرفه ، وما حاول أن يعرفه ، أو يسعى إليه إذا كان مشغولا به .

تساؤلات كثيرة لم تؤرقني ، ولم تصدع استقراري في ليلتي تلك ؛ بل نمت على أحلام جميلة .

تراءى لي في الحلم ما لا أستطيع أن أفسره لك في هذه الرسالة ، فمن الأحلام ما قد يشير لك إلى زاوية من زوايا النفس ؛ المنعطفات النفسية من حولها تحرسها عن لصوص الظلام .

جادلتني خاطرة كانت من ذكرياتي البعيدة ، كانت من زواري حين كنت شابًا ، ووقفت أمامي هذه الخاطرة ، وقالت : تأخر مجيئي عنك طويلاً ، فهل تعذرني ؟

استحضرت شيئًا من ذكرياتي معها ، فإذا ما في الذكريات قد شاخ وتهدم جبينه من طول السنين ومنحدرات الأيام به إلى أدنى القاع .

ذهلت من المفاجأة !!!! ومن هذه النظرة إليّ ، فتذكرت ما كان من هامشية السنين عندي ، وقبلت بما أزعجتني به تلك الخاطرة وهذه النظرة الآتية إليّ متهدمة الجفون ، تتكيء على عصاها ، وقلت لنفسي : صبرًا واحتمالاً ، ولا جزع ، كل شيء متهدم ، وكل غائب في أعماق المجهول سيأتي طوعًا أو كرهًا ، حاضرًا حضور غائب فقده أهله وظنوا أنه تاه عنهم في بيداء الزمن .

لا أتأسف على قانون الحياة ، ولا أقوى على أن ألبسه الخطام أو أعقله بعقال يدمي قدميه ، أبدًا ، فعصرنا هذا لا يريد قيودًا ولا أخطمة تهدي جمال العشيرة إلى منازل الغيث .

لا أعرف من أنا ؟ هل أنا مثالي ؟ أم أني إنسان عبء على الحياة ، وكيس من التراب يدحرجه الزمن إلى أن يواريه في التراب ؟!!

ماذا لو خطر ببالي - الآن - أن أزور مدينة أفلاطون التي بناها من أجل سعادة الإنسان وأمنه واستقراره ورخائه ، أيمكن أن ألقى فيها أنيسًا لي من وحشتي ؟ لا أدري !!! ولكني أتصور أنها مدينة أسرف فيها خيال ذلك الفيلسوف العظيم حتى صارت في وجودها قضاءً مبرمًا على الإنسان ذاته ، وحكمًا عليه أنه لا يريد سعادة ، ولا يريد مدينة لا صراع فيها ، ولا متناقضات ، ولا مجالدة بالأحجار ، ولا تؤكل فيها لحوم الموتى حتى في قبورهم .

إذن ابني !

أرد اختيارك إلى نفسك ، إلى إيمانك الشخصي بنفسك وبهدفك النبيل .

إذا كنت ترى في هذه الرسائل نصا أو نصوصًا أو شيئًا من الفكر يستحق أن تجادله وتحاوره وتضيق عليه الخناق إلى أن يستجيب فيدخل أوراقك مطيعًا لك ولاختيارك له ؛ فأقدم ، ومن الممكن أن تحاور النص ، وتقول : هذا النصّ أو النصوص وجدتها في هذه الأوراق ، ولا يهمني من كتبها ، اتجه بحوارك إلى غائب تجهله ، واحمله عني إلى كل من شكك في وجود اسمي على تلك الرسائل ، واشكره عني ، فإنه بذلك أسعدني حين رأى ما في هذه الأوراق فوق مستواي ومستوى ثقافتي ، وقال عنها ما قال .

إنه بذلك قدّم إليّ أرقى ما يكون من الإعجاب والثناء على ما في هذه الأوراق .

ثم أيها الابن العزيز !

لا أعرف أين السوق الذي تُباع فيه المواهب وتشترى كي أذهب إليه لأرى هذا النوع من البشر الذين يبيعون مواهبهم بثمن رخيص .

تجربتي مع الحياة والناس علمتني التسامح ، وعلمتني أن أعرف شيئًا من قدري ، وأن أقبل أقسى ما يكون الأذى وأتحمله .

إني ممتن لمن أهدى إليّ شيئًا من حسناته ، فأنا محتاج إليه ، ومن أجله سأتسامح.)) [١] .

* * *

هاتان هما الرسالتان اللتان أملاهما عليّ الشيخ بأسلوب من التدفق يثير الدهشة .

كنت أنوي تحليلهما أسلوبيًّا للكشف عن أواصر العلاقة بينهما وبين إبداع الشيخ ، لكني رأيت أن ذلك ضرب من الجهد الذي لا مبرر له ، فما من شك أن من كان لديه أدنى قدر من الحس الأدبي سيدرك أن هذا وذاك من معدن واحد .

لذلك قررت أن أبقي على هاتين الرسالتين بكرًا مائة بالمائة ، كما خرجتا من فم الشيخ ، دون أن أعدل فيهما حرفًا أو أفسر منهما لفظة ، وذلك لمساعدة من أراد أن يتحقق من هذه القضية بأسلوب تحليلي علمي دقيق ، أما أنا فلم أعد بحاجة إلى شيء من ذلك .

* * *

---

(١) أملى الشيخ على الدارس هذه الرسالة مساء الخميس ١٤١٨/٥/١١هـ ، وقد تصادف حينئذ وجود الأستاذ / محمد رضا نصر الله .

ب- البعد التكويني :

صدر هذا المؤلّف في جزءين ؛ تحت العنوان العام :((**رسائل إلى ولدي**))
الذي أُثبت على غلاف وصفحة تقديم كل منهما .

وتحت هذا العنوان العام ؛ وضع الشيخ لكل واحد من هذين الجزءين عنوانًا خاصًا يحيل إلى المحتوى الموضوعي السائد في ذلك الجزء ، وفيمايلي توصيف سريع لكل واحد منهما :

الجزء الأول :

١- عنوانه : حتى لا يصيبنا الدوار .

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن فكرة ((الإصابة بالدوار)) لم تكن مقحمة إقحامًا اعتباطيًّا على هذا الجزء ؛ بل كانت منتزعة من كبد هذا المؤلّف ؛ فقد وردت هذه الفكرة ، ووردت ألفاظ ((أصاب ، يصيب ، الدوار)) على مدى الرسالة مترابطة في المواضع التالية :

١/١٣٦ ــــــــــــ بإحالة عامة .

١/٣٥٤ ــــــــــــ بإحالة سياسية .

وهي التي انتزعها عنوانًا لرسالته ((الثلاثين)) ، ثم عنوانًا للجزء كله من عبارته : ((لماذا يصيب الدوار مَنْ على قمة الجبل ؟)) الواردة في عرض رسالته تلك .

١/٣٧٩ ــــــــــــ بإحالة فكريّة .

١/٤٠٥ ــــــــــــ بإحالة أخلاقية .

٢/٢٩ ــــــــــــ بإحالة اجتماعية .

٢- عدد وحداته الداخلية :

أ - إهداء ، مقدمة ، ست وثلاثون رسالة .

ب - اثنان وعشرون رسمًا إيضاحيًّا داخليًّا .

٣ـ الإطار العام :

غلاف ، بصورة صحراوية خارجية واحدة تسيطر على مساحتها الألوان الداكنة، ازدادت كثافتها في الجزء السفلي من الصورة ، وخفت ووجدت بعض المساحات الفاتحة في الجزء العلوي .

٤ـ عدد صفحات الجزء :

عشرون وأربعمائة صفحة .

٥ـ الاتجاه العام لمحتواه :

يعلو في هذا الجزء صوت الواقع التاريخي المشهود في دوائره الوطنية ، والعربية والإسلامية ، والعالمية .

٦ـ معلومات النشر :

صدر هذا الجزء في طبعته الأولى في ذي القعدة ١٤٠٣هـ، أغسطس ١٩٨٣م .

عن الدار العالمية للنشر . أدمنتون ، كامبردج ، لندن .

طباعة : مؤسسة آنشنت هاوس برس .

تصميم وصف : المركز العربي للطباعة والنشر .

الجزء الثاني :

١ـ عنوانه : منازل الأحلام الجميلة .

وهو عنوان الرسالة الثانية عشرة من الرسائل ، التي اشتمل عليها هذا الجزء ؛ إذ ورد في إشارته إلى الربوع الغيبية التي انحدر منها الإنسان الأول:((لا أشك أن منازلنا الأولى هي منازل الأحلام الجميلة....))[١] .

٢ـ عدد وحداته الإبداعية :

أ ـ سبع وثلاثون رسالة ، خاتمة .

ب ـ تسعة وثلاثون رسمًا إيضاحيًا داخليًا .

---

(١) الرسائل : ١٤٨/٢ .

٣ـ الإطار العام :

غلاف بصورة صحراوية خارجية واحدة ، تغلب على الجزء السفلي منها الألوان الداكنة التي تزداد تركيزًا في العمق ، بينما تغلب على الجزء الأعلى منها الألوان الفاتحة التي تزداد تركيزًا حتى تصل إلى درجة البياض الساطع في العمق .

٤ـ عدد صفحات الجزء :

عشرون وأربعمائة صفحة (كسابقه) .

٥ـ الاتجاه العامّ لمحتواه :

يهيمن على هذا الجزء صوت النزوع إلى المثال ، والتطلع إلى الخلاص من ربقة الواقع .

٦ـ معلومات النشر : كسابقه تماماً .

* * *

جـ ـ البعد المكاني :

إن من يتأمل حركة إبداعات الشيخ في مؤلفاته ـ التي بدأت تتوافد على الساحة الأدبية المحلية والعربية منذ عام ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م من خلال مؤلفه : ((في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء)) ولا زالت ـ ليدرك بشيء من التدقيق أنها لم تكن حركة عشوائية تخبط في اتجاهاتها كيفما اتفق ؛ وإنما هي حركة منضبطة يحف بها القصد الكامل ، وينظم خطاها خطوة بعد أخرى .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فما الضابط الذي تحكّم في انطلاق حركة هذه الإبداعات ، وتحكم ولا يزال في تنظيم حركة توافدها على الساحة الأدبية واحدًا تلو الآخر ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تستلزم العودة إلى تتبع حركة هذه الإبداعات من أقاصي جذورها في صدر شعاب الوادي ، ثم الانحدار وراءها إلى آخر ما وصلت إليه على النحو التالي :

أولاً : حركة ما قبل الإبداع :

قال الشيخ عن رسائله :

((هذه الرسائل خليط في ألوانها وفي أحجامها ، هي كمئة من الإبل قد لا تجد فيها راحلة واحدة - كما عبّر عن ذلك نبي الرحمة - ، ولكن ما كل بدوي ضاق بإبله (و) تركها هائمة في الصحراء لأنه لا يوجد فيها راحلة واحدة قد لا تحمله وتحمل أطفاله وربة بيته ؛ بل يظل نزيلاً في قلب الصحراء يدرب جماله لعله يكون له منها أكثر من راحلة ..

ولدي :

لعلي - هنا - ذلك البدوي الذي ظل يدرب إبله أكثر من خمسين عامًا ، لعله يكون له منها ما يحمل رحله الذي أثقل كاهله في طريقه التي يسير عليها إلى أن يقول له قدره أنخ مطيتك هنا فلا مسير لك في الخيار ..))[1] .

وقال لصديقه أبي الطيب في أولى رسائله إليه عن جمله هذا وعن أحماله :

((أبا الطيب :

كم ساءلت نفسي ، وأنا أعيش معك أينما اتجهت بك مطاياك ، ماذا بيني وبينك من نسب ؟ أهذا مني انحياز لا رأي له ولا عقال يعقله عن الركض وراءك ؟ أم أنها " صور دفينة في نفسي " أرسلت إليها رياحك ، فأثارتها من المدفن عندي ، أخذتني إليك في عدوي ، لم تشفني منها هذه الحضارة ومدنية العصر ؟

هو هذا ، ففي هذه الصحراء حطّ بي قدري مع الحياة ، فمشيت أكثر أيامي وعمري على صور وألوان ، لونتها في ذهني وعمقتها في خاطري ردود الفعل ، فرحلت لها " جملاً " من جمال الصحراء ، ركضته هنا وهناك[2] أعوامًا طويلة ، أنختـه في الوادي ، وفي القرية ، وعلى كثبان الرمال ، ودفعت به إلى أعلى قمم الجبال ، أوقفته على الأطلال والرسوم ، أنخته ضيفًا

---

(١) الرسائل : ١/٣٠ - ٣١ .

(٢) يقصد بذلك انطلاقة إلى الآفاق الفكرية والثقافية القريبة والبعيدة .

على القبيلة ، وألحقته مع جمالها ، أوصيت عليه الرعاة فعاد إليّ وريح الخزامي ، ونفل الروض ، وأشجار الرمث تفوح من فمه)) [1] !!!!!!

إن الشيخ لم يرد أن يكون الجمل الذي ((يحمله ويحمل أطفاله وربة بيته ، ويحمل رحله)) هزيلة ، ولا بعيرًا رغاءً يضج عند أدنى ملامسه ؛ ويملأ الطريق جلبة وصياحًا ؛ تنقطع أنفاسه عند أولى مراحل الرحلة الطويلة ؛ فإن أصر صاحبه على ركوبه ظل متعثر الخطى ، أو مضطرب الحركة ، منحرفًا من مسار إلى مسار ، فيكون ـ بذلك ـ هو وصاحبه عبئًا على القافلة ، وحجرًا في طريقها ، وقيدًا في أقدامها .

لقد أراده الشيخ جملاً بازلاً ، حمّال أثقال ، رزين حركة ، خبيرًا بفجاج الصحراء ومسالك الجبال الوعرة ، لا يفوح من فمه غير روائح الخزامى ونفل الروض وأشجار الرمث .

فتعمد ـ لذلك ـ أن يمضي من عمره خمسين عاما في قلب هذه الصحراء ، يشحن فيها مخزن تجربته ، ويراكم خبرته ، ويستوعب بعمق ما يلقيه عليه الإنسان والحياة والكون والموت وما وراء ذلك من دروس ، ويدرب فيها مدركاته العقلية والفكرية والخيالية والوجدانية ، ويشحذ فيها أدواته البيانية ليكون له من ذلك كله ذلك الجمل . وقد كان !!!

لقد رأى الشيخ ببصره وبصيرته ذلك النموذج من البشر الذي ما إن يرى فصيله يستن ويركض هنا وهناك حتى يأخذه الفرح وربما الغرور بفصيله الصغير فيقفز إلى ظهره الغضّ ؛ فإما أن يكسر بثقله ذلك الظهر فيبرك حيث برك فصيله ، وإما أن يتحمل ذلك الفصيل خفة وزنه فلا تراه إلا جافلاً به في كل اتجاه ، مطلقًا ظهره للريح في كل فج لا يقر له قرار .

لم يرد الشيخ الحكيم أن يكون هذا ولا ذاك ، أبى عليه احترامه لنفسه ولمتلقيه أن يظهر في هذه الصورة الهازلة ، فظل مع جمله في قلب الصحراء يرعاه منذ كان جنينًا في بطن أمه ، ويدربه ، ويعجم عوده ، وما استطاع الجمل أن يجتاز الامتحان ويفوز بثقة صاحبه إلا بعد خمسين سنة من الجهد الشاق .

إن هذا يفسر بوضوح ظهور مؤلفه الأول على هذه الصورة المتألقة ، وعلى هذا المستوى الإبداعي المحلق الذي تتقطع دونه الأنفاس بعد سن الستين ، الأمر الذي أصاب كثيرًا من ذوي الجمال الهزيلة والبعران الرغاءة ، ومن أولئك الذين يقطعون الفيافي حفاة الأقدام بالذهول

---

(١) عبدالعزيز التويجري : في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء ، ص١٩ - ٢٠ .

والدهشة ، بل لقد بلغ الأمر بواحد من المثقفين البارزين أن يقول لي ونحن نتحدث عن الشيخ وعن هذه القضية : ((إن الوحي قد انقطع منذ ألف وأربعمائة سنة)) !!! محددًا بذلك رأيه في استحالة العلاقة بين الشيخ وهذا الأدب .

و - إذن - فقد بدأ الشيخ حركة إبداعه هذه بالاستيعاب والتدرب المتعمد المحفوف بالإرادة أولاً .

ثانيًا : حركة تدفق الإبداع :

بعد سن الستين أطلق الشيخ الخطام لجمله ، وقال له : الآن !!! فانطلق المارد الإبداعي من قمقمه الذي ظل فيه حبيسًا ، يتحفز للانطلاق خمسين سنة ، فكان مؤلفه الأول ((في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء)) [1] معطى الانطلاقة الأولى .

وقد جاء هذا المؤلف في شكل رسائل متتابعة ، عددها تسع وأربعون رسالة ، موجهة كلها إلى أبي الطيب .

في هذه الرسائل دخل الشيخ مع أستاذه القديم في جدل ونقاش وحوار وتساؤل عن الإنسان والحياة والكون والموت ، في الفكر والسياسة والطبائع والتاريخ .....

إن ابتداء حركة الإنتاج الإبداعي عند الشيخ بالاتجاه إلى أبي الطيب على هذا النحو هو الأمر الطبيعي ، ولو ابتدأت هذه الحركة بـ ((رسائل إلى ولدي)) ..... أو ((ذكريات وأحاسيس نامت على عضد الزمن)) ؛ لكان ذلك مستغربًا ، لأسباب يعجز هذا المقام عن استيعابها .

لكن ما لا بد من الإشارة إليه - هنا - أن الشيخ كان يبدو - وهو يدير الحوار مع أستاذه حول تلك الأشياء على مرتفع يطل منه على حركة الواقع - مترددًا بين ركوب أمواج ذلك الواقع التاريخي العاتية ، وبين إدارة خطام جمله والعودة إلى قمة الجبل .

يقول الشيخ وهو يحاور أستاذه :

((وأنا أعيش قيم القرن العشرين ، أأصعد إليك ، وألحق بك ، واللحاق بك عسير ، والصعود إلى ذرى الجبل ، الذي منه أرسلت إلينا هذه الصورة ، التي أنت عليها ، مضن ، أم

---

(١) صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

أبقى في مفهوم العصر ، وهو مفهوم سخرت فيه التلال من الجبال الشاهقة ، وطاولتها حتى أحنت رقابها ، وتداعت هاماتها ، لائذة بالسفح ، متخلقة بأخلاقه)) [1] .

* * *

لكن أمرًا جللاً سد على الشيخ - وهو في مكانه ذاك ـ منافذ الخيار ، ودفعه إلى اتخاذ القرار الصعب .

قال الشيخ في معرض تقديمه لـ ((رسائل إلى ولدي)) :

((ولأني من جيل عاش العزلة في هذه الصحراء أجيالاً طويلة ، ورَّثته عزلته صورًا للحياة خفق بها في أعماقه جناح الجبل ونطق بها في سمعه وبصره فم الوادي ، يوم يفيض مقبّلاً بمياه السحب الروض الظامئ إلى نزوله ضيفًا كريمًا عليه ، لم أتباطأ في خروجي من هذه العزلة ، فقد أخذتني هذه المفاجأة العلمية المعاصرة إلى قمة الجبل ، ومن عليها ساءلته : أفيك ملاذ لخائف ؟ أفيك منجاة من الغرق ؟ فلما لم يأتني الجواب ، ولما تسربت إلى ذهني مخاوف الجبل ، تصورته يرتعش من شدة الخوف أكثر مما أرتعش . ولا أدري أفي أعماقه ترقد منيته ، وتنام فكرة التداعي في انتظار قدرها معه ؟

فيوم خفّ وزنه وارتعش وتبدد وتوزع في يمننا السعيد ، أصابنا الرعب والخوف أكثر ، فنزلت من على قمته أرثي لحاله وأرثي لمن لاذ به وظن أنه مستعص على التداعي وتحطيم بدنه الجسيم ، فتلاحقت صور الماضي معنا في هذه الصحراء واحدة تلو الأخرى ، وأبت أن تتراجع إلى حيث هي .... أفسحت لها الطريق وإن كان ضنكًا لا متسع فيه .

.... وما في هذه الرسائل - التي أضع لها هذه المقدمة - إلا مخاوفي ووعظي لأولادي حين كانوا في جامعات القوم هناك بعيدين عن الصحراء وقيمها ومعتقداتها الكريمة ، وما أولادي وحدهم الذين أخاف عليهم أبدًا ... فمخاوفي أو مخاوف الآباء الآخرين على أولادهم من سلبيات هذه الحضارة ، قدر أخذنا من عزلتنا إلى عالم البشر ، وهو أمر لا يستطيع اليوم خائف أن يختفي عنه وإن لاذ بالظلام !)) [2] .

---

(١) في أثر المتنبي ص ٢٣١ .

(٢) الرسائل : ١/١٧ - ١٩ .

لصالح الجيل العربي والإسلامي الناشيء ، ولصالح الأجيال القادمة قرر الشيخ ـ إذن ـ أن يترك الجبل ، وينزل إلى معترك الواقع ، ويخوض غماره ، قرر أن يتحرك إلى مفهوم العصر وأن يشق لجته ، ولكن نزوله هذا ، ولكن حركته هذه ، لم تكن حركة تهدم ولا انهيار ولا ذوبان في مفهوم العصر وحضارته ، لقد كانت حركة الفارس العربي الشهم حينما يرى أولاده وأهل بيته يرتعشون في قبضة الخطر ، أو يُرَكَّعون في قبضة الذل .

اشتبك الشيخ مع الانحراف ، وخاض معه معركة قاسية في نهار ما تلبدت سماؤه بالغيوم ، أهاجها معه في جميع الدوائر ابتداءً بالذات وانتهاءً بأقصى نقطة توغلت إليها زحوف جنكيز خان في أعماق هذا الكون ، من خلال خطاب موجه بالدرجة الأولى إلى المتلقي الناشيء مستهدفًا بذلك كله بناء ذلك المتلقي بناءً تربويًّا متينًا .

معركة بدا فيها الشيخ محلقًا على سنام جمله ؛ يرصد الانحراف ويعرضه ويحلله ويعريه ويفسره ، حتى إذا سيطر عليه وأحكم وثاقه حاكمه ، لا إلى قانون فرعون ؛ ولا إلى قانون أفلاطون ؛ ولكن إلى أصالة هذه الأمة ، وإلى شخصيتها الإنسانية المميزة ، وإلى هويتها التاريخية ، وإلى منهجها الكوني الرّاشد ، إلى " رسالة حراء " ، فبدا هذا الانحراف مع أمه الرؤم ((حضارة هذا العصر)) في عين المتلقي في صورة بعوضة بين يدي بعوضة .

ذلك ـ إذن ـ هو موقع مؤلف الشيخ الثاني : ((رسائل إلى ولدي)) [1] بجزءيه في سياق مؤلفاته .

لكن الشيخ ، وهو يغادر ميدان الصراع هذا يقول لولده في آخر سطر من آخر رسالة :
((... أستودعك الله إلى لقاء آخر في رسائل أخرى في اتجاه آخر .... !)) [2] .

* * *

لقد انتهت المعركة الحاسمة التي خاضها الشيخ مع الانحراف لصالح الأجيال الناشئة ، وأنجز ما هو منوط به من دور في الصراع المؤلم [3] على خير وجه وأكمله ، عندها ثنى الشيخ

---

(١) سبقت الإشارة إلى تاريخ صدور الطبعة الأولى منه .

(٢) الرسائل : ٢/٤٠٦ .

(٣) هل سيأتي اليوم الذي تنجز فيه الأجيال الناشئة ما هو منوط بها من دور في هذا الصراع ؟

خطام جمله وقفل عائدًا عودة الفارس إلى وادي " أشيّ " .

وبمجرد وصوله إلى هناك كتب إلى أبويه الأولين في صدر أول رسالة إليهما قائلاً :

((أبويّ :

إلى وادي " أشيّ " عدت بعد فراق طويل ، لا لأقضي إجازة مع ربيعه أو خريفه أو صيفه ، عدت إليه حاملاً معي تساءلاتي وحيرتي ، والتساؤلات قد تكون خابطة خبط عشواء ، أو راكضة ركض جواد امريء القيس ، فميراثي الطويل وحاشيته الذاتية وقراءتي في كتاب هذا الكون وفي كتاب الإنسان الذي أنا حرف من حروفه ، كل ذلك يستعجلني أن أكتب هذه الرسائل))[1] .

عاد الشيخ - إذًا - إلى وادي " أشي " لا ليستريح ، ولا ليخلد إلى الخمول ، ولكن ليبدأ من هناك مرحلة إبداعية جديدة يركب فيها جمله ميممًا أبويه الأولين ليلقى عليهما التساؤلات التي حيرته ، ولم يجبه عليها أحد من شيوخه الثلاثة ((سليمان ، والمتنبي ، والمعري))[2] ، من خلال اثنتين وسبعين رسالة أخرجها في مؤلفه الثالث : ((**حاطب ليل ضجر**))[3].

لكن مارده الإبداعي لا تزيده الأسفار البعيدة إلا هيامًا بالأبعد ، ولا يزيده التحليق في الآفاق العميقة إلا شغفًا بالأعمق ، ولذلك فها هو ذا الشيخ يعلنها صريحة في خاتمة هذا المؤلف قائلاً :

((لا أحطّ رحلي عن السير حتى تقول لي الحياة : أَنِخْهُ فقد أضناك المسير !))[4] .

* * *

لقد رحل جمله إلى صديقه الأثير ، ومعلمه ، " أبي الطيب " ، وعاد من هناك ليرحله إلى " ولده " ، حتى إذا اطمأن بأداء واجبه تجاه فلذة كبده ، ثنى عنق بازله إلى أبويه ، وها هو ذا الآن يعد رحله ، فإلى أين ستكون وجهته ؟

---

(١) عبدالعزيز التويجري : حاطب ليل ضجر ، ٢٣/١ .

(٢) سيفك غموض هذه الأسماء في صفحتي ١٦٢ - ١٦٣ من هذه الدراسة .

(٣) صدرت الطبعة الأولى منه في جزءين ، عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

(٤) حاطب ليل ضجر ٢٥١/٢ .

لقد جاء دور الأستاذ الثالث ، وحق الشيخ القديم في الزيارة ، ها هو ذا يرخي خطام بازله - إذن - قاصدًا المعرة لينزل هناك في ضيافة شيخها ليحاوره ، وليجادله ، وليلقي عليه التساؤلات عن الإنسان والحياة والموت والحساب والبعث والكون والتراب والروح ..... من خلال إحدى وستين رسالة ضمنها مؤلفه الرابع :

((**أبا العلاء .. ضجر الركب من عناء الطريق**)) [1] .

وها هي ذي آخر عباراته وهو على باب شيخه يودعه ويقول :

((شيخ المعرة :

مطيتي واقفة ببابك ، يدي ممسكة بخطامها ميممًا بها صحراء العرب ، ....)) [2] .

لقد انتهى الشيخ الآن من التطواف خارج الصحراء ، وها هو ذا يعلن عودته إلى أحضان الأم .

لكن ، ألم يقل آنفًا : إنه لن يحطّ رحله عن ظهر جمله ؟ فإلى أين سيرحله في الصحراء ؟

* * *

يبدو أن الشيخ قد راد في رحلاته الطويلة السابقة جلّ الآفاق الخارجية التي تثير اهتمامه، ومن هنا فإن اتجاه رحلاته من الآن فصاعدًا سيأخذ منحىً مغايرًا كل المغايرة ، فها هو الآن يرحل جمله إلى الداخل ، إلى أعماق ذاته ، بادئًا الرحلة في هذا الاتجاه بالسفر إلى عالم خواطره وأفكاره الخاصة ليجمع من هناك وحدات مؤلفه الإبداعي الخامس : ((خاطرات أرتني سرّها)).

ويبدو أن المقام في هذا العالم لم يرق للشيخ كثيرًا ، فما لبث أن أخذ بخطام جمله ، وتحول عنه باتجاه الذاكرة التي أخذ يتجول في رياضها وأوديتها وجبالها ، ويحلق في عوالمها ليتعهد ما فيها من كنوز وليحمّل جمله منها ما خف وزنه وغلا ثمنه ، فكان أول سلسلة مؤلفاته عن عوالم الذاكرة وسادسها في سلسلة مؤلفاته الإبداعية : ((ذكريات وأحاسيس نامت على عضد الزمن)) [3] ، ويشتمل هذا الكتاب على تسع وثلاثين وحدة إبداعية ، ومقدمة .

---

(١) عبدالعزيز التويجري : أبا العلاء .. ضجر الركب من عناء الطريق ، ص٣٩٣ .

(٢) صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

(٣) صدرت الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

ويبدو أن الشيخ سيمضي ممتطيًا ظهر جمله على هذا الخط مسافرًا في أعماق الذات وعوالم الذاكرة حتى النهاية[1] .

* * *

هذه هي حركة توافد مؤلفات الشيخ الإبداعية منذ بداية تدفقها حتى يوم الناس هذا ، وهذا هو ذا مكان ((**رسائل إلى ولدي**)) بالذات من تلك الحركة ، وهي كما أشير ـ حركة مقصودة ، بريئة من العشوائية كل البراءة تحكي في تتابعها ـ على نحو ما ـ حركة حياة الشيخ ذاته .

* * *

تلك لمحة سريعة عن هذا المؤلَّف الذي سيكون مدار هذه الدراسة من حيث توثيقه وتكوينه ؛ وموقعه من منظومة إبداع الشيخ .

* * *

وبذلك فإن الانتقال إلى عملية الاشتباك مع النص هو ما سأقدم عليه حالاً .

* * *

د ـ ولـــوج :

بتفكيك خطاب الشيخ إلى وحداته الموضوعية الصغرى ، وبفرز هذه الوحدات ، وإعادة تنظيمها في سياقاتها الموضوعيّة الدقيقة ؛ أمكن رصد عملياته المعمقة ، وجهوده المكثفة ، ونشاطاته التي لا تهدأ في خمس دوائر عمل موضوعيّة ؛ تفضي كل واحدة منها إلى الأخرى ـ لتكون الدائرة الموضوعية الخامسة هي الدائرة الأم التي يصب فيها ما سبقها ـ على نحو تكرست لدراسته ـ رصدًا وتنظيمًا وعرضا ـ الفصول الخمسة التالية :

---

(١) يشار هنا إلى مؤلفه التاريخي "لسراة الليل هتف الصباح" ، وهو مؤلف وثائقي عرض فيه الشيخ طائفة واسعة من رسائل الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وطائفة أخرى من رسائل الشيوخ والأعيان إليه .

الفصل الأول

الخطاب في دائرة الإبداع

القطاع الأول : في المرسـل

القطاع الثاني : في الرسالـة

القطاع الثالث : في المرسل إليه

توطئـــــــة

((كل حدث اتصالي يستدعي ضرورة وجود المرسل والمستقبـل (أي طرفـي الاتصال) وبينهما " رسالة "))[1] .

في إطار المنهج الذي أشرت إليه آنفاً - وأسعى إلى تفعيله - أجدنـي هنـا أتكـىء باطمئنـان إلى التحديد البنيوي (أو البنائي) لعناصر الرسـالة في الأطـراف الثلاثـة الـتي أشـار إليهـا المقطـع أعلاه على وجه التحديد (المرسل والرسالة والمرسل إليـه) ، رغبة فـي إزاحة الدلالة التقليديـــة (المعجمية) لهذه المفردات الثلاث ، ومن ثم الغوص في أعماق كل عنصر منها تأسيسا على هـذا المفهوم .

ومن المهم أن أبادر إلى الإشارة أنّ هذه الدراسة ليست معنية البتة بعلاج أية قضية نظريـة لأي واحد من هذه العناصر الثلاثـة ، ولا هي ملزمة بالمنهج البنائي ولا بسـواه في معالجتهـا، لا في هذا الفصل ولا في سواه ، فذلك أبعد ما يكون عن طبيعة هذه الدراسة وعن المسلك الذي قررت نهجه ، لكنها هنا معنية بالدرجة الأولى والأخـيرة برصـد وتنظيـم وعـرض مضـامين المؤلّـف الـتي عرضت رؤيته لبعض جوانب هذه العناصر في جوانب تباشرها بدقة التساؤلات التالية :

في المرسل :

من المرسل ؟ وعن أي موقـع يصـدر في رسـالته ؟ ومـا منهجـه في عمليـة الإبـداع ؟ ومـا مسوغاته لممارسة الفعل الإبداعي ؟

في الرسالة :

من أي الينابيع تدفقت ؟ وما الآفاق التي انطلقت للعمل فيها ؟ وما أوصافها ؟

---

(١) د / ميجان الرويلي و د/ سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي ص ٣٥ .

في المرسل إليه :

من المرسل إليه ؟ وما مساحته ؟ وما طبيعته ؟ وما الدور المطلوب منه مع كل من المرسل ورسالته ؟

أسئلة تبدو في حاجة إلى إجابات وافية ، والحق أنّ ((التساؤل لا يأتي من الفراغ ، ولكنه يرى ملامح الجواب فيلاحقه مسرعاً إليه لعله يلقي قبضته عليه ليستريح من عناء السفر وراء البعيد)) [1] .

قد يتبادر لأول وهلة أنّ هذه الدراسة بصدد ممارسة عدد من العمليات التشريحية مع النص، واتخاذ بعض الإجراءات الفنيّة بحثًا عن تلك الإجابات ، وهو أمر له ما يُبرره ؛ إذ الدراسة الفنية هي الجهة التي تناط بها ــ غالباً ــ مهمة الكشف عن خفايا هذه الجوانب من العملية الإبداعية أو ما يتعلق بها ((مرسلا ورسالة ومرسلاً إليه)) ؛ خصوصًا عند من يولون مثل هذه الزوايا قدرًا من العناية ، غير أنه ليست هناك حاجة إلى شيء من هذا ، ففي مضامين النص المطروح الآن على مائدة الدراسة ما يميط اللثام عن كل شيء أثار الاستفهامات الآنفة، في بيانات واضحة تحتل قدرًا ملحوظًا من مساحة العمل ، وتشكل جزءًا بارزًا منه ، الأمر الذي استدعى عقد هذا الفصل يقينا من الدارس أن إغفال هذا الجانب ذي الحضور المكثف بالغ الفعالية في روح الرسالة وجسدها سيخل بهذه الدراسة التي تطمح إلى متابعة النص الكامل في مختلف فضاءاته وتجلياته الموضوعية والفنية ما أمكن .

وإذا سلمنا ـ جدلاً ـ بأنه ليس من مهمة المبدع ـ حين نتعامل معه أثناء الممارسة النقدية ــ على رغم المفهوم النقدي الألسني عمومًا الذي يزيحه من مكانه ، ويسلبه سلطانه ويواريه في التراب ـ كما ليس من مهمة العمل المنجز ذاته ـ أن يعالج هذه الجوانب صراحة ، معتبرين ذلك من صلب عمل الناقد فإن ذلك يبقى ـ في نظر هذه الدراسة على الأقل ــ أمرًا نسبيًا يعتمد في درجة ظهوره على جنس العمل الإبداعي ، وعلى منهجه في الخطاب ، وعلى مسوغات إنجازه .

وإذا كانت هذه التساؤلات الموطّنة حول عموميات عناصر الرسالة من قبل المتلقي عمومًا والناقد على سبيل خاص ، أو الإشارات من قبل الأديب ، إنما يثيرها العمل الإبداعي الهادف ـ غالباً ـ فما شأنها في هذا العمل الذي نحن الآن بصدد الحوار معه ؟

إن هذا العمل ـ كما هو معلوم ـ من ((أدب الرسائل)) ، وهو جنس قاصد ،وجد أصلاً

---

(١) الرسائل ٦٢/١ .

ليكون جسرًا للتواصل بين طرفين محددين ـ غالبًا ـ (مرسل ومرسل إليه) ، ومن ثم ؛ فإنه يتكيء في قدر كبير من نجاحه في وظيفته على قدرته في تعميق هذا التواصل تمهيدًا لانطلاقه إلى إنجاز أهدافه.

ولكي يكون كذلك ؛ ولكي يكون سفيرًا بدرجة امتياز ؛ ولكي يحظى لدى مضيفه ((المتلقي)) بالاستقبال الحار ، فمن الضروري ـ إذن ـ أن يحمل معه بيانات اعتماد تشير إلى الجهة التي قدم منها ، وإلى الجهة التي سيقدم إليها ، بالإضافة إلى مجموعة من الإيضاحات التي تتعلق بشخصية السفير ووظيفته .

هذه تقاليد عريقة سواء في السياسة أو في أدب الرسائل ، وحينما أقول : إنها تقاليد ، فذلك لا يعني أنها قشور خارجية يابسة يمكن أن تزاح دون أن يتولد عن ذلك خلل ما في جسد الرسالة وروحها،بل هي ـ في نظر الدارس على الأقل ـ من صميم العمل ذاته،ولو تخلت الرسالة عنها ، فقد تخلت عن كثير من محددات وملامح شخصيتها، وحق لها أن تكون أي شيء إلا أن تكون رسالة ؛ فإذا أضيف إلى ذلك خصوصية العلاقة التي تربط بين طرفي الرسالة ــ هنا ــ ، ومنهج المرسل في إبداعه ، وأهدافه من ذلك المنهج ، والأهداف الكبيرة التي تحدوها والدوافع التي تسوقها ـ كما سيتضح ذلك كله لاحقاً ـ تأكدت هذه الضرورة ـ هنا على الأقل ــ بدرجة تكاد تكون مطلقة ، ومن هنا فإنه يمكن القول : إن حضور هذه الإشارات لم يكن حضورًا ثقيلاً لا مبرر له ، ولا مقحماً على الرسالة كيفما اتفق ؛ بل هو حضور قيم هادف ومؤثر ، يمس بانعكاساته جوهر العمل ، ويعمق روح التواصل بين طرفي الاتصال ، ويمتن جسوره ، في مرحلة أولى تمهيدًا للتحرك إلى تحقيق الأهداف النهائية من هذا التواصل الغائي في مرحلة تالية ، مما يؤكد أهمية الكشف عن هذا الجانب من مضامين هذا العمل الأدبي .

وبمعنى آخر ، فإن المبدع إذ يعمد في عمله هذا إلى إرسال مثل هذه الإشارات ، فهو في الحقيقة لا يعابث متلقيه أو يحشو رسالته بما يمد مساحتها ، ولكنه يحاول بهذا أن يأخذ متلقيه إلى المكان الذي يكون فيه في مسقط وابل من المؤثرات النفسية والوجدانية والعقلية بالغة الفعالية ، وهو واحد من أساليب كثيرة يوظفها المبدع لنقل متلقيه من موقع الحياد الخامل إلى الحركة في بؤرة القضية التي تضطلع الرسالة بطرحها ومعالجتها ، وذلك بما يثيره في أعماقه من انفعالات متنوعة تدفعه بقوة عاقلة واعية بذاتها إلى اتخاذ موقف فعّال ، وهي سمة من سمات الأدب الهادف عمومًا وفن الرسالة على وجه أخص وأعمق .

إذ اتضح هذا فلتكن - إذن - إجابة المؤلف على هذه التساؤلات ، ومن ثم القراءة المركزة لهذه الإجابات هي الخطوة التي تخطوها هذه الدراسة مباشرة .

القطاع الأول : في المرسل :

سبق التنويه إلى أهمية اشتمال الرسالة الأدبية - بالمعنى المعجمي — على ما يعمق معرفة المتلقي بالجهة التي تشع منها تلك الرسالة ؛ إذ يكرس ذلك مسوغات صدورها ودوافعها وغاياتها ، ويسهم بقدر كبير في جعل المستقبِل تحت تيار معزز من المؤثرات الوجدانية أو النفسية أو المنطقية أو منها جميعاً .

إن الشيخ حين يعمد إلى توجيه هذه الإشارات الخاطفة من مواقع معينة في جسد الخطاب ، فهو إنما يقوم بإنجاز ضلع من أضلاع مثلث تأثيرٍ ضلعاه الآخران يتمثلان في التأثيرات التي تولدها الرسالة من خلال سياقيها الفني والموضوعي ؛ ذلك المثلث الذي يسعى الشيخ إلى أن يدفع بالمتلقي إلى داخله سعيًا إلى دفعه لاتخاذ موقف ما ، هو الهدف النهائي الذي تسعى الرسالة إليه ومن أجله وجدت .

وفي هذا القطاع تأتي مجموعة من وقفات الخطاب التي ساقها الشيخ لتلقي الضوء على المرسل في الحقول التالية :

الحقل الأول : في التعريف بالمرسل :

حشد الشيخ جملة من الإشارات التي سعى من خلالها إلى تقديم ذاته إلى متلقيه ، والتعريف بنفسه وبموقعه الذي اختاره ليدير منه حواره مع متلقيه في هذا العمل خاصة .

وهنا تنحى جانباً - إلى موقع آخر من هذه الدراسة — تلك النصوص المكرسة لاحتواء الذات بمنأى عن عنصري التواصل الآخرين (الرسالة والمرسل إليه)، ويتجه الدرس هنا مباشرة إلى تلك النصوص التي تضطلع بتقديم المرسل في إطار علاقته بالطرفين الآخرين ، وانعكاسات هذه العلاقة على طبيعة تواصله مع متلقيه ، ومرتكزات هذا التواصل .

قبل اختتام الرسالة الأولى يقول الشيخ : ((أود أن تعرف أنني لا أحمل قلم المؤلّف ولا ذهن المفكّر ، فحمل القلم في يد مؤلف أو كاتب ، غيره في يدي مع هذه الرسائل ، إن كانت رسائل إلى صديق كالتي كتبتها في ((أثر أبي الطيب)) أو كهذه الرسائل التي ((أكتبها لكم))

ولا أمنحها في حجمها وقدرها أكثر مما هي عليه)) [١] .

ويقول في الرسالة الثّانية :((وهي (خواطره وذكرياته) مني مهداة لترى أن للتاريخ قوته على فرض وجوده على الإنسان فإذا فرض عليَّ هذا موقفًا من المواقف فلأنه العجلة الثقيلة التي لا تحتمل واحدة من رسائلي هذه أن تدخل في متاهاته التي لا علامات لدي عليها.)) [٢] .

ويؤكد هذا بقوله في مكان تال : ((ولا تأخذ هذا عني حرفة تاريخية ، فمسئوليتي من هذه الرسائل ليست مسئولية المؤرخ الذي يلاحق الحدث، فإذا قبضت عليه يده حمله على ذمة التّاريخ كما هو أو زوّره وفق هواه)) [٣] .

ويكثف ذلك كله في قوله : ((قلت لك .... إنني لا أؤرخ ولا أطرح فكراً ولا أضع مذهباً ، فهذا فوق طاقتي وفوق قدرتي ، ....)) [٤] .

ففي هذه النصوص المجتزأة من النص الكامل يسعى الشيخ إلى الكشف عن هويته التواصلية ، وذلك بتأطير دائرة التواصل التي يصدر عنها في إبداعه عمومًا ، وفي " رسائل إلى ولدي " على وجه خاص عن طريق نفي وجوده خارجها ، فهو ليس في كل ما كتبه مؤلفًا ، ولا مفكرًا ، ولا مؤرخًا .

ومع أن سمة التواضع وبساطة التواصل التي يتصف بها الشيخ ، والتي انعكست بوضوح في إبداعه كله يمكن أن تكون مبررًا مقبولاً لتأكيداته على عدم وجوده ؛ أو وجود عمله الإبداعي في أي من هذه الميادين إلا أن هناك مبررين آخرين على نفس الدرجة من القبول ؛ إن لم يكونا أشد قبولاً .

الأول : إن الشيخ - في إبداعه كله - بعيد كل البعد عن الاحتراف في الكتابة ؛ وإن حملت كتاباته ما تحمله كتابات المحترفين في هذه الميادين ، يؤكد هذا قوله :

((ولدي :

لعلي - هنا - ذلك البدوي الذي ظل يدرب إبله في أكثر من خمسين عامًا ، لعله يكون له منها ما يحمل رحله الذي أثقل كاهله في طريقه التي يسير عليها إلى أن يقول له قدره أنخ

---

(١) المصدر نفسه ٣١/١ .

(٢) المصدر نفسه ٤٠/١ .

(٣) المصدر نفسه ٧٤/١ .

(٤) المصدر نفسه ٨٣/٢ .

مطيتك هنا فلا مسـير لك فيه الخيار .. ومثلما قاله لمن سبقنا سيقوله لنا قضاء وقدر آمنا به وإنا إليه لراجعون)) [١] .

فهو في هذه الصورة المعبرة التي يجذبها من علو التاريخ - حيث المكـان الـذي يأخذه إليـه الحنين الدائم - ومن الصحراء التي تتمدد في أعماقه باطمئنان ، ليمد هـو أجنحتهـا الجميلـة علـى ذاته وعلى إبداعه ، يجلو عن علاقته بإبداعه ، فالكتابة - عنده - ليست من ترف القول المغلق على الذات الذي لا يحمل أكثر من هم صاحبه - كما هي عند كثير من كتاب هذا العصر - ، ولا هـي حرفة خاصة ذات دوافع وأهداف محددة متخصصة مغرقـة فـي الموضوعية التي يأخذ بها المؤلفون والكتاب والمفكرون أنفسهم ، ولكنهـا رحل هموم وخواطـر وأفكـار وذكريـات وهواجـس في الذات وخارج الذات ، وللذات ولما هو خارج الـذات ، تراكمـت في أعمـاق الرجـل عشـرات السنين حتى أصبحت تمارس عليه ضغوطاً لا تطاق ، وحينما قدر أن في التعبير عنها - قبـل فـوات الأوان - فائدة مزدوجة لصالح المرسل والمرسل إليه - كما سيتضح في مبحث آخر - قرر أن يدفـع بها إلى الخارج في شكل رسائل أدبية متحررة من منهجية الاحتراف وضوابطه وقيوده ، كما هـي متحررة من الانغلاق على الذات ، فذلك أقرب إلى تكوينه الثقافي والنفسي - كما سنرى أيضًا - فهو - إذن - ليس واحدًا من هؤلاء بهذا الاعتبار ؛ وإن كان كل هؤلاء باعتبارات أخرى .

الثاني : إذا علمت دوافع وهموم وأهداف المرسل من ناحية، وإذا علمت طبيعة العلاقة القائمـة بين طرفي الاتصال من ناحية ثانية ، أمكن بعد ذلك تفهم الدوافع النبيلـة الـتي تحفـز المؤلـف علـى تأكيداته لمتلقيه أنه ليس واحدًا من أولئك ، وذلك ما يضيء بعض جوانبه قوله في الرسـالة الثانيـة والأربعين :

((وقد وعدتك في أول رسالة مـن هـذه الرسـائل أن أحـاول جـاهدًا أن آخـذك معـي في رحلة العمر وأجمع لك في حقيبتي هذه كـل مـا علـق في ذهـني أو أنزلتـه علـى قلمـي خـاطرة مـن خواطر النفس وقلت لك : إنني لا أؤرخ ولا أطـرح فكـرًا ولا أضـع مذهبًـا ، فهـذا فـوق طـاقتي وفوق قدرتي ، ولكني أحاول أن أزحزح ولو حجرًا صغيرًا من الأحجار التي تراكمت على ضمير الإنسان)) [٢] .

---

(١) الرسائل ٣١/١ .

(٢) المصدر نفسه ٨٣/٢ .

ففي الآن الذي يؤكد فيه نفي انتماء عمله الإبداعي هذا إلى تلك الميادين نراه يخطو داخل الدائرة التي أراد أن يتخذ منها مكانًا يخاطب من خلاله متلقيه بصوت أكثر قوة من طرفه ، وأكثر وضوحًا وقبولاً لدى الطرف الآخر ، فالشيخ راوٍ لرحلة العمر ، والرسائل حقيبة بداخلها فصول الرواية المهداة[1] إلى المتلقي الذي هو مدعو إلى الاستماع إلى الرواية وإلى قراءتها ، أما الهدف من كل ذلك فهو((زحزحة ما يمكن زحزحته من الأحجار المتراكمة على ضمير الإنسان)).

غير أن الشيخ لم يقنعه هذا المكان من الدائرة ، فالزمان والمكان محدودان ، والعلاقة هنا بين عناصر (أطراف) الرسالة لا بد ستنقضي عما قليل ، ولذلك ينتقل من الدائرة إلى مكان أكثر عمقًا يخاطب من خلاله متلقيه قائلاً :

((فإذا حاولت في هذه الرسالة أو سواها أن أحمل اللقاح إلى الوليد الذي في جمجمة عمتك النخلة (و) [2] الواقفة على أقدامها ، فلأن صلاح الوليد وسلامته لا يأتي إلا بالسبب ، ورب النخلات في وادي يثرب يوم تركها دون لقاح ماذا عنها ؟

الجواب من فم الرحمة المهداة ، قال لرب النخلات أنتم أعلم بشئون دنياكم [3] فهل ستجد في كل ما كتبته لك عرقًا واحدًا تستقبله جمجمتك ليلقح ولو وليدًا واحدًا ؟ لعل هذا من الأمنيات التي لا تتيه في فضاء النفس !)) [4] .

فالشيخ هنا يلتفت مرة أخرى إلى ((طيبة)) ليقبس منها موقفًا يشرح به مكانه ودوافعه في هذه الرسائل ، هو هنا مزارع يحمل اللقاح إلى العذوق الناشئة في رأس شجرة الأمة ، بهدف تزويدها بأسباب الصلاح ، وهو لا شك مكان متقدم ومؤثر يتيح لهذا المزارع قدراً أكبر من الفعالية والأهمية في منظومة الإبداع ، وهو مكان حددته دوافع الرسالة وحمولتها وأهدافها .

وإذًا فالشيخ حين ينفض كلتا يديه من العمل التأليفي والتأريخي والفكري والمذهبي فلأنه لا يريد أن يظل مع الرسالة والمرسل إليه مجرد واحد من هؤلاء تربطه بهما علاقة عابرة لا تلبث أن تفتر وقد تنقطع ، ولكنه يريدها علاقة متينة أزلية مثيرة لتفاعل دائم بين أطراف الرسالة يسجل من خلالها حضوره الأبدي .

---

(١) انظر الرسائل : ١/٤٠ .

(٢) الأسلم حذف [الواو] .

(٣) أورده الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم : ١٤٨٨ .

(٤) الرسائل ١/٢٢٢ - ٢٢٣ .

غير أن إحساس الشيخ بوجود بعض المسافة بينه وبين متلقيه لا يزال يدفعه إلى البحث عن موقع أكثر قربًا وأشد ملامسة لأعماق متلقيه ، ولذلك انتقل إلى مكان أكثر فاعلية في دائرة الخطاب ، وهو مكان اتكأ عليه الشيخ وصدر عنه في عمله هذا بكامله ابتداءً بعنوان مؤلفه وانتهاءً بآخر فقرة من فقرات ذلك العمل .

إنه ذلك الموقع الذي يحتل بؤرة الروابط الإنسانية العليا ، ذلك هو مكان ((الأبوة)) بما له من رصيد وجداني ونفسي خصب في الأعماق الإنسانية ، وبما يتولد عنه من تجليات لا تزال تمارس على كل واحد من طرفي الاتصال ضغوطاً عذبة تثير لديه الرغبة القوية في الاندفاع الدائم باتجاه الطرف الآخر .

في هذا الإطار تبرز جملة من الإشارات الرقيقة المبثوثة في أحشاء الرسالة يسعى الشيخ من خلالها إلى تقديم ذاته لمتلقيه من هذا الموقع ، داعمًا ذلك التقديم بالعديد من المسوغات الوجدانية والنفسية والمنطقية ، التي من شأنها أن تعمق مساحة القبول لدى المتلقي وتوسعها ؛ تمهيدًا لأن تحظى حمولة الرسالة بذات القبول في الطريق إلى تحقيق أهدافها وغاياتها النّهائية .

وفيما يلي يحسن الوقوف عند طائفة من الإشارات الموجهة إلى المتلقي الخاصّ ممثلاً في ((ولده)) ، وإلى الجيل كله ؛ بل والأجيال القابلة من خلال متلقيه الخاص .

ففي خطاب موجه إلى ولده يكشف من خلاله عن الموقع الذي قرر اعتماده منطلقًا للتواصل مع متلقيه ، وعن رؤيته لذلك الموقع ، ويحدد الأبعاد الموضوعية والوجدانية والنفسية التي جاءت الرسالة للكشف عنها ، يقول :

((ولدي :

يوم أركب جملي ذاهبًا إلى الصحراء وأبني خيمتي في ظل صخرة أو ظل شجرة وأصغي إلى حفيف الرياح داخل نفسي وأفتح الأبواب والنوافذ لعل نسيمًا هادئًا غضبه يفيض إليك من داخل نفسي ، فيمنحك رائحة الأبوة ، فشجرتها هي الشجرة التي غرستها الحياة في قلب الدهر ووكلت إلى الإنسان العناية بها)) [1] .

حين نعمق النظر في هذا الخطاب يتبدى لنا الشيخ فيه وقد تحول في هذا الموقع المتمكن في مركز الوجدان الإنساني إلى بؤرة استقطاب وبلورة ثم إشعاع .

استقطاب للأشياء ولتجلياتها داخل وخارج الذات ، ثم بلورة ما تم استقطابه في ضوء

---

(١) المصدر نفسه ١٣٥/١ .

المكونات الوجدانية والنفسية والعقلية لموقف الأبوة ـ هنا ـ على وجه التحديد ، ومن ثم الإشعاع بذلك المزيج في شكل رسالة أدبية باتجاه المتلقي الخاص والعام من خلاله .

في هذا الإطار الذي يجسد ثلاث مراحل من العملية الإبداعية يأتي خطاب تقديم الذات في إطار فعلها الإبداعي وسلوكها التواصلي ، حين يقول :

((أيمكن لي وأنا أسجل لكم هنا وثيقة ليست من ترف الكلام ولكنها حشاشة نفسي تمشي إليكم في وله أم الفطيم على صغيرها ، أقول أيمكن لي أن أصوغ لكم من عواطفي وتجربتي وتفكيري ملابس تعطيكم من دفء روحي وخفقات قلبي أرق العواطف وأدق ما يكون التجرد معكم ؟ سأحاول إن استطعت)) [1] .

وحين يقول في الصدد نفسه : ((ولدي :

أأنا بهذا (الإشارة تنصرف هنا إلى كثرة الوصايا والتنبيهات) والد يبست أضلاعه على ماض لا يلين وإن أغرقته مياه الحضارة بطوفانها ؟ أبدًا .. لو تحولت ذاتي بكل ما فيها من سعة إلى كهف يملؤه فرخ القطا ويضيق به لما طويت جناحي وتركت فراخي في العراء ، ولأنكم فراخي وأغلى شيء على نفسي فلن أطوي هذا الجناح وإن كان ضامرًا وضعيفًا عن أن أدفئكم داخله وأحنو عليكم بالنصيحة)) [2] .

فالأبوة ـ إذن ـ هي الأرضية المتينة التي يستند عليها الشيخ في تواصله مع متلقيه ، والأبوة هنا فيض نبيل من الحب والحنان والعطاء المتسامي عن الغرض يسري باتجاه المتلقي ، وهي أيضًا دافع للكتابة لما تفرضه على الشيخ الأب من شعور بالمسئولية تجاه ولده يقول :

((هذه خاطرة أوردتها لك هنا مع سواها لأني أشعر بمسئوليتي تجاهك)) [3] .

وحين يلتفت الأب المسئول الشيخ إلى الخارج ويستقطب التجليات المتباينة لمختلف أشيائه في ضوء موقف الأبوة ومكوناتها العاطفية ، وفي ضوء استشعار المسئولية الذي يغذيه في أعماقه موقف الأبوة هذا ، وفي ضوء التجربة العميقة والخبرة الطويلة بالحياة وبما فيها، وما تولد عنهما من قناعات وتصورات يجد الحاصل مرًّا ،والحقيقة مرعبة ، فيجتاحه شعور عارم بالخوف والشفقة على صغيره ، ذلك كله يدفعه على الفور إلى الأخذ بأطراف الصورة الناجزة في أعماق

---

(١) المصدر نفسه ٢١/٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٢٨/١ .

(٣) المصدر نفسه ١١٧/٢ .

الذات نتيجة التفاعل القوي بين تجليات الأشياء في الخارج والمكونات الداخلية نفسية ووجدانية وعقلية ، وإفراغها في الرسالة التي لا يتوانى في الإشعاع بها باتجاه متلقيه الخاص ، يقول :

((فلما تهادت إلينا هذه الحضارة وهذه المدنية ، وجاء القلم يحدو لها ، ويحمل دورها في حياة البشر اليوم على مفهوم ومعلوم كل ما فيه غريب علينا وجديد في ملبسه ، أصابنا الخوف على صغارنا ، ومعذور من أخافته هذه الحضارة وسلبياتها على أهله وقومه)) (١) .

ويقول :

((ما كنت أخاف عليكم في طفولتكم وفي صباكم كما أخاف عليكم اليوم وأنتم على أبواب المسئولية العامة)) (٢) .

ويقول :

((وما في هذه الرسائل - التي أضع لها هذه المقدمة ـ إلا مخاوفي ووعظي لأولادي حين كانوا في جامعات القوم هناك بعيدين عن هذه الصحراء وقيمها ومعتقداتها الكريمة ....)) (٣) .

ويقول :

((أنا مشفق عليك وخائف ، تدبر كلماتي البسيطة فهي كلمات أبيك ، ما عندي شيء أخاف عليه مثلما أخاف عليك)) (٤) .

ويقول :

((هذا (الإشارة هنا إلى التحول في مقومات وقيم المجتمع) ما أثار في نفسي اللقاء بكم في هذه الرسائل ، وبعث الخوف عليكم)) (٥) .

ولما كانت الرسالة موجهة ابتداءً إلى متلق خاص (ابنه أو من في مقامه) ، لذلك يقدم الشيخ نفسه إلى ذلك المتلقي تقديمًا إضافيًّا يدعم موقف الأبوة من ناحية، ويعتمد عليه من ناحية أخرى، ويتكي فيه على رصيده الكبير من التجربة الطويلة والخبرة العميقة والمعرفة الواسعة بالحياة وبأشيائها وإشكالاتها .

لقد صحب الحياة في ظروفها المختلفة وفي ألوانها المتعددة صحبة عميقة ؛ كشفت له من

---

(١) المصدر نفسه ١٨/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢١/٢ .

(٣) المصدر نفسه ١٨/١ .

(٤) المصدر نفسه ٤٥/١ .

(٥) المصدر نفسه ٢٤/٢ .

أسرارها ما فيه الكفاية ، وما هذه الرسائل إلا صدى من أصداء خبرته بها ، يقول :

((أصغوا إليّ فإني بهذه الرسالة أضع قدمي على آخر الطريق التي مشيت عليها أو قريبًا من آخرها أتلّفت هنا وهناك أستوحي من الذاكرة ومن المواقف ومن الناس ومن الشيء ونقيضه رسالتي هذه)) [1] .

هذه الخبرة بالحياة جعلته يشعر بالخوف والشفقة على الناشئة ، مما أقام في نفسه فكرة التوجه إليهم بالوعظ ، فكانت الرسائل وعظًا ، وكان الشيخ واعظًا بدرجة إصرار ، على اعتبار الوعظ طوقًا تاريخيًّا للنجاة من الغرق في الفناء ، يقول :

((وحين قامت في نفسي فكرة الوعظ لكم ، تابعت رسائلي إليكم وأنتم في مدارسكم وجامعاتكم خارج البلاد وداخلها)) [2] .

ويقول :

((أتراني تحولت إلى واعظ ؟ نعم ، سأظل واعظًا بكل وسيلة من الوسائل التي أستطيع أن أقبض عليها)) [3] .

ويقول :

((أيمكن لي هنا .... أن أتحول في آخر هذه الرسالة إلى واعظ ؟ .. أم أن أكثر الوعاظ قد لا يجدون مستمعًا ؟ .. لا أدري ، ولكني أميل دائمًا إلى منابر الوعاظ ومنابر الأحداث أينما كانوا وكانت ، وأشعر أنه ما تجافى عنها إنسان أو أمة وأغلقت عنها سمعها وبصرها إلا أصابه وأصابها الغرق ..)) [4] .

إن رصيده المعرفي بالحياة يحمله إلى مكان المعلم من متلقيه أيضًا ، يقول :

((ولأني من الجيل الذي يرتاب في كل غريب لا يعرف نسبه ولا يدري قبيلته ، ولا يثق بملامحه التي تختفي وراءها كل أخلاقه وسلوكه ونوع تفكيره وعلاقته الإنسانية بالآخرين رأيتني آخذ دائمًا مكان المعلم لك)) [5] .

ويقول :

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ١/٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ٢/٣٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ١/١٧٠ .

(٥) المصدر نفسه ١/١٣٦ - ١٣٧ .

((... فهل من الممكن أن تستطيعوا أنتـم ؟ أن تقفـوا معـي في حالـة مـن اليقظـة العقليـة والفكرية وأن يكون وقوفكم في دائرة حولي لا مدخل فيها لغريب ؟)) [١] .

إذن فهو واعظ وهو معلم ، وهما وظيفتان تباشـران حمولـة الرسـالة ، وتقفـان عندهـا دون أن تتجاوزاها إلى البناء الفني للرسالة أو نبرة الإرسال إلا فيما ندر ؛ فلقد ظل هذان الجانبان بمنأى إلى حـد بعيد عن طرق الوعاظ والمعلمين ، وظلت موهبة الإبداع الجميل تمارس عملها وحضورها بحرية كاملة .

وإذا كان الشيخ قد جعل نفسه في عملية التواصـل واعظًـا ومعلمًـا ـ وهمـا وظيفتـان لم تتأتيا له من فراغ ؛ بل استندتا وتستندان هنا على موقف الأبوة بمكوناته الوجدانية والنفسية ، ثـم على رصيد الخبرة والتجربة الطويلة ، فهل معنى ذلك أن الشيخ يمارس نوعًا من تزكيـة ذاتـه ، أو أنه نسب لنفسه شيئًا من الرقي في سلم الكمال أعلى مما لدى متلقيه ؟ أبدًا ، لا يوجد شـيء مـن ذلك ، إنـه يقول :

((ولعلك .... ولدي ، تراني أتصابى وأعود بك من شيخوختي في أثواب الناسك المتبتل الذي طهرت سريرته وعلانيته فصار من حقه أن يلوم الآخرين ويلقـي عليهـم مواعظـه ، أبـدًا مـا أكثر ما هو دفين في نفسي من الخطأ ومن الميل بي إلى أنانية فردية انعزالية ولكن ما كل الصاعدين منابر الوعظ أطهار في سرائرهم ، لو قيـل لا يصعـد منـبر الوعـظ إلا مـن كـان نظيفـًا في سـريرته لكانت أكثر المنابر مهجورة من الوعاظ !!

إذًا أصـغ إلـى وعظـي فما جاز لـك منـه ابـق معــه ، ومـا تجاوزتــه معارفـك وأفكـارك وعقلك تجاوزه !)) [٢] .

وفي ختـام الرسالـة السبعـين ـ وهو أمر له بعض الدلالة ـ يقول :

((أتراني تحولت إلى واعظ ؟ نعـم ، سأظل واعظًـا لـك بكـل وسـيلة مـن الوسـائل الـتي أستطيع أن أقبض عليها ، ثم بعد هذا لعلك تطـرح السؤال : هل ما يقوله أبي هنا أو هناك سلوك شامل كل مراحل حياته ، ومالك عليه تفكيره ؟ ، وهل كان أمينا في ممارسته ؟ فأقول لك لا ألف مرة ، أنا غريق مع الغرقى ، ولأني غريـق هذا صراخي وهذا ندائي لمـن يسـتطيع أن يـأخذ بيـدي ويساعدني من خيار الناس الذين قد لا نحس بهم ولا ندريهم ....)) [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ٢١/٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٦٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣٧٣/٢ ـ ٣٧٤ .

ولم يقف عند حدود اتهام نفسه بهذا ؛ بل ذهب إلى الحكم على الرسالة نفسها بالقصور وعدم القدرة على تلبية حاجات متلقيه أو الإجابة على تساؤلاته حين يقول :

((لو تجاوزت قدري وظننت أنني أغترف من منحني الوادي النفسي مياهًا في نظافة مياه الغدير الذي أنزلته توًا سحابة مرت على عجل فحطت على فروع الوادي وشعابه أثقالها ثم استدبرتها الرياح ، أأكون قد ملأت القدح لفم الظامئين إليه ؟ غير ممكن ، فليس من إنسان - غير المعصوم - استطاع أن يروي ظمأ أطفاله وعائلته ويشدهم إليه كيفما فكر ، وكيفما قال ، وحيثما ألقى على حائطه الذاتي الصور التي جذبها من أعماق رؤيته الخاصة أو ما أوحت به إليه رؤية الآخرين ...!)) [١] .

ويؤكد ذلك حينما يبرر ذلك القصور الذي اتهم به رسالته بفقر المنابع الثقافية والفكرية والمعرفية التي انحدرت منها ؛ إذ كانت الحياة المعزولة التي عاشها في صدر حياته وتجلياتها هي وحدها التي شكلت هذه المنابع وأمدتها بعيدًا عن التعليم المنهجي وأسفاره ، يقول :

((فالوادي النفسي الذي تحولتْ منه هذه الرسائل ، لم يربع ولم تخصب شعابه ، لأنه عاش العزلة أزمنة طويلة لم يمر به معلم ولم يفتح كتابه ويقرئه إياه ، ولكن قوافل الليل البعيدة وسراته فوق هامة الصحراء يوم تمشي قافلة قافلة محيطة بقمر السماء ، تتظاهر داخل نفوسنا عظمة هذا الكون وخالقه ، فتثير تساؤلات عفوية لم تحمل القلم ، ولم تعرف كيف تلقي عليه مسئولية التعبير وتصوير الإحساس والشعور والمواقف)) [٢] .

ويتهم الرسالة اتهامًا شاملاً مصدرًا وشكلاً ومضمونًا بعد أن فرغ من ذكر بعض دوافعها حين يقول :

((عندئذ أخذت القلم في حالة من الضجر داخل نفسي وخارجها ، فتلاحقت صور الماضي معنا في هذه الصحراء واحدة تلو أخرى ، وأبت أن تتراجع من حيث هي ، إن كانت في قمة الجبل أو في سفحه ، إن كانت في علو الزمن البعيد أو في ضحاه أو مسائه، فلما لم [أستطع أن] [٣] تقبل أن تحني رقابها عائدة إلى مدافنها ، أفسحت لها الطريق وإن كان ضنكًا لا متسع فيه)) [٤] .

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ١/١٧ - ١٨ .

(٣) الأفضل حذف ما بين القوسين ليستقيم الأسلوب .

(٤) الرسائل : ١/١٧ .

وبصرف النظر ـ تمامًا ـ عن موقف الدارس المتحفظ بقوة من هذه الإشارات التي يتهم فيها الشيخ ذاته وإبداعه وثقافته ، فإن ذلك إنما يأتي في إطار برامج المؤلف التي يستهدف منها الوصول القوي إلى متلقيه قوة قادرة على تحقيق الالتحام الوجداني والنفسي والعقلي مع متلقيه ، وإزالة كل عقبة تحول دون تحقيق ذلك .

وقبل الانصراف من هذا الجانب من جوانب وعي الشيخ بذاته الإبداعية يحسن أن أسوق هنا ثلاث إشارات جسد فيها الشيخ العملية الإبداعية بتكثيف شديد، ونبرة بالغة التأثير ، يقول :

((هذه الحالة [الاختلاف] وهذا الواقع الطبيعي هل لي أن أقف بكم عنده نستمع إلى صداه في مستقبلكم ، فهو صدى لم تدخلكم فيه التجربة حتى الآن ولم تمارسوه في حياتكم اليومية مع عمرو أو زيد من الناس ولكنه صدى علق بتجربة أقرب الناس إليكم ، وأصدقهم معكم وأكثرهم حبًا لكم وخوفًا عليكم ، إذا لم تصدقوني وإذا لم تفهموني فإلى أين أنتم ذاهبون ؟ وعند من تجدون مشاعري وعواطفي)) [1] .

ويقول : ((ولدي :

كم من مرة نويت أن أواصل الكتابة لك فثناني تصور قاتم وصوت داخلي يقول لي أوقف النزيف النفسي واحجب في شيخوختك تجربتك وابق عليها لنفسك فلا سامع ولا مجيب !!

فهل في إمكاني أن أستجيب للنداء وأتراجع عنك وعن رفقاء دربك ؟ أبدًا إنه شيء لا يطاق ولا يحتمل .

لو تراجعت ، لو أصابني اليأس منكم أو من بعضكم ـ لا سمح الله ـ ألا أكون قد أذنبتُ وعققت وجودي فيكم وطرحته في العراء ؟ ..)) [2] .

ويقول : ((جالسوني فيها (الإشارة هنا للرسائل) وعوا مكاني من مكانكم ودوري مع دوركم فأنا الأب وأنتم الأبناء وهو دور أسبغته عليَّ تجربة ستين عامًا ...)) [3] .

ما يهمنا من هذه النصوص الثلاثة هو إشاراته إلى الموقع الذي يحاور منه متلقيه ، فهو ينطلق إليه من موقع الأب الصادق المخلص في حبه وفي خوفه وفي شفقته ، الشديد الشعور بمسئوليته وبدوره ، المدفوع بهذا وبسواه إلى إيصال تجاربه وخبراته وما تبلور عنها من تصورات

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٠ ـ ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ٢/١٩ .

(٣) المصدر نفسه ٢/٢٠ .

ورؤى وقناعات إلى متلقيه طري العود ، الذي لم تقده خطاه من هامش الحياة إلى خضمها العنيف بعد .

هكذا يقدم المؤلف نفسه ، أبًا يختزن في أعماقه عصارة المشاعر الإنسانية الحانية على أبنائه ومن في مقامهم ، يلتفت إلى الواقع بعين المبدع النافذة ويستقبله في كافة تجلياته في ضوء موقف الأبوة بمكوناته النفسية والوجدانية والعقلية ، وفي ضوء رصيده الوافر من التجربة والخبرة والمعرفة المعمقة بالحياة وإشكالاتها فيراه غير صبوح الوجه ، فيثير ذلك في نفسه مشاعر الخوف والشفقة والحرص على أولاده ، وهنا يبدأ بتحويل عمله الإبداعي من مرحلة الاستقطاب الخارجي والداخلي وبلورة ذلك في ضوء مكونات الداخل إلى مرحلة الإشعاع باتجاه المتلقي واعظًا ومعلمًا يتكيء في خطابه على ما يسوغه له ذلك الموقف من مكانة في وجدان ونفس وعقل متلقيه .

هكذا يقدم نفسه أبًا محبًا حانيًّا مسئولاً مجربًا خائفًا واعظًا معلمًا رفيقًا ، وهكذا يقدم إبداعه .

وهنا يمكن فهم حرص الشيخ المدعوم بما سلف من تأكيدات على الانسحاب من ميادين التأليف التأريخي والفكري والمذهبي والفلسفي .

لقد انسحب من تلك الميادين ـ وإن بقيت في نطاق سلطة ممارسته الإبداعية ـ لكي يحتل أماكن أخرى أكثر تقدمًا في ملامستها للمتلقي نفسًا ووجدانًا وعقلاً ، يستطيع من خلالها أن يوصل إلى المتلقي ما لديه من دفق عاطفي ووجداني ونفسي وعقلي ، في الوقت الذي يجذب فيه متلقيه إليه عبر هذا الأسلوب ، ويمارس عليه في ودٍ وحوار وإقناع متعدد المتكئات والمساقط ألوانا من التأثيرات بهدف دفعه إلى التقبل المسئول لمضامين الرسالة ، ومن ثم التحول من مرحلة التلقي والاستيعاب والتفاعل ، إلى مرحلة الحركة والعمل .

لقد انسحب الشيخ من هذه الميادين لأنه لم يرد أن يظل في نظر المتلقي ـ الخاصّ على الأقل ـ مجرد فلان عائم من الناس ألف كتابًا في التأريخ أو الفلسفة أو الفكر أو المذاهب ، إنه دائمًا يطمح إلى تسجيل حضوره الدائم في كل عملية تلق ، ولذلك عمد إلى احتلال مكان يماسّ مباشرة ((المرسل إليه)) في وجدانه ونفسه وعقله ، وهو أسلوب اعتمده في جميع مؤلفاته الإبداعية حتى الآن ، وذلك كله يعكس بأمانة ودقة مسار حياته ذاتها وأسلوب خطابه التلقائي .

إن ما سبق يستلزم بالضرورة أن يكون الهاجس التربوي هو الهم الأول الذي تحمله الرسالة بما يستهدفه من توجيه المتلقي إلى كيفية الحوار مع ذاته ، ومع ما هو خارج ذاته ، وهذا هو ما تحقق بالفعل ، غير أن هذا لا يعني أن الرسالة قد تفرغت تماماً لمباشرة هذا الهم ؛ بل إن الشيخ قد منح ذاته الخاصة مساحة لا بأس بها من الرسالة ، عمد فيها إلى استقطاب هذه الذات وما يسبح في فضاءاتها من رؤى وتصورات ومواقف بعيدة بمقدار خطوة فقط عن الهم الأساس ، ولكنها على أي حال استقطابات جزئية لا ترتفع إلى محورية الهم التربوي ؛ بل تصب فيه في نهاية المطاف .

وإذا كان ما سلف ينصرف تمامًا إلى الموقع الذي يصدر عنه الأديب في الخطاب التربوي ؛ فماذا عن الخطاب الجزئي الذي يستقطب فيه الشيخ أشياءه الخاصة ، كيف يقدم ذاته إلى متلقيه في هذا المحور ؟

إنه في هذا القسم من مضامين الرسائل يقدم ذاته إلى متلقيه تقديمًا آخر يتناسب تماماً مع طبيعة المجال الذي تباشره هذه المضامين ، فإذا كان المؤلف قد نفى عن نفسه ابتداءً وظيفة التأليف الفكري والمذهبي والتأريخي والفلسفي في عمله كله ، وإذا كان قد قدم نفسه لمتلقيه في الخطاب ذي الهم التربوي أبًا ومعلمًا وواعظًا ، فإنه هنا يتخلى عن ذلك كله ، ويقدم ذاته تقديمًا جديدًا متناغمًا مع الهم الذي تحمله المضامين ، وهو هم الذات الخاصة ، إنه يطرح ذاته هنا صديقًا للمتلقي ، ولكنه في هذا الموقع الآن ليس في مكان قوي يمكنه من العطاء أو التعامل مع صديقه المتلقي معاملة الند للند ؛ بل هو صديق مأزوم في أمس الحاجة إلى أن يحتضنه المتلقي تعاطفًا معه وتفهمًا لهواجسه وآلامه النفسية .

ومن هنا ذهب الشيخ يصور نفسه هاربًا إلى صديقه المتلقي من وطأة الهموم وضغوط الآلام النفسية وأحمال الحياة وإشكالاتها وآثامها تارة ، يقول :

((كلما أظلت سماء نفسي الغيوم ، كلما أرعدت وأبرقت مشيت إليك على أصابع القدمين ، وما أقصر الخطو وما أكثره حذرًا وخوفًا من آفات الطريق)) [١] .

ويقول :

((كلما صرختْ أعماقي وبكتْ هواجسي وظنوني وضاقت الدروب في خطوي وأثقلتني

(١) المصدر نفسه ٣٠٥/١ .

صخور الدرب الوعر وأدمت قدميَّ ، وأرهقت نفسي وعثاء السفر الفكري تذكرتـك ، ونـاديت عليك أن شاركني همومي ، ارفع عن كاهلي جلابيب الهموم .)) [١] .

ويقول :

((فإذا تظاهرت مثل هذه الصور في أجواء الذات أصابني الفزع إليك أذرف عندك دمعة نادمة لعلها تخط لي في حاشية الذكريات سطرًا من النـدم يخاصم عـني ويحـاجج ويطـرد كوابيـس الليل لعلي أنام في شيخوختي على ذكريات جميلة)) [٢] .

وهارباً إليه بهذه الذات ـ وبمـا يمـلأ فضاءاتها مـن رؤى وتصـورات لا ينبغـي أن تذهـب سدى ـ من الفناء ، تارة أخرى ، يقول :

((وما خـرج إليـك فـي كـل رسائلـي لا يعدو أن يكـون هذيان الشيخوخة ، قـدّرت أن في نزوله ضيفًا عليك لا ضيفًا على المدفن [تخفيـف] [٣] علـى الجثـة الـتي كـابدت عنـدي أو عنـد سواي غرقها في طوفان الرغبات)) [٤] .

والشيخ على أي حال يستهدف بهذا الاندفاع باتجاه المتلقي التخفيف مـن وطـأة الضغـط النفسي الذي يضايقه ـ كما سيتضح في مبحث تالٍ ـ ولكنه هنا لا يخفي حاجتـه إلى تفهّـم المتلقـي وتعاطفه .

هكذا يقدم الشيخ نفسه إلى المتلقي ، تـارة في موقـع العطـاء وأخـرى في موقـع الأخـذ أو شبهه ، وكأنه بذلك يريد تفعيل العلاقة بين طرفي الاتصال ـ أخذًا وعطاءً ـ سنة الحياة ، إنـه بهـذه اللمسات الجميلة يمتن علاقته بالطرف الآخر ، ويقيـم لذاتـه وجـودًا مرحبًـا بـه قـوي الأسـس في أعماق ذلك الطرف ، بما يضمن تأصيل التفاعل بينهما وبث المزيد من الطاقة في قنواتـه ، وشـد أزر التواصل عبر الرسالة وفيها ، وبذلك كله يبقى للشيخ حضوره ثابت الفعاليّة والنشاط ليلقـي بظلاله العميقة على كيفيّة التلقي ، وتحوله من تلق خامل إلى تلق حيّ فاعل منتج .

وبذلك كله لا يبقى الشيخ مجرد مؤلف يقف فعلـه وتأثيره عنـد حـدود الإنجاز الكتـابي للرسالة والدفع بها إلى ساحة التلقي ؛ بل يظل بؤرة إشعاع خالدة تفرض نفسهـا بقـوة عند كـل

---

(١) المصدر نفسه ٣٥٩/١ .

(٢) المصدر نفسه ٤٠٥/١ ـ ٤٠٦ .

(٣) الصحيح [تخفيفًا] .

(٤) المصدر نفسه ٢٢٢/٢ .

تلق للرسالة ، وعند كل متلق بحيث يتعذر استقبال الرسالة بكامل إشعاعاتها وتجلياتها وقوتها وتدفقاتها في معزل عن مرسلها .

وإذا أمكن ملاحظة ذلك في بعض من نتاج الأدباء ؛ إلا أنه لا يظهر بهذا الوضوح والقوة والتلازم بين أطراف الرسالة الذي تحقق في هذا المؤلف (رسائل إلى ولدي) .

* * *

الحقل الثاني : منهجه في الإبداع :

في إطار حرص الأديب - أي أديب - على إبداعه بحكم أبوته له ، وبحكم كون هذا الإبداع هو جناحه القوي الذي يفلت به من قيود الزمان والمكان إلى المطلق ، وبحكم أنه القالب الذي يقدم من خلاله ذاته بأبعادها المختلفة كما هي إلى هذا المطلق تقديمًا خالدًا ، نجد الأديب شديد الحرص على ملامسة الأعماق الوجدانية والنفسية والعقلية للمتلقي ملامسة مؤثرة على اعتبار المتلقي ملاذًا خالدًا تجد فيه الذات التي تلبست الرسالة عاصمًا معنويًا راسخًا يحمي تلك الذات من السقوط في يد الفناء والاندثار في المجهول .

وحين تكون لدى الأديب دوافع تتجاوز إيداع الذات في سجل المطلق والإفلات الأدبي من الذوبان في النسيان يتضاعف هذا الحرص بقدر تعدد تلك الدوافع الإضافية الآتية من الخارج ، ويتضخم بقدر ضخامة أهداف الرسالة .

هذا الحرص الذي تغذيه تلك الدوافع الداخلية والخارجية لا يزال يمارس فعله على ذات الشيخ ويشكل هاجسًا ملحًا مصاحبًا له على امتداد الرسالة بما يكفي لبروز ألوان من الانعكاسات على كثير من آفاق الرسالة شكلاً ومحتوى ، كما اتضح في المبحث السابق ، وكما سيتضح في القادم من مباحث هذا الفصل .

ومن الجوانب التي يمارس هذا الحرص فعله فيها وتأثيره عليها (منهج المرسل في إبداعه) ، أي الطريقة التي يعتمدها المرسل أثناء عملية الإبداع استقطابًا وبلورة وإشعاعًا ، متوخيًا بذلك تكريس التواصل مع متلقيه وتعميق أسسه ، ودعم علاقة المتلقي به وبرسالته - كما هو حال العمل المطروح الآن للدراسة .

ومن هنا يمكن القول : إن الواقعية في المعالجة أو المبالغة ، والسخرية أو الرصانة ، وأساليب الخبر والإنشاء ، وخطاب العقل تارة والوجدان تارة أخرى ما هي - في نظر الدارس هنا على الأقل - إلا مناهج في الإبداع يتكيء عليها الأدباء ويوظفونها أثناء العملية الإبداعية الكاملة وسيلة من وسائل التأثر استقطابًا وبلورة ، والتأثير إشعاعًا ، مستهدفين - في النهاية - ترسيخ أقدام

الرسالة لدى المتلقي المطلق ، ودالين على طريقة رؤيتهم واستيعابهم للأشياء ، قبل أن تكون هذه سمات أسلوبية لازمة لأدب الأديب .

ومن هنا يتضح الفرق بين ما سُمِّي ((منهج الإبداع)) وبين ((أسلوب الأديب)) ، فمنهج الإبداع هو طريقة الأديب التي يعتمدها في التعامل مع موقف إبداعي ما ، وتتغير هذه الطريقة بتغير ذلك الموقف وبتغير الموضوع استقطابًا ، وبتغير المتلقي تعاملاً ؛ أي أن للأديب في كل عملية إبداعية منهجًا خاصًا لا يتكرر في عملية إبداعية أخرى ذات موضوع وموقف إبداعي ومتلق مغايرة .

ولست بحاجة هنا إلى التدليل على هذه الرؤية فمؤلفات الشيخ نفسه تدعمها ؛ إذ يختلف منهج الإبداع فيها باختلاف المرسل إليه بغض النظر عن مجازية المرسل إليه أو حقيقته .

ولكن ، حينما يتكرر حضور هذا المنهج في إبداع أديب ما على الرغم من اختلاف عمليات الإبداع وموضوعاتها ومواقفها ومتلقيها يتحول إلى أسلوب فني يعرف به ذلك الأديب ، ويميزه عن سواه .

وعلى تلك الخلفية نعود إلى المؤلَّف المطروح للدراسة لنجد الشيخ قد نثر في ثناياه مجموعة من الإشارات التي يقارب فيها هذا الجانب في سعي إلى الكشف عن الأسس والضوابط التي اتكأ عليها في عمليات الاستقطاب والبلورة والبناء والإشعاع ، في إطار رغبته الحاضرة دومًا في تكريس وتقوية شعور المتلقي بالعلاقة الحميمة التي تربطه بالمرسل من ناحية وبالرسالة من ناحية أخرى على اعتبار ذلك عاملاً حاسمًا في صناعة موقف المتلقي من حمولة الرسالة التي تستهدف الخير له أولاً وأخيرًا .

وبالتدقيق في هذه الإشارات وتصنيفها يلاحظ أنها قد كونت في مجموعها ما يمكن اعتباره منهجًا عامًا للإبداع في هذا المؤلَّف يقوم على مجموعة من الأسس والضوابط التي يعتمدها الشيخ في عمليات الاستقطاب والإشعاع وكيفية صياغة ما تم استقطابه في الرسالة . وفيمايلي تفصيل ذلك .

١- ضابط الاستقطاب :

كشف الشيخ في خطاب قوي عن الضابط الذي اتكأ عليه في عملية الاستقطاب انصرف فيه إلى توصيف مركّز لطريقته في مقاربته الإبداعية للموضوع الخام المطروح للمعالجة الإبداعية، وعن كيفية تحاوره معه ، ورصد تجليات هذا الحوار وتلك المقاربة وتحويلها إلى رسالة منجزة .

ذلك الضابط يتمثل في اقتحام المكنونات عند مباشرة المعالجة للنفس الإنسانية على وجه التحديد ، والنفاذ إلى الأعماق القصية ، وفتح مخابئ النفس ، وفضح ما يستتر خلف الحجب ، وكشف ما لفّع باللفائف ، يقول :

((قد لا تخجل ولا تستحي واحدة من هذه الرسائل فتحمل ولو ضوءًا خافتًا فتدخل بك في الظلمة التي اختفى فيها كل المنافقين وكل الدجالين وكل المزورين للقيم والمثل فيضجروا ويغضبوا)) [1] .

ومع أن الشيخ لم يشر إلى هذا الضابط مقرونا بالرسالة وبهذا الوضوح إلا في الخطاب الآنف ؛ إلا أنه قد مدّ هذا الخطاب على جميع رسائله هذه في لمسة فنية بارعة حين قال فيه ((قد لا تخجل ولا تستحي واحدة من هذه الرسائل)) ، فالخطاب ــ إذًا ــ مسحوب على كل واحدة من هذه الرسائل ، ومن هنا فلنا أن نفترض الحضور الدائم لهذا الضابط في كل ((واحدة من هذه الرسائل)) .

ولشعور الشيخ بقوة خطابه وعمقه وقدرته على فضح تلك الزوايا المتوارية في النفس الإنسانية وتعريتها مما قد يجر عليه سخط طائفة من الناس ، ومن ثم نفرتهم منه في الوقت الذي يسعى فيه إلى إبرام علاقة ودٍ حار مع المتلقي - أيًا كان هذا المتلقي - رغبة في بناء جو ملائم يدفع ذلك المتلقي إلى تقبُّل حمولة الرسالة بروح الصداقة مما دفعه على الفور إلى محاولة امتصاص ذلك الغضب والضجر ، وما قد يتولد عنهما من نفرة وتمرد ، فوصل بخطابه السابق مباشرة خطابًا أكّد فيه أن اقتحام هذه الأسوار ، وتمزيق تلك الحجب الساترة ، وخلع تلك اللفائف ، إنما يباشر ذاته الخاصة دون سواها ، يقول :

((وحتى لا يحل على واحدة من رسائلي العقاب بتهمة القذف ، فإني هنا أو هناك لا أقذف إلا نفسي ولا أبحث في الظلمة إلا عن مكاني فيها)) [2] .

ويؤكد ذلك مبينًا أنه لا يهدف إلى إيذاء أحد ، ولا يسعى بذلك إلى أن يكون معلمًا لأحد ، وإنما هي هواجسه ، وقراءته لذاته الخاصة ، فيقول :

((فإن أثقلت رسائلي إليك ضمير أحد أو أزعجته فما قصدت إيذاءً أو تعليمًا لأحد ، أنا

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٨ - ٣٩ .

أطرح هواجسي لك)) [١] .

إنها لفتة لطيفة ربما تمكن من خلالها من طمأنة ذلك المفزوع ، وتألف قلبه ، والفوز باحترامه ، وإثارة تلهفه إلى استقبال إشعاع الرسالة ، واستعداده للتفاعل مع حمولتها .

لم يكتف الشيخ بهذا القدر من احتواء غضب ذلك المتلقي ؛ بل سعى إلى توطيد العلاقة معه بشكل خاص ، فاحتضنه ، وجعله جزءًا غاليا من نفسه ، وصنوًا لها في مواجهة هذا النقد ، يقول : ((إنما أود أن تعرف أنني مدفوع بجور نفسي إلى أن أقول تصوراتي وأن أنقد ذاتي وكل ذات عزيزة عليّ)) [٢] .

فإذا وجد بعد هذا من يماري في نفوره ، ويصر على امتطاء صهوة الغضب فهو وذاك ، هو قراره النابع من شعوره بحقيقة ذاته ، ولا عتب على الشيخ بعد أن اجتهد في تلافي ذلك ، وليس من الممكن التنازل عن هذا الضابط الصحي لحساب ذلك المماري الغالي ، يقول :

((فإذا تصور أحد من الجماعة الكثر أنني عنيته ، فمن سلوكه ومعرفته بنفسه ثار هذا التصور عنده وليس لي يد في ذلك فما عنيت أحدًا ، ومن ظن أن مقعده في الظلمة ومكانه فيها قد انفضح ولم تستره فهذا شيء يعنيه وما عنيته أنا)) [٣] .

ذلك هو العنصر الأول من عناصر منهج الإبداع عند الشيخ .

استقطاب أمين في التعامل مع الحقائق المتخفية في ظلمات النفس ، سواء كان استقطابًا للذات الخاصة ـ كما أشار إلى ذلك ـ أم كان استقطابًا عامًا ينصرف إلى الذات الإنسانية ـ كما هو الواقع ـ وهو ـ على كل حال ـ استقطاب لا يفتقر إلى الجرأة والصدق والعمق القادر على نثر الأشياء المكنونة تحت الشمس .

وإذا كان الشيخ قد عمد إلى التعامل مع دخائل النفس ومكنوناتها في حضور هذا الضابط بقوة ووضوح ، مع ما في ذلك من صعوبة وغموض ، فإن حضوره أثناء التعامل مع ما هو خارج النفس من حقائق كونية وفلسفية وحضارية وفكرية واجتماعية وتاريخية وسياسية من باب أولى .

ومع أنه ليس من هم هذه الدراسة الكشف عن مدى تحقق هذا العنصر في مجال التطبيق

---

(١) المصدر نفسه ٨٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه ٨٥/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣٩/١ .

والممارسة الفعلية في الرسالة ـ كما أسلفت ـ إلا أن واقع الرسالة يثبت بوضوح تحققه التام ، مما جعل هذه الرسالة قيمًا وجدانية ونفسية وفكرية ومعرفية وثقافية وفلسفية وتاريخية واجتماعية وسياسية بالإضافة إلى قيمتها التربوية الكبرى .

٢ـ ضابط التواصل :

يلجأ الأديب إلى استخدام أساليب خطاب تعكس دوافع وحمولة وأهداف رسالته ، وربما اتسمت هذه الأساليب التواصلية بشيء من الحزم والصرامة في الأدب الهادف على وجه خاص ، ومن هنا يحتشد في الخطاب الكثير من أساليب الأمر ، والنهي ، والسخرية ، والتفجع ، والنداء ، واللوم والتعنيف.... وذلك كله يندرج في إطار رغبة الأديب في حث المتلقي على تقبل حمولة الرسالة والتفاعل معها .

ومع أن هذه الأساليب تستند في حضورها إلى الدوافع الخفية وغير الخفية في أعماق الأديب ـ وعادة ما تكون دوافع الأديب وأهدافه التي تعضد وجود الرسالة ذات الحمولة الإيجابية ابتداءً وانتهاءً نبيلة من حب وإخلاص وحرص وخوف يغدقها الأديب على متلقيه وعلى رسالته ـ إلا أنها لا تخلو في نهاية الأمر من شعور المتلقي بظهور نسبي للنبرة السلطوية المستبدة ، التي ربما علت إلى درجة مصادرة المتلقي ، والحجر على حريته ، وفرض نوع من الوصاية عليه ، ودفعه قسرًا إلى التقبل الأعمى لحمولة الرسالة ، وذلك لمبرر أو لغير مبرر .

إن شعور المتلقي بهذا ربما استثار في أعماقه ـ في كثير من الأحيان ـ نزعة التمرد ومن ثم النفور من المرسل ومن رسالته ، مما يؤدي إلى ارتخاء حبل التواصل بين طرفي الاتصال ، ومن ثم تسقط الرسالة في سجلات التاريخ المحفوظ في أحسن أحوالها .

تأسيسًا على ذلك وفي إطار حرص الشيخ ـ هنا ـ على دعم علاقاته الحميمة مع متلقيه بكل وسيلة متاحة نجده قد كشف بوضوح عن ضابط تواصلي ملبٍ وعاكس لهذا الحرص ، اعتمد تفعيله أثناء عملية الإشعاع بالرسالة إلى المتلقي ؛ ذلك الضابط الذي أقام عليه الشيخ عملية التواصل الكاملة مع متلقيه هو ((رتق الانشطار)) .

لقد ارتفع في هذه الحقبة الزمنية ـ على وجه خاص ــ صوت الشكوى من بروز فجوة نشطة النمو بين أجيال الآباء وأجيال الأبناء ، لأسباب نفسية وفكرية قديمة الوجود ، ولكنه كان في الماضي وجودًا خاملاً محدود الآثار ، غير أن الحياة المعاصرة بنموها العشوائي في جوانبها

المختلفة ، وبإشكالاتها المعقدة راحت تغذي جذور هذه الأسباب ، وتمدها بطاقة نمو غير معهودة ، فنمت هذه الأسباب ، ونمت - بالتالي - تلك الفجوة نموًا متسارعًا حتى اتخذت حجمًا بالغ الخطورة ، بما أصبح يشكله من تهديد للبناء الثقافي والعلائقي للأمة ، مما جعلها تتحول إلى قضية مطروحة بإلحاح تشغل المخلصين وبعيدي النظر من أبناء هذه الأمة ، وغدت هاجسًا يقض راحتهم ويستأثر باهتمامهم .

هذه القضية الخطرة بحاجة ماسة إلى الدراسة والمعالجة السريعة قبل أن يستفحل خطرها وتتحول إلى وجود فعّال قد يؤدي إلى كسر الخط العام الذي يضبط سير الأمة ، ويعطيها هويتها الخاصة ويحفظ عليها بناءها المميز .

لقد أحس الشيخ برؤيته العميقة التي صقلتها تجربته الطويلة ، وخبرته المتراكمة بالحياة وبالناس باضمحلال حبال التواصل بين جيل الآباء وجيل الأبناء ، وبالفتور الذي سرى في جسد العلاقة بينهما وبالبرودة التي قد تصل درجة التجمد في خطاب أحدهما للآخر ، ومن هنا حاول أن تكون رسالته في حمولتها وفي تقنيات خطابها المعنوية والشكلية وسيلة لتضييق مساحة هذه الفجوة ، ومع أن كل ما سلف من صلب هذا البحث يأتي في هذا المسار ويحمل هذا الهدف إلا أنّ الشيخ - هنا - يعالج بشكل أكثر مباشرة هذه القضية ، ويعلن صراحة رغبته في تغييبها من خطابه ، وتجنب آثارها التي من شأنها أن تدمر جسور التواصل مع متلقيه .

لقد أعلن صراحة عن سعيه في خطابه إلى ((رتْق الانشطار)) الذي كرسه تبدل وجه الحياة اليوم عنه في الماضي بينه كأب ينتمي إلى الجيل السابق وبين متلقيه الذي ينتمي إلى جيل اليوم ، يقول في الرسالة الأولى :

((وقد تحاشيت قدر المستطاع ، أن يقع الانشطار بين ابن الستين والأزمنة البعيدة التي أقرأته أحداث الماضي ، وبين ابن العشرين أو الثلاثين الذي أخشى ألا يكون له من كتاب غير ما تمليه هذه الحضارة على عقله وذهنه وربما رغباته وغرائزه ....!)) [1] .

وإذا كان الشيخ - هنا - قد صرح بتحاشيه - قدر المستطاع - وقوع هذا العازل القاطع بين طرفي الاتصال ، وإذا كان قد أوصد هذا الباب من أبواب التواصل ، وأعلن أنه لن يدلفه ، فلا بد أن يفتح أبوابًا أخرى يدلف من خلالها إلى المتلقي لتحقيق التواصل وإلا فلا سبيل إليه ، فما المنافذ التي يمكنه العبور من خلالها ؟

---

(١) المصدر نفسه ٢٨/١ .

يشير الشيخ إلى عدة منافذ اعتمدها معابر يسلكها ويصل من خلالها إلى أعماق متلقيه ، وهي لما تتسم به من كثافة وتشبع بالمكونات الوجدانية والنفسية والعقلية قادرة على ردم الفجوة المشار إليها آنفًا وطمس معالمها . هذه المعابر هي :

أ- إزاحة السلطة :

يقول الشيخ في رسالته الأولى :

((وكنت في كل ما كتبته في أوقات مختلفة ، لا أحمل معي سلطة الأب ويقينه بأن ما يقوله شيء ملزم لكم ، أبدًا ، فقد كنت أحاول بكل جهد ألا أُملي إرادتي وتفكيري وتجربتي القاصرة وظروف حياتي على شاب يقرأ في كتاب هذه الحضارة المذهلة ما لم نقرأه - نحن الآباء - عبر التاريخ الطويل ....)) [1] .

إذا كان الشيخ قد اختار الأبوة - بالدرجة الأولى - مكانًا ينطلق منه باتجاه متلقيه - كما اتضح في المبحث السّابق - فإنه هنا يعلن اقتصاره منها على جانب العطاء ، والدفق الوجداني والنفسي الذي لا يكدره مكدر ، دون أن يمنح نفسه فرصة ممارسة أو استغلال ما يتيحه له مكانه هذا من سلطة مستعلية مملية على متلقيه - الخاصّ على الأقل - وملزمة إياه - بالإكراه وبغير الإكراه - التقبل الصامت لحمولة الرسالة ، حتى في ظل وجود الدوافع النفسية والوجدانية والعقلية النبيلة ، وقضايا الرسالة شديدة الخطورة وأهدافها الكبيرة ووجود الذات المبدعة التي تصدر في ذلك كله عن خبرة وتجربة صقلهما نيّفٌ وستون سنة مع الحياة وما فيها بما جعله أحدّ رؤية لها ، وأقدر على سبر خفاياها .

وفي خطاب آخر يؤكد الشيخ لمتلقيه إزاحة السلطة المستبدة عن مجال التواصل ، واحترامه التام لحريته ، وعدم التجاوز على تلك الحرية ، وتوقفه في ممارسته لهذه السلطة عند حدوده الخاصة ، يقول :

((لي هنا حرية الكتابة إليك ، وليس لي التجاوز على حريتك ....)) [2] .

وإذا كان قد اعتمد هذا فلم يعد هناك - إذن - مسوغ للوم الجيل أو محاكمته أو تقريعه لأنه لم تعد له سلطة ذلك ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢/١٨١ .

((أنا لن أعنفكم في هذه الرسالة ولن أقاضيكم ولن أصدر حكمي على واحد منكم ،)) [١] ، ولكن لو حدث شيء من ذلك ـ عرضًا ـ فليس مقصودًا لذاته ، وإنما الهدف منه أن يدفع متلقيه إلى الشعور بمسئوليته الكبرى تجاه نفسه ، ثم تجاه أمته ، وتحملها ، يقول :

((وإذا لمتك ، إذا رأيت مستقبلك في مستقبل هذه الأمة الكبرى فدعني أَلُمك وأعنفك ، فلا عذر لك ولا لأحد سواك من أقرانك)) [٢] .

لم يتوقف الشيخ عند إزاحة سلطته عن متلقيه جانبًا ، وصون حريته، واحترام مشاعره ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، حين ذهب يدفع متلقيه بقوة إلى استحضار شخصيته الكاملة في مواجهة الرسالة ، وإلى الممارسة الفعّالة لتجليات تلك الشخصية أثناء تلقيه لها وحواره معها ، فعل الشيخ ذلك عندما أخذ يحفز المتلقي على رفض الرسالة والتمرد عليها حين تتحول في عينه إلى غبار يعوق الرؤية ، أو تلال من الوهم تعترض طريقه إلى الحقيقة ، يقول :

((ولدي :

ما كتبته أو أكتبه الآن أو غدًا هو خلط الذكريات عندي يصدر إليك على غير نظام ، وعلى غير هدف . هن أتربة ذاتية أحثوها عليك فإذا أثارت الغبار في وجهك ، وأقامت تلالاً من الوهم في طريقك فلا تحترمها ، فخروجك عليها ليس عقوقًا ، وليس تمردًا على قيمة أو معنى)) [٣] ؛ بل إنه ليقسم على متلقيه ألا يلتحم مع الرسالة باستسلام وقناعة وموافقة بليدة ، وإنما يقابلها بالمشاكسة والحوار الجريء والشك حينما يجد ما يدعو إلى ذلك ، يقول :

((في ذمة الغيب أو على قارعة الطريق ، إذا قابلتني في يوم من الأيام وراعتك هواجسي وظنوني أو راضتك معها فقل لها : قفي مني خطوات أريد أن أقرأ في ملامحك ، وفي شحوب وجهك ، وفي نحول جسمك ، ماذا تعنين في سيرك إليّ ! ..

تعلم الشك ، أفرج عنه من بلادة الحس ....)) [٤] .

هكذا أعلن الشيخ عن محور من محاور ضابط التواصل ، وهو محور لم يكتف فيه بإزاحة السلطة متعددة المتكئات عن ميدان التواصل مع متلقيه ؛ بل تعدى ذلك إلى الإلحاح في دفع ذلك

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ١/٢٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ١/٤١٠ .

(٤) المصدر نفسه ٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

المتلقي إلى اتخاذ الموقف الذي يحفظ له حريته واستقلال شخصيته وتوازنه على الطريق إلى الحقيقة ، وهكذا أراد أن يتواصل مع متلقيه تواصلاً يقود طرفي الاتصال إلى لقاء حار على أرض قوامها الصداقة والاحترام المتبادل والحب ، عوضًا عن التسلط من طرف ؛ والتمرد من الطرف الآخر ، وهما إعلان وإرادة لن يزداد بهما إلا قربًا من نفس متلقيه .

وإذا كان الشيخ قد قطع على نفسه ـ اختيارًا وتفضلاً ـ الطريق إلى اعتلاء منبر السلطة ـ علا أم انخفض ـ في ظل حضور مسوغات اعتلائه المشار إليها آنفًا ؛ فإن ذلك لم يسلبه من سلطانه الأدبي شيئًا ؛ بل إنه بهذه الممارسة الواعية التي حفظ من خلالها للمتلقي استقلال شخصيته وحريته ؛ يكرس هذا السلطان ويبني له وجودًا في أعماق متلقيه محاطًا بسياج عريض من الحب والاحترام والترحيب بما يكفي لمحو أية فجوة في أرضية التواصل ، وتجاوزها .

ب ـ استيعاب المتلقي :

لطي المسافة الثقافية والنفسية بينه وبين متلقيه ساق الشيخ خطابًا أعلن فيه احتضان ذلك المتلقي ، واستضافته في سعة الصدر ، والتخلي عن تقاليد التواصل القائمة على شعور الذات السابقة بضآلة الذات اللاحقة أمامها ، وهي تقاليد تسربت إلى أعماق كثير من الآباء من رواسب الماضي ، يقول :

((عليّ أن أفتح لك قلبي ومشاعري وكل باب أوصدته في وجهك الضرات الجائرات داخله، فليس أكثر منهن قصرًا في الرؤية خصوصًا إذا كن آتيات بأحقادهن وبآفاتهن من علو الزمن))[1] .

إن هذا يمثل معبرًا آخر يجتاز من خلاله تلك المسافة .

جـ ـ الإشباع العاطفي :

الرسالة موجهة إلى شريحة الأبناء ، والأبناء ــ وإن كبروا ــ شديدو الظمأ إلى الفيض العاطفي الأبوي ، مما يجعل استجابتهم له ، وتفاعلهم معه أكثر منهما لأي شيء آخر ، وقد أدرك الشيخ هذه الحقيقة ، فأمطر متلقيه بمياه عاطفية صافية غزيرة ، وكانت الرسالة بكاملها ينبوعًا متدفقًا من وجدانه باتجاه متلقيه ، وسعى مخلصًا إلى أن تكون هذه الرسالة ثوبًا من مشاعره أو أحاسيسه ، يقي المتلقي من برودة الحياة وقسوتها ، أشار إلى ذلك حين قال :

((أيمكن لي وأنا أسجل لكم هنا وثيقة ليست من ترف الكلام ولكنها حشاشة نفسي تمشي إليكم في وله أم الفطيم على صغيرها ، أقول أيمكن لي أن أصوغ لكم من عواطفي وتجربتي

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٣/١ .

وتفكيري ملابس تعطيكم من دفء روحي وخفقات قلبي أرق العواطف وأدق ما يكون التجرد معكم ؟ سأحاول إن استطعت)) [١] .

ومع أن الحمولة الأولى للرسالة تربوية ذات متن وعظي ، وكان من الطبيعي أن يعتمد في إيصالها على ما اعتاده الوعاظ من أساليب ؛ إلا أنه قد تخلى عن ذلك ، واستعاض عنها بهذا الدفق العاطفي والعبور الشعوري الحاني إلى أعماق المتلقي الذي يكشف عنه هذا المنهج في التواصل ، يشير إلى ذلك قائلاً :

((ولدي :

قبل أن أكتب لك هذه الرسالة فكرت أن أحيلك إلى مواعظ الشيخ الجليل ابن الجوزي والتقي الفضيل بن عياض ، ولكن لأنك شاب مضطرب ، في نفسك أمواج عاتية من القلق والوجل من الجلوس طويلاً تحت منبر الواعظ قدرت أن [٢] كتابة هذه الرسائل الحانية على بؤسك والآتية من خوفي عليك ....)) [٣] .

هكذا أشار الشيخ إلى أحد المعابر التي اعتمد سلوكها إلى المتلقي في خطابه ، في تجاوز آخر للانشطار الذي أكد رغبته الجادة في تحاشيه .

د. مرونة الموقف :

التصلب في المواقف ، والتشدد في التعامل مع الأشياء ، والتعصب لشيء على حساب شيء آخر من أبرز أسباب الانشطار بين طرفي الاتصال ، ومن أخطر عوامل وجوده واتساع فجوته .

وفي هذا الصدد فقد وجه الشيخ إلى متلقيه عدة إشارات نفى فيها أن يكون قد سعى إلى ممارسة شيء من ذلك في رسالته ، ففي إشارة إلى موقفه من الجيل في رسالته يقول :

((أنا لن أعنفكم في هذه الرسالة ولن أقاضيكم ولن أصدر حكمي على واحد منكم ، أنتم أبرياء عندي براءة تامة ، ثيابكم نظيفة ليس فيها بقع سود ، وليس لي عليكم مأخذ ألومكم عليه ، أنتم الآن غير مسئولين ....)) [٤] .

---

(١) المصدر نفسه ٢١/٢ .

(٢) يلاحظ سقوط خبر (أن) من النص ، ويحتمل أن تكون العبارة (أنْ أكتب) فوقع خطأ مطبعي .

(٣) الرسائل ٢٦٢/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٠/٢ .

فهو في الرسالة يقف منهم موقفًا مرنًا قائمًا على أساس أنهم لما يتحملوا - بعد - المسئوليات الكبرى التي تتخذ المواقف على أساس كيفية أدائها ، ويقول :

((أأنا بهذا (الوعظ) والد يبست أضلاعه على ماض لا يلين وإن أغرقته مياه هذه الحضارة بطوفانها ؟ أبدًا ..)) [1] .

هكذا يشير إلى تجنبه للصلابة والتشدد أثناء نقل حمولة الرسالة إلى متلقيه .

وأشار إلى سعيه إلى تجنيب رسالته الوقوع في التعصب والأنانية مستعيضًا عنهما بالوقوف مع متلقيه على قدم المساواة ، يقول :

((ولدي :

ليست رسائلي إليك آتية في ضيق ثياب شريحة متعصبة لا تعترف بوجود غير وجودها ، إني من القوم الذين قال شاعرهم القديم :

"فلا هَطَلَتْ عَليَّ ولابأَرْضي سحائبُ ليسَ تَنْتظِمُ البِلادا" [2])) [3]

إن الشيخ يرى أن الصلابة العمياء ، والتحجر ، والتعصب ، والأنانية ، ليست في حقيقتها إلا صورًا من صور طغيان الإنسان وغروره الفاحش يرمي بها أخاه ، فإذا لمس المتلقي - بعد ذلك كله - شيئًا من هذا في الرسالة فهي هفوة يعتذر إليه منها ، ويعلن له عودته عنها ، يقول :

((ولدي :

أمن الممكن والحال هكذا أن نجد للإنسان عذرًا في طغيانه وغروره الفاحش ؟ أبدًا ، وحين أنفي عنه العذر هل أكون قد وقعت فيما أحذر منه ؟ هل يظن أحد أنه قد أصابني الغرور وتسلطت عليّ أفكار تجمدت في ذهني وصارت إلى أحجار أقذف بها هنا وهناك كل من خالفني ؟ أود أن أعتذر لنفسي وأبقى في حدود قدري وحجمي البشري .)) [4] .

---

(١) المصدر نفسه ١٢٨/١ .

(٢) أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص٩٨ .

(٣) الرسائل : ٢٢٠/١ .

(٤) المصدر نفسه ٣٩١/٢ .

هـ ـ الحـوار :

إذا كان المرسل قد أعلن في ثنايا رسـالته إزاحـة السـلطة ، واحتضـان المتلقـي ، وإشباعه العاطفي ، ومرونة المواقف ، معابر يتجاوز بها أي احتمـال للوقـوع في الانشـطار ، وليحقـق مـن خلالها التواصل العميق والالتحام مع المتلقي في إطار واحد تجاه حمولة الرسالة فإن الحوار الإيجـابي هو جماع حسنـات ذلـك المسلـك ، ومن هنـا وجه المرسل إلى المرسل إليه خطابًـا مطـولاً جعـل ((الحوار)) عنوانا وموضوعًا له ، واقترح فيه اعتماد ((الحوار)) وسـيلة للتواصـل مـع المرسـل إليه ، وفضاءً يتم فيه علاج قضايا الرسالة وتمريرها باتجاه الطرف الآخر مـن خلالـه ، ودعـاه فيـه دعوة ملحة إلى تحقيق ذلك حين قال :

((إذا صوت لك ورفعتُ الصـوت أن تعـال إليَّ فحـاورني ، أقلـق راحـتي بـالحوار حتى يتصبب عرقي ، لا تنجذب إليَّ في كيسك الرملي مبلد الحس فارغ الفؤاد ، أجلـب علـيّ بخيلـك ورجلك وقدها في شجاعة القائد الذي لا يخاف ولا يتهيب الخطر . فخيلـك ورجلـك لـن تنتصـر إذا لم تكن أفكارًا عاقلة وروحًا متجردة محمولة على إرادة واعية)) [(١)] .

إنها دعوة قوية إلى حوار عميق جريء عاقل متجرد قاصد .

وبهذا الحوار القوي يتم الالتحام التام بين المرسل والمرسل إليه في أعماق الرسالة التحامًـا يردم نهائيًا تلك الفجوة المشئومة في صفحة الخطاب بين جيل سابق وجيل تال .

وإذا كانت عملية الإشعاع بالرسالة قـد اكتملـت وأصبـح المتلقـي ــ الآن ــ في مواجهـة الرسالة مباشرة، في غياب حقيقي من المرسل ؛ فإن ذلك يعني استحالة إقامة الحوار المباشر معه .

لقد أدرك الشيخ ذلك ، ومن هنا فقد أناب الرسالة عنه طرفًا أولاً في الحـوار مـع المتلقـي على اعتبارها ((هو)) ـ كما سنرى في مبحث قادم إن شاء الله ـ ولذلك وجه إلى المتلقـي خطابًـا آخر دعاه فيه إلى الالتقاء بالرسالة، وإقامة الحوار الجاد معها ، ومساءلتها عما يعنيه منها، يقول :

((في ذمة الغيب أو علـى قارعة الطريق ، إذا قابلتني في يوم من الأيام وراعتك هواجسـي وظنوني أو راضتك معها فقل لها : قفـي مـني خطـوات أريـد أن أقرأ في ملامحـك ، وفي شـحوب وجهك ، وفي نحول جسمك ، ماذا تعنين في سيرك إليَّ ! .. تعلم الشـك ، أفـرج عنـه مـن بـلاده الحس ....)) [(٢)] .

---

(١) المصدر نفسه ١/٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٩٨ - ٢٩٩ .

ومع أن هاتين الإشارتين ليستا توصيفًا مباشرًا لأسلوب المرسل في التواصل مع متلقيه ، إلا أنهما تشيران بوضوح إلى أنه قد اعتمد الحوار واحدًا من المسالك التي يعبرها إلى طرف الاتصال الآخر ، ولقد تحقق ذلك بوسائل عديدة في الرسالة (١) .

ذلك هو ضابط التواصل الذي كشف الشيخ عن اعتماده وتفعيله أثناء تواصله عبر الرسالة مع متلقيه .

السعي القوي إلى تغييب الانشطار من ميدان التواصل ، ووسيلة ذلك إزاحة السلطة ؛ أيًّا كان نوع هذه السلطة ـ سلطة الأب أو الواعظ أو المعلم أو الحكيم أو المسئول أو المرسل ـ ، واستيعاب المتلقي في سعة الصدر ، وإشباعه عاطفيًّا ، ومرونة الموقف ، والحوار .

ولا هدف لذلك غير تحقيق عبور كامل قويّ إلى أعماق المتلقي الوجدانية والنفسية والعقلية يضعه تحت أنماط إضافية من التأثيرات التي يؤمل أن تسهم بفعالية في دفعه إلى اتخاذ موقف التفاعل الإيجابي النشط مع حمولة الرسالة ، ومن ثم التحرك إلى تحقيقها في الذات وخارجها .

تعقيب :

إن ما يمكن أن يقال عن هذين الضابطين (ضابط الاستقطاب وضابط التواصل)، وعن تقديم المؤلف لنفسه ـ على اعتبارها تتعاضد جميعًا في سبيل بناء علاقة قوية مؤثرة بين طرفي الخطاب هنا ـ يمكن أن يكون موضوعًا خصبًا وعميقًا لأطروحة علمية من المؤكد أنها ستكون بالغة الأهمية في علاج الفجوة الفاصلة دائمًا بين جيل سابق وآخر ناشئ . غير أن المقام ـ هنا ـ لا يسمح بأكثر من وقفة تتسم بالعمومية والاختصار الشديد حول هذا الضابط الأخير .

إن ما أشير إليه في هذا الضابط ـ على وجه خاص ـ ينم عن وعي الشيخ بنفسية ومزاج شباب هذا العصر ، وبحاجاتهم الوجدانية والعقلية التي تغيرت كثيرًا عنها في الماضي ، وما يترتب على ذلك من تحولات ينبغي أن تجري في أسلوب الخطاب إليهم والتواصل معهم .

---

(١) سيتم الكشف عنها إن شاء الله في الفصل السادس .

ذلك كله ينم عن شخصية إبداعية واعية ، مرنة ، واثقة من نفسها ومما يصدر عنها ، صقلتها التجربة وعلمتها الخبرة بالحياة وبالناس أن التعامل الراقي القائم على أسس من الصداقة والاحترام والحب والمرونة والحوار والتعقل ورحابة الصدر يحقق من النتائج ما لا يحققه الاستبداد ومصادرة حريات الآخرين وتحجيمهم ، شخصية فهمت بعمق وبأسلوب عملي طبيعة الحياة المعاصرة المفتوحة التي أصبح معها تلقين الناشئة ما يجب فعله وما يجب تركه أمرًا لا يجدي نفعًا ـ في ظل الانفتاح غير المحدود الذي تتسم به الحياة المعاصرة ـ ولا يمكن أن يساير بأي حال من الأحوال عجلة النمو المتسارعة في مختلف صور حياة اليوم مهما اتسعت وعمقت خبرات الآباء وتجاربهم ، ولعل من المهم هنا إعادة استدعاء قوله في أولى رسائله :

((وكنت في كل ما كتبته في أوقات مختلفة ، لا أحمل معي سلطة الأب ويقينه بأن ما يقوله شيء ملزم لكم ، أبدًا ، فقد كنت أحاول بكل جهد ألا أملي إرادتي وتفكيري وتجربتي القاصرة وظروف حياتي على شاب يقرأ في كتاب هذه الحضارة المذهلة ما لم نقرأه ـ نحن الآباء ـ عبر التاريخ الطويل ....)) [1] .

بل إن هذا الأسلوب القديم في التواصل أصبحت ممارسته ضربًا من المستحيل ، لما سيواجه به من رفض لدى المرسل إليه يقول :

((لا أستطيع أن أضعك ورفقاء دربك في جيبي أو في محفظتي لا ترون أحدًا ولا يراكم أحد ، هذا أمر مستحيل)) [2] .

لقد تغيرت الحياة كثيرًا ، ومس هذا التغير أعماق الإنسان ، هذه حقيقة ينبغي الاعتراف بها والتعامل معها بواقعية وموضوعية ، يقول :

((ولدي :

أخط لك هذه الرسالة لا لتصوغك ذكرياتي عن القرية ورفقاء القرية في أثوابها ، فهذا شيء غير ممكن . قرية الأمس غير قرية اليوم ، ومدينة الأمس غير مدينة اليوم ، وإنسان اليوم لا يمكن أن نعود به إلى إنسان الأمس ، لكل مساره ولكل زمانه ومكانه ، ....)) [3] .

وفي ظل هذا التغير ؛ فإن من التعسف ومن القسوة السعي إلى انتزاع الناشئ من مكانه

---

(١) الرسائل : ٢٨/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٤٩/٢ .

في سياق الحياة المعاصرة بإملاء مواقف ولدت وشبت وشابت في زمان له ظروف تكاد تكون منبتة عن ظروف الحاضر ، يقول في إحدى رسائله :

((كم حاولت أن أدفن هذه الرسالة وابتعد بها عن رسائلي إليك في مدافن النفس التي ما أكثر ما فيها من دفين ، فأنت طري النفس رقيق المشاعر ، ربما تكون حالمًا تطير على أجنحة أحلامك في وضح النهار .. ربما لم يكن لك ليل يطارد أحلامك فيغطيها الظلام .. وشاب هذه حاله وهذا تفاؤله ألا يكون من جور أبيه عليه أن يأخذه إلى رمال الدهناء فيدفنه في أعماقها ؟)) [1] . ومع أن ((رمال الدهناء)) هنا تنصرف إلى ((الكآبة والتشاؤم)) أكثر من انصرافها إلى أشياء الماضي ، إلا أنها مع ذلك واضحة الدلالة على فهم طبيعة جيل اليوم والتعامل مع هذه الطبيعة .

بهذا كله يكون الشيخ قد زوّد رسالته بشحنة متنامية الاتقاد ، لا تنفد ، تهيء لها استقبالاً حارًا لدى كل جيل ناشئ ، وبه أيضًا رسم الطريقة المثلى للآباء للتغلب على فتور التواصل مع أولادهم والخطاب إليهم ، ومع أنه ليس من هم هذه الدراسة تتبع التطبيقات والممارسات العملية لعناصر هذا الضابط إلا أنه لا يخفى حضوره الفعّال على امتداد الرسالة مما جعل لها قيمًا وجدانية ونفسية وتربوية كبرى .

٣ـ ضابط البناء :

في إطار إشاراته إلى الضوابط التي اعتمدها في عمله الإبداعي ساق الشيخ في ثنايا رسالته مجموعة من الإشارات التي حدد فيها منهجه في بناء خطابه الإبداعي ، والأسلوب الذي اعتمده في التعامل مع مضامين رسالته .

ففي إشارة إلى الإطار العام الذي يحكم بناء الرسالة بكاملها يقول :

((ولدي : ما كتبته أو أكتبه الآن أو غدًا هو خلط الذكريات عندي ، يصدر إليك على غير نظام ....)) [2] .

هكذا ، خلط ذكريات ، لا يلتزم في إصداره منهجًا أو نظامًا محددًا .

إنها خواطر وذكريات متدفقة لا ضابط لها من خارجها ، وإنما ضابطها نابع من داخلها ؛

---

(١) المصدر نفسه ٢٠٨/٢ .

(٢) المصدر نفسه ٤١٠/١ .

إذ يشكل عنصر الانفجار الفجائي بما يطرأ في فضاء الذهن لسبب من الأسباب معلنًا بذلك ابتداء دفق الخطاب الإبداعي ، ثم تواصل ذلك التدفق بالاعتماد على عنصر التداعي التلقائي منهجَ بناء الخطاب في الرسالة ، يقول المؤلف في إشارة إلى ذلك :

((ولدي :

أأنا في مثل هذه الرسالة أعدو عدو جواد امرئ القيس ؟ أضع الخاطرة مكان أختها ، لا أرد آتية على عجل وإن كانت نشازًا في الصف ومتخطية إلى الورق رقبة أخت لها تنتظر من يأذن لها بأخذ مكانها من الرسالة ... ، ؟ هو هذا ....)) [١] .

ويقول :

((ولدي :

مثل هذه الخاطرة أو تلك أجلت مجيئها إليك وبقيت ملتصقة بجدار النفس في انتظار دورها الذي لها الخيار فيه وليس لي ، ....)) [٢] .

ويشير إشارة عامة تصور سلوكه مع رسالته موضوعًا ، وبناء ، ومعالجة ، فيقول :

((ولدي :

قد لا ترى لي وجهًا من قفا ، قد أضلع هنا أو هناك ، قد أخصف الورق على العورة . قد ...وقد. قد أحلب الضرع حتى أدميه . قد أحلبه ثم أريقه على الأتربة والرمال ....)) [٣] .

ومع ما لهذا الأسلوب القائم على عنصري الانفجار الفجائي ، والتدفق التلقائي ، من حسنات ، ومع ملاءمته لروح الإبداع الراقي إلا أنه لا بد أن تكون له بعض الانعكاسات التي قد يعتبرها المتلقي ذو النزعة المنطقية العقلية في استقبال الرسالة خادشة لجمال الرسالة ، ولكنها في عين المتلقي ذي النزعة الوجدانية في استقبال الرسالة إيجابيات تضفي على الرسالة أبعادًا جمالية إضافية لما تحمله من إيحاءات تعطي الخيال والوجدان المزيد من الفضاءات المهيأة للتحليق الحرّ ، بما يطلق رصيد الجمال والإمتاع من الحدود المغلقة ، وهو مطلب أساسي في الإبداع الراقي .

في هذا الإطار يشير الشيخ مرة أخرى إلى أسلوبه هذا ، ولكنه هنا يشفعه ببعض انعكاسات ذلك الأسلوب على روح الرسالة وحمولتها ، حين يقول :

---

(١) المصدر نفسه ١٤٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢٩٧/١ .

(٣) المصدر نفسه ٣٩/١ - ٤٠ .

((ولدي :

لا أدري ماذا قلت لك في رسائلي ؟ وماذا أملته عليّ خاطرة جاءت إليّ دون ميعاد ودون سعي وراءها ؟

لا أعرف هل ناقضت الخاطرة الخاطرة ؟ لا أعرف هل تجاوزت شيئًا جميلاً في الذكريات أو زوّرت القبيح إلى جميل ؟ ..)) [(١)] .

إذًا فقد أدى هذا الأسلوب في بناء الرسالة إلى عدم ضبط حمولتها تنظيمًا وتوافقًا واستيعابًا وحقيقة .

لكن الشيخ يعقب على ذلك مباشرة بما يشير إلى تعمده ممارسة هذا الأسلوب على اعتباره انعكاسًا أمينًا لحياة الإنسان نفسه وبنائه الوجداني اللذين لا يضبطهما منهج عقلي ثابت ؛ لا سيما والإبداع ذاته إنما هو في حقيقته مرآة حياة مبدعه ، ودفقات وجدانه ، وصورة أمينة لكيانه الداخلي الكامل ، يقول :

((فسيرنا مع الزمن لم يكن سيرًا آليًّا صممه مهندس وفق نظريته ثم دفع به إلى الطريق العام قطعة جامدة بناها الإحساس والشعور وقال لها الوعي سيري ....)) [(٢)] .

ذلك هو الضابط الذي اعتمده الشيخ في بناء رسالته ، ضابط قوامه التحرر الكامل من القيود العقلية والمنطقية التي تفرض من الخارج ، وإعطاء الفكرة والخاطرة ـ حضورًا وتداعيًا ـ الكلمة الأولى والأخيرة في رسم معالم بناء الرسالة ، مما أعطى لجماليات الأداء الفني أبعادًا إضافية بما له من تجليات وإيحاءات وجدانية ونفسية وفنية تتيح لخيال المتلقي التحليق في فضاءات جديدة تتسع وتتمدد وتتوالد كلما ازدادت طاقته على التحليق فيها .

وبهذا وبسواه تمكن الشيخ ببراعة فنية بالغة من الإفلات برسالته من القيود البنائية المعهودة في أدب الرسائل وإلحاقها بالآداء الإبداعي المتدفق على الرغم من الحمولة الموضوعية المتسمة بالجديّة والخطورة .

وبذلك تم ضبط وقراءة مضامين الشيخ التي كشف فيها عن منهجه الإبداعي ؛ ضابط استقطاب ، وضابط تواصل ، وضابط بناء ، تشكل في مجموعها المنهج العام الذي أعلن اعتماد

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٧/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢٧/١ .

توظيفه في ممارسته الإبداعية .

وبذلك ـ أيضا ـ تم ضبط المضامين التي قدم فيها ذاته وكشف فيها عن منهجه في إطار علاقة التواصل بينه وبين متلقيه من خلال الرسالة .

* * *

الحقل الثالث : في مسوغات الفعل الإبداعي :

إذا كان الشيخ قد حمّل رسالته مجموعة من الإشارات التي قدم بها نفسه ومنهجه في الإبداع فإنه حمّلها ـ أيضًا ـ مجموعة أخرى حاول فيها تسويغ فعله الإبداعي الكامل مستهدفًا بذلك ترسيخ وجوده في موقفه التواصلي المنوّه عنه آنفًا من ناحية ، ومنح ذلك الفعل الشرعية الوجودية والوظيفية فعلاً ومجالاً من ناحية أخرى ، وذلك كله يأتي في إطار رغبته في تهيئة الظروف المثالية لحدوث اشتباك إيجابي مثمر بين الرسالة والمتلقي يتحقق به أقصى ما يمكن تحققه من الغايات النبيلة التي يحملها الشيخ ذاته ويتوخاها .

إن مسوغات الشيخ هذه يمكن الكشف عنها في المحاور التالية :

المحور الأول : مثيرات الفعل الإبداعي :

في مواطن عديدة من الرسالة عمد الشيخ إلى إرسال إشارات خاطفة رصد بها الخلفيات التي تتوغل فيها جذور الفعل الإبداعي الناجز مشكلة الإطار الذي ولد فيه ونما واستوى .

وفي هذه الخلفيات تبرز المثيرات الطارئة جزءًا من أسباب ذلك الفعل ، وتحتل مساحة مناسبة على صفحة ذلك الإطار ، إذ ربما كان لكل رسالة من الرسائل أو خاطرة أو فكرة مثير دفع بها إلى ذهن الشيخ لتصبح بعد ذلك الخرزة الأم أو البنت في عقد أفكار الرسالة الواحدة . يشير إلى ذلك قائلاً :

((ولدي :

لكل رسالة من رسائلي إليك قدم مشت عليها ، ولكل نداء مكان أطلقته منه ، ولكل خفقة من خفقات النفس شجرة هبت عليها الصبا أو هبت عليها الرياح التي لا نملك غير استقبالها .)) [1] .

---

(١) المصدر نفسه ٣١٣/١ .

وتحتل الصحراء ، وما في الصحراء ، برصيدها النفسي والوجداني والفكري المودع في أعماق الشيخ وتفاعله المباشر معها في واقعها الحاضر أو مع صورتها ذات الحجم الكبير والجمال الساحر التي علقها في مكان بارز من جدار ذاكرته ، أقول : تحتل الصحراء بإطارها هذا الحقل المتقدم في قائمة المثيرات ، يقول :

((ولدي :

هذه الصحراء التي أخط لك من قلبها هذه الرسالة أثارت في نفسي ذكريات لأصوات الرعاة وخفقات قلوب المحبين ...!)) [(١)] .

وجزى الله الصحراء ألف خير ، فما أكثر ما في الرسائل من ذلك ومن سواه مما أثارته ، لقد كثرت إشاراته في هذا الصدد كثرة لا يمكن معها الوقوف عندها جميعًا .

كما شكل الواقع العربي وحركة الحياة والموت فيه أتونًا آخر مكتضًا بما يثير الأشجان والهموم ، يقول :

((فقد أملت عليّ هذه الرسالة صورة من الصور الكثيرة التي تتشكل في وطننا العربي في أشكال مختلفة ....)) [(٢)] .

وللمواقف والمشاهد الطارئة نصيب في إثارة خواطر الشيخ وأفكاره ، يقول في إحدى رسائله وهو يتحدث عن حياة الأمس :

((ولدي :

أتدري متى نهضت هذه الذكرى في نفسي ومتى تداعت على خاطري ؟ ....

لقد نهضت ذات يوم كنت فيه بعيدًا عن الوطن ، والمكان الذي انبعثت فيه هو بحيرة (أنسي) ....)) [(٣)] .

ثم يفيض في الحديث عن جمال تلك البحيرة ، وكيف أن ذلك الجمال في الوقت الذي أسر فيه أصدقاءه عبر به ـ هو ـ على الفور إلى جمال هذه الصحراء وهذه القرية القابعة في قلبها بين اليمامة والدهناء ، وهو الجمال الذي لا سلطان لسواه عليه .

تلك هي الإشارات التي سجلت أبرز حقول المثيرات الخاطفة للإبداع ، ((الصحراء،

---

(١) المصدر نفسه ١٣٤/٢ وانظر ١٣٥/٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٠٠/١ وانظر ٢٣٢/١ ـ ٢٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٢٣/٢ ـ ١٢٥ .

والواقع العربي ، والمواقف والمشاهدات)) لتشكل بذلك شريحة الأسباب الطارئة في الخلفية التي اتكأ عليها الفعل الإبداعي لدى الشيخ .

ومع أن هذه الإشارات إلى مثيرات الفعل الإبداعي جاءت هنا مرتبطة برسائل أو أفكار بعينها مما يعطي انطباعًا بمحدوديتها ؛ إلا أنه يمكن القول : إن ما لم يشر إليه المؤلف منها أكثر بكثير مما أشار إليه ـ كما يفهم ذلك من خطابه الأول في هذا المحور ـ مما يعطي لها مساحة أوسع في الخلفية المشار إليها .

المحور الثاني : دوافع الفعل الإبداعي ومقصدياته :

يقول الشيخ : ((...كم تهيبته (القلم) وكم تثاقلت يدي عن حمله ، ولكن فيضان الصور من أفق الإنسان وأفق الكون ، لم يترك لإنسان هذا العصر ملاذًا يلوذ به عن الغرق في أعماق التساؤلات والمخاوف))[1] .

وإذًا فهناك ما يدفع الشيخ بقوة إلى الكتابة من جانب ، ويجذبه إليها من جانب آخر ، وإذا كانت المثيرات المفروغ من رصدها توًا قد شكلت جزءًا من الخلفية السببية للفعل الإبداعي المنجز ؛ فإن الدوافع والمقاصد بما لها من حضور متصل قوي الضغط على أعماق الشيخ تحتل المساحة الكبرى لتغطي بذلك بقية المساحة البارزة في إطار الخلفية التي تتكيء عليها ممارسة الفعل الإبداعي الكامل لديه .

وتأتي إشارات الشيخ إلى الدوافع التي حفزته والمقصديات التي جذبته باتجاه الممارسة الإبداعية لتتحرك في سبيلين .

أ ـ في سبيل الذات :

إذ ساق جملة من الإشارات ألقى بها الضوء على مجموعة من الدوافع التي دفعته إلى الممارسة الإبداعية من أجل ذاته هو دون الالتفات إلى أي شيء خارج هذه الذات ، ويمكن حصر هذه الدوافع كما وردت في خطابه في النقاط التالية :

١ ـ الرغبة في تقديم الذات في صورتها التاريخية الحقيقية :

تعد رغبة الشيخ في إيداع ذاته في ذاكرة التاريخ كما هي ، لا كما سيخمن التالون ، من أبرز الحوافز الخاصة التي تقف بشموخ خلف هذا الإبداع المنجز ، ومن أهم المقصديات التي جذبت الشيخ إلى الممارسة الإبداعية وذلك لاعتبارات كثيرة ليس الآن مجال علاجها .

---

(١) المصدر نفسه ١٦/١ .

ولعل النص الفريد الذي ورد في ألماسته الرائعة (متى يوقظها القدر) يعكس هذه الرغبة بوضوح تام حين يقول :

((ولدي

أأضع أوراقي على قارعة الطريق الطويل وأترك الأحداث تخط لك فيها صداها ؟ أم أخشى أن تزور الحقيقة ؟ فلقد زوِّرت في أكثر ما خطه لنا التاريخ ...! ....)) [١] .

وإذًا فهو بفعله هذا يجنب أوراقه من الوقوع على قارعة الطريق التاريخي فارغة أو غير واضحة الخطوط ، مما قد يعرضها لأن تملأ بما تمليه الأهواء والآراء الخاصة القائمة على المواقف الشخصية المحكومة بظروف هي الأخرى شخصية ، لقد ملأها بذاته الحقيقية ، ولم يترك فيها سطرًا فارغًا يمكن أن يدسّ فيه التالون ما ليس من هذه الذات ، أو غائمًا يحتمل قراءات هي الأخرى ليست منها في شيء .

٢ـ الضغط النفسي :

طرح على الشيخ السؤال التالي :

((لاقت كتبكم ، وبخاصة " في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء " ، و " رسائل إلى ولدي " ، و "حاطب ليل ضجر " ، استحسانًا وإعجابًا من معظم الأدباء العرب ونقادهم ، وكتب عنها الكثير .. كما لاقت إقبالاً من القراء المثقفين ، ماذا يمكن أن تقولوا فيما كتب عنها أولاً ؟ وماذا يمكن أن تقولوا أنتم عنها ثانيًا ؟ أي الأفكار الأساسية التي كانت هاجسكم الأول وأنتم تكتبون وتؤلفون ؟ وهل حققتم شيئًا من تلك الهواجس ؟ ...)) [٢] .

فكان من إجابته على هذا السؤال قوله :

((أما هاجسي الأول مع القلم والأوراق فعسير على رجل مثلي أن يلحق به ، وهو بعيد عنه الآن في أعماق الزمن ، ولكن يمكن لي أن أتصور هاجسًا غيبيًا غير مكلف لي ولا (مثيرًا) عندي شيئًا من هواجس اليوم مع القلم والورق ، فهواجس الأمس الأول طفولية ، ربما فرحة بتدربها على الخطو فوق صدر الورق ـ كما تدرب الأم طفلها ـ هكذا تراءت لي هواجس الأمس وهواجس اليوم . لذلك تراني تهيّبتُ الطريق التي تمشي عليها أقلام المفكرين والأدباء والمثقفين فترة طويلة من عمري ، خائفًا و(مستحيًا) أن أحمل قلمًا أو يكون لي ورق.. فكلما ملأت

---

(١) المصدر نفسه ٢/١٦٧ .

(٢) مجلة الفيصل ـ العدد (٢٢٧) جمادى الأولى ١٤١٦هـ سبتمبر اكتوبر ١٩٩٥م ص ٧٨ .

الحياة قدحي بالهموم والمتناقضات أفرغتها في أحلام الليل أو أحلام اليقظة . فلغة الأحلام هي لغة الكبت الذاتي والنفسي . لكن هذا الإفراغ لم يخفف عني شيئًا مما عانيته ، فاستشرت أحد الأصدقاء ممن لديهم شيء من علم النفس ، فأشار بقوله : أفرغ شيئًا من قدحك على ورقك ، قلتُ له : أتريد مني أن أعرض نفسي وأن أفرغ شيئًا من قدحها على الطريق العامة ؟ إني أستحي وأعرف نواقصي ونواقص ذهني وفكري ، فقال لي : إذا لم تفعل ذلك ستتعقد مشكلتك مع هواجسك وأحاسيسك وتتحول إلى علل قد لا تحتملها .

قلت له يا صديقي : كيف تريد مني أن أطرح شيئًا من تفكيري في آخر العمر ؟ فقال لي : جادل نفسك على ورقك وأسرع إلى ذلك ، فالهواجس وقلق الذات وسأمها فيض إذا لم تفتح له معبرًا غرقت فيه ، ففافتحه)) [1] .

وقال في ذات اللقاء :

((أنا لست كاتبًا ولا أديبًا ، أنا رجل تضايقني في بعض الحالات خاطرة أو زائرة ، آيبة أو ذاهبة ، في فضاء النفس ، فأفتح لها طريقًا إلى أوراقي ، وأقول لها تخلصت منك فاذهبي حيث شئت)) [2] .

جذبت هذه النصوص من خارج المؤلف المطروح ـ هنا ـ للدراسة لأنها عالجت هذا الجانب على وجه خاص بمزيد من التركيز والعمق بدا معه الضغط النفسي في مركز الدافع المحوري في إبداع الشيخ ، ولم يعد إلا أن يقال : إن الضغط المتنامي مع التراكم الزمني والتجربي على ذلك القدح كان كفيلاً بإحداث ذلك الانفجار الإبداعي المفاجئ ، وإلى التعامل مع القلم لاحتواء تجليات ذلك الانفجار والتنفس من خلاله في صدور الأوراق والتخلص من تداعيات تلك التراكمات وانعكاساتها أو التخفف منها على الأقل ، وقد كثرت إشارات الشيخ إلى ذلك الترابط الوثيق بين الضغوط النفسية لديه وبين إبداعه ، وهي إشارات مبثوثة في جميع مؤلفاته الإبداعية . وفي هذا المؤلف على وجه خاص كان منها قوله :

((... ولولا شدة الأعاصير التي تدك نفسي دكا وتنهكها ظمأ وجوعًا وذهولاً لما كتبت لك ....)) [3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨ .

(٣) الرسائل : ٣٤١/١ .

وقوله : ((ولدي :

كلما صرختْ أعماقي وبكتْ هواجسي وظنوني وضاقت الدروب في خطوي وأثقلتني صخور الدرب الوعر وأدمت قدميَّ ، وأرهقت نفسي وعثاء السفر الفكري تذكرتك وناديت عليك أن شاركني همومي ، ارفع عن كاهلي جلابيب الهموم)) [١] .

وقوله : ((ولدي :

أفي مثل هذا الهذيان وهذه التصورات التي يمليها عليّ القلق والسأم ، مكان أستريح فيه يوم تخلي الصور مكانها الذي منه تتداعى عندي ، كتداعي الرمال في فم ريح تنفخها في مثل غضبها على العصاة في الزمن البعيد ؟)) [٢] .

هذه مقتطفات من الإشارات التي تؤكد بوضوح دور الضغط النفسي ، والرغبة في التخفف منه في تحرك الشيخ إلى دائرة الممارسة الإبداعية [٣] .

٣ـ ضغط الذاكرة والذكريات :

سئل الشيخ السؤال التالي : ((نود أن نعرف شيئًا عن تجربتكم مع الكتابة والتأليف ، ....)) [٤] .

فرد قائلاً :

((مثل هذا السؤال يثير في نفسي ذكريات ومعاناة ، كلما درجت بي الحياة ، وأرتني ما فيها من متحولات ومتغيرات علمية وثقافية واقتصادية وسلوكية وسياسية ، شكلت هذه كلها في نفسي وفي هواجسي وأفكاري أشكالاً من الصور ، تلقي بظلالها على نفسي تساؤلات ثقيلة عن الماضي البعيد ، وعن الواقع القائم)) [٥] .

وسئل عما يمكن أن يقول فيما كتب عن إبداعاته ، وما يمكن أن يقوله هو عنها [٦] ، فقال : ((أما ما يمكن أن أقوله فيما كُتب عنها ، وماذا يمكن أن أقوله حولها : لا شيء أقوله أبلغ

---

(١) المصدر نفسه ٣٥٩/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣٢٦/١ .

(٣) للاستزادة من الإشارات إلى هذا الجانب انظر ١٢٣/١ ، ٣٠٥/١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ و ٥٦/٢ ، ٦٩ ـ ٧٠ ، ٦٥ ، ١٤٣ ، ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٤) مجلة الفيصل العدد (٢٢٧) ص ٧٧ .

(٥) المصدر نفسه ص٧٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ٧٨ .

من أني محتاج إلى مَنْ يزكيني ويؤمنني في طريقي إلى أوراقي لأقول لها ما قالته لي أعوامي الطوال ، وما أوحت به إليّ وعلق بذهني وذاكرتي)) [١] .

وقال : ((ولدي :

لكل رسالة من رسائلي إليك قدم مشت عليها ، .... ولكل خفقة من خفقات النفس شجرة هبت عليها الصبا أو هبت عليها الرياح التي لا نملك غير استقبالها)) [٢] .

في ظلال هذه النصوص الثلاثة يمكن القول : إن ذاكرة الشيخ ذي الحس المرهف ، والوجدان الحيّ قد شكلت باستقبالها العميق لتجليات الأشياء خارج الذات وداخلها ، وبتراكم هذه التجليات على مدى أكثر من ستين عامًا دوحة كبيرة في عمرها ، كثيفة في مكوناتها ، تملأ آفاقه الذهنية ، فما من وافد جديد آت من الخارج ، أو محلق في فضاء الذات إلا مس بحركته أو أثار شيئًا من هذه الدوحة، والفضاء الداخلي و الخارجي مليء بالعواصف والصبا ، مما جعل دوحة الذاكرة في قلق متواصل ، وبذلك شكلت الذاكرة كيانًا نشطا لا يزال يدفع الشيخ الحساس بقلقه إلى احتواء هذه الحركة الدائبة ، والتخفف من وطأتها على مشاعره ، عن طريق إفراغها عبر نافذة القلم في صدور الأوراق ، وبذلك كانت دافعًا قويًّا للكتابة ، يقول :

((كم حاولت أن أدفن هذه الرسالة وأبتعد بها عن رسائلي إليك في مدافن النفس...ولكن ماذا بيدي؟ وجور الذكرى لم يرحلني .))[٣] .

وشكلت الرغبة في الإفلات بمحتويات هذه الذاكرة من الذوبان في التراب ؛ على اعتبارها الجزء الذي يمكن تخليده من حياته ؛ دافعًا للكتابة تهريبًا لها من العدم إلى الوجود المطلق قبل فوات الأوان ، يقول :

((وذكرياتي لا لون لها ولا طعم ولا سوار تجمّل به ساعديها لديك ، ولكنها خواطر وصور ومواقف وأفعال ذبلت في وجه الزمن فاصفرَّ لونها ، وظني أنها ستموت وتنطرح في مجاهل هذه الصحراء لا أحد يدريها ولا يراها ولا يعرف مكانها ، إذا لم أبادر فآخذها إليك))[٤] .

هكذا كانت الذاكرة والذكريات ضاغطًا داخليًا قويًّا شديد الفعالية والنشاط في دفع الشيخ إلى الممارسة الإبداعية .

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٨ .

(٢) الرسائل ٣١٣/١ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه ٤٠/١ .

٤- هاجس الفناء :

يشكل مصير الإنسان إلى الفناء ، والذوبان في المجهول ، وسيره الحثيث إليه ، هاجسًا متعاظمًا ، وهما متناميًا في أعماق الإنسان ؛ يزداد وطأة وعمقًا مع كل خطوة يتقدمها إلى الأمام عبر طريق الحياة باتجاه ذلك المصير المرعب .

والأدباء أحدّ الناس شعورًا بذلك ، وأكثرهم تألمًا بهذا الشعور ، لما يتسمون به من حساسية وقوة شعورية ، إنهم يشعرون شعورًا قويًا بشراك ذلك المصير يحيط بهم ، وتشتد قبضتها عليهم مع كل نفس جديد ، ويشعرون شعورًا قويًا - أيضًا - أنه لا مجال إلى إفلات الذات من هذه الحبائل ، ولكنهم مع ذلك لا يستسلمون ولا يخنعون إزاء ذلك ؛ بل إن تمردهم على هذا المصير وعلى حبائله ، ونشاطهم في مقاومته ليتنامى كلما ازداد تضييق الخناق عليهم ، ويتجلى هذا التمرد وهذه المقاومة بشكل واضح في إبداعهم الذي يستهدف ـ كما سنرى ـ الإفلات الأدبي بالذات وبمكنونات هذه الذات من قبضة هذا المصير إلى الوجود المطلق في الصورة التي يحبذ أن تكون عليها هذه الذات ، وهذا كله ما يتجلى بوضوح في الخطاب التالي :

((يوم أخذتني فكرة الكتابة إليك وجلست معها في حوار طويل تداعت في نفسي صور مختلفة ، انهالت الرمال ، وتداعت الصخور وتوارت العورات والخطايا في مدافن الذكريات خوفًا من أن تجلد أو تعاب .... وقليل من البشر من قال للآخرين هاأناذا أقرأوني كما كنت .

ولدي :

قريبًا وغير بعيد ألقى ربي وأرحل عن هذه الحياة عائدًا إلى حيث أتيت ، وقد تفزع لحظات ثم تبحث عما ورائي وما خلفته لك ، فلا تجدني ولا تراني في الماديات)) [(١)] .

ويقول في الرسالة الأخيرة ، وفي إشارة أكثر صراحة :

((في رسائلي إليك تجاوزت في خطى الوليد سكون نفسي ، وحاولت أن أدفع أوراق الخريف عندي أن تخفق فتتساقط على الورق قبل أن تذروها الرياح . ولا أدري هل المحاولة أعطت شيئًا وحطت على دربك علامات وإن كانت شاحبة وذابلة الوجه .. ؟)) [(٢)] .

ويقول في مكان آخر :

((وذكرياتي لا لون لها ولا طعم ولا سوار تجمّل به ساعديها لديك ، ولكنها خواطر

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٤٠٣ - ٤٠٤ .

وصـور ومواقف وأفعال ذبلت في وجه الزمن فاصفرّ لونها ، وظني أنها ستموت وتنطرح في مجاهل هذه الصحراء لا أحد لا يدريها ولا يراها ولا يعرف مكانها ، إذا لم أبادر فآخذها إليك)) [١] .

وإذًا فما هذه الرسائل إلا محاولة تهريب أدبي للذات ومكنونها من الفناء ومن الذوبان في المجهول والدفع بها في صورتها الجميلة التي يحلم بها الإنسان لنفسه لتكون علامة مضيئة خالدة على درب المارة تحيل - أبدًا - إلى تلك الذات .

وهكذا كانت الرغبة في تقديم الذات في صورتها التاريخية الحقيقية ، والرغبة في احتواء الضغط النفسي وضغط الذاكرة ، والرغبة في الإفلات الأدبي بالذات وبمكنونها من الفناء أبرز الدوافع الذاتية التي مارست فعلاً مؤثرًا على الشيخ ، دفعه بقوة إلى ممارسة الفعل الإبداعي [٢] .

ب- في سبيل الآخر :

كما أشار الشيخ إلى بعض الدوافع الخاصة به ، أشار - أيضًا - إلى مجموعة من الدوافع التي حركته إلى الكتابة من أجل أشياء خارج الذات ، هذه الدوافع يمكن ضبطها في العناصر التالية :

أولاً- دوافع من أجل الجيل الناشئ خاصة :

كان الهم التربوي مركز ثقل حمولة الرسالة ، ومن الطبيعي - والأمر كذلك - أن تكون هناك دوافع قوية حفزت الشيخ على اقتحام هذا المجال .

وفي إطار عمل الشيخ على تزويد رسالته بكل ما يميط اللثام عن ظروف إنجازها عمد إلى الإشارة إلى مجموعة من الدوافع التي حفزته إلى الممارسة الإبداعية لصالح الجيل ، وهذه أبرزها :

١- حب الجيل والحنو عليه :

يقول الشيخ : ((ولدي :

أأنا بهذا (كثرة الوصايا والتنبيهات) والد يبست أضلاعه على ماضٍ لا يلين وإن أغرقته مياه هذه الحضارة بطوفانها ؟ أبدًا .. لو تحولت ذاتي بكل ما فيها من سعة إلى كهف يملؤه فرخ القطا ويضيق به لما طويت جناحي وتركت فراخي في العراء ، ولأنكم فراخي وأغلى شيء على

---

(١) المصدر نفسه ١/٤٠ وانظر ١/٣٥ ، ٨٣ - ٨٤ ، ١٢٣ ، ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ٣٩٨ - ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٢/٢٢ ، ٢٢٢ - ٢٢٣ ، ٢٤١ - ٢٤٣ ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) للاستزادة من النصوص في هذا الجانب انظر : ١/٤٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٢٣ ، ٢/٢٤١ ، ٢٤٣ .

نفسي فلن أطوي هذا الجناح وإن كان ضامرًا وضعيفًا عن أن أدفئكم داخله وأحنو عليكم بالنصيحة)) [(١)] .

فحب الجيل والحنو والشفقة عليه دفعت المرسل إلى بناء كيانه الإبداعي ليحضن فيه متلقيه ، وليكون له وقاءً من غوائل الزمن .

٢ـ الشعور بالمسئولية تجاهه :

يقول الشيخ : ((ولدي :

كم من مرة نويت أن أواصل الكتابة لك فثناني تصور قاتم وصوت داخلي يقول لي أوقف النزيف النفسي واحجب في شيخوختك تجربتك وابق عليها لنفسك فلا سامع ولا مجيب !! . فهل في إمكاني أن أستجيب للنداء وأتراجع عنك وعن رفقاء دربك ؟ أبدًا إنه شيء لا يطاق ولا يحتمل .

لو تراجعت ، لو أصابني اليأس منكم أو من بعضكم ـ لا قدر الله ـ ألا أكون قد أذنبتُ وعققت وجودي فيكم وطرحته في العراء ؟ ....)) [(٢)] .

فشعوره بوجوده فيهم أبًا وواعظًا ومعلمًا حافز آخر ، وشعوره بالمسئولية التي يفرضها عليه هذا المكان معزز لهذا الحافز إلى الممارسة الإبداعية واستمرارها .

٣ـ الخوف على الجيل :

مارس هاجس الخوف على الجيل الناشئ دورًا بارزًا في حفز الشيخ على الكتابة ، يقول :

((... قدرت أن [كتابة] هذه الرسالة الحانية على بؤسك والآتية من خوفي عليك ....)) [(٣)] .

وهو خوف متعدد الأوجه والمصادر ، فهناك الخوف عليه من الوقوع في قبضة الانقطاع التام عن السماء كتلك التي وقع فيها فرعون وتلاميذه ، يقول في رسالته ((يوم تخدّر فرعون)) بعد الإشارة إلى حادثة غرقه وإيحاءاتها ودلالاتها :

((... ولكن هل اتعظ الإنسان بالعبرة ؟ وهل آمن بها ؟ وهل أخاف الغرق من أتى

---

(١) الرسائل ١/١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢/١٩ وانظر ٢/١١٧ .

(٣) الرسائل ٢/٢٦٢ وانظر ١/٤٥ ، ٢/٢١ .

بعده ماضيًا أو حاضرًا ؟

هذا هو السؤال الذي دفعني إلى الكتابة إليك في مثل هذه الرسالة)) [١] .

ثم يواصل موضحًا :

((يوم أذنت لي مشاغلي أن أخرج إلى الصحراء في يوم من أيام الربيع ملأت أفقه - وتهادت أمام ناظري - سحب ثقيلة تزمجر بالرعود تحن حنين إبل البدوي الظامئة إلى مياهها . خرجت من باب خيمتي أخيلها ، فإذا البروق تطرد الظلمة وإذا المياه تحط أثقالها بشكل ما رأته عيني ، فأسرعت إلى نقل خيمتي إلى قمة الجبل خوفًا من الغرق ، فكل ما حولي من أشجار وتلال غرقت فتذكرت غرق الجبابرة والطغاة فأخذت القلم لأخط لك هذه الرسالة ....)) [٢] .

وهناك الخوف على الجيل من الوقوع في قبضة الانقطاع عن جذوره ، والانمياع في السلبيات المدمرة التي تحملها الحضارة المعاصرة مع ما تحمل ، وهي سلبيات ذات رؤوس متعددة كلها قاتل، يقول:

((فلمّا تهادت إلينا هذه الحضارة وهذه المدنية ، وجاء القلم يحدو لها ، ويحمل دورها في حياة البشرية على مفهوم ومعلوم كل ما فيه غريب علينا وجديد في ملبسه ، أصابنا الخوف على صغارنا ، ومعذور من أخافته هذه الحضارة وسلبياتها على أهله وقومه .

وما في هذه الرسائل - التي أضع لها هذه المقدمة - إلا مخاوفي ووعظي لأولادي حين كانوا في جامعات القوم هناك بعيدين عن هذه الصحراء وقيمها ومعتقداتها الكريمة ، ....)) [٣] .

وهناك الخوف عليه من تعثر الخطى ، وارتباك المسلك ، في ظل قصر التجربة ، وقلة الخبرة بالحياة وتداخلاتها ، يقول :

((فسبعون عامًا معي أو ستون لا أدري كم هي يوم آخذها دقائق وثواني وأيامًا وشهورًا وأعوامًا وأجلس أمامها لتعظني وتحاورني وأحاورها أخجل من نفسي ومنها ، فأتعجل إليك بمثل هذه الرسائل ما دمت شابًا لم تتجاوز العشرين أو الثلاثين ، أتعجل بها قبل فوات الأوان)) [٤] .

وهناك الخوف عليه من تضخم التفارق ما بين أفراده في التصورات والآمال والطموحات حتى يصبح مرضًا معييًا لهم كما أعيا من قبلهم ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه ٢٠٠/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٠/١ - ٢٠١ .

(٣) المصدر نفسه ١٨/١ وانظر ٢١/١ .

(٤) المصدر نفسه ١٢٩/٢ .

((وفي ظنّي أن لكل منكم تصوراته وآماله وطموحه، لا يمكن لكم أن تكونوا في مستوى واحد ، لكل منكم ذهنه وعقله وتفكيره ومفهومه، لكل منكم رؤاه وأحلامه ، ولكل منكم حاشيته الداخلية والخارجية ، فيكم تتفاعل ردود لأفعال وأقوال ومكاسب تصعد إليكم أو تنزلون إليها ، تسعون لها أو تسعى لكم ، تقابلكم في مفترق الطرق أو على قارعة الطريق .

هذه الحالة أو هذا الواقع الطبيعي ، هل لي أن أقف بكم عنده نسمع صداه في مستقبلكم ، فهو صدى لم تدخلكم فيه التجربة حتى الآن ، ولم تمارسوه في حياتكم اليومية مع عمرو أو زيد من الناس ولكنه صدى علق بتجربة أقرب الناس إليكم وأصدقهم معكم وأكثرهم حبًا لكم وخوفًا عليكم ....)) [١] .

وهو محذور يشرحه الواقع بوضوح مسهب عميق، مما جعله دافعًا للشيخ إلى ممارسة الإبداع.

وهكذا كان الخوف على الجيل بمصادره ومنافذه المتعددة حافزًا آخر له إلى الكتابة .

٤ـ الرغبة في نقل التجربة إليه :

للشيخ في هذا المجال رؤية مسئولة ، فهو يرى أن انتقال التجربة من جيل الآباء السابق الخبير ؛ إلى جيل الأبناء اللاحق ؛ قليل التجربة أمر يستحق الاهتمام ، يقول :

((ويا ليت كل أب مضى إلى ربه خلف لنا ولو قصاصة من الورق قال لنا فيها: ولدي : هذه طريقي التي مشيت فيها إلى المدفن ، فلا شيء أحنى وأكرم من عاطفة الأبوة ، وليست وصايا أفلاطون أو سقراط أو من أتى بعدهم من الفلاسفة أو قبلهم بأعز من وصايا الآباء والأجداد وإن كانت بسيطة وإن كانت صدى في جناح جبل من جبال الجزيرة العربية)) [٢] .

وإذا كانت رغبة الشيخ في نقل تجربته مع الحياة وفيها إلى الجيل الناشئ قد شكلت دافعًا أخذه إلى الكتابة ؛ فإن تحقق ذلك النقل كان هدفًا ساميًا توخاه من وراء ممارسته الإبداعية ، وقد أشار إلى ذلك في كثير من صفحات الرسالة ، وذلك ما يمكن فهمه من خلال خطابه التالي الذي يشير فيه إلى توخيه نقل التجربة إلى ولده ، وسعيه إلى ذلك من خلال الرسالة ، يقول :

((... لم يكتب لي أبي شيئًا عن تجربته ولم يعلق بذهني عنه كلمة واحدة لم أعرف انتقال التجربة فيما بين الأب وابنه في تلاحم كالذي أسعى إليه معكم)) [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٠ ـ ٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٣٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٢ .

إن مجرد نقل التجربة إلى المتلقي هدف في حد ذاته ، ولكن هناك مقاصد وغايات إضافية يحققها هذا النقل ويسعى الشيخ إلى تبلورها الفعلي في الواقع ثم في حياة هذا الجيل ، فهناك نقل التجربة الذي يحقق تقويم الذات في سيرها مع الحياة في مختلف تجلياتها وتشكلاتها ، يقول :

((قدرت أن ستين عامًا ألبستني إياها الحياة في أثواب مختلفة في الطول والعرض والجدة والبلى ، لا بد وأن آخذك معي إليها لتراها في جدتها وفي ألوانها المرقعة لترى كيف وضعتُ قدمي الصغيرة على عتبة السلم الأولى ثم صعدتُ درجة درجة وكلما صعدتُ درجة ضعفتْ قدرتي على الصعود حتى ضاق نفسي وبدأ الهزال والدوار يخيفني من السقوط)) [١] .

وهناك نقل التجربة الذي يستهدف تزويد الجيل بالخبرة التي تنقصه ، تلك الخبرة التي لم تتأت له حتى الآن لأنه لما يدخل مع الحياة في مرحلة العراك الجاد بعد ، يقول :

((ولدي :

ألا تتصور معي أن أجمل ميراث وأكرمه وأكثره فعالية في حياتك أن تقرأ آلامي وما تسمح به السريرة قبل أن تقرأ أفراحي وترث متاعي ، فقراءتك وقاية لك ، ولوحك الطري لم تخط عليه الحياة ـ حتى الآن ـ شكوكها وتناقضاتها ....)) [٢] .

وهناك نقل التجربة الذي يستهدف زرع الخير وتنميته في أعماق الجيل الناشئ ، يقول:

((ولأني لا أكتب تاريخًا ولا أرفع الكأس إلى فمك الظمآن وأقول اشربها فلا كأس غيرها ، أتناول من على أغصان الشجرة التي يبست عندي بقايا ما فيها من أوراق ذابلة ، أتناولها قبل أن تسقط على التراب فأضعها على مفترق الطرق في حياتك ، فيما بين شبابك وشيخوختك ، فيما بين الشيء وضده ، ولعل ورقة واحدة تحمل معها بذرة طيبة فتنمو في نفسك حتى تكون شجرة ....)) [٣] .

وهناك نقل التجربة الذي يستهدف تعميق الحس الروحي الإسلامي ، وتمتين علاقة الجيل بخالقه تعالى ، ذلك العنصر الذي يتوقف عليه الكثير من النتائج والمعطيات ، يقول :

((ولدي :

أنا ممن يؤمن كل الإيمان بأن الإنسان مهما حاول أن يقرأ في كتاب تجربة غير تجربته لا

---

(١) المصدر نفسه : ٣٥/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٨/٢ - ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٥٥/١ .

يمكن أن يحول تجربة الآخرين إلى تجربة خاصة به ، لكنني أرغب إليكم أن تقرأوا في كتابي الخاص وجودًا روحيًا لا يتبدل ولا يتزعزع ولا يتلون ولا يسهل على الإنسان المتواضع العارف لقدره وحجمه أن يعرضه للشك أو التبدد والضياع ، أعني بذلك العلاقة بين الإنسان وربه وما سوى ذلك خاضع لاعتبار خلقي مسلكي وفكري إلى غير ذلك))[١] .

وهناك نقل التجربة الذي يستهدف تركيز مسلك الشخصية العربية الإسلامية على مدى تاريخها في قوة خطاها وضعفها ، وتقديمه إلى الجيل ليستعين به على تجاوز حيرته، واتخاذ موقف يعكس معالم هذه الشخصية في أوج صحتها وتكاملها في مواجهة تلونات الحياة المعاصرة وأحداثها ومسالكها الخطرة وتناقضاتها المربكة ، يقول :

((... ولأنك شاب قد لا تكلف نفسك عناء السفر في رحلة الألف وأربعمائة عام المشحونة بالغث والسمين قدرّت أن مقابلتي لك بقليل من تجربتي قد يسهل عليك تجاوز الحيرة والوقوف بنفسك من أحداث اليوم موقفًا تقدر معه خطوك وتتحاشى عثرات الطريق ....))[٢] .

وهناك نقل التجربة الذي يستهدف تحقيق التواصل مع الأجيال القابلة ، وتزويدهم بقدر متراكم منها مما يسهم في بناء رصيد الخبرة التي يتلقاها كل جيل من الجيل الذي سبقه ، بما يؤدي إلى بناء خبرة الأمة وتعميق رؤيتها ووعيها مع مرور الزمن ، وبما يضع حدًا لانقطاع كل جيل عن الجيل الذي سبقه في ميدان الخبرة والتجربة والإفادة منهما ، يقول :

((وهي (الرسائل) وقفة الماضي الذي خلفته ورائي الذي لعلي أستطيع أن أستحضره في لونه الباهت لتقرأني فيه ثم تقرأ نفسك أنت وتسلم القراءتين إلى ابنك ومنه إلى حفيدك ومنه إلى حفيده وهكذا))[٣] .

ولاهتمام الشيخ بهذا الهدف المهم فقد خصص للحديث عنه ، رسالته ((ماذا تركت الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة ؟)) بسط فيها رؤيته الكاملة لهذا العنصر التربوي .

٥- الرغبة في توجيه الجيل :

إن حرص الشيخ على توجيه الجيل إلى كل خير ولفت نظره إلى مكامن الخطر على اعتباره أمل الأمة، ورجاء غدها، ومناط أحلامها الجميلة، يشكل دافعًا آخر له فعله وأثره، يقول:

---

(١) المصدر نفسه : ٢٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣٦/١ ، وانظر ٣٠/١ ، ٧٤ ، ٢١٠/٢ .

((وما رسائلي هذه إلا حشاشة نفسي أردت لها أن تلبس حشاشة نفس أولادي فتابعتها في أوقات مختلفة وكانت حنينًا ذاتيًا وتنبيهًا أبويًا كثيرًا ما أيقظني من منامي على حلم جميل فيكم أو على حلم مزعج من الخوف عليكم)) [(١)] .

٦ - الرغبة في ملء الفراغ لديه بإقامة جسور الحوار المثمر معه :

وكانت رغبة الشيخ في ملء الفراغ الوجداني والنفسي والعقلي - الذي قد يتعرض له الجيل - بما يصونه عن اللهاث خلف الآخرين ، ويبقيه في تواصل عميق مع جذوره ومع ما ينسرب إليه منها ، وبما يحقق تحريك مدركاته وحمايتها من التعطل ، بالحوار النشط الرشيد ؛ كانت رغبته القوية هذه حافزًا آخر حمله على الممارسة الإبداعية ، يقول :

((هل في وجدانك فراغ فأملؤه ؟ وهل في يدي شيء فأعطيه ؟ قل لي ، قلبك الآن ماذا يسكنه ؟ أنا مشفق عليك وخائف ..... أنا قارئ في قصة الزمن كيف جرى الحوار بين الأب وابنه ، فهل لي أن أقرأها عليك فتصغي إليَّ ؟ فبدون أن تصغي يموت الحوار وأموت معه ، في تحاوري معك حوار منك لابنك ، وبدون الحوار تنام المدركات أو تضل ، نامت هذه عندي طويلاً لأن أبي مات ولم يفتح الحوار ، والطفل يبقى طفلاً وإن كبر إذا لم يجد من يحاوره . أأتركك يحاورك الشارع وتقرأ في كتب العامة أسمال بضائع السوق وتجارته؟ أأتركك كتابًا مفتوحًا كل من مر به يخط عليه حواره ؟ وأكثر المحاورين لا يحسنون الخط ولا يفهمون جودة الحوار ؟ أأتركك لشعارات البغضاء والكره والقارئين له من كتب الأحقاد ؟)) [(٢)] .

٧ - طبيعة الجيل :

شكل وعي الشيخ بالطبيعة النفسية والوجدانية التي يتسم بها جيل اليوم حافزًا آخر للكتابة ، فلأنه جيل ينفر من أساليب الوعظ والتعليم القديمة ، لذلك رغب في وعظ الجيل وتعليمه بأسلوب جديد يلبي هذه الطبيعة ويتعامل معها ، يقول :

((ولدي :

قبل أن أكتب لك هذه الرسائل فكرت أن أحيلك إلى مواعظ الشيخ الجليل ابن الجوزي والتقي الفضيل ابن عياض ، ولكن لأنك شاب مضطرب في نفسك أمواج عاتية من القلق والوجل من الجلوس طويلاً تحت منبر الواعظ قدرت أن [كتابة] هذه الرسائل الحانية على

---

(١) المصدر نفسه ٢/٤٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ١/٤٥ - ٤٦ وانظر ٢/٢٦٠ .

بؤسك...)) [١] .

٨ـ ربط الجيل بأصالته :

ربط الجيل بأصالته وتمتين علاقته بجذوره الإنسانية والمكانية والحياتية والزمانية والمسلكية والروحية والفكرية والتصورية غاية مارست على الشيخ فعلاً دافعًا قويًّا باتجاه الالتحام مع الكلمة الإبداعية ، ليذلل جموحها لحمل الهاجس التربوي الذي تشكل هذه الغاية الكبرى رأسه وذروة سنامه ، وقد أشار الشيخ إلى هذه الغاية في مساحات واسعة في خطابه ، ففي إشارة إلى غايته في ربط الجيل بأصالته الوطنية ، وتمتين علاقته بأرضه وأرض أجداده وطبيعة الحياة فيها ، تفاديًا لما طرأ على هذه العلاقة أو قد يطرأ من اضمحلال لا تزال الحضارة المعاصرة تغذيه وتعمق فعله في مختلف مناحيها، وهو الأمر الذي ينذر بالخطر الجسيم يقول في مقدمة مؤلفه :

((... ولكني أحاول أن آخذ من الماضي حنينه وحبه ووفاءه لهذا التراب ، والصورة الجميلة أينما وجدتها فألقيها على طريق أجيالنا ليروا كيف حنَّ الآباء والأمهات ، من آلاف السنين ، لهذا التراب الغالي كلما طوحت بهم غربة ، ولا أشد من غربة هذه الحضارة وهذه المدنية حين يتيه الإنسان في سلبياتها عن أصالته ورسالته الإنسانية)) [٢] .

وفي إشارة إلى هدفه البعيد من هذا الربط يقول : ((وفي حالة استطاعتي أن أتجاوز أهوائي وميولي الذاتية وأن أخلص بك إلى أن ترى وجه الصحراء وما فيها من متناقضات ومن صور علقتها الظروف والأحداث في مرايا زمنية ، أكون بذلك قد خلصت بك إلى أعماق الحقيقة وجنّبتك طريق الخطر الذي كثيرًا ما ركبه وضاع فيه من تجافى عن متابعة الحقيقة وصيانتها من العبث بها)) [٣] .

ويؤكد ذلك في قوله :

((ولدي :

قدرت كل التقدير أني في رسائلي إليك أحمل معي لونًا من ألوان الصحراء والحياة فيها ، قد تبتعد عنه وتطوح بك الحياة في مجاهل غير مجاهل الصحراء التي فيها مدافن آبائك

---

(١) المصدر نفسه : ٢٦٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٧٤/١ .

وأجدادك فتضمر الصورة في ذهنك أو ربما تموت فلا تجد من يبكي عليها ، أو يرثيها بكلمة وداع جميلة)) (١) .

وفي إشارة إلى تقصده ربط الجيل بأصالته الروحية يقول :

((ولدي :

أنا ممن يؤمن كل الإيمان بأن الإنسان مهما حاول أن يقرأ كتاب تجربة غير تجربته لا يمكن أن يحول تجربة الآخرين إلى تجربة خاصة به ، لكنني أرغب إليكم أن تقرأوا في كتابي الخاص وجودًا روحيًا لا يتبدل ولا يتزعزع ولا يتلون ولا يسهل على الإنسان المتواضع العارف لقدره وحجمه أن يعرضه للشك أو التبدد والضياع ، أعني بذلك العلاقة بين الإنسان وربه وما سوى ذلك خاضع لاعتبار خلقي مسلكي وفكري إلى غير ذلك)) (٢) .

وفي إشارة إلى استهدافه ربط الفتاة العربية المعاصرة بأصالتها المسلكية ، يقول :

((... لا أطلب المستحيل فأنيخ الجمل وعليه الهودج ثم أقول لفتاة اليوم اركبي ظهره واذهبي إلى منازل ليلى وعبلة ، أبدًا ، ولكني أجذب الصورة من أعماق الصحراء في نظافتها وطهارتها وألقيها على عتبة كل بيت ، لعل ساكنته تأذن لها بالدخول إليه فتهتدي إلى أصالتها وإلى ميراثها من الأمهات ....)) (٣) .

وفي إشارة إلى تغييه ربط الجيل بأصالته العربية والروحية والفكرية والوظيفية وتجنيبه الانمياع في بوتقة الآخر يقول :

((فيوم لا أملّ من تتابع رسائلي إليك ، ماذا والصورة التي لا تستقبل الملل في أعماقها ؟ أهي مرآة علقتها في جدار النفس عاطفة الأبوة ؟ ولم تستقر على حائطه ولن تستقر إلا حين ترى الابن واقفًا أمامها يسائل نفسه أفي مرآة أبي أجد نفسي وأجد صورتي في صورته ومرآته ؟ فحيطان الآخرين وما فيها من مرايا معلقة عليها قد لا أجد فيها مقياس حجمي ولوني ، قد تشكلني بتشكل الحائط الذي أسندت ظهرها عليه وبأعماقه وبلونه وأعود منها مفلسًا أو مشوهًا ، وهنا تتكور جمجمتي مع قدمي فأصير إلى حجر في حائط ليست صخوره صخورًا عربية

---

(١) المصدر نفسه : ٩٨/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٤/٢ .
(٣) المصدر نفسه :٣٦٥/٢ .

وإنسانية من جبل غار حراء ..)) [١] .

ثانيًا ـ دوافع عامة :

إلى جانب إشارات الشيخ إلى الدوافع المحورية السابقة ـ سواء في سبيل الذات الخاصة ، أو في سبيل الجيل ـ أشار أيضًا إلى بعض الدوافع العامة الأخرى التي كان لها وجود ملموس في قائمة الدوافع ، ومن أبرزها :

١ ـ حب الأهل والوفاء لهم والبر بهم :

يقول الشيخ : ((كل ما أستطيع أن أفعله الآن ، وأردته من رسالتي هذه هي أن أخط لك رثائي وأحزاني من قلب هذه المدافن التي فيها أهلي وأحبابي ومن قضيت عمري معهم وسبقوني إلى هذا المصير وظللت وحدي أحملهم معي في يقظتي ومنامي)) [٢] .

وإذًا ؛ فإن الحضور العميق الضاغط لهؤلاء الأحبة في أعماق الشيخ الوجدانية والنفسية كان دافعًا آخر دفعه إلى الكتابة .

٢ ـ الواقع المحلي :

والتحولات التي طرأت على المجتمع المحلي ، وتشكلات الحياة فيه ، وانتقالها من واقع إلى واقع ، وما صحب ذلك ونتج عنه من تغير في مقومات حياة هذا المجتمع دافع آخر ينضم إلى قائمة دوافع الشيخ إلى الممارسة الإبداعية ، ففي رسالته السابعة والثلاثين (الطريق التي مشيت عليها) بسط القول في صفات المجتمع الذي نشأ وترعرع وعاش فيه باكورة حياته ، وتحدث عن قيمه ومبادئه وشرائحه وظروف حياته ومناشطه وخصائصه ، وأبرز ذلك المجتمع في صورة مشرقة ، ثم قال مفاخرًا وواصفًا :

((في هذا المجتمع عشت وتداخلت حياتي معه وصار اليوم إلى ذكرى في نفسي ، ذكرى جميلة وحزينة ، جميلة لأنها قوة تدعمني من السقوط في هوة المدنية المعاصرة ، وحزينة لكونها صارت ذكرى ولم تعد باقية فينا مجسدة ، فملامحها التي أصابها النحول شمسها تدلف إلى المغيب . هذا ما أثار في نفسي اللقاء بكم في هذه الرسائل ....)) [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٦٠ وانظر ١/٣٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٥٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٤ .

٣ـ الواقع العربي :

والواقع العربي المثير للأحزان في مختلف أوجهـه وتجلياتـه الروحيـة والفكريـة الاجتماعيـة والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والمعرفية والحضارية وسط عالم لا يرحـم دافـع شـديد الفعاليـة يبرز منتصبًا وسط منظومة الدوافع العامة التي دفعت الشيخ إلى الكتابة ، يقول :

((... ولوعتي على الجنازة ورثائي لها حيثما كـانت عليـه هـي الـتي تملـي علـيّ في كـل رسائلي إليك ترحّمي عليها وحبي لها ومشاركتي في العزاء فيها ، ولا أكثر إيلامًا وأكثر فجيعة من أن تصل جنائزنا نحن العرب إلى المدفن ، وهي في سلوكها جنـازة ، كـل قيمـة ترثيهـا رثـاءً أليمًـا وحزينًا)) [١] .

ويقول : ((تصوّر (يقصـد رؤيتـه في حلحلـة الواقـع العربـي المعقـد) يجثـو علـى قدميـه الهزيلتين على خاطري أو على هذه الأوراق كلما أوحشتني هذه الحضارة وأخافتني على أمة يأكل بعضها بعضًا ويدمي هذا قلب ذاك ويفجر في عيون الأمهات الدموع غزيرة ..!)) [٢] .

٤ـ الواقع العالمي :

والواقع العالمي المشبع بالقسوة العابثة ، وبالحمرة القانية ، وبالأنين المكتـوم ضـاغط آخـر دفع بالمؤلف إلى معالجة ذلك إبداعيًا ، يقـول :

((ومصارعـة الثيـران والـدم الـذي ينزف مـن طعنـات عابثـة ، والمتفرجـون والمصفقـون لخوار الثور وتداعيه وسقوطه جثة هامدة أمام فلاسفة العصر ومفكريه والمتفرجـين عليـه ، أثـار في نفسي هذه الرسالة وملأت قلمي بالتساؤلات ....)) [٣] .

٥ـ النزعة النقدية :

وأخيرًا تأتي النزعة القوية إلى نقد الذات ، وإلى نقد من يهم أمرهم هذه الـذات سـعيًا إلى الإصلاح ، وإلى تجاوز الواقع إلى ما هو أفضل منه حافزًا آخر للكتابة ، يقول :

((فإذا أخذتك معي إلـى خيامنـا وقرانا ومجتمعاتنا وأفكارنا وتصوراتنا فهات معـك كـل وعيك وشاركني فيما أقوله أو لا تشاركني ، أنزلني تحت هامتـك وفكـرك أو ارفعـني إلى ما فـوق

---

(١) المصدر نفسه ٢/١٨١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٢١ وانظر ١/١٦ - ١٧ ، ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٩٧ .

هامتك ، سيَّان عندي ذلك . إنما أود أن تعرف أنني مدفوع بجور نفسي إلى أن أقول تصوراتي وأن أنقد ذاتي وكل ذات عزيزة عليّ)) (١) .

وإذن فحب الجيل والحنو عليه ، والشعور بالمسئولية تجاهه ، والخوف عليه ، والرغبة في نقل التجربة الثرية إليه ، وتوجيهه ، وإقامة جسور الحوار الخصب معه ، والوعي بطبيعته ، وحب الأهل والوفاء لهم ، والواقع المحلي ، والعربي ، والعالمي ، والنزعة النقدية الإصلاحية ، كل هذه تغطي ما بقي من مساحة الخلفية التي اتكأ عليها اندفاع الشيخ إلى ممارسة فعله الإبداعي هذا .

٦ ـ إعادة بناء ما تهدم :

ولكن ، ما غاية ذلك كله ؟

خلال الطريق الزمني الطويل الذي قطعته الأمة منذ مبارحتها العصر الراشد ، تعرض بناؤها المنهجي في الفرد وفي المجتمع وفي الأمة لعوامل مناخية بالغة القسوة ، مما أدّى إلى ظهور تصدعات خطرة في هذا البناء ، وكانت تلك التصدعات منافذ تغلغل منها إلى سكان البناء كل ما أصابهم من علل وأوباء ، وقد لمس الشيخ ذلك ، ومن هنا فقد كان جماع غايات رسالته رمّ ذلك البناء الذي يرتبط به وجود الأمة ومصيرها ارتباط النتيجة بالسبب ، وقد أشار إلى غايته الكبرى هذه فقال :

((... فخرائب بيوتنا هنا في فلسطين أو هناك في شوارع قرطبة تهدّم عقلي وروحي فينا أفضى إليها في حوار بين السبب والنتيجة . فإذا دعوتك إلى الحوار فهو من أجل أن نصحح المسار ونبني مع الزمن بحوارنا ما تهدم ، ....)) (٢) .

ومما ينبغي إعادة بنائه وتمتينه في هذا البناء ؛ الأمل العربي ؛ الذي يشكل أساس كل عمل للإصلاح والدافع إليه ، يقول :

((... فقد حرصت في كل رسائلي إليك ، أن أبذل جهدي في أن تكون وسائلي وغايتي في كل رسالة بناء الأمل الجليل على أرض الإنسان العربي ....)) (٣) .

بل إن بناء الإنسان من الداخل ـ أيا كان هذا الإنسان ـ بعد اجتثاث هوام الخرائب من داخله غاية من غايات الممارسة الإبداعية لدى الشيخ ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه ٢/٨٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٥١ ـ ٥٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٥٠ .

((إنني لا أؤرخ ولا أطرح فكرًا ولا أضع مذهبًا ، فهذا فوق طاقتي وفوق قدرتي ، ولكني أحاول أن أزحزح ولو حجرًا صغيرًا من الأحجار التي تراكمت على ضمير الإنسان)) (١) .

هكذا كان وعي الشيخ للدوافع الضاغطة التي حملها لصالح الآخر من حب له وحنو عليه ، وشعور بالمسئولية تجاهه ، والخوف عليه ، والرغبة في نقل التجربة إليه ، وكذا الرغبة في توجيهه ، وفي ملء الفراغ لديه بإقامة جسور الحوار المثمر معه ، وربطه بأصالته ، وكذا حب الأهل والوفاء لهم والبر بهم ، والواقع المحلي ، والعربي ، والعالمي ، والنزعة النقدية ، والرغبة في إعادة بناء ما تهدم ، وشكلت مع الدوافع الخاصة ، ومع المثيرات الطارئة ، منظومة كاملة أثارت الشيخ وحركته دفعًا وجذبا في اتجاه الممارسة الإبداعية فنتج عن ذلك هذا الانفجار الإبداعي الضخم الذي اتجه في هذه المرة إلى أبنائه .

وتأتي أخيرًا إشارة الشيخ إلى الإطار العام الذي يحضن ما مضى كله : تقديمًا للذات ، ومنهجًا في التواصل ، والاستقطاب ، والإرسال ، ومثيرات ، ودوافع ، ومقاصد ، ذلك الإطار الذي يستوعب في أحشائه الفعل الإبداعي لدى الشيخ جملة وتفصيلاً ، يقول في آخر رسالة من رسائله :

((وما رسائلي هذه إلى حشاشة نفسي أردت لها أن تلبس حشاشة نفس أولادي فتابعتها لكم في أوقات مختلفة وكانت حنينًا ذاتيًا وتنبيهًا أبويًا كثيرًا ما أيقظني من منامي على حلم جميل فيكم أو على حلم مزعج من الخوف عليكم)) (٢) .

*   *   *   *

---

(١) المصدر نفسه : ٨٣/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٤٠٢/٢ .

القطاع الثاني : في الرسالة :

سبقت الإشارة إلى أهمية استصحاب الرسالة (السفير) ـ بمعناها المعجمي ـ بيانات اعتماد تشير إلى الجهة التي قدمت منها ، وإلى الجهة التي ستقدم إليها ، ومجموعة من الإيضاحات التي تتعلق بشخصية الرسالة ووظيفتها ، على اعتبار ذلك عاملاً مساعدًا على صياغة موقف إيجابي لدى المتلقي تجاه الرسالة ، مما ينعكس إيجابًا على نشاط الرسالة في ممارسة وظيفتها المنوطة بها من قبل المرسل .

وسبقت الإشارة ـ أيضًا ـ إلى أن الشيخ قد ضمن رسالته المطروحة ـ هنا ـ للدراسة مساحات من خطابه التي تعالج هذا الجانب .

وقد تم آنفًا الفراغ من رصد وقراءة المضامين التي كرسها الشيخ للكشف عن بعض الزوايا المتعلقة بالمرسل في إطار علاقته ((بالرسالة وبالمرسل إليه)) تعريفًا بالمرسل ، وكشفًا عن منهجه الإبداعي ، وعن مثيراته ، ودوافعه ، ومقصدياته ، التي كان لها دورها الحاسم في إنجاز هذا الفعل الإبداعي .

وفي هذا القطاع يتم الانصراف إلى رصد وتنظيم وعرض الخطاب الذي وظفه الشيخ لتقديم رسالته إلى متلقيه ، والتعريف بها كما رآها وشعر بها في الحقول التالية :

الحقل الأول : في مرجعية الرسالة :

كما ساق الشيخ في رسالته إشارات سعى بها إلى التعريف بنفسه ، وتقديمها إلى المتلقي في إطارها الإبداعي ، فقد ساق ـ أيضًا ـ جملة من الإشارات التي عمد فيها إلى الكشف عن انتماء الرسالة في ذلك الإطار أيضًا .

وبفحص الإشارات المندرجة في هذا السياق يمكن القول : إنها قد تجاوزت في إضاءاتها لهذا الجانب حدود توثيق الرسالة في علاقتها بالمرسل ـ في إطارها الناجز ـ إلى الكشف عن المنابع الأولى التي انحدرت منها مكوناتها الخام، والمسالك التي سلكتها ، والروافد التي غذتها، والمحطات التي توقفت فيها ، والطاقات التي أمدتها قبل أن تصبح رسالة ، وقبل تمثلها بين يدي المرسل إليه في إطارها الأخير ، مما منح الرسالة وثيقة ثبوتية تحمل عنها بيانات متكاملة منذ كانت مواد خام تتدفق إلى أعماق الشيخ من خارجه ، ومنذ كانت مجرد أفكار وخواطر طليقة في ذهنه أو حبيسة في ذاكرته حتى أصبحت رسالة ناجزة .

وفيمايلي محاولة رصد هذه الإشارات وقراءتها قراءة ورصدًا متناسبين مع عملية الإبداع نفسها .

ففي ضوء منهج الشيخ في الاستقطاب تأتي إشارته إلى المكونات الخارجية التي تسربت هي أو استقطبها هو عن قصد إلى أحشاء رسالته ، حين يقول في إشارة إلى الروافد الكونية التي غذت الرسالة من الخارج :

((وما خططته لك هنا أو هناك تمثلت فيه أنفاس الوحدة وهي أنفاس يشم رائحتها الإنسان في أفق الكون ثم يدفع بها نفسًا وراء نفس وفي ألوان وأشكال من التعبير ....)) [١] .

ويقول في إشارة أكثر تحديدًا : ((سأخط لك ملامحها (الرسالة) و[استقرئها] [٢] لك من قمم الجبال والسهول والقرى والمدن والصحراء)) [٣] .

وعن الروافد الحياتية الزمانية والظاهراتية التي تعود الرسالة في بعض مكوناتها الخارجية إليها يقول :

((فإذا أخذتك معي إلى خيامنا وقرانا ومجتمعاتنا وأفكارنا وتصوراتنا فهات معك وعيك ....)) [٤] .

وفي هذا السياق كان الواقع العربي بتجلياته المختلفة قديمًا وحديثًا مرجعًا خارجيًا استمدت منه الرسالة الكثير من مادتها ، ولعل في إشارته التالية ما يوضح ذلك حين يقول :

((فقد أملت عليّ هذه الرسالة صورة من الصور الكثيرة التي تتشكل في وطننا العربي في أشكال مختلفة)) [٥] .

وللماضي القريب والبعيد ، وما ارتبط به من مكان وكائن قوته في فرض نفسه ودوره في إمداد الرسالة بالمادة ، ذلك ما يشير إليه من زاوية ما قوله : ((... عندئذ أخذت القلم في حالة من الضجر داخل النفس وخارجها ، فتلاحقت صور الماضي معنا في هذه الصحراء واحدة تلو أخرى ، وأبت أن تتراجع إلى حيث هي إن كان في قمة الجبل أو في سفحه ، إن كانت في علو

---

(١) الرسائل ٣٨٣/٢ .

(٢) خطأ نحوي والصحيح (استقرؤها) .

(٣) الرسائل ٧٤/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٨٥/٢ وانظر ٢٩/١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٠٠/١ وانظر : ١٥٤/١ .

الزمن البعيد أو في ضحاه أو مسائه ، فلما لم [أستطع أن] تقبل أن تحني رقابها عائدة إلى مدافنها ، أفسحت لها الطريق وإن كان ضنكًا لا متسع فيه)) [١] .

والإنسان في مختلف تجليات إنسانيته مصدر آخر رفد الرسالة ، وشكل مكونًا من مكونات مادتها ، يقول :

((قد لا تخجل ولا تستحي واحدة من هذه الرسائل فتحمل ولو ضوءًا خافتًا فتدخل بك في الظلمة التي اختفى فيها كل المنافقين وكل الدجالين وكل المزورين للقيم والمثل....)) [٢] .

تلك كانت المصادر الخارجية التي أحال الشيخ إليها ، وأشار إلى تسربها في رسالته وحضور تجلياتها فيها .

غير أن هذه المصادر الخارجية ليست وحدها التي غذت الرسالة ، ولكن حياته الخاصة في مختلف فضاءاتها النفسية والوجدانية والفكرية والزمانية ، وفي مختلف مناشطها هي المصدر الرئيسي الذي استمدت منه الرسالة مادتها .

إلى جانب من ذلك يشير بقوله :

((لم تكن رسائله (الإنسان) إليّ أو كتبه من مكتبة هذا أو ذاك ، ولكنها من كتابي الذاتي الذي حملته معي في قلب الصحراء أكثر من ستين عامًا)) [٣] ، فهو - إذن — لا يستقطب الإنسان ولا يقرؤه إلا من خلال قراءته لذاته هو ، كما يؤكد ذلك قوله : ((وعندما أقول الإنسان آخذ التجربة مني وأردّها إليّ ، ولا أدري من يشاركني في هذا الشعور ممن يخالفني)) [٤] .

ولكن ، كيف يتم تكون هذه المادة المرجعية ؟ وكيف تحولت إلى مادة ذائبة في الرسالة ؟ وما المرجعيات الداخلية الأعمق لها ؟

إن تلك المكونات الخارجية الآتية أو المستقطبة من الكون والحياة والإنسان ، وتلك المكونات الداخلية الآتية من حياة الشيخ ذاته شكلت سيلاً من المعلومات ، ظل يتدفق على

---

(١) الرسائل ١٨/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٨/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٧/٢ .

(٤) الرسائل ٣١٤/٢ .

امتداد زماني طويل باتجاه مخزن الذاكرة في جانبه الواعي ، وفي حائط التجربة ، في جانبيه الواعي وغير الواعي مكونًا بذلك مادة دائمة التراكم والتفاعل مع ذاتها ، ومع الوافد الجديد ، ومع ما يلمع في فضاء الذهن من خواطر طارئة ، وذلك كله هو ما صدرت أو تصدر عنه الرسالة .

يشير الشيخ إلى ذلك المصدر قائلاً :

((أصغوا إليّ فإني بهذه الرسالة أضع قدمي على آخر الطريق التي مشيت عليها أو قريبًا من آخرها أتلفّت هنا وهناك أستوحي من الذاكرة ومن المواقف ومن الناس ومن الشيء ونقيضه رسالتي هذه)) (١) .

ويقول في إشارة إلى اجتزاء الرسالة من ذلك الرصيد المتراكم :

((ستكون رسائلي إليك قاصة شيئًا عن حياتي وعن انطباعاتي وخواطري وتجربتي الناقصة)) (٢) .

ويشير إلى استمداد رسالته مادتها من مخزن الذاكرة حين يقول :

((ولدي :

ما كتبته أو أكتبه الآن أو غدًا هو خلط الذكريات عندي ....)) (٣) .

إن ذلك المنهل الغزير الذي ما زالت تدفع إليه السيول الآتية من الداخل ومن الخارج بمحمولاتها محدثة بحركتها نوعًا من التفاعل مع نفسها ومع ما سبقها ، ومع كل آت جديد أو خاطر ، ومع كل موقف من مواقف الحياة أوحدث من أحداثها أصبح يشكل رصيدًا ضخمًا من التجربة المعمرة التي تملي على الشيخ رسالته ، وتزودها بمادتها الكاملة ، يقول :

((وعذري أن السنين الطويلة التي حاورتني فيها الحياة ، ونقلتني من مكان إلى آخر ومن لون إلى لون ومن النقيض إلى النقيض هي التي أملت عليّ هذه الرسائل)) (٤) ؛ بل إن ذلك كله هو حياته ذاتها التي رغب في أخذ المتلقي إليها من خلال هذه الرسالة ، يقول :

((قدرت أن ستين عامًا ألبستني إياها الحياة في أثواب مختلفة من الطول والعرض والجدة والبلى ، لا بد وأن آخذك معي إليها لتراها في جدتها وفي ألوانها المرقعة ....)) (٥) .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٧/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٤١٠/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٩/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٥/١ .

وإذًا ؛ فإن حياته هي المصدر المحوري الذي نبعت منه الرسالة ، ومنه استمدت مادتها بعد أن تبلور في هذه الحياة وانصهر فيها كل ما أشير إليه من مكونات .

وفي ظل مثيرات الشيخ ودوافعه ، وفي ظل تبلور مقصدياته نشط ضغط هذا العالم الحالّ داخله على أعماقه فإذا به يحاول التخفيف من حدة هذا الضغط بالتنفيس الوجداني والنفسي والفكري من خلال رسالته ، يقول ((أيمكن لي وأنا أسجل لكم هنا وثيقة ليست من ترف الكلام ولكنها حشاشة نفسي تمشي إليكم في وله أم الفطيم على صغيرها ، أقول أيمكن لي أن أصوغ لكم من عواطفي وتجربتي وتفكيري ملابس تعطيكم من دفء روحي وخفقات قلبي أرق العواطف ....)) [1] .

ويقول : ((ولدي :

كلما صرخت أعماقي وبكتْ هواجسي وظنوني وضاقت الدروب في خطوي وأثقلتني صخور الدرب الوعر وأدمت قدميّ ، وأرهقت نفسي وعثاء السفر الفكري تذكرتك وناديت عليك أن شاركني همومي ، ارفع عن كاهلي جلابيب الهموم)) [2] . عطاء وأخذ إذًا .

وفي خطاب طويل يشير فيه الشيخ إلى المرحلة الفكرية التي يعيشها عند إصدار الرسالة ، ويتضمن الإشارة المركزة إلى كل ما أشير إليه في هذا المبحث ، يقول :

((لا أعرف كيف يصل إليك((صوتي)) وعلى أي شاكلة وماذا سترى فيه ؟ غير أني وأنا أخط لك هذه الرسائل بعد أن أصبح للحياة وللواقع وللسلوك في ذهني صورة غير ما كانت عليه ، أحار مع الكلمة . لو جاءتك هذه الرسائل قبل أربعين أو ثلاثين عامًا لأحرقتها على عتبة البيت وتركت الرياح تذروها في الفضاء رمادًا مبعثه رماد ، ولكنها ظروف وماضٍ نتذكره في أعماق النفس وفي تداعي الخاطرات والصور تداعي الألم والمعاناة من جبل نفسي لم تتماسك أحجاره ولم يكن له عمق في أرضية النفس الواعية ، .... وفي تقديري وتجربتي أن للإنسان حالات متعددة الأطوار متعالية لحظة وهابطة أخرى فيها القيمة وضدها .... وعندما أقول الإنسان آخذ التجربة مني وأردّها إليّ ، ... فلست محللا نفسيًّا أضع تجربتي وملاحظتي ممن يزورون عيادتي ، فأنا رجل لا مدرسة له ولا طبيب ولا كتاب ولا عيادة غيرالفطرة والملاحظة في قلب الصحراء الواسعة مضافًا إلى ذلك أنني جدار لي ستون عامًا مع الناس ومع الحياة ، في كل

---

(١) المصدر نفسه : ٢١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٥٩/١ .

دقيقة ، وفي كل ثانية ، أشعر أن أخًا أو جارًا أو أمًا أو أبًا أو صديقًا أو مشاغبًا يلصق بحائطي الذاتي أوراقه التي يخط فيها أفعاله وسلوكه وأخلاقه ونزعاته .

ويقيني أن ستين عامًا يمشي فيها الإنسان وسط الزحام والضجيج والفعل وضده والسكون والحركة لا بد وأن يكدس على عاتقه وروحه وذهنه أثقالاً من التناقضات ومن الكسب الذي تختلط فيه خطى الزمن مع خطى الإنسان ، مع خطئه وصوابه ، وهذا الواقع هو الذي يخط لك رسائلي اليوم ....))[١] .

فالرسائل - إذن - صدرت عن مرحلة النضج الفكري الذي تبلور في موقد التجربة ، وصدرت أيضًا عن تجربة خاصة قائمة على الفطرة والملاحظة ، عمقها ستون عامًا وسعتها سعة الصحراء وحياتها وإنسانها بتفعالاتها مطلقة التجليات والمعطيات منذ كانت تسكن الماضي الوادع وحتى أصبحت تسكن قلب اليوم المضطرب .

ومن هنا كانت الرسائل خطاه التي يسأل عنها إلى سوق الحياة ، وبضاعته التي يجلبها من تلك السوق ، يقول :

((فما تقرؤه هنا أو هناك هو خطوي وهي مسئوليتي ....

أجلب إليك بضاعتي من السوق الذي بعت فيه وشربت وتاجرت حتى ضاق صدري بالمتاجرة ....))[٢] .

إنها رحلة العمر ، وهي أيضًا محفظته التي يودع فيها تلك البضاعة ، يقول :

((وقد وعدتك في أول رسالة من هذه الرسائل أن أحاول جاهدًا أن أخذك معي في رحلة العمر وأجمع لك في محفظتي هذه كل ما علق في ذهني أو أنزلته على قلمي خاطرة من خواطر النفس ....))[٣] .

إنها ((كتابي الذاتي الذي حملته معي في قلب الصحراء أكثر من ستين عامًا ، وهو كتاب تخط لي الحياة فيه الأحداث والصور المتحركة في هذا الكون جيئة وذهابًا))[٤] .

وبهذه الإضافات متعددة الصور التي يحضن بها الشيخ رسالته إليه ، ويربطها به ، تتم شرعية انتماء الرسالة ، وتنكشف معظم خيوط العلاقة بين المرسل ورسالته ، وتستقر مرجعيتها .

* * *

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٣١٣ - ٣١٥ ، وانظر : ٢/٦٩ - ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٨٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٩٧ .

الحقل الثاني : في آفاق عمل الرسالة :

وعلى هذا الخط وجّه الشيخ خطابه إلى الكشف عن الآفاق التي حلقت الرسالة الناجزة فيها ، وكانت مجالاً لأشغالها قراءة ورصدًا وعلاجًا ، فرصدها في الآفاق التالية :

١ـ في أفق الذات :

حيث أشار الشيخ إلى انصراف الرسالة إلى ذات المرسل الخاصة راصدة وقارئة وناقلة ، حين قال :

((وما أخطه لك هنا ليس من الخيال ، ولا من كتاب قرأته ولكني أخطه وأقرؤه لك من كتابي الخاص ما بين النفس والجسد من صراع عنيف مررت به كما مرّ به غيري ويمر)) [١] ، فالمعاناة النفسية والوجدانية والفكرية الخاصة التي قامت وتقوم في أعماق المرسل تشكل واحدًا من الآفاق التي تعمل فيها الرسالة ، وإذن فستكون حياة المرسل وانطباعاته وخواطره وتجاربه أفاق عمل تحلق فيها الرسالة لتسقطب منها الكثير من محمولاتها ، كما يشير إلى ذلك قوله : ((ستكون رسائلي إليك قاصة شيئًا عن حياتي وعن انطباعاتي وخواطري وتجربتي الناقصة)) [٢] .

٢ـ في الآفاق الوطنية والعربية والإسلامية :

وكان الوطن والعروبة والإسلام مكانًا وكائنًا وزمانًا وحركة آفاقًا أخرى حلقت الرسالة في سعتها ، واشتغلت بها قراءة ورصدًا ومعالجة وإيصالاً على ما في ذلك من محاذير ، يقول :

((ولدي :

لقد خططت لك هذه الرسالة بعد أن فكرت طويلاً وأصغيت إلى كل همسة أو صوت آت إليها يحاسبها أو لا يحاسبها ، يلومها أو لا يلومها ، يستحسنها أو يرفضها ، فقد نفيت التردد والخوف وقدرت أمزجة الإنسان وأهواءه ورضاه وغضبه ، فشفعت لي سنوات عمري أمام ترددي فأخذتني إليك وإلى كل من يرى هذه الرسائل ، مؤمنًا كل الإيمان بأنني أضع أحاسيسي وتجربتي ومشاعري وحبي لبلادي وقومي هنا في الجزيرة العربية وفي كل أرض العرب وأرض المسلمين في هذه الرسائل . وهذا كل ما أستطيعه وكل ما أوصلتني إليه قناعاتي فمعذرة لمن لامني أو تجافى عن هذا الاجتهاد فما قصدت إلا خيرًا)) [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٨٣ وانظر : ٢/٢٠٩ .

٣ـ في الآفاق الإنسانية والكونية :

والإنسانية عامة في همومها وقلقها ومخاوفها وجنائزها خاصة، والكون عامة في شهادته وغيبه تمثل آفاقًا مفتوحة حومت فيها الرسالة قارئة راصدة رائية وباحثة متسائلة ومحللة ومحاورة ومعالجة ..... ، يقول :

((ولوعتي على الجنازة ورثائي لها حيثما كانت [عليه] [1] هي التي تملي عليّ في كل رسائلي إليك ترحمي عليها وحبي لها ومشاركتي في العزاء فيها ، ....)) [2] .

ويقول : ((كم تهيبته (القلم) وكم تثاقلت يدي عن حمله ، ولكن فيضان الصور من أفق الإنسان وأفق الكون ، لم يترك لإنسان هذا العصر ملاذًا يلوذ به عن الغرق في أعماق التساؤلات والمخاوف)) [3] .

فالإنسان في إطاره العام ، والكون بوجهيه المشهود والمغيب كانا مجالين توقفت عندهما الرسالة طويلاً ، وأولتهما ما يستحقان من اهتمامها وعنايتها .

٤ـ في الأفق التربوي :

لقد كانت التربية بمعناها العام الأفق الوالد في قائمة آفاق عمل الرسالة ، إذ إن تحليقاتها في الآفاق الأخرى ، وتحليقاتها في المصادر المنوه عنها في الحقل السابق لم تكن إلا تفريعات وامتدادات لهذا الأفق المحوري ، وحواشي عليه وإحالات وشروحًا وتوضيحات ، وبمعنى آخر ؛ فإن التحليق في أفق التربية كان شغل الرسالة الشاغل ومقر عملها الثابت ، وحينما تغادر هذا المقر فإنها لا تقدم على ذلك إلا لإنجاز الضروري من الامتدادات الخارجية لهذا العمل الذي تجردت له ، وانتدبت نفسها لممارسته ـ كما سيتضح ذلك لاحقًا ـ ، إلى ذلك يشير الشيخ بشيء من التأكيد حين وضح في مقدمة مؤلَّفه أن عمل الرسالة مصروف بالكامل للكشف عن مخاوفه على أولاده والوعظ لهم في ظرف معين ، يقول :

((وما في هذه الرسائل ـ التي أضع لها هذه المقدمة ـ إلا مخاوفي ووعظي لأولادي حين كانوا في جامعات القوم هناك بعيدين عن هذه الصحراء وقيمها ومعتقداتها الكريمة ....)) [4] .

---

(١) الأصح حذف هذه المفردة .

(٢) الرسائل : ١٨١/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٦/١ .

(٤) المصدر نفسه : ١٨/١ .

ويؤكد انصراف الرسالة بكاملها إلى الاضطلاع بحمل الهم التربوي والاشتغال به عن غيره من الهموم ، وأن هذا الغير ليس إلا وسيلة من وسائل عمل الرسالة في مجال عملها المحوري ، فيقول : ((ولدي

ما أكثر الأمنيات التي تاقت إلى التعبير من فم الإنسان محمولة على آلامه وأحزانه ، فإذا حاولت في هذه الرسالة أو في سواها أن أحمل اللقاح إلى الوليد الذي في جمجمة عمتك النخلة والواقفة على أقدامها ، فلأن صلاح الوليد وسلامته لا يأتي إلا بالسبب)) (١) .

ويؤكد ذلك بقوله :

((أتناول من على أغصان الشجرة التي يبست عندي بقايا ما فيها من أوراق ذابلة ، أتناولها قبل أن تسقط على التراب فأضعها على مفترق الطرق في حياتك .... لعل ورقة واحدة تحمل معها بذرة طيبة فتنمو في نفسك حتى تكون شجرة . فلا شيء يظلل الإنسان غير أشجار نفسه)) (٢) .

فالأمة نخلة واقفة على أقدامها ، وأجيالها الناشئة هم عذوقها ، والعذوق لا تصلح ولا تصح إلا باللقاح ، وما هذه الرسائل إلا ذلك اللقاح الذي يستهدف صلاح وسلامة تلك العذوق، والأمنيات في هذا المجال كثيرة ، وما التعبير عن الهموم والأحزان الخاصة إلا وسيلة من وسائل تشخيص ونقل ومعالجة وإيصال هذه الأمنيات وهذا الهم .

تلك هي الآفاق التي وجدت الرسالة وانبرت للعمل فيها ذاتًا وأمة وإنسانًا وكونًا وزمانًا وحركة، قراءة ورصدًا ومعالجة وإيصالاً .

* * *

الحقل الثالث : في توصيف الرسالة :

كما حرص الشيخ على تزويد رسالته بالبيانات التي تكشف عن مرجعياتها ، وآفاق عملها حرص ـ أيضًا ـ على تزويدها ببيانات واصفة يستهدف من خلالها الكشف عن رؤيته الخاصة لرسالته الناجزة من حيث علاقتها بالمرسل ، وبالزمان والمكان ، وبالمرسل إليه ، بما يحدد في نهاية المطاف مع إشاراته إلى مرجعيات الرسالة وآفاق عملها شخصيتها الكاملة التي يريد أن تأخذها في عين متلقيه أبدًا .

وبمحاولة تصنيف هذه البيانات الواصفة في محاور عامة ذات تجانس داخلي بين مفردات

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٢/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٥٥/١ .

هذه المحاور ، وبما يستوعب هذه البيانات أمكن رصدها في المحاور التالية :

المحور الأول : توصيف الرسالة من زاوية علاقتها بالمرسل :

فقد حظيت الرسالة في هذا المحور الذي عمد فيه الشيخ إلى توصيف الرسالة من خلال علاقتها به بكم وافر من الأوصاف التي تفصح بوضوح عن حدود هذه العلاقة ، وهي أوصاف ـ في مجملها ـ تنتظم في ثلاثة خطوط علائقية بارزة .

في الخط الأول : أوصاف العلاقة الجزئية :

في هذا الخط حشد الشيخ جملة من الأوصاف التي عمد فيها إلى توصيف الرسالة من خلال علاقتها الجزئية ببعض عناصر ذاته ، وكما سيتجلى ؛ فإن أوصاف هذا الخط تأخذ ثلاثة مسارات متجاورة متوازية وهي :

أوصاف المسار الأول : الرسالة والتجليات النفسية :

ففي هذا المسار تنتظم مجموعة من الأوصاف التي تجردت للكشف عن علاقة الرسالة بالتفاعلات النفسية ـ على وجه التحديد ـ لدى الشيخ ، وهي أوصاف تتعاضد لجعل الرسالة صورة واضحة الخطوط لتلك النفس القلقة .

فالرسالة ـ كماوعاها الشيخ ـ نزيف نفسه الذي يرسله باتجاه متلقيه[١]، وخفقاتها بفعل الصبا تارة وبفعل الرياح أخرى [٢] ، وشحناتها التي يسعى إلى تفريغها خارج الذات [٣] ، ورعشاتها التي يسعى إلى إسماعها إلى متلقيه ، ويأمل من متلقيه الاستجابة لها [٤] ، وهي ـ أيضا ـ حشاشتها التي يريدها أن تلبس حشاشة نفوس أولاده [٥] ، وهي فيض دموع هذه النفس الوالهة إلى التعبير عن آلامها ومسراتها وأحزانها وأفراحها [٦] ، والرسالة ـ أيضًا ـ مخاوف نفسه على أولاده ، وتساؤلاتها [٧]، وملهاتها، وإناء يحيل فيه ذرات الرمال التي تحركها الرياح داخل هذه النفس [٨] ،

---

(١) انظر الرسائل : ١٩/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٣١٣/١ ، ٢٩٥ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٤٦/٢ ، ٣٩٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٤٦/٢ .
(٥) المصدر نفسه : ٤٠٢/٢ .
(٦) المصدر نفسه : ١٥٥/٢ .
(٧) المصدر نفسه : ١٦/١ ، ١٨ .
(٨) المصدر نفسه : ٣٧٠/٢ .

وهي تداعي جبال من الرمال حرّكتها رياح عاتية داخل الذات [١] ، وهي رياح هبت في فضاء الذات [٢] ، وأسراب جراد نفسي أقلق راحته ولون الحياة في خاطره [٣] ، هي هذا كله ، وهي - أيضًا - تداعي جبال الصحراء وأوديتها النزيلة في أعماق نفسه [٤] .

تلك — إذن — كانت أوصاف الرسالة الجارية في المسار الأول ، من خط الأوصاف الكاشفة عن العلاقة الجزئية بين المرسل ورسالته ، وهي أوصاف تعكس رؤية الشيخ لرسالته حينما نظر إليها من زاوية علاقتها بتفاعلات النفس عنده ، تلك التفاعلات الحادة التي شكلت مساحة واسعة من الخلفية التي اتكأت عليها الرسالة في وجودها ، وكانت دافعًا حاسمًا له إلى ممارسة الفعل الإبداعي قبل أن تتحول إلى حمولة رئيسية للرسالة وأوصافًا ثابتة لها .

أوصاف المسار الثاني : الرسالة والتجليات الوجدانية :

في هذا المسار تحتشد مجموعة من الأوصاف التي تجلو في جملتها عن علاقة الرسالة بجانب الفيوض الوجدانية لدى الشيخ ، وهي أوصاف تشخص العناصر الوجدانية المشعة في فضاء الرسالة ، تلك العناصر التي أمدت الفعل الإبداعي بطاقة دافعة قوية منتظمة حتى تم اكتماله ، وشكلت بعد ذلك نوابض وشريانات تضح الحياة في جسد الرسالة ، بما يجعلها قادرة على ممارسة وظيفتها حملاً وإيصالاً وتواصلاً .

فالرسالة في هذا الإطار خفقات قلب الشيخ التي يتمنى على كل واحد من أولاده احتضانها في قلبه أو في ملفه [٥] ، وعواطفه التي يأمل أن يصوغ منها ملابس تعطي ولده من دفء روحه وخفقات قلبه [٦] ، وهي رثاؤه للإنسان [٧] ، ولجنازته ولوعته عليها وحبه لها ومشاركته في العزاء فيها [٨] ، وهي رثاؤه للماضي [٩] ، ولأهله وأحبابه وأحزانه

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥٥/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٠٠/٢ ، ٤٠٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٧١/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٢/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٢١/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ١٧/١ .

(٨) المصدر نفسه : ١٨١/٢ .

(٩) المصدر نفسه : ٩٩/٢ .

عليهم [١] ،وهي دموعه الراثية لأوضاع الشباب العربي [٢] ، وهي أنين الصحراء وحنين جمالها ورثاؤه للوادي وللروض وللغدير المهجور !!! [٣] ، وهي شكواه ومسراته [٤] ، وهي دموعه المطلقة [٥] ، وهي نزيف وجدانه وبكاؤه على صدور الأوراق [٦] ، وهي مشاعره وأحاسيسه [٧] ، وحبه لبلاده وقومه [٨] .

تلك هي أوصافها الوجدانية ، وهي أوصاف تعكس بوضوح عمق علاقتها بالجانب الوجداني وتجليات هذا الجانب وتفاعلاته لدى المرسل .

أوصاف المسار الثالث : الرسالة والتجليات العقلية :

وفي هذا المسار تأتي عدة أوصاف تنطلق من زاوية علاقة الرسالة بالعناصر الفكرية والروحية لدى المرسل ، لتكشف عن خلفيات الرسالة ورصيدها من هذه العناصر .

فالرسالة هي تصورات المرسل [٩] ، وهي ودعه الذهني المنثور في الأوراق [١٠]، وهي تفكيره [١١] ، ولحظه [١٢] ، وهي أوصاف تكشف عن قوة علاقة الرسالة بتشكلات فكره وحركته الناشطة ورصيد الرسالة من ذلك كله .

تلك ـ إذن ـ هي الأوصاف التي تكشف عن علاقة الرسالة بالعناصر النفسية والوجدانية والعقلية لدى الشيخ ، وعن مقدار رصيد هذه الرسالة من فيوض هذه العناصر ، ومن الواضح أن علاقة الرسالة بهذه العناصر ـ كل على حدة ـ علاقة كاملة ، ولكنها مع ذلك تبقى علاقة جزئية تقوم على خط واحد يصل ما بين الرسالة وذلك العنصر دون سواه من عناصر ذات المرسل ،

---

(١) المصدر نفسه : ٥٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٣٥/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٦٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٠٥/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٤١/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ١٥٥/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٤١/١ ، ٨٣ ، ٣٩٣/٢ .

(٨) المصدر نفسه : ٨٣/١ .

(٩) المصدر نفسه : ٣٩٣/٢ .

(١٠) المصدر نفسه : ٢١٠/١ .

(١١) المصدر نفسه : ٢١/٢ .

(١٢) المصدر نفسه : ٣٨٩/٢ .

وسيتجلى ذلك أكثر حينما يتم تناول أوصاف العلاقة الكلية .

أوصاف الخط الثاني : أوصاف العلاقة الكاملة :

وفي هذا الخط تأتي مجموعة من الأوصاف التي تكشف بوضوح تام عن العلاقة الكاملة التي تربط الرسالة بذات المرسل الكاملة نفسًا ووجدانا وعقلاً وروحًا .

وبذلك كانت لكل صفة من هذه الصفات خطوط لا محدودة تنطلق منها إلى كل عنصر من عناصر الذات ، في مختلف تجليات هذه الذات مكونة بذلك مع المرسل شبكة علائقية مطلقة تتضخم في بعض الأحيان إلى درجة تحقيق الاندماج الكامل بين المرسل ورسالته ، فما الرسالة في أوصاف هذا الخط ؟

إنها سيره إلى متلقيه الذي يهرب به من ضغوط الآلام [١] ، وصوته الذي يسعى لنقله إلى المطلق [٢] ، ونداؤه المستغيث بمتلقيه [٣] ، وهي خليط الذكريات المتراكمة في فضاء ذاته [٤] ، وخواطره[٥]، وقناعاته[٦]، وانطباعاته[٧]، وتجربته[٨]، وهي أتربة ذاته[٩] ، ومجادلته لذاته [١٠]، وهي خطوه الخاص ، وبضاعته التي يجلبها إلى متلقيه من السوق العامة [١١] ، وهي رحلة عمره [١٢] ، وهي نفسه ذاتها [١٣] ، وهي عودة المتخشب الذي يعتذر إلى متلقيه عن إثقال كاهله به [١٤] ، والرسالة التي هذه هي صفاتها العلائقية بالمرسل هي هو ، وهي بصمته الوحيدة

---

(١) المصدر نفسه : ٣٠٥/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣١٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٥٩/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٤١٠/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٧/١ ، ٢٤٣/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٣٩٤/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٣٧/١ .

(٨) المصدر نفسه : ٣٧/١، ٢١/٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ .

(٩) المصدر نفسه : ٤١٠/١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٢٦/١ .

(١١) المصدر نفسه : ٣٧/١ .

(١٢) المصدر نفسه : ٨٣/٢ .

(١٣) المصدر نفسه : ٣٩٩/١ .

(١٤) المصدر نفسه : ٣٥٦/١ .

التي يتركها على دربه [١] ، والرسالة في نهاية المطاف هي محفظته التي أودع فيها ذلك كله [٢] .

إنها أوصاف تجسد بعمق الرسالة في كافة تجلياتها في علاقتها بذات المرسل في مختلف عناصر هذه الذات .

أوصاف الخط الثالث : أوصاف الرسالة ودوافع المرسل ومقصدياته :

بقيت في هذا المحور الإشارة إلى أوصاف الرسالة من زاوية علاقتها بغايات المرسل ومقصدياته في إطار الذات أو خارجها .

فالرسالة في هذا الخط تفريج هم وتسلية [٣] ، وهي دمعته النادمة التي يأمل أن تخاصم عنه وتحاجج لطرد كوابيس الليل عن شيخوخته [٤] ، وهي هجاؤه وذمه لنفسه ، وأوبته من سفره الطويل [٥] ، وهي تحديقه في وجه المعصية [٦] ، وهي في نهاية المطاف أمنياته [٧] .

تلك ـ إذن ـ هي أوصاف الرسالة من زاوية علاقتها بالمرسل ذاتًا وغاية .

ولعله قد تبين من خلال أوصاف هذا المحور بخطوطه ومساراته قوة العلاقة التي تربط بين المرسل ورسالته ، تلك العلاقة التي ترتقي إلى درجة التوحد الكامل والاندماج بينهما مما يعطي دليلاً آخر على رغبة المرسل في نقل ذاته ، أو ما يمكن نقله من ذاته إلى المطلق ، بما يحقق هدفه في الإفلات بهذه الذات ومكنونات هذه الذات من شرك الفناء في المجهول ، وهي مع ذلك تعطي دليلاً إضافيًا على أنه لا يمكن التعامل الفعّال مع الرسالة على أي مستوى من مستويات التلقي الجاد في ظل تجاهل المرسل أو إزاحته عن مجال الدراسة ، وبذلك يتحقق هدف المرسل في فرض وجوده عند كل تلق ، وهو هدف مشروع عادل .

---

(١) المصدر نفسه : ٤١/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٨٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢٣/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٤٠٥/١ ـ ٤٠٦ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٨٢/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٩٥/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٢١٢/٢ .

المحور الثاني : توصيف الرسالة في إطار علاقتها بالزمان والمكان :

حظيت الرسالة في هذا المحور بأوصاف تجسد بوضوح علاقتها المتينة بهذين العنصرين المتلازمين في أعماق الشيخ .

إنها في هذا الإطار أنين الماضي وحنين جمال الصحراء وصورة الروض وغدير الوادي المهجور [١] ، وهي في أكثرها صور من الماضي [٢]، في هذه الصحراء [٣] ، وهي وقفة لاستحضار ذلك الماضي الذي خلفه وراءه [٤] ، وهي الرحلة التي يأخذ متلقيه معه فيها إلى خيام الصحراء وقراها ومجتمعاتها وأفكارها وتصوراتها [٥] ، وهي ((أطياف من الصور تهبط على قلمي الآن في أسراب من طيور الصحراء استقبلها لأن رائحة أشجار الصحراء وخزاماها ومياه الغدير فائحة روائحها من أجنحتها ، ومنها وبها أحقن قلمي لتكرع منه مثل هذه الرسائل ....)) [٦] .

فالرسالة - إذن - هي الصحراء ومكوناتها المادية والمعنوية في الماضي ، وهما عنصران شديدا الالتصاق بأعماق الشيخ التصاقًا يصل إلى درجة الوحدة مع أعماقه النفسية والوجدانية والفكرية ، مما جعلهما الرافدين الوالدين للرسالة ؛ لا في مؤلفه هذا فحسب ؛ بل في سائر إبداعه المنجز حتى الآن ، ابتداءً بـ (في أثر أبي الطيب بين اليمامة والدهناء) ومرورًا بـ (رسائل إلى ولدي) و (حاطب ليل ضجر) و (أبا العلاء..ضجر الركب من عناء الطريق) و ((خاطرات أرتني سرها)) وانتهاءً بـ ((ذكريات وأحاسيس نامت على عضد الزمن)) ، مما يساعد على القول : إن هذين العنصرين بكافة تجلياتهما يشكلان مع الشيخ كيانين متساكنين تساكنًا عميقًا منتجًا .

المحور الثالث : توصيف الرسالة من زوايا علاقتها بالمرسل إليه :

وفي إطار توصيف الرسالة من زاوية علاقتها بالمرسل إليه ساق الشيخ جملة من الأوصاف التي تكشف عن هذه العلاقة وتبرزها في خطوطها المتعددة .

فالرسالة من زاوية وظيفتها التواصلية نداء متجه إلى المتلقي [٧] ، وهي من زاوية عملها في

---

(١) المصدر نفسه : ٣٦٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٦/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٧/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٦/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٨٥/٢ .

(٦) الرسائل : ٢٦٤/٢ .

(٧) انظر الرسائل : ٣٥٩/١ .

بناء المرسل إليه تربويًا لقاح يحمله المرسل إلى ذلك المتلقي [١] ، وأوراق يأمل المرسل أن تحمل معها بذرة طيبة فتنمو في نفس متلقيه لتكون شجرة تظلله [٢] ، ومن زاوية وظيفتها الإرشادية والتوجيهية فإنها وعظ المرسل للمرسل إليه [٣] ، ومن زاوية عملها الوقائي والاحتضاني فإنها مخاوف المرسل على المرسل إليه [٤] ، وهي جناح المرسل الذي يريد أن يحضن به متلقيه ويحتويه فيه ليجنبه محاذير بقائه في العراء [٥] ، وهي ملابس صاغها المرسل من عواطفه وتجربته وتفكيره ليدفيء بها متلقيه [٦] ، والرسالة من زاوية عملها التبصيري صور جميلة يلقيها المرسل على طريق الأجيال [٧] ، وهي أوراق يكشف فيها المرسل للمرسل إليه عن وجه المعصية [٨] ، أما على مستوى التعامل مع المتلقي وصفة التواصل معه فإنها نسيم يحمل إلى المتلقي رائحة الأبوة [٩] ، وهي رسائل حانية على بؤس ذلك المتلقي [١٠] .

تلك هي أوصاف الرسالة من زاويا علاقتها بالمرسل إليه ، لكن هذه الأوصاف لا تقف في طاقاتها الدلالية عند حدود إبراز علاقاتها بالمتلقي ، بل تتجاوز ذلك إلى الإشارة الضمنية إلى زوايا أخرى تتداخل معها في علاقة احتواء تكشف في مجملها عن العلاقة العميقة بين أطراف الرسالة ((مرسلاً ورسالة ومرسلاً إليه)) في الوقت الذي ترسم فيه خطوط تلك العلاقة وآفاقها .

هكذا رصد الشيخ وعيه برسالته في مرجعيتها ، وفي آفاق عملها ، وفي أوصافها الكاشفة عن علاقة كل عنصر من عناصر الرسالة بالآخر .

* * * *

---

(١) المصدر نفسه : ٢٢٢/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٥٥/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٨/١ .

(٤) المصدر نفسه : ١٨/١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٢٨/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٢١/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٢١/١ .

(٨) المصدر نفسه : ٢٩٥/٢ .

(٩) المصدر نفسه : ١٣٥/١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٢٦٢/٢ .

القطاع الثالث : في المرسل إليه :

إذا كان المرسل ورسالته قد استأثرا بما تم الكشف عنه آنفًا من مضامين الرسالة ؛ فإن المرسل إليه أيضًا قد نال من هذه المضامين نصيبًا وافرًا تجردت جميعها للكشف عن المرسل إليه مكانًا ، ومساحة ،وطبيعة، ودورًا، كما هو في عين المرسل ، على نحو يمكن الكشف عنه في الحقول التالية :

الحقل الأول : في التعريف بالمرسل إليه :

إذا كان المرسل قد اتخذ من الأبوة - تارة - ومن الصداقة - أخرى - مكانًا ينطلق منه باتجاه متلقيه ويتواصل منه معه - كما سلف - فإنه هنا يأخذ بيد متلقيه ليجلسه في مكان مقابل تمامًا لمكانه هو .

فإذا كان المرسل ينطلق إلى المرسل إليه من مكان الأب فإن المرسل إليه ليس إلا من قامت به هذه الأبوة وانصرفت إليه ، فهو - إذن - ولده ، وهو تقابل تكاملي بين طرفي الاتصال تؤكده وتلح عليه الرسالة من خلال اتكائها في وجودها واستمرار تدفقها على علاقة التضايف بين كلمتي (والد - و - ولد) ابتداءً بعنوان الرسالة (رسائل إلى ولدي) وانتهاءً بآخر فقرة من فقراتها بعد مرور أكثر من ثمانمائة وثلاثين صفحة ، مرورًا بصيغة النداء (ولدي) التي تكررت في الرسالة ((سبعًا وتسعين وثلاثمائة مرة)) مكتنزة في أعماقها طاقة وجدانية ونفسية راحت تقفز بالرسالة من درجة إلى أخرى حتى اكتمل سلمها وتم إرسالها، لتبدأ الرحلة نفسها مع المرسل إليه.

وليس من الغريب بعد ذلك ألا يكون المرسل إليه سوى خفقة وجدانية عاطفية من خفقات نفس المرسل [١] ، وأن يكونوا فراخه وأغلى شيء على نفسه [٢] .

وإذا كان المرسل قد تواصل مع متلقيه من مكان الصديق الهارب من وطأة همومه وآلامه وأحماله ، أو الهارب بذاته وبما يسكن هذه الذات من شراك الفناء إلى صديقه المرسل إليه ، فإن المرسل إليه ليس إلا الملاذ الذي يأمل ذلك الهارب أن يصل إليه ، وأن يجد لديه وفيه الحماية مما يؤلمه أو يخيفه [٣] ، وبذلك كله استحق المرسل إليه أن يحظى من المرسل ببطاقة

---

(١) المصدر نفسه : ٣٦٣/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٨/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٠٥/١ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٢٢٢/٢ - ٢٢٣ .

تعريف تتسم بالخصوصية كُتب عليها : ((أنت حلم جميل أتركه خلفي)) [١] .

وهنا تبرز بوضوح العلاقة العميقة التي يسعى المرسل إلى إقامتها، وإبرام حبالها مع المرسل إليه ، بما يؤكد مرة أخرى حرص المرسل وقدرته على فرض نفسه بالقوى الشعورية عند تلقي الرسالة .

* * *

الحقل الثاني : في مساحة المرسل إليه :

قال الشيخ : ((كتبت لأولادي ، ولا فكرت أني أطرح هذا في الشارع العام [٢] ، ولكن لإحساس عميق داخل نفسي يتسع يومًا بيوم ويتمدد في عقلي وتفكيري وفي رؤيتي للعصر أرى أن كل ابن من أبناء العرب أو من أبناء المسلمين هو ابني)) [٣] .

وإذا ؛ فحينما قامت في ذهن الشيخ فكرة الكتابة إلى ولده ذهب معها في حوار طويل في ظل مجموعة من المؤثرات يأتي في مقدمتها خبرته الواسعة ، وتجربته العميقة ، وشعوره القوي بالمسئولية الخاصة والعامة ، ورؤيته للعصر ، مما أدى إلى تبلور الخطوط العامة لمضامين رسالته وقضاياها وغاياتها الكبرى ، وبناءً على ذلك كله تحددت مساحة المرسل إليه ، فإذا كانت خبرة المرسل وتجربته تتجاوزان حدود المعرفة بالذات إلى المعرفة المعمقة بظروف العصر وتداخلاته التاريخية والسياسية والحضارية والأخلاقية والفكرية في إطارها العالمي العام وفي الإطار العربي والإسلامي بصورة مركزة ؛ وإذا كان في شعوره بالمسئولية ينطلق من معرفته هذه ، ثم من موقعه الخاص الذي احتله بصفته الأبوية، ومن موقعه العام الذي احتله بصفته السياسية في وطنه ، وبصفته العربية والإسلامية والإنسانية، ثم بصفته الأدبية ؛ فإن ذلك سيمدّ مساحة المستهدفين بخطابه ، وسيوسع رقعتهم بما يكفي لاحتواء سعة رؤية المرسل هذه ، واستيعاب شموليتها وطموحها وغاياتها الكبيرة .

ومن هنا فإن لفظة ((ولدي)) بمعناها الحرفي ، وبما تختزنه هذه اللفظة في أحشائها من رصيد وجداني ونفسي ، وبدلالتها المنصرفة إلى شريحة معينة لم تعد إلا رمزًا توخى الشيخ أن يلتحم به مع الجيل الناشئ ، وأن يعبر من خلاله إلى أعماقه عبورًا قويًّا عميق الفعالية والتأثير .

وإذًا ؛ فإن ((أولاده)) عبدالمحسن وعبدا لله وحمدًا ومحمدًا وخالدًا وعبدالسلام..... ليسوا في خطاب الشيخ هنا إلا شريحة محددة من أبنائه شباب هذا الوطن وشاباته ، وهؤلاء بدورهم ليسوا إلا جزءًا من أبنائه على مستوى الوطن العربي الكبير وعلى مستوى وطن العقيدة الأكبر ، يقول :

---

(١) الرسائل ٣٩٤/٢ .

(٢) كانت الرسالة ـ حينئذ ـ متجهة إلى أولاده : عبدا لله ومحمد وحمد ، وولدي أخيه : سعود وأحمد ، الذين كانوا جميعًا وقتها يدرسون في الولايات المتحدة الأمريكية .

(٣) مقابلة خاصة أجراها الدارس معه يوم الأربعاء ١٤١٧/١٠/١٩هـ .

((وإذا كنت الآن قد أخذت هذه الرسائل إليك وأخذتك لها فليس ذلك لأنك ابني الذي احتكر مشاعري وعواطفي ، ولكن كل ابن بار بهذا الوطن هو ابننا ، وكل أب في هذا الوطن هو أبوك ، وهو عمك ، وبهذا تتسع في ذهني صورة الابن وحيويته الذهنية والعقلية ، ... .)) [١] .

ويؤكد ذلك في سياق تبريره لهذه النظرة المسئولة فيقول : ((... فما ابني إذا انكسرت ساقه العقلية وبرك على ركبته جثة - يحسن إليها من يحملها إلى أهلها أو إلى مصح قريب - هو الذي يعنيني وحده ، فسيره على قدم واحدة معناه أن تظل خطواته متكورة كبعير عداء عثرت به قدمه فانكسرت ساقه فظل طريح المبرك لم يلحق بالقافلة ....)) [٢] .

ويؤكد - مرة أخرى - هذه الرؤية معتبرًا إياها واجبا دينيًا يتحتم الوفاء به - وهي كذلك - فيقول :

((ولدي :

لأنني أرى أمتي وقومي جسدًا واحدًا ، لا يجوز لي ومحرم عليّ في شريعتي أن أشفق عليك وعلى إخوتك وحدكم ، وأن لا يكون لهم في نفسي مثلما لكم من حب مكين ، ....)) [٣] .

وإذًا فإن مساحة المستهدفين المباشرين بالخطاب المفتتح بلفظة ((ولدي)) تبدأ بـ ((أولاده المباشرين)) وتنداح من خلالهم لا لتستوعب الجيل الناشيء المعاصر على المستوى الوطني والعربي والإسلامي فتيانًا وفتيات فحسب ؛ بل لتستوعب في إطارها كل جيل قابل [٤] ، مما يحقق لهذه المساحة خاصية النمو المطلق أفقيًا في المكان ورأسيًا في الزمان ؛ الأمر الذي يحقق لهذه الرسالة صفة الخلود ذاتًا ووظيفة وأهدافًا وفعالية .

إن هذه الرؤية في الوقت الذي تحقق فيه هدفها في استيعاب طموح المرسل في التواصل البناء مع الجيل لتحقيق مصالح هذا الجيل ومن ثم مصالح الأمة في يومها وغدها ، فإنها كذلك تحقق هدف المرسل في الإفلات الأدبي بذاته ، والفعلي بمكنونات ذاته من الضياع في المجهول من حيث كان حضوره العاطفي لازمًا عند كل فعل قرائي .

* * *

---

(١) الرسائل : ٨٤/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٨/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٠/١ .

(٤) للاستزادة من النصوص التي تؤكد هذه الرؤية انظر: ١٨/١ - ١٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ١٩/٢ ، ٢٨ ، ١١٦ ، ٣٨٢ ، ٣٩٣ .

الحقل الثالث : في طبيعة المرسل إليه :

ساق المرسل في ثنايا رسالته جملة من الإشارات التي تصدى فيها ـ على وجه خاص ـ لشرح وتحليل طبيعة المرسل إليه ـ كما يراها ، وكما هدته إلى هذه الرؤية خبرته وتجربته ـ مشيرًا إلى مراعاته في تواصله مع متلقيه وفي الطموحات المعقودة على هذا التواصل لهذه الطبيعة ، وتحاوره معها ، وانعكاسات ذلك في رسالته .

وفيمايلي أبرز الصفات الطبعية للمرسل إليه كما وعاها المرسل وشخصها في خطابه :

١ـ الإنسانية :

إن أول صفة من صفات المتلقي وأكثرها فعلاً وانعكاسًا في حركته ومواقفه هي كونه إنسانًا .

وفي مقام التواصل ـ هنا ـ فإن لهذه الإنسانية حضورها القوي في أثره الواضح في تجلياته ، وهو الأمر الذي وعاه المرسل وقرر التعامل معه بواقعية واتزان ، وقد أشار الشيخ إلى ذلك ، وإلى كيفية تحاوره مع هذا الجانب الحساس في متلقيه سواء في عملية التواصل نفسها ، أو في مقصديات وفاعلية ونتائج ذلك التواصل حين خاطب متلقيه خطابًا يباشر فيه ذلك بوضوح قائلاً : ((ولدي :

أنا بهذا لا أعظك لكي ييْبس جلدك على عظمك ، وتصير إلى خشبة يبست لا تنبض بالحياة مهما فاضت عليها مياه الوادي ، أبدًا ، أنت إنسان ، والإنسان معركة بين الخير والشر ، فمن انتصر فيها خيره على شره أصابت عدواها سواه ، ....))[١] .

٢ـ التفارق :

وإذا كانت الإنسانية في مختلف تجلياتها هي صفة المتلقي الأولى والحاسمة قبل وأثناء وبعد عملية التواصل ، وإذا كانت مساحة المتلقي على القدر الذي أشير إليه آنفًا من الاتساع فمن الطّبعي والحال ذلك أن تتسع دائرة الفروق بين المتلقين ، ذلك ما أشار إليه الشيخ حين قال : ((وفي ظني أن لكل منكم تصوراته وآماله وطموحه ، لا يمكن أن تكونوا في مستوى واحد ، لكل منكم ذهنه وعقله وتفكيره ومفهومه ، لكل منكم رؤاه وأحلامه ، ولكل منكم حاشيته الداخلية والخارجية ، ....))[٢] .

---

(١) الرسائل : ١/٣٥٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٠ .

٣ـ محدودية التجربة :

والخطاب في أساسه موجه إلى الناشئة ، والناشئة لـمّا تشتد أعوادهم بعد ، ولما تأخذهم الحياة إلى معتركها الذي يصنع التجربة ، ويراكم الخبرة ، يقول :

((... وهنا يحار العقل وتذهل النفس وتجري من فم القلم إليك ألفاظ لائذة بجناحك ، وهو جناح غض حتى الآن لم ترتفع به قوادمه إلى أكثر من مقعده على كرسي جامعتك مصغيًا إلى معلمك يخط بقلمه في جمجمتك ما خطه في ذهنه معلمه ....)) [١] .

ويشير إلى ذلك بعد إشارته إلى الفروق في طبائع الناشئة فيقول :

((هذه الحالة وهذا الواقع الطبيعي هل لي أن أقف بكم عنده نسمع صداه في مستقبلكم ، فهو صدى لم تدخلكم فيه التجربة حتى الآن ولم تمارسوه في حياتكم اليومية مع عمرو أو زيد من الناس)) [٢] .

٤ـ رقيق المشاعر ، حالم :

والمرسل إليه غض القلب ، طري النفس ، رقيق المشاعر ، طائرة به أجنحة أحلامه في براءة ، ذلك أن مناخ الحياة المتقلب لم يلفحه بحدته التي تعجم عوده وتتحرك به من طور الحركة البريئة إلى طور الحركة الحذرة بعد ، يقول :

((ولدي :

كم حاولت أن أدفن هذه الرسالة وأبتعد بها عن رسائلي إليك في مدافن النفس التي ما أكثر ما فيها من دفين ، فأنت طري النفس رقيق المشاعر ربما تكون حالمًا تطير على أجنحة أحلامك في وضح النهار .. ربما لم يكن لك ليل يطارد أحلامك فيغطيها الظلام .. وشاب هذه حاله وهذا تفاؤله ألا يكون من جور أبيه عليه أن يأخذه إلى رمال الدهناء فيدفنه في أعماقها ؟ ....)) [٣] .

٥ـ مضطرب قلق :

والمرسل إليه ـ أيضًا ـ ذو طبيعة مزاجية مضطربة قلقة نافرة ، فيها شيء من التمرد والرفض البريء ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه : ٢٩٦/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٠/٢ ـ ٢١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٠٨/٢ .

((ولدي :

قبل أن أكتب لك هذه الرسائل فكرت أن أحيلك إلى مواعظ الشيخ الجليل ابن الجوزي والتقي الفضيل بن عياض ، ولكن لأنك شاب مضطرب في نفسك أمواج عاتية من القلق والوجل من الجلوس طويلاً تحت منبر الواعظ قدرت أن [كتابة]هذه الرسائل الحانية على بؤسك....))(١).

ولإدراك المرسل لذلك ، ووعيه بهذه الطبيعة النافرة ذهب يمتص من نفس متلقيه هذه الصفة ويروض تمردها بالاتكاء على المنطق والوجدان والجذب النفسي في آن واحد ، يقول :

((وحتى لا يضيق صدرك يوم دليت لساني في هذه الرسائل ، لا تلعب بك أهواؤك وكبرياؤك فتظن أن تكريمي لك لا يكون إلا بمنافقتك وتزييف شخصيتك وتركك في مناحة على جنازة لا تستحق من يذرف عليها دمعة واحدة ، فأنت أحب الناس إليّ وأنت أغلاهم على نفسي ، فيك أرى جمال هذا الكون فمشكلتك مع نفسك وتعقيدات هذه النفس سببها أنك لا تحتمل من يقول لك تنبه لوضع خطاك ، فتراب الأرض اليوم كله ألغام وأحجار ثقيلة فلا تظن بي الظنون ولا تكابد - في ضيق أفق - تحويل الكلمات الحانية عليك إلى أضراس عاضة ، لو فعلت هذا وأسأت الظن تكون معتديًا وعاقًا بمن يبرك ويحبك)) (٢) .

هكذا وعي الشيخ طبيعة متلقيه ، وهكذا قرر التعامل مع هذه الطبيعة والحوار معها وأخذها في الحسبان ، وهكذا دعا متلقيه إلى ترويض ما يجده في نفسه من اعتراض وتمرد أثناء التعاطي مع الرسالة والحوار معها .

* * *

الحقل الرابع : في دور المرسل إليه :

لا ينصرف الهم هنا إلى معالجة الدور المطلق الذي يسعى المرسل إلى إسناده إلى المرسل إليه تجاه مضامين الرسالة وتحقيق غاياتها ومقاصدها ، ولكنه معني - على وجه التحديد - برصد الخطاب التمهيدي الذي اتجه به المرسل إلى متلقيه مبصرًا إياه من خلاله بكيفية تواصله مع المرسل ومع رسالته ، وتعامله معهما تعاملاً فعالاً سيؤدي في النهاية إلى استيعاب حمولة الرسالة ، ومن ثم تحويلها إلى فعل منجز ، وهو ما يمثل دوره المطلق .

وفيمايلي محاولة لرصد الخطاب الذي يشخص الخطوط العامة لدور ذلك المتلقي ، كما اقترحه عليه المرسل .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٦٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٥٦ - ١٥٧ .

أولاً : دوره تجاه المرسل :

نثر المرسل في ثنايا رسالته جملة من الإشارات التي لفت من خلالها نظر المرسل إليه إلى ما ينبغي عليه أن يأخذ به نفسه أثناء عملية تواصله مع المرسل ، واقترح فيها أسلوب ذلك التواصل ، وهذه أبرز خطوط ذلك الأسلوب :

١ـ الوعي بمكان المرسل :

دعا المرسل متلقيه إلى أن يعوا مكانه منهم ودوره فيهم ، ذلك الدور الذي بوأته إياه أبوته لهم ، وشعوره الكامل تجاههم ، وتجربته الطويلة ، وخبرته الواسعة ، يقول :

((... وعوا مكاني من مكانكم ودوري مع دوركم فأنا الأب وأنتم الأبناء وهو دور أسبغته عليَّ تجربة ستين عامًا ....)) [١] .

٢ـ توطين نفسه على التواصل :

ولأن المرسل يتحدث إليه من هذا المكان ، ويتواصل معه استجابة لما يمليه عليه ذلك الدور فإن من واجبه ترويض نفسه على ملاحقة المرسل له ، والسير معه أثناء سيره في رحلة العمر ، وأن يستوعبه في رحابة صدره ، يقول :

((ولدي :

روض نفسك على ملاحقتي لك ، ففي طريقي إليك أحمل همومي ، خذني إلى سعة صدرك وجرب السير معي ، ....)) [٢] .

٣ـ استيعاب المرسل :

ولكي يكون ذلك التواصل مثمرًا ومؤديًا إلى الغايات والمقاصد الكبرى التي يتوخاها المرسل الأب المجرب لأبنائه فينبغي ـ إذن ـ على المتلقي أن يستوعبه استيعابًا صائبًا في أهدافه ومقاصده ومعانيه ، يقول :

((لا تفهم عني خطأ في القول فتجفل مني فأقع منك في الفراغ ....)) [٣] .

ويقول : ((أنا بهذا لا أعظك لكي ييْبس جلدك على عظمك ، وتصير إلى خشبة يبست لا تنبض بالحياة مهما فاضت عليها مياه الوادي . أبدًا ....)) [٤] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٤/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٩/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٥٤/١ .

وفي دوافعه يقول : ((ولدي :

في هذه اللحظة التي يقف فيها القلم بيدي حائرًا حيرة نفسي وحيرة إشفاقي عليك أيمكن أن تفهمني وأن تعذرني وأن تدرك كل الإدراك أن شفقة الآباء لا تعادلها شفقة وإن حمل العصا وجلد بها ظهرك ؟)) [١] .

ويقول :

((فإذا أخذتك معي إلى خيامنا وقرانا ومجتمعاتنا وأفكارنا وتصوراتنا فهات معك كل وعيك وشاركني فيما أقوله أو لا تشاركني . أنزلني تحت هامتك وفكرك أو ارفعني إلى ما فوق هامتك ، سيَّان عندي ذلك . إنما أود أن تعرف أنني مدفوع بجور نفسي إلى أن أقول تصوراتي وأن أنقد ذاتي وكل ذات عزيزة عليَّ)) [٢] .

ولا يخدش قوة الدعوة إلى الفهم والمشاركة أسلوب المخايرة هذا ، فهو في حقيقته ليس إلا تقنية فنية عول عليها الشيخ كثيرًا في الرسالة لاقتحام متلقيه نفسيًّا ووجدانيًّا لما تختزنه من إيحاءات خصبة تشي باحترام المرسل حرية المتلقي رأيًا وموقفًا مما يحمل هذا المتلقي على مبادلة المرسل احترامًا باحترام، وبذلك تتحول هذه المخايرة إلى وسيلة تكريس وتمكين ناجز الأثر معززة معمقة للمعنى الإيجابي في طرفي الخيار ، ثم إن الفهم هو الفيصل ، فإذا صح فهم المتلقي فمن المؤكد أنه سيشارك المرسل وسينزله تحت هامته .

وإذا كانت هذه هي دوافع المرسل فمن واجب المتلقي أن يفهم ذلك ويقدره ، يقول في هذا المعنى بعد الإشارة إلى بعض دوافعه :

((هذا [التحول في مقومات المجتمع المحلي وقيمه وخصائصه] ما أثار في نفسي اللقاء بكم في هذه الرسائل وبعث الخوف عليكم ، قدِّروا مني هذا الإحساس ....)) [٣] ، فإذا هو لم يصدقه في دوافعه خاصة ، وفيما يقوله عامة ، وإذا هو لم يفهمه فأنى له بالحقيقة إذن ؟ .

((إذا لم تصدقوني وإذا لم تفهموني فإلى أين أنتم ذاهبون ؟ وعند من تجدون مشاعري وعواطفي التي أخلقت عندي كل شيء لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة .... ؟)) [٤] .

---

(١) المصدر نفسه : ٣٢١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٨٥/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢١/٢ .

٤ـ الالتفاف اليقظ حول المرسل :

أب يريد أن يفيض على أولاده من دفق حنانه ، ويسقيهم من ماء مشاعره ، ويحضنهم تحت جناحه ليحميهم به من قسوة العراء ومخاطره ، وأن يسكب في عقولهم عصارة خبرته وتجربته الناضجة ، لعلها تعينهم على خوض معركة الحياة بمقدرة وتمكن وأمان وجدوى ، فمن واجب الأولاد ـ إذًا ـ الالتحام الواعي مع ذلك الأب ، كما يريد هو ، يقول :

((أيمكن لي وأنا أسجل لكم هنا وثيقة ليست من ترف الكلام ولكنها حشاشة نفسي تمشي إليكم في وله أم الفطيم على صغيرها ، أقول أيمكن لي أن أصوغ من عواطفي وتجربتي وتفكيري ملابس تعطيكم من دفء روحي وخفقات قلبي أرق العواطف وأدق ما يكون التجرد معكم ؟ سأحاول إن استطعت ، فهل من الممكن أن تستطيعوا أنتم ؟ أن تقفوا معي في حال من اليقظة العقلية والفكرية وأن يكون وقوفكم في دائرة حولي لا مدخل فيها لغريب ؟ التصقوا بي فقد كبرت وكبرت هواجسي مع اهتماماتي بكم أكثر فأكثر وصارت تشكل في ذهني مخاوف عليكم قد تفرغكم من محتواكم ومن قوتكم وعندئذ يصيبكم الفشل والضياع))[1] .

٥ـ الإصغاء والمتابعة :

وفي تلك الدائرة التي لا مدخل فيها لغريب والتي يحتل فيها الأب المرسل مكان الحاكي والمعلم ، ويحتل فيها الأبناء مكان المستمع والتلميذ سيقرأ المرسل القصة ، فما واجب المستمع التلميذ تجاه المرسل ورسالته هنا ؟ .

إنه الاستماع الحسن إليه ، والمتابعة الواعية ، وإلا كان التواصل وأهدافه مهددة بالفشل ، يقول :

((أنا قارئ في قصة الزمن كيف جرى الحوار بين الأب وابنه ، فهل لي أن أقرأها عليك فتصغي إليَّ ؟ فبدون أن تصغي يموت الحوار وأموت معه))[2] .

ويقول :

((تابعني ما دمت واقفًا على الشاطيء العام ولم تركب تياره . أصغ إليَّ لعلك تستفيد ولو شيئًا قليلاً !))[3] .

إنه الإصغاء القائم على الحضور العقلي والفكري والشعوري الكامل الذي يليق بحجم

---

(١) المصدر نفسه : ٢١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥/١ .

(٣) المصدر نفسه :٣٨٩/٢ وانظر ٤٠٣/١ ، ٢٤/٢ .

إخلاص المرسل وغاياته ، وبحجم المسئولية التي تنتظرهم ، تلك المسئولية التي جرد المرسل رسالته لتبصيرهم بها ، يقول :

((أعيروني سمعكم وبصركم وكل إمكاناتكم العقلية والفكرية ، وأصغوا إليّ فإني بهذه الرسالة أضع قدمي على آخر الطريق التي مشيت عليها أو قريبًا من آخرها أتلفت هنا وهناك أستوحي من الذاكرة ومن المواقف ومن الناس ومن الشيء ونقيضه رسالتي هذه، فإذا وقفتم معها واحدًا واحدًا فهي حجتي عليكم ، وهي ملامتي لكم إذا أنتم عققتموها أو تعاليتم عليها))[١] .

وبعد الاستماع والإصغاء والمتابعة القائمة على هذه الأسس فلهم بعد ذلك حرية البقاء مع ما سمعوه والأخذ به أو تجاوزه :

((إذًا أصغ إلى وعظي فما جاز لك منه ابق معه وما تجاوزته معارفك وأفكارك وعقلك تجاوزه !))[٢] .

فالمتلقي حر - إذن - في موقفه مما يسمع ، ولكن هذه الحرية مشروطة بكونها وسيلة تجاوز إلى الأفضل .

٦ - الحوار الحيّ :

وحين دعا المرسل متلقيه إلى الاستماع والإصغاء والمتابعة فهو لا يريد منه ممارسة ذلك بسلبية وركود يقفان به عند حدود التلقي الأبله الذي يحيل الصوت وحمولته إلى الفراغ ، ولكنه الاستماع والإصغاء والمتابعة العاقلة المفكرة التي تستقبل وترسل ، تأخذ وتعطي ، تتساءل وتجيب بوعي كامل في تواصل مثير فعّال منتج هادف يعكس من جانب الإدراك العميق لفحوى الرسالة ، والرغبة الأكيدة في الصعود إلى المثال ، ويعكس من جانب آخر شخصية قوية البناء ، مستقلة الموقف ، صحيحة الكيان ، واعية الرؤية والإرادة .

يقول الشيخ لمتلقيه في إشارتين شديدتي الإثارة : ((ولدي : أترضيك مني هذه الرسائل ؟ أو لا ترضيك ؟

سيَّان عندي رضيت أم غضبت ، أنا لا أستجدي رضاك ولا أتملق عاطفتك . أنت واحد من اثنين : إما أن تكون في لقائك بي مع هذه الرسائل رجلاً شجاعًا تنازلني في معركة الخصام الفكري فأقف منك موقف الظامئ إلى الحقيقة أتعلم ، أو أن تكون حائطًا أضع على جنباته

---

(١) المصدر نفسه : ٢٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٣/٢ .

هواجسي وهمومي وتصوراتي ليقرأها المارة فيعترضوها بما عندهم من وعي أو جهالة)) [١] .

وإذًا فـ ((إذا صوتُ لك ورفعت الصوت أن تعال إليَّ فحاورني ، أقلق راحتي بالحوار حتى يتصبب عرقي ، لا تنجذب إليَّ في كيسك الرملي مبلد الحس فارغ الفؤاد ، أجلب عليَّ بخيلك ورجلك وقدها في شجاعة القائد الذي لا يخاف ولا يتهيب الخطر . فخيلك ورجلك لن تنتصر إذا لم تكن أفكارًا عاقلة وروحًا متجردة محمولة على إرادة واعية .

مثلما أنوي أن أعطيك تعال إليّ بنية الآخذ والرافض . لا أقبل أن تصوغك إرادتي فتتعطل إرادتك ، فمعنى الحوار عندي مشاكسة فكرية ومشاركة وجدانية)) [٢] .

تلك هي أبرز الأسس التي دعا المرسل متلقيه إلى التواصل معه والتلاقي به بالاتكاء عليها لإنجاز جانب من الجوانب التي يتحقق بها التواصل المثمر .

ثانياً : دوره تجاه الرسالة :

وكما لفت المرسل نظر متلقيه إلى الأسس التي دعاه إلى اعتمادها في تواصله معه من خلال الإشارات التي تم رصدها آنفًا اهتم ـ أيضًا ـ في إشارات مماثلة بتوجيهه إلى الأسس التي عليه أن يتكئ عليها ويعتمدها أثناء تواصله وتحاوره مع الرسالة ، وفيمايلي أبرز هذه الأسس .

١ـ الإحساس بالرسالة :

فالشعور العميق بالرسالة وبما تحتضنه في أحشائها من مكونات مكانية وزمانية وإنسانية وموضوعية ، والتعاطف الحار معها ، والحنو الواعي عليها ؛ تشكل المدخل الكبير الذي يفضي بالمتلقي إلى التواصل الفعّال مع الرسالة ، ومن ثم استيعابها استيعابًا مثمرًا ، يقول :

((ومدخلك إلى هذه الرسائل إن أجاز لك ميلاً نحوها إحساس بنبض الصحراء ، إن كان نفطًا من كبد الأرض أو آلامًا ومعاناة من كبد الإنسان فيها عبر السنين الطويلة ، ....)) [٣] .

٢ـ البر بالرسالة :

والرسالة في حقيقتها هي المرسل ذاته [٤] ، والمرسل أب محب حريص مخلص في حبه وفي حرصه على ابنه المتلقي ، وإذن فإن من برّ المرسل إليه بأبيه ((المرسل)) أن يقدر هذه المشاعر

---

(١) المصدر نفسه : ٤١١/١ .

(٢) المصدر نفسه ٤٧/١ .

(٣) المصدر نفسه ٤٠١/٢ .

(٤) سبقت الإشارة إلى علاقة الرسالة بالمرسل .

ويحترمها ، ولعل من أدنى درجات هذا البر ووسائل التعبير عنه أن يبر بالرسالة فلا يعقها ، وأن يتواضع أمامها فلا يتعالى عليها بما لديه إن هي لم تصادف هواه أو تنجذب إلى مسارب ميوله ، يقول :

((فإذا وقفتم معها (الرسالة) واحدًا واحدًا فهي حجتي عليكم ، وهي ملامتي لكم إذا أنتم عققتموها أو تعاليتم عليها)) [١] ، ((فلا تتعالَ عليها (الرسائل) بثقافة العصر وعلومه ، وتقُلْ : بدوي يغني لجماله في قلب الصحراء ويحدو لها وهي ظمأى تسير وراءه لاحقة بلمعان السراب الذي يتراءى لنا أنه ماء وهو قيعان تشكل صورة من صور الحياة في ذهن قمئ تلعب به نشوة السكر وكبرياء الجهالة)) [٢] .

٣ـ احتضان الرسالة :

والاحتضان الواعي للرسالة من قبل المتلقي في أعماقه النفسية والوجدانية والعقلية أمل كبير، ورغبة قوية في أعماق المرسل ؛ تحولت إلى إشارات منثورة في ثنايا الرسالة ، يقول :

((ولأنك واحد من أبنائي أترى أن لرسائلي إليك مكانًا في نفسك؟ فلا وصية لي غيرها))[٣] .

ولكن لماذا كان ذلك أملاً ورغبة تداعب نفس المرسل وتستأثر باهتمامه ؟

يشير إلى ذلك وهو يؤكد هذه الرغبة ويشفعها بدافعها فيقول :

((... لعلها (إحدى رسائله) حين أبت أن تعود إليَّ وتَمّحي ، تظل خافقة في وجدانك وتظل أمينًا عليها . فما أنت إلا خفقة وجدانية وعاطفية من خفقات نفسي زارتها هذه الرسالة اللاهثةُ بعد فراق طويل)) [٤] .

إذن ـ فعلى المتلقي أن يحتضنها في وجدانه ، وأن يحرسها فهي أخته التي أتعبها طول الدرب في السير إليه لتستقرّ في حماه بعد فراق طويل ، عليه احتضانها في قلبه، وعليه أن يسلكها في محتويات ملفه الخاص احتضانًا خالدًا متجددًا ، لأن فيها خفقات قلب أبيه، يقول :

((فهل يقدر لرسالتي هذه عندكم مكان خالد لا يموت ولا يعلوه الصدأ ؟ آمل ذلك ما دام واحد منكم حيا يحتضن في قلبه أو في ملفه الخاص خفقات قلبي فيها)) [٥] .

---

(١) الرسائل : ٢٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٠١/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٦٣/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٢/٢ .

عليه أن يفعل ذلك وأن يقبل بها كما هي لأن فيها روح أبيه ، ((... فإذا هي (الرسالة) لحقت بأخواتها إليك فقبّل روح أبيك فيها ، .... دعها منك في مكان الأبوة والبنوة تستريح من عناء السفر الطويل في الأعوام الطويلة ....)) [١] .

وعليه أن يحفظها في مكان أمين، وأن يقيها من الاندثار لأنها الميراث الحقيقي الذي تركه له والده، يقول :

((ولدي :

كم ساءلت نفسي وأنا أخط لك رسائلي، أهذه تجربة العمر ؟ وحصيلة الكدح فأورثها ولدي؟ وهل ولدي قادر على صون الميراث ؟ أم أنه سفيه يبدده ويذروه على رياح نفسه الهوج ؟)) [٢] .

٤ـ الإصغاء الواعي إلى الرسالة :

والإصغاء العاقل إلى الرسالة هو السبيل إلى فهمها ، وهو الأساس المهم الذي ينبني عليه ما بعده، ولذلك فالمتلقي مدعو إليه ، يقول :

((قرّب إليّ ذهنك ، وأصغ إلى ما في الذكريات من حوار ....)) [٣] .

٥ـ قراءة الرسالة :

وقراءة المتلقي للرسالة هدف من أهداف المرسل ، ورغبة من رغباته ؛ إذ هي مع الإصغاء الواعي الشرط الأول اللازم تحققه ليتحقق التواصل والحوار اللازمان للاندفاع الأعمق باتجاه الأهداف القصوى لهذه الرسالة ، يقول : ((وهي (الرسائل) وقفة الماضي الذي خلفته ورائي (و) الذي لعلي أستطيع أن أستحضره في لونه الباهت لتقرأني فيه ثم تقرأ نفسك أنت وتسلم القراءتين إلى ابنك ومنه إلى حفيدك ومنه إلى حفيده وهكذا ....)) [٤] .

وللقراءة المثمرة أسسها وشروطها ، ومن هنا ذهب المرسل يلفت نظر متلقيه إلى هذه الأسس ، آملاً منه اعتمادها والاتكاء عليها في تواصله مع الرسالة ، وأبرزها :

أ ـ القراءة بوعي عميق :

فالمتلقي مدعو إلى التلقي العميق القائم على الوعي والإدراك الكامل للرسالة كاملة ،

---

(١) المصدر نفسه : ١٥٥/٢ ـ ١٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٨٤/٢ ـ ٣٨٥ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥٤/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٦/١ ، وانظر ٣٥/١ .

يقول : ((ولدي :

هـذه رسـالتي أودعـت فيهـا ملامـح الطريـق إليـك ، فعمـق وعيـك في كـل مـاآتيك به....))[١].

ب. جدل الرسالة وحوارها :

وهو أيضًا مدعو إلى التلقي النشط في تفاعله مع الرسالة ومع حمولتها ، القائم على الجدل والحوار المثمرين للخلوص إلى الحقائق الناصعة ، يقول :

((ولدي :

في ذمة الغيب أو على قارعة الطريق ، إذا قابلتني في يوم من الأيام وراعتك هواجسي وظنونـي أو راضتك معها فقل لها : قفي مني خطوات أريد أن أقرأ في ملامحـك ، وفي شـحوب وجهـك ، وفي نحول جسمك، ماذا تعنين في سيرك إليّ !.. تعلم الشك ، أفرج عنه من بلادة الحس ....)) [٢] .

جـ. التروي في القبول :

والمتلقي كذلك مدعو إلى الحذر من التعجـل في تشرب الرسـالة علـى علاتهـا، والقبـول المطلق بها ، يقول :

((... هل ما في رسائلي قدح ما فيه كدر حملته إليك دون وعي لأثـره في حيـاتك ؟ ، لا أدري ، ولكن أخطر الأشـياء عليـك وعلـى إخوتـك مـن الشـباب أن تتعجلـوا في تنـاول القـدح وسكب ما فيه في جماجمكم فتصوغكم أهواء الآخرين في قالب غير قالبكم...!)) [٣] .

د. استحضار الشخصية الكاملة :

ومن هنا كان المتلقي مطالبًا باستحضار شخصيته الكاملة أثناء الفعل القرائي علـى أسـاس من الوعي بالذات وبما يميز هذه الذات في إطارها السوي العاقل ، يقول :

((ورسائلي إليك لا تملك الصحة ، فأكثر ما فيها عليل فـلا تصبـك عدواهـا فتمـرض ، فلا أنا ولا أحد سواي يستطيع أن يلبسك ثوبًا يسـترك، فـأنت وحـدك الـذي تسـتطيع أن تنسـج الثـوب وتقيسـه علـى قـدر حجمـك ، وكـل نسيـج لا يـأتي مـن داخلـك ، مـن وعيـك ، مـن ملاحظتك ، يأكله البلى وتظل عاريًا مع العراة ، ....)) [٤] .

---

(١) المصدر نفسه : ٤١/١ وانظر ٨٥/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٩٨/٢ - ٢٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ١٠٠/١ وانظر ٣١٩/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٩٦/١ وانظر ٣١٩/١ .

وهنا فقط يمكنه التعاطي المثمر الذي يرجوه المرسل للمرسل إليه مع الرسالة ، تعاطيًا يفضي به إلى أن يختزل إليه كل ما من شأنه أن يكون مفيدًا له ، وينبذ جانبًا ما سوى ذلك ، يقول :

((ولدي :

هذه رسالتي إليك وهذه مشاعري وهذه تصوراتي فما راق لك منها فخذه وما لم يرق فاتركه لي فهي قناعاتي الخاصة لا أفرضها عليك فرضًا . فأنت حر إذا فكرت ....)) [(١)] .

٦ـ التماسك أمام الرسالة :

والرسالة خلاصة تجربة المرسل ، وهي تجربة عاصفة عنيفة ثائرة الغبار في حياة المرسل ، وهو يخشى أن تلفح متلقيه بشيء من لهبها ، ولذلك دعا متلقيه إلى الوقوف إزاءها بشيء من الشجاعة النفسية وتماسك الكيان ، يقول :

((فهذه الأسراب من الجراد النفسي كثيراً ما أقلقت راحتي وأزعجتني ولامتني ولونت الحياة في خاطري إلى حد التناقض الهائل في تصوراتي وفي رؤاي ومواقفي مع نفسي ومع الظروف التي أحاطت بحياتي ، فإذا هي قرَّت بين يديك وقرأتني فيها فلا يفجعْك المرأى ولا يُذب صلابتك.)) [(٢)] .

٧ـ الاضطلاع بدوره تجاه محمولات الرسالة :

والرسالة في حقيقتها ليست إلا هموم المرسل وهواجسه المسئولة تجاه وطنه الصغير ووطنه الكبير ووطنه الأكبر ، وتجاه الإنسان فيها وفي إطاره المطلق ، وبما أن المرسل ـ أمد الله في عمره ـ بهذه الرسالة يضع قدمه على آخر الطريق أو قريبًا من آخرها ، فهي ـ إذن ـ حجته على متلقيه الناشئ ، يقول :

((أعيروني سمعكم وبصركم وكل إمكاناتكم العقلية والفكرية وأصغوا إليّ فإني بهذه الرسالة أضع قدمي على آخر الطريق التي مشيت عليها أو قريبًا من آخرها.... فإذا وقفتم معها واحدًا واحدًا فهي حجتي عليكم ، وهي ملامتي لكم ....)) [(٣)] .

فالمتلقي ـ إذن ـ مدعو إلى تسلم الراية ومواصلة المسيرة في حمل تلك الهموم والهواجس على عاتقه الفتي ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه : ٣٩٣/٢ ـ ٣٩٤ وانظر : ٤٩/١ ـ ٥٠ ، ٤١٠ ، ١٦٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٠٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٠/٢ .

((ألا يمكن أن تقابل رسالتي هذه في أثناء الطريق وتحملها عني ؟ فعاتقك الشاب أولى بحملها .)) [(١)] .

٨- تفعيل الرسالة :

ولكن أهم أدوار المتلقي قاطبة تجاه الرسالة هو أن يخلص بعد ذلك كله إلى تحويل الرسالة إلى فعل ناجز متحقق التجليات والتأثير والفعالية في حياته هو ، فإذا كانت الرسائل لقاح فالمرسل يتمنى صادقًا أن يغرسها ذلك المتلقي في جمجمته لعله يكون له منها ما يغذيه ويظلله ، يقول :

((فهل ستجد في كل ما كتبته لك عرقًا واحدًا تستقبله جمجمتك ليلقح ولو وليدًا واحدًا؟ لعل هذا من الأمنيات التي لا تتيه في فضاء النفس !...)) [(٢)] ، إما هذا وإلا فما البديل ، يقول :

((ولا أدري أفي كل ما كتبته لك استقبلته في أرضك وغرسته في المكان المناسب ؟ أم أنك في ملهاة عن ذلك ؟ لا أدري ولكني أتصور أن التربة التي لا تستقبل مياه السحب في عطش المصلح إلى الحقيقة تتحول إلى صخرة صماء لا تأذن لعرق أن يندسّ في أعماقها ولا لقطرة ماء هبطت عليها من غمامة عابرة أن تستقر في أذنها أو في عينها ....)) [(٣)] .

إنها ميراث نبيل ، وعليه أن يفعّله في ذاته ، لا لشيء إلا ليكون وقاية لعوده الطري من مخاطر الحياة ، يقول :

((ولدي :

ألا تتصور معي أن أجمل ميراث وأكرمه فعالية في حياتك أن تقرأ آلامي وما تسمح به السريرة قبل أن تقرأ أفراحي وترث متاعي ، فقراءتك وقاية لك ولوحك الطري لم تخط عليه الحياة حتى الآن شكوكها وتناقضاتها إلا في رموز ومؤثرات مستقبلية ، ....)) [(٤)] ، ومن هنا كان على ذلك المتلقي أن يعلقها على جدار نفسه ، وأن يثابر على مراجعتها في فعله العابر، وفي سلوكه العام ؛ فإن في أحشائها ومضات مكنونة قد تلمع له كلما أعتم الدّرب وتاهت الرؤية ، يقول :

((ولدي :

لا تطلب مني أكثر من ذلك ، فملامح الألم والعتاب الذاتي فيه الكفاية ، وفيه ملامح

---

(١) المصدر نفسه : ٧٤/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٣/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٥/١ - ١٣٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٠٨/٢ - ٢٠٩ .

الصورة ، متى علقتها على جدار نفسك وراجعتها في كل لحظة من لحظات البر بأبيك وبنفسك ، وقد تمنحك ومضة خاطفة من ومضات الذهن فتمشي عليها (أقدام) سليمة معافاة .....))[١] .

لا بد يا ولدي أن تسمع صوتي فيها ، ولا بدّ أن تعيني بها ، ولا بـد أن يكـون لصراخـي وبكائي وأحزاني صدى في نفسك ، ألست ولدي؟ !! و((خشـيتي أن يكـون في سمعـك وقـر وفي بصيرتك عمى فأصرخ أو لا أصرخ ، أحزن أو لا أحزن ، أبكي أو لا أبكي ، لا شيء يصلـك أو تسمع صداه ... فمتى تهدل أحزاني في نفسك هديل الحمام ؟....))[٢] .

ذلك هو دور المتلقي تجاه الرسالة كما تراءى للمرسل وكما وعاه .

إحساس بالرسالة ، وبر بها ، واحتضان لها ، وإصغاء واع إلى حوارهـا ، وقـراءة واعيـة عميقة متفاعلة فاحصـة متعقلة مصحوبـة بحضـور كـامل للشـخصية الخاصـة الواعيــة، وتماسك أمامها ، وحمل همومها وهواجسها وتحويلها إلى فعل ناجز مؤثر في محيط الذات أولاً ، وذلك كلـه تمهيدًا لسحبه على المحيط العام ثانيًا .

هكذا وعي المرسل ذاته هوية إبداعية ، ومنهجًـا في الاسـتقطاب ، والتواصـل ، والبنـاء ، ومثيرات ، ومقاصد ، وهكذا وعى رسالته مرجعية وتبلورًا ، وآفـاق عمـل ، وأوصافًـا ، وهكـذا وعى المرسل إليه هوية ومساحة وطبيعة ودورًا .

وهو وعـي أخـذ في التمـدد والتعمـق حتـى شـغل مسـاحة واسـعة مـن مضـامين الرسـالة ومحمولاتها ـ كما تبين ذلك من خلال هذا الفصـل ـ بشـكل فـرض بـه نفسـه وجـودًا وفعـلاً في الرسالة ، كمونًا وتلقيًا بحيث يتعذر استقبال الرسـالة اسـتقبالا كـاملاً يلـبي طموحـات المرسـل في غيبة كلية أو جزئية من تجليات هذا الوعي وتحديداته المقصودة بعناية .

* * *

* *

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢/١٩٧ .

الفصل الثاني

الخطاب في دائرة الذات

القطاع الأول : الذات في إطارها الاجتماعي

القطاع الثاني : الذات في إطارها الثقافي

القطاع الثالث : الذات في إطارها الفكري

القطاع الرابع : الذات في إطارها الروحي

القطاع الخامس : الذات في إطارها الوجداني

توطئة

شغلت الذات ومكنوناتها الفكرية والروحية والوجدانية حيزًا واسعًا من مساحة إبداع الشيخ عامة ، ومن مؤلفه هذا على وجه خاص .

لقد بلغ من اتساع هذا الحيز ومرونته القرائية درجة يمكن معها أن تسلك مؤلفاته الإبداعية في عداد السيرة الذاتية بمعناها الواسع ، وفي هذا المؤلف ـ على وجه خاص ـ يمكن للمتلقي رؤية الشيخ وقد غاص في عالمه الخاص غوص عالم دفعته تساؤلاته ونزعته إلى البحث والكشف إلى أبعد الأعماق وأوعرها مسالكًا في الذات الإنسانية .

وبتأمل خطاب الشيخ في هذا السياق يبدو وقد اتجه في أشغاله إلى رصد ذاته في أطرها الاجتماعي والثقافي والفكري والروحي والوجداني ، في مقاربة جادة لا تفتقر إلى الجرأة والعمق والتواضع ، فكان العمل المنجز لوحة زاهية في ألوانها ، واضحة في خطوطها ، عميقة في خطابها ، خصبة في إحالاتها ، صادقة في خبرها ، وهذا ـ بالضبط ـ هدف محوري من أهداف الرسالة كما يشير إلى ذلك قوله في إحدى رسائله :

((ولدي :

أأضع أوراقي على قارعة الطريق الطويل وأترك الأحداث تخط لك فيها صداها ؟ أم أخشى أن تزوّر الحقيقة ؟ فلقد زورِّت في أكثر ما خطه لنا التاريخ ...!)) [(١)] .

فالشيخ ـ برسالته الكاملة عمومًا ، وبما سيرد في هذا الفصل خصوصًا ـ يضع النقاط على حروفها الحقيقية قاطعا بذلك الطريق على هواة اللعب بالنقاط اليوم وغدًا .

وبتفحّص الخطاب المشغول في هذه الدائرة ؛ أمكن رصده في القطاعات التالية :

القطاع الأول : الذات في إطارها الاجتماعي :

ساق الشيخ جملة من الإشارات التي رصد بها ذاته في مجالها الاجتماعي العام سواء كان ذلك في المحيط الأسري الخاص ، أم في المحيط الاجتماعي الأكبر .

فالشيخ نجديّ في انتمائه الاجتماعي[(٢)] ، و(نجد) هي المنطقة المعروفة ـ اليوم ـ بين أخواتها مناطق

---

(١) الرسائل ١٦٧/٢ .

(٢) انظر الرسائل : ٢٣/٢ .

المملكة العربية السعودية بـ (المنطقة الوسطى) ــ بدويّ الجذور القريبة والبعيدة باعتزاز [١] ، قروي الطفولة والشباب بحنين [٢] ، أنو شرواني الشيخوخة على مضض [٣] .

نشأ في أسرة لا تختلف عن سواها من شقيقاتها أسر القرية ، يقول :

((... وكانت أسرتنا من الأسر التي تتساوى مع شقيقاتها الأسر الأخرى في القرية ، ....)) [٤] ، وفي مجتمع القرية البدائي الصغير [٥] عاش ، وتداخلت حياته معه [٦] ، وأمضى فيه شطرًا من عمره .

عرف اليتم ، وتجرع مراراته منذ الخامسة من عمره حين فقد أباه ، يقول :

((مات أبي وعمري خمس سنوات)) [٧] ، ثم فقد أمه فركب موج الحياة وقاسى آلام الرحلة وحيدًا، يقول : ((... قست (الحياة) علي بفقدان الأم والأب وتركتني أركب الموج وحدي ....)) [٨] .

ومما ضاعف حجم المعاناة خلو يدي الصغير من أية وسيلة يستعين بها في معركة الحياة ، فلقد مضى والده دون أن يترك له إرثًا من مادة ، يقول :

((... مات والدي ولم يورثني عقال بعير ....)) [٩] ، أو تجربة ، يقول :

((... لم أعش هذه التجربة التي أعيشها معكم الآن وآملها فيكم ، لم يكتب لي أبي شيئًا عن تجربته ولم يعلق بذهني عنه كلمة واحدة ، لم أعرف انتقال التجربة فيما بين الأب وابنه في تلاحم كالذي أسعى إليه معكم .)) [١٠] ، أو من يقوم مقامه في شيء من ذلك ، يقول :

((... مات أبي وعمري خمس سنوات ولم أجد من يهتم بي أو يكتب لي أو يوجهني أو

---

(١) المصدر نفسه : ١٠٨/١ ، ١١٦ ، ١٤٦ ، ٧٤/٢ ، ٤٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥٢/١ .

(٤) الرسائل : ١٥٩/٢ .

(٥) انظر الرسائل : ٢٢/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٤/٢ .

(٧) الرسائل : ٢٢/٢ .

(٨) المصدر نفسه : ٦٧/١ .

(٩) المصدر نفسه : ١٦٠/٢ .

(١٠) المصدر نفسه : ٢٢/٢، وانظر : ٤٥/١-٦٤.

يخاف عليَّ،....))[١] ، ولكن الصبي يكبر في عمره ، وتكبر معه تجربته وخبرته بالحياة[٢] ، حتى يصبح كبير العائلة وحاديها إلى الخير ، وحتى يصبح له مكانه المطمئن بين كبار القرية[٣] ، بل إنه ليكبر في قدره حتى يصبح لـه مكـانٌ سياسـيٌّ مرموقٌ في بلـده[٤] ، ويجد المعـدم حتـى يعيـش اليـوم فـي بيت كسرى أنو شروان[٥] ، وإن كان هـذا النـوع مـن الحيـاة مفروضًـا عليـه بحكـم مسئولياته الاجتماعية والسياسية ، غير أن ما وصل إليه من مكانة أدبية أو مـا تهيـأ لـه مـن وجـد مادي ، لم يتجاوز في آثاره على حياة الشيخ الهوامش القصية ، وظل بمنأى عن غـزو الأعمـاق أو التأثير فيها ، بينما بقيت فطرة ابن الصحراء وشمائله وعقيدتـه ومبادئـه وبسـاطة القـروي ودماثـة خلقه محور الحركة وفاعلها في حياة الرجل ، يشير إلى جانب من ذلك قوله :

((فأنا في يومي هذا أختلف في المظهر العام عن داخلي اختلافًا كبيرًا ، في داخل نفسـي لم يتغير عندي شيء ، لم أفقد توازني ولم أسمح لسفينتي التي أركبها اليوم أن تبحـر بـي علـى غـير مـا أشتهي . إذا دخلت بيتي ورأيت ما أدخلت علي الحياة فيه من عطائها الجديد حمدت ا لله وخفـت أن أفتتن بذلك ، خفت أن أفقد توازني وأن يصيبني الدوار ،....))[٦] .

وهو يوم خط رسالته خطها بيمينه وقد رقي الدرجة الخامسة والستين في سلم حياته[٧] العـامرة . وهو اليوم في الدرجة ((الخامسة والثمانين)) من عمره المديد إن شاء ا لله[٨] .

تلك كانت إشارات الشيخ إلى ذاته في إطارهـا الاجتمـاعي ، وهـي إشـارات تكشـف في مجملها بوضوح عن الخطوط الكبرى في حياتـه الاجتماعيـة ، وتحيـل علـى نحـو مـا إلى تضـاريس المساحات المتمددة بين هذه الخطوط ، تلك المساحات التي لم يعن الشـيخ بالكشـف عنهـا ، ومـع ذلك فإنها تبقى مجردإشارات محدودة في قدرتها على الإضاءة المثالية لهذا الجانب من حياة الشيخ.

---

(١) المصدر نفسه : ٢٢/٢ .

(٢) انظر الرسائل ٣١٤/٢ -٣١٥.

(٣) المصدر نفسه : ١٦٠/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٨٣/١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٥٢/١ .

(٦) الرسائل ٢٩/٢ .

(٧) انظر الرسائل ٣٦/١ .

(٨) بحوزة الباحث معلومات واسعة عن هذا الجانب وعن سواه من حياة المؤلف جمعها من مصادر مختلفة .

وحين يعمد الدارس إلى تسجيل تقريره هذا فإنه لا يقدح ، وإنما يرصد ما يراه، ومن ثم يحاول التعليل .

لقد كان رصد الشيخ لهذا الجانب من حياته محدودًا لأمرين :

الأول : إن هذه الرسالة بكاملها جاءت لإيصال هموم الشيخ التي يحملها لا لذاته؛ ولكن للجيل الناشيء على وجه خاصّ ، لقد كان الشيخ هنا في شغل عن نفسه بمتلقيه ، وحينما يخرج عن هذا الخط العام إلى الاشتغال بذاته الخاصة في هذا الجانب أو ذاك فإن ذلك لا يتم إلا في إطار اشتغاله بمتلقيه ، وذلك مما يشي بسمة كريمة من سمات شخصية الشيخ قوامها إنكار الذات .

الثاني : إن الانصراف الملحوظ للشيخ عن رصد ذاته الخاصة في هذا الجانب أو سواه، وتجنبه جعل هذه الذات محور حركة الخطاب لم يكن في مؤلفه هذا فحسب ؛ بل امتد إلى ما سبقه وإلى ما تلاه باستثناء رسالة واحدة لم تتجاوز ست صفحات وردت في مؤلفه " حاطب ليل ضجر " ، بعنوان " أبكي بكاء أرض عطشى " [١] ، ففي هذه الرسالة ألقى الشيخ أضواء خاطفة على جوانب محدودة من تاريخ حياته العام .

لقد جاء هذا الانصراف عن قصد ؛ إذ كان معطى لرؤية خاصة يصدر عنها الشيخ مؤداها أن هذه الجوانب خصوصيات وظروف حياة لا فائدة من بعثرتها على جوانب الطريق العام ، وأن ذلك لم ولن يكون هدفًا له ، يقول في آخر تلك الرسالة :

((ما أخذت هذه الرسالة في لون من ألوان القصص الذي يستهدف سرد حياة لإنسان عادي مثلي ويضعها هنا خطوة خطوة ، أبدًا ، ما كان هذا هدفًا ولن يكون إلا أن خاطرة ألقت عليَّ تساؤلاً قد يطرحه قارئ لهذه الرسائل : مَنْ يكون صاحبها وما لون حياته وما دوره مع القلم أو مع المسئولية ؟ وتساؤل كهذا لا جواب له في كل رسائلي لأنها خصوصيات وظروف حياة لا فائدة من بعثرتها على جوانب الطريق العام.)) [٢] .

* * * *

القطاع الثاني : الذات في إطارها الثقافي :

في هذا القطاع يأتي خطاب الشيخ ليكشف عن ذاته في إطارها الثقافي العام ؛ حيث ركز أضواءه ـ بشكل خاص ـ على تعليمه الأولي ، وعلى البيئة الثقافية التي نشأ فيها ، وعلى مصادره

---

(١) انظر حاطب ليل ضجر ٢١٧/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢٢/١ .

الثقافية ، وفيمايلي تفصيل ذلك :

أ ـ تعليمه الأوليّ :

حين بلغ الصبي القروي النجدي سن الدراسة لم يجد أمامه سوى كتّاب القرية [١] ، ولم يكتب له أن يعرف الجلوس على مقعد الدراسة النظامية أو يحمل كتبه ذاهبًا إلى المدرسة أو عائدًا منها ، ذلك أن مرحلتي طفولته وشبابه المبكر سبقتا افتتاح أول مدرسة نظامية في قريته .

إلى هذا الحرمان يشير حين يخاطب ولده قائلاً :

((أنا لم أجلس على مقعد أجلستك عليه في مدرستك (؟) لأن أبي لم يجد مقعدًا في عصره ليجلسني عليه)) [٢] .

وفي إشارة إلى ذلك ، وإلى انعكاساته على حياته الثقافية يقول :

((فالوادي النفسي الذي تحولتْ منه هذه الرسائل (،) لم يربع ولم تخصب شعابه ، لأنه عاش العزلة أزمنة طويلة لم يمر به معلم ولم يفتح له كتابه ويقرئه إياه ....)) [٣] .

فالشيخ ـ إذن ـ لم تواته فرصة الالتحاق بالتعليم النظامي ، ولم يتجاوز في تعليمه نطاق الكتّاب الذي تعلم فيه القرآن ومبادئ القراءة والكتابة ، ولكن هل توقفت به خطاه إلى التحصيل المعرفي عند هذا الحد ؟ ذلك ما سيتجلى لاحقًا .

ب ـ البيئة الثقافية :

سبقت الإشارة إلى توصيفات الشيخ للبيئة الاجتماعية التي نشأ فيها ، فهي عبارة عن مجتمع قروي صحراوي صغير [٤] ، كما تم الفراغ آنفا من رصد إشاراته إلى تعلميه الأوليّ ، الذي بقي في نطاق الكتاب .

إن هذا يكشف على نحو ما عن الملامح العامة للحياة الثقافية التي اتسمت بها البيئة الزمانية والمكانية والاجتماعية التي احتوت نشأة الفتى .

إنها ـ على هذا الصعيد ـ بيئة ثقافية ضحلة إلى حد ما ، وذلك ما يؤكده تصوير الشيخ لها ، ولحاله معها حين يقرر بشيء من التأكيد أنه نبت غرس في صحراء قاحلة ليس فيها جدول

---

(١) انظر الرسائل ١/١٩٠ ، ٢/١٠٣ .

(٢) الرسائل ١/٦٧ .

(٣) المصدر نفسه : ١/١٧ ـ ١٨ وانظر ١/٢٩ .

(٤) انظر الرسائل ٢/٢٢ ، ١٥٩ .

معرفة يروى الظمأ ، يقول :

((... تذكر أنني نبت زرعته المشيئة في صحراء قاحلة ليس فيها جدول من جداول المعرفة يسقيني فأشرب إلى أن يرتوي ظمئي .)) [١] .

ويشير إلى هذا الواقع الثقافي البسيط محددًا المساحات الضئيلة التي يتحرك فيها النشاط الثقافي حينئذ ، ومن يقومون عليه ، وكنه هذا النشاط ، ومدى معايشته الزمانية والاستيعابية له قائلاً :

((وعالم القرية والصحراء والمسجد المفروش بحصباء الوادي ، وتمرات النخيل ، ولبن الماعز أو الشاة ، أو حتى لبن أم اللبون ، هم الغذاء الروحي والجسدي لنا ، في أحضان أمهاتنا وجداتنا وعجائز جيراننا نلتقي في أوقات لا نخلفها وماذا نسمع ؟ نسمع الحوار البسيط فيما بين هذه وتلك ، نسمع القصص ، نستوحش مرة ونصاب بالرعب أخرى ، من قصة أو من صورة من الصور تطرحها أم السبعين أو أم الثمانين ممن عرّتها السنون من ثياب الشباب وعصرت إناءها حتى لم يبق فيه غير الحثالة وغير العروق وثرثرة اللسان ، ....ثلاثون عامًا ، والوادي النفسي يستقبل القطرات والخاطرات ، وفي أكثر الحالات يستقبل شلالاً متدفقًا بالأتربة والرمال والمياه الكدرة ، ....)) [٢] .

إنها صورة لا تقف عند حدود الكشف عن حجم ثقافي معرفي ضئيل ؛ بل تتعدى ذلك إلى الكشف عن واقع ثقافي مصاب ، ومما زاد هذا الواقع سوءًا وضاعف من تكرسه الواقع الحضاري المحدود ، ولا سيما في وسائل الاتصال والتواصل الثقافي ؛ ذلك الواقع الذي كان إلى تلك العقود الزمنية لا يزال يفرض نفسه باطمئنان على مجالات الحياة المختلفة بما فيها المجال الثقافي .

ذلك ما تكشف قدرًا منه إشارة الشيخ إليه ، وإلى بعض انعكاساته على أدائه الإبداعي حين يقول :

((... عندئذ أخذت القلم .... فتلاحقت صور الماضي معنا في هذه الصحراء واحدة تلو أخرى ، وأبت أن تتراجع إلى حيث هي .... فلما لم[أستطع أن]تقبل أن تحني رقابها عائدة إلى مدافنها ، أفسحت لها الطريق وإن كان ضنكًا لا متسع فيه . فالوادي النفسي الذي تحولتْ منه

---

(١) الرسائل : ٢/٨٣ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٨٩ - ١٩٠ .

هذه الرسائل ، لم يربع ولم تخصب شعابه ، لأنه عاش العزلة أزمنة طويلة لم يمر به معلم ولم يفتح لـه كتابه ويُقرئه إياه)) (١) .

وإذن ، فلقد فرضت الظروف على الفتى أن يعيـش هـذه العزلـة في قريـة قابعـة في قلـب الصحراء ، شأنه شأن سواه مـن جيلـه (٢) ، وكـان لا بـد أن يكـون لهـذه العزلـة الثقافيـة آثارهـا العميقة وتجلياتها الواضحة على الواقع الثقافي بكافة عناصره .

تلك هي البيئة الثقافية التي استوعبت نشأة الفتى ، وفرضت ذاتها على مسيرته الثقافية ، وهذه هي رؤيته لحالها ولحاله معها كما جلى عنها في مؤلفه هذا .

ولعـل في النـص التالـي الذي أدلى به الشيخ ، وجُـذب إلى هنـا مـن خـارج هـذا المؤلَّـف لدقته وقدرته على احتواء وتشخيص صورة الوضع الثقافي القائم، وحاله مع ذلك الوضع الثقـافي، ماضيًا وحاضرًا ما يميط اللثام تمامًا عن هذا الجانب ، يقول عنهما مجيبًا على سؤال مطروح :

((مثل هذا السؤال يثير في نفسي ذكريات ومعاناة ، كلما درجت بي الحياة ، وأرتني مـا فيها من متحولات ومتغيرات علمية وثقافية واقتصادية واجتماعية وسلوكية وسياسـية . شـكلت كلها في نفسي وفي هواجسي وأفكاري أشكالاً من الصور تلقي بظلالهـا علـى نفسـي . تسـاؤلات ثقيلة عن الماضي البعيد ، وعن الواقع القائـم . فلو عاد بي السؤال إلى الوراء ، فمـاذا أجـد غـير البؤس الفكري والجوع إلى المعرفة ؟ .... في أيامي الأول كانت بـلادي فقـرًا ، لا مـدارس سـوى كُتّاب نتعلم فيه مبادئ القراءة . معزولون في حدود صحرائنا ، نظرتنا إلى الحياة ، وإلى الكـون ، وإلى الإنسان ، نظرة فيها شيء من الكساح في قدم الوعي)) (٣) .

ولكن ، هل استسلم الشاب لهذا الواقع الثقافي المحبط ؟ ذلك ما سيتجلى لاحقًا .

جـ. مصادر ثقافته :

في أحضان هذا الواقع الثقافي الخامل ، وفي ظل ذلك التحصيل العلمي الذي لم يبارح أفق الكتـاب ، عـاش الفتى فترة شبابه ذاهلاً ذهول بـراءة ، مستسـلماً للنمـط الثقـافي القـائم في غـير وعـي (٤) ، ولكنه ينتفض علـى صخب الحياة من حوله انتفاضة النائم المفزوع من نومه ، ويسترد

---

(١) المصدر نفسه ١/١٧ - ١٨ .

(٢) انظر الرسائل ١/١٦ ، ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) مجلة الفيصل العدد (٢٢٧) ص ٧٧ .

(٤) انظر الرسائل ١/١٨٩ وما بعدها ، ٢/٨٥ - ٨٦ ، مجلة الفيصل ع (٢٢٧) ص ٧٧ .

وعيه كأنما أفاق من حلم ضبابي طويل ، وتثور لديه الاستعدادات الفطرية على قيود الذهول ، وينظر إلى الأشياء ليراها بعين جديدة ، ويرى لها وجهًا آخر ، ويحدق ببصره فيما حوله لعله يجد ما يسكت به جوعًا معرفيًّا وفكريًّا قديمًا لم يشعر بآلامه قبل الآن ، فإذا بالواقع الفكري والمعرفي القائم صفر اليدين من أي غذاء [١] ، فماذا يصنع - إذن - لاحتواء هذه الصحوة ، ولإسكات آلام هذا الجوع ؟ وملء الفراغ الفكري والمعرفي الذي كشفت عنه هذه الانتفاضة ؟

هنا يلتفت الشاب إلى نفسه ، ويفتح كنانه ليبحث فيه عن زاده فلا يجد فيه رصيدًا من علم ، أو من تجربة ، ولا يجد فيه سوى عقله الجائع لا غير .

مزّق الكنان بعنف ، وأطلق الحبيس في فضاء الله الواسع ليطوف فيه ، وليبحث فيه عما يشاء ، وكيف يشاء ، فما الآفاق والمصادر التي انطلق فيها الرجل لجمع ما تكون لديه اليوم من رصيد ثقافي ومعرفي ؟ ذلك الرصيد الذي صدر ويصدر عنه في ممارسته الإبداعية .

لقد ضمّن الشيخ رسالته مجموعة من الإشارات التي تكشف عن هذا الجانب بوضوح تام ، وسيتم حالاً رصد هذه الآفاق والمصادر المتعددة التي ركزت إشارات الخطاب على مايلي منها :

١- كتّاب القرية :

كان كتاب القرية ـ بمنهجه التقليدي الذي لا يتجاوز حدود تعليم القراءة الحرفية للقرآن الكريم ، وتعليم مبادئ القراءة والكتابة - هو أول روافد ثقافة الشيخ [٢] ، وإن لم يكن أعمقها أثرًا في حياته ، ولا ثراء في مادته المعرفية .

غير أن أهميته التي جعلت الدارس يسلكه في عداد روافد ثقافة الشيخ تأتي من حيث إنه كان الأفق الأول الذي أطل منه الفتى الصغير على المعرفة ـ مهما كان حجمها ـ ويأتي على رأسها دوره في تأسيس علاقة الفتى بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ؛ وهي جوانب مهمة سيصبح لها ـ فيما بعد ـ دورٌ حاسمٌ شديد الفعالية في بناء شخصيته الثقافية .

---

(١) انظر مجلة الفيصل ع (٢٢٧) ص ٧٧ .

(٢) انظر الرسائل ١٠٣/٢ .

٢ـ المحيط الاجتماعي :

على الرغم من محدودية المحيط الاجتماعي الذي احتوى صدر حياة الشيخ ، وبدائية حياة ذلك المحيط ووسائله ؛ فإنه بما له من تجليات وبما فيه من حركة وبما لذلك من معطيات ، وبمعايشة الشيخ لذلك كله معايشة ممارسة عميقة واحتكاك واستيعاب ؛ قد شكل مغذيًا مهمًا من مغذيات ثقافته طفلاً وفتى وشابًا وشيخًا ، ورافدًا غزيرًا من روافد التجربة والخبرة الحية لديه بما جعله عميق التأثير في حياته ، إلى ذلك يشير حين يقول :

((مات أبي وعمري خمس سنوات لم أجد من يهتم بي أو يكتب لي أو يوجهني أو يخاف عليّ ، ولكن صراعات المجتمع الصغير (و)البدائي أخذتنا إلى مسارها فعلمتنا بألوانها المختلفة وصورها المتشكلة ومواقفها المتباينة أن لا منجاة لنا من السقوط في المهلكة إلا من خلال تنمية الوعي الذاتي وصون الكرامة من وقاحة النفس أو وقاحة المجتمع الذي يريد أو تريد فئة منه أن تخضعنا للأهواء والنزوات)) [(١)] .

ومع أن هذا الخطاب قد صرف تأثير المحيط الاجتماعي على الشيخ إلى زاوية محددة ، إلا أنه لا يخلو من الدلالة على أن هذا المحيط كان رافدًا من روافد نمو التجربة ، واتساع المعرفة ، وتنمية الوعي الذاتي لديه .

غير أن النص التالي أكثر تصويرًا لحجم هذا الرافد من روافد ثقافة الشيخ ، وأوضح جلاءً عن مدى لصوقه بحياته وفعاليته وخصب تداعياته وانعكاساته على سلوكه وعلى رصيده الثقافي ، وبالتالي على رسالته ، إذ يقول :

((...أنني جدار لي ستون عامًا مع الناس ومع الحياة ، في كل دقيقة ، وفي كل ثانية ، أشعر أن أخًا أو جارًا أو أمًا أو أبًا أو صديقًا أو مشاغبًا يلصق بحائطي الذاتي أوراقه التي يخط فيها أفعاله وسلوكه وأخلاقه ونزعاته . ويقيني أن ستين عامًا يمشي فيها الإنسان وسط الزحام والضجيج والفعل وضده والسكون والحركة لا بد وأن يكدس على عاتقه وروحه وذهنه أثقالاً من التناقضات ومن الكسب الذي تختلط فيه خطى الزمن مع خطى الإنسان ، مع خطئه وصوابه ، وهذا الواقع هو الذي يخط لك رسائلي اليوم ....)) [(٢)] .

---

(١) الرسائل : ٢٢/٢ ، وانظر : ٢٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣١٥/٢ وانظر : ٢٤/٢ .

وإذن ، فالمحيط الاجتماعي الذي عايشه الشيخ معايشة حية واعية ، واحتكاكه المستمر به وبمن فيه ، وبما يتولد عن ذلك من تراكم في الخبرة والتجربة كان رافدًا من روافد ثقافته ومصدرًا من مصادرها الفعّالة .

٣ـ الكــون :

واحتل الكون مجالاً واسعًا لاستثارة واستيعاب وتعميق الحركة الفكرية لدى الشيخ قراءة ورصدًا وتفسيرًا وبحثًا وتساؤلاً ، ومن ثم غدا الكون في حياته مدرسة مفتوحة الأبواب والمناهج ، واحتلت هذه المدرسة مكانًا متقدمًا في سلم مصادر ثقافته .

إلى هذا المصدر ، وإلى فعله العميق ، ورسائله المتدافعة على أعماق الشيخ الفكرية والوجدانية والروحية ، وإلى تداعيات هذا التواصل بينه وبين الكون وإلى صدوره في رسائله عن ذلك كله يشير قائلاً :

((... فالوادي النفسي الذي تحولتْ منه هذه الرسائل ، لم يربع ولم تخصب شعابه ، لأنه عاش العزلة أزمنة طويلة لم يمر به معلم ولم يفتح له كتابه ويقرئه إياه ، ولكن قوافل الليل البعيدة وسراته فوق هامة الصحراء يوم تمشي قافلة قافلة محيطة بقمر السماء ، تتظاهر داخل نفوسنا عظمة هذا الكون وخالقه ، فتثير تساؤلات عفوية لم تحمل القلم ، ولم تعرف كيف تلقي عليه مسئولية التعبير وتصوير الإحساس والشعور والمواقف ....))[1] .

فإذا كانت العزلة الثقافية قد فرضت نفسها على الشيخ ـ كما فرضتها على جيله كله ـ ، وإذا كانت ظروفه التعليمية لم تواته ـ كسواه أيضا ـ ، فإن هذا الكون الفسيح بمفرداته المذكورة في النص وغير المذكورة قد لامست في عمق أعماق الشيخ ، فتحركت هذه بما يتوفر لها من استعدادات فطرية مميزة ، وانبرى اثناهما في حوار متواصل عميق الأثر ، واسع الآفاق ، متوالد التجليات والمعطيات مثير لتساؤلات مكتومة في أعماق الفتى ما زالت تتراكم وتتسع على مدى فترة شبابه معمقة بذلك وعيه المعرفي ، حتى إذا تهيأت الظروف كان التعبير الذي احتوى الشيخ قدرًا منه في منظومة إبداعه .

وإذا كان للعزلة الثقافية التي وجد الشيخ نفسه فيها أثرها السلبي ، فإنه كان لها جانب إيجابي في حياته ، ذلك أنه حينما وجد نفسه في أحضانها دون أن يكون له خيار في مبارحة هذه الأحضان فإنه قد طوعها ، إذ جعل منها عاملاً مساعدًا قوى الفعالية على تحصيله الفكري .

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٧ ـ ١٨ .

لقد اتخذ منها فرصة للتحليق المتأني في فضاءات هذا الكون ، بدءًا بذاته وانتهاءً بما وراء هذا الكون ، تحليق تأمل عميق ، وملاحظة دائبة ، ورصد وقراءة وتساؤل ، بعيدًا عن ضجيج الحياة وصخبها وأشغالها ، مما قاده إلى فهم أعمق ، وإحاطة أوسع ، يقول :

((ولأني من جيل عاش العزلة في هذه الصحراء أجيالاً طويلة ، ورثته عزلته صورًا للحياة خفق بها في أعماقه جناح الجبل ، ونطق بها في سمعه وبصره فم الوادي ، يوم يفيض مقبلاً بمياه السحب الروض الظامئ إلى نزوله ضيفًا كريمًا عليه ....)) [1] .

لا ؛ بل إنه بعد أن كان قد أوغل في الرحلة مع ثقافات الآخرين والتعاطي معها ، وبعد أن صدم بانحراف اتجاه تلك الثقافات عما ترسخ في أعماقه من حقائق هذا الكون ، قفل البدوي عائدًا إلى صحرائه المفتوحة ومضارب خيامه ، فهي الأجدر باحتلال مقعد المعلم منه ، يقول :

((ولدي :

هذا تصور لبدوي أضجرته الوحدة والغربة ، وباعدت بينه وبين أقلام الآخرين مسافات لم تستطع معها أقلامهم أن تخط في دفاتره وفي جمجمته تصوراتهم ، فاختار لنفسه جلساء من الطير ومن الطبيعة في الصحراء)) [2] ، ومن ثم استقام سفره على هذا الخط معرضًا بذلك عن سواه ، واتخذ من الصحراء المصدر الأب في قائمة المصادر التي حددت معالم اتجاهه الفكري والثقافي ، متكأ في تعاطيه معها على عنصري الفطرة والملاحظة ، يقول :

((... لست محللاً نفسيًا أضع تجربتي وملاحظتي ممن يزورون عيادتي ، فأنا رجل لا مدرسة له ولا طبيب ولا كتاب ولا عيادة غير الفطرة والملاحظة في قلب هذه الصحراء الواسعة ....)) [3] .

ويتراكم تحصيله من دروس الصحراء ؛ ليتحول ذلك الرصيد مع مرور الزمن إلى أرضية ثقافية وتصورية وفكرية يقف عليها الشيخ ، ويصدر عنها ، ويتحرك منها في سلوكه الخاصّ ، وفي مواقفه الخاصة والعامة ، وإلى فلسفة حية يصدر عنها في رؤاه وتصوراته .

يكشف عن ذلك عندما يعبر عن رؤيته لعلاقة الطفل بأمه قائلاً :

((ومن منا يا ترى قد كبر وراحت بعيدًا عن ذاكرته أيام الطفولة ؟ من منا يا ترى

---

(١) المصدر نفسه : ١٦/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣١٤/٢ .

هجر الثدي وصدر الأم ؟ لا أتصور أن واحدًا منا نحن البشر كبر وشاخ وشاخت معه ذكرياته عنه ، .... لي في ذلك ومعه من فلسفة الصحراء ومن إجلالي للمرأة تصورات لا يحتمل قلمي حملها إلى القارئ ، فهذه الصور إحساس وشعور وعاطفة وروح لا تجسدها الأقلام ولا تترجمها الكلمات وإن جاءت من فم سحبان وائل لا من فم بدوي يجمع الكلمات والجمل من أشح الأودية النفسية وأجدبها ....)) [1] .

حقًا .. إنها فلسفة الصحراء بما تحمله لفظة ((فلسفة)) من مخزون دلالي حيّ شامل .

ويؤكد هذا بقوله : ((لا أستطيع أن أكون هجاءً ولا قادحًا ولا حاملاً أحجارًا أرميها في طريق المارة ، لأن الصحراء علمتني مذهبًا في الحب والتسامح واحتمال ردود الفعل)) [2] .

وإذن ، فلم يعد هذا الكون في حياة الشيخ مجرد مصدر من مصادر ثقافته ؛ يتوقف دوره عند تغذية أرصدته الثقافية والفكرية والمعرفية ورفدها ؛ بل تجاوز ذلك ليحدد الإطار الذي يحضن الشيخ في سلوكه الشامل ، ويشكل رؤاه وتصوراته ومواقفه ، وهذا وذاك هو ما تكشف عنه وتشهد به كل جملة وردت في سياق مؤلفات الشيخ .

٤ـ الحيـــاة :

والحياة بمفهومها الشامل ، وبحركته المديدة معها ، وحركتها معه ؛ في تجلياتها ، وتداخلاتها ، وتناقضاتها ، وتوافقاتها ، وتصادماتها ، وبما يتولد عن هذه الحركة من معطيات ، وبما تركته من آلام ومعاناة ؛ مصدر آخر من مصادر ثقافة الشيخ ، ورافد غزير المادة من روافد تجربته التي أصبحت بتراكماتها النامية ، واشتداد حبلها ، وثراء محتواها ، وتنوعه ؛ دعامة من الدعائم التي يتكيء عليها في حركته ؛ أينما كان اتجاه هذه الحركة ، معوضة بذلك الفراغ الذي تركه انعدام الرصيد التعليمي ، يقول مخاطبًا ولده :

((أنا لم أجلس على مقعد أجلستك عليه في مدرستك (؟) لأن أبي لم يجد مقعدًا في عصره ليجلسني عليه.فالمقعد الذي لم يجده أبي أجلستني عليه الحياة ثم قست، ....)) [3] .

---

(١) المصدر نفسه : : ١/١١٥ - ١١٦ .

(٢) المصدر نفسه :٢/١٨٨ .

(٣) المصدر نفسه :١/٦٧ .

٥ـ القراءة :

وكانت القراءة المتحررة من القيود الإقليمية والمنهجية والانتقائية ، المتسعة بسعة ما يقع تحت يده أينما وجده ؛ رافدًا آخر ومصدرًا من مصادر ثقافة الشيخ .

وحين يقرأ ؛ فإنه لم يكن يقرأ للتسلية ، أو لملء فراغ زماني لديه ؛ قراءة لا تتجاوز القفز فوق الحروف وطي الصفحات ، لكنها قراءة فحص عميق ، وبحث مستفيض ، واستيعاب كامل ، وتساؤل واع ، ذات دأب ونشاط متصل .

إلى هذا الرافد وإلى طرف مما ذكر يشير قائلاً :

((ما أكثر الأيام التي مشيت فيها أبحث عن فقهاء هذه الحضارة ومفكريها وفلاسفتها ومتدينيها لأسألهم ......))[1] .

هي ـ إذن ـ قراءة تجاوزت الحدود المحلية والعربية ـ بعد أن استوعبتهما ـ إلى ما وراء ذلك لتتعاطى مع أخطر المحاور المعرفية والفلسفية هناك ، في القانون والفكر والفلسفة والمذاهب والتاريخ والمجتمع والسياسة .....

وفي إشارة أخرى إلى هذا الرافد ، يكشف الشيخ عن عمر تعاطيه معه ، وعن المساحات التي غطتها قراءاته ، وعن الموقف الذي يقفه متلقيا ودواعيه ، ليخلص بعد ذلك إلى الكشف عن دافعه إلى التعاطي مع هذا المصدر ، وإلى تسجيل الحقيقة الأخيرة التي وصل إليها وآمن بها ، يقول : ((... لي خمسون عامًا وما توقفت عن القراءة ؟ .

اقرأ كل شيء حتى لأعداء ديني ونظام حياتي ، أقرؤه دون تعصب ، فالمتعصب واليابس جلده على العظم لا يقرأ ولا يتحرك من مكانه ، يظل مقيمًا مع عزلته " ما أَقَامَ عَسِيبُ "[2] ..!

أما لماذا أقرأ عن فلسفة الشرق والغرب ؟ أما لماذا أقرأ أيضًا لمن تحول إليهم منا ـ نحن العرب والمسلمين ـ ؟ فلكي لا أكون الرجل الإمّعة ، ولا أكون الجمل الذي يقوده الخطام من الأمام ويضربه الآخر بالعصا من الخلف ... ! فمسئوليتي من نفسي لا يحملها غيري ....

لذلك آمنت بالحكمة والكلمة التي قالها أحمد أمين .... "آمن ولو أحد الناس...... ووثق

---

(١) المصدر نفسه : ٣٧٨/١ .

(٢) امرؤ القيس : الديوان : ص٣٥٧ ، والبيت : أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

صلتك با لله وإن قطعها الناس ! "[١]))[٢] .

لعله قد اتضح الآن مدى أهمية هذا المصدر من مصادر ثقافة الشيخ ، وهو مصدر لم يقف تأثيره عند إمداد الرصيد المعرفي للشيخ وتغذية ثقافته وتعميقها ؛ بل تجاوز ذلك إلى المساهمة في بناء شخصيته ، وصنع مواقفه ؛ وإن كان هذا المصدر قد عرض الشيخ للكثير من المتاعب الفكرية والتصورية والنفسية كما سيتضح لاحقًا .

تلك هي المصادر التي حصّل منها الشاب ثقافته ؛ وبنى منها رصيده المعرفي .

وإذا كان لهذه المصادر إيجابية التنوع والإحاطة والتكامل ؛ فإنه كان لها جانبها السلبي من حيث إنها قد هيأت المناخ بما حملته من متناقضات لتصادم عنيف هز أعماق الشاب .

هكذا - إذن - رصد الشيخ ذاته في إطارها الثقافي .

ومع أن هذه الإشارات لم تكن مقصودة لذاتها ، وإنما كانت أشبه بوسائل الشرح والإيضاح لمقاصد أخرى ؛ إلا أنها قد استطاعت أن تكشف عن الخطوط العامة والأكثر أهمية في هذا الجانب من حياته .

* * * *

القطاع الثالث : الذات في إطارها الفكري :

في هذا الإطار نثر الشيخ في تضاعيف رسالته مجموعة من الإشارات التي رصد بها ذاته في حركتها الفكرية الخاصة ، وهذه الإشارات تعكس - في جملتها - بوضوح اقتحام الشيخ أعماقه ، واستبطانه إياها ، ليستقطب من داخلها صورًا حية لذلك العالم الفكري ، في حركته ، ونموه منذ أيام الطفولة وحتى اللحظات التي تم فيها إنجاز الكشف عن صورته الكاملة في هذا الإطار من خلال ((رسائل إلى ولدي)) .

وبمحاولة قراءة خطوط هذه الصورة الحية ؛ تبين أنه يمكن تحقق ذلك من خلال إعادة تنظيمها ، وإعادة كل منها إلى مكانه الزماني على خط حياة الشيخ ، بما يؤدي إلى الكشف عن مراحل التطور الفكري التي تنقل فيها من واحدة إلى أخرى خلال حياته المديدة ، وبما يكشف عن الخطوط العامة في مسيرته الفكرية الكاملة ، فظهرت صورته في المراحل التالية أكثر بروزًا على خطّ حياته .

---

(١) إلى ولدي ص ٧٠ .

(٢) الرسائل ١/١٠٩ .

الأولى : مرحلة الكمون :

سبقت الإشارة إلى أنه فُرض على الشاب ألاّ يتجاوز في تحصيله التعليمي نطاق الكتاب ، وإلى أنه فرض عليه - أيضًا - أن يتعايش بعمق مع إطار ثقافي يبلغ في ضحالته درجة الإحباط ، ولكن ؛ هل استطاع هذا الواقع الثقافي الراكد أن يمد سلطاته إلى مراكز الحركة الفكرية لدى الشاب فيشلها ، ويسلمها إلى نوع من الذهول الذي يحول بينها وبين العمل ؟ .

وإذا استطاع الفتى أن يحطم قبضة الذهول هذه بما قد يتهيأ له من ملكات فطرية خاصة؛ لأن لها نشاطًا يتأبى على السكون ، ولأن هناك عناصر تمدها بطاقات الحركة ؛ وتستفزها من الخارج ، أفليس من غالب الاحتمال أن يستسلم استسلامًا قهريًّا لهذا الواقع المحبط ؟ وأن تموت في أعماقه أو تذبل كل بارقة أمل أو طموح إلى تجاوزه لما هو أبعد من الحصول على لقمة خبز يسكت بها جوع بطنه وبطون من يعولهم ؟

لقد كان هذا الواقع الثقافي كفيلاً بشل الحركة العقلية الطامحة إلى ما هو أبعد من ضرورات التعاطي مع الحياة ؛ بما يدور في نطاق تدبير لقمة العيش والتأقلم مع البيئة المحيطة ، وهو أمر مشهود في يومنا هذا في البيئات التي تمر بظروف مشابهة، ولا حاجة هنا إلى التمثيل[١] .

وهذا ما حصل للفتى في صدر حياته .

يقول عن ذلك وهو يدعو ((ولده)) إلى الدخول معه في الحوار العميق القادر على إطلاق المدركات :

((... وبدون الحوار تنام المدركات أو تضل ، نامت هذه عندي طويلاً لأن أبي مات ولم يفتح الحوار ، والطفل يبقى طفلاً وإن كبر إذا لم يجد من يحاوره))[٢] .

هكذا حكم على حركة مدركاته في هذه المرحلة من حياته ، وله كل العذر في ظل الوضع الثقافي والفكري القائم .

لقد جرّه ذلك بالضرورة إلى أن يذهل ذهولاً بريئًا عما وراء حاجات الحياة ، وبقيت الملكات الفكرية لديه كامنة في معتقل بناه وألقى بها فيه الوضع الثقافي القائم ، إلا من بعض الحركات الضارّة والومضات الخاصة ، التي تدور في فلك الفكر المطروح الموازي لهذه الفترة من

---

(١) عاش الدارس هذا الواقع ومارس هذه التجربة ممارسة عميقة فترة من حياته .

(٢) الرسائل ١/٤٥ - ٤٦ .

حياته ، ذلك ما يكشف عن طرف منه قوله وهو يخاطب ولده :

((خلّني أصدقك القول فأقول لك إن فترة من حياتي إذا قومتها اليوم وسجلت عنها بعض الملامح فما تجنيت عليها ولا ناديت عليها في سوق ليس من سوقها وليس من نوعها ، هي ذاتي وأنا حر في أن أقول عنها كل شيء أو بعض الشيء ، ولعلها ذات لكل إنسان عاش التقليد الواحد وعاش الميراث الواحد في الوطن الواحد .

أما كيف ؟ فقد كنت لا أرى أفضل من السلّم الذي نركض على درجاته صعودًا وهبوطًا نقف بجانب الصخور أو الأشجار أو جذوع النخيل فلا نشعر في أكثريتنا بالفارق بيننا وبينها إلا أننا نتحرك ونسعى في أجوائنا الضيقة الممطرة علينا أضحل الرذاذ في غسق الليل .

ورذاذ كهذا لم يبلل ثيابنا الفكرية أو الروحية ولم تفجر فينا رعوده وبروقه مدافن الوعي بل ظللنا نقيس الحبل الزمني الممدود عبر الوجود بمقياس الأشبار والأذرع ونكيل شموسه وأقماره وكواكبه ونزنها بموازين ساذجة وبسيطة ، لم نعرف لهذا الكون ثوبًا واسعًا أكثر من سعة ثيابنا في مقياس المعرفة ، كان تفكيرنا ساذجًا عن الكون وعن الإنسان ، ....))[1] .

إنها صورة تتسم بالعمق والدقة في تشخيص سطوح وأعماق تلك المرحلة من حياته الفكرية .

وعن طبيعة هذه المرحلة وانعكاسها على نشاطه الفكري ، ومستوى ذلك النشاط يقول في لقاء صحفي أجري معه قبل تسعة عشر عامًا : ((... لو سألتني عن العالم قبل ٤٠ سنة لأجبتك : العالم كله هو الجمعة !! ولو سألتني ماذا تعني الكرة الأرضية في حجمها لقلت : لا شيء !))[2] .

هكذا صور الشيخ معالم ذاته الفكرية خلال هذه المرحلة تصويرًا واضحًا ، يتسم بالعمق ، والدقة ، والإحاطة ، مغنيًا عن أي شرح أو تحليل .

وإذا كان هذا هو الطابع العام لرؤى الشاب وتصوراته ، وحركة فكره في هذه المرحلة من حياته ، فإن ذلك لا يعني موت مراكز الحركة الفكرية لديه .

لقد كانت هذه المراكز حية ، وكانت تصدر عنها بعض الومضات الحائرة ، حينما تحتك بالكون من حولها ، غير أنها كانت ومضات خافتة مكتومة ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه ٨٥/٢ - ٨٦ ، وانظر الخطاب المطول المهم في هذا السياق ١٨٩/١ - ١٩٠ .

(٢) جريدة المسائية العدد ١ ، السبت ٢٥ محرم ١٤٠٢هـ الموافق ٢١ نوفمبر ١٩٨١م الصفحة (٤) .

((... فالوادي النفسي الذي تحولتْ منه هذه الرسائل ، لم يربع ولم تخصب شعابه ، لأنه عاش العزلة أزمنة طويلة لم يمر به معلم ولم يفتح له كتابه ويقرئه إياه ؟ ولكن قوافل الليل البعيدة وسراته فوق هامة الصحراء يوم تمشي قافلة قافلة محيطة بقمر السماء ، تتظاهر داخل نفوسنا عظمة هذا الكون وخالقه ، فتثير تساؤلات عفوية لم تحمل القلم ، ولم تعرف كيف تلقي عليه مسئولية التعبير وتصوير الإحساس والشعور والمواقف ....)) [١] .

غير أن تلك الحركات ، وتلك الومضات ستمد أسباب تأثيراتها العميقة إلى المراحل التالية سلبًا وإيجابًا ، كما سيتضح .

وأخيرًا ؛ فإن هذا المستوى الفكري الذي عاشه الشيخ يومًا ما ، وغدا اليوم يرصده ويقرؤه على متلقيه بعد أن بارحه بزمن طويل ، وألقى به عالمًا يسكن الذاكرة ، لم يكن لبلادة في طبع الشاب ، ولا لعجز الاستعدادات الفطرية لديه ، وإنما كان ذلك لانعدام العناصر والمحفزات التي من شأنها أن تطلق هذه الملكات الكامنة من معتقلها ، وتبث الروح والحركة النشطة فيها ، وتقود الشاب إلى الحوار والتفاعل العميق مع نفسه وخارجها ، بدليل ما سيحدث في المرحلة التالية .

الثانية : مرحلة الصحوة :

في موضعين سابقين ثار السؤالان التاليان ؟

١ ـ هل توقفت بالشاب خطاه إلى التحصيل المعرفي عند أبواب الكتّاب ؟ [٢] .

٢ ـ هل استسلم الشاب لمحيطه الثقافي المُحبِط ؟ [٣] .

مضى طرف من الإجابة على هذين السؤالين عند رصد " مصادر ثقافة الشيخ " [٤] ، وهنا يتم استكمالها .

لقد كانت تلك الومضات الخافتة ؛ على ما فيها من عفوية في الدرجة، واحتباس في التعبير كافية لإبقاء مراكز الحركة الفكرية لدى الشاب حية متحفزة ، قابلة للانطلاق القوي من مكمنها متى واتتها الظروف الملائمة ، وتوافرت لها العناصر القادرة على تغذية هذه الانطلاقة

---

(١) الرسائل ١/١٧ ـ ١٨ .

(٢) انظر هذه الدراسة ص ١٥٩ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٥١ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٥١ ـ ١٥٨ .

بطاقات كافية للانخراط في الحركة الكاملة ، وهـا هـي ذي العنـاصر تبـدأ بـالتحليق والتحلـق في الآفاق الفكرية لدى الشاب ؛ لتلامس فيه تلك الومضات الخافتة ، ولتلتحم ؛ معها فتشع بقـوة ، وتكون الصحوة ، وتنعتق هذه المدركـات مـن خبائهـا المظلـم ، وينعتق الشـاب مـن ذهولـه ، ويكون الخروج من العزلة ، يقول :

((ولأني من جيل عاش العزلـة في هـذه الصحـراء أجيـالاً طويلـة ، ورّثته عزلتـه صـورًا للحياة خفق بها في أعماقه جناح الجبل ، ونطق بها في سمعه وبصره فم الوادي ، يوم يفيض مقبّـلاً بمياه السحب الروض الظامئ إلى نزوله ضيفًا كريمًا عليه ، لم أتباطأ في خروجي مـن هـذه العزلـة ، فقد أخذتني هذه المفاجأة العلمية المعاصرة إلى قمة الجبل ومن عليها ساءلته : أفيك مـلاذ لخائف؟ أفيك منجاة من الغرق؟....)) [١] .

وإذن فقد شكلت الحركة العلمية المعاصرة التي صحا الشـاب علـى صخبهـا ، وتفتحـت عليها عيونه الفكرية عنصرًا أوغل به ؛ وقـاده إلى الآفـاق الأبعـد ، والطبقـات الأعمـق [٢] ، وإن كان دورها يأتي متأخرًا في سلم الترتيب الزمني للعناصر التي رفدت هذه الصحوة .

لكن العناصر الأولى التي اتكأت عليها الصحـوة الكاملـة لمدركـات الشـاب ، وجـودًا ، واستمرارًا ، تتمثل في عنصرين :

الأول : تتلمُذِ الشاب على الشيخ / سليمان بن حمد الكهلان [٣] .

فحينما كان عمره ست عشرة سنة [٤]، أو خمس عشرة سنة [٥]، أو أربع عشرة سنة [٦] ، التقى الشاب بهذا الشيخ على غير موعد في واد خارج قريته ((المجمعة)) ، وبعد حـوار تعـارفي ، عرض الشيخ على الشاب أن يكون تلميذًا له ، فقبل الشاب عرض الشيخ ، وبعد عـدة لقـاءات بدأ الشاب يتعلق بشيخه ، ويلتصق به أكثر ، وعقدا صحبة استمرت حتى توفي الشيخ بعد مضي ما يقرب من عشر سنوات من الالتحام الفكري النشط .

---

(١) الرسائل ١٦/١ .

(٢) انظر الرسائل ٨٦/٢ .

(٣) لقاء خاصّ ، وهذه الشخصية ، هي تلك التي يلمّح إليها الشيخ في مقابلاتـه الصحفيـة ، وفي مجالسـه ، وفي بعض مؤلفاته دون أن يفصح عنها حتى الآن .

(٤) جريدة المسائية عدد (١) ص٤ ولقاء خاص.

(٥) مجلة اليمامة . العدد (١٤٠٩) ص ٦٢ .

(٦) لقاء خاص .

يقول الشيخ عن شيخه : هو أستاذي ، إنه أستاذ ومعلم خارج عن المألوف ، إنه رجل محلق في المستقبل ، في التاريخ ، في الطبائع ، علمني أشياء كثيرة عن العالم وطبائع البشر ومعتقداتهم السياسية والاجتماعية والدينية .... لقد وضع قدمي على الطريق ، وقال : هذا طريقك ، تجاوزه حتى تلتقي بربك .

من يسمع فلسفته - من أمثالي في ذلك الوقت - ينفر منه ، إنه يتوغل في العميق الذي لم آلفه ، اصطدم ما لدي بما لديه ؛ فكان لي معه جدل وحوار عنيف يصل بي إلى درجة اتهامه في معتقده ؛ منطلقًا في ذلك من تصوراتي القروية ، لكنه كان لا ينزعج ولا يغضب ، لقد علمني الكثير [١] .

لكأني بهذا ((الشيخ ، الفيلسوف)) [٢] - الذي اجتذب الشاب إلى مدرسته التي يتصدر مكتبتها ديوانا شاعري الحكمة والفلسفة أبي الطيب والمعري [٣] - قد صدم الفتى صدمات متتابعة حطمت محابس المدركات الفكرية لديه ، بعد أن أعتقته من ذهوله ، لتنطلق هذه المدركات في فضاء الله الواسع انطلاقًا يُمِدُّه الوعي الكامل ، والطموح الكبير، والرؤية العميقة .

ذلك - إذن - هو العنصر الأول من العناصر التي استندت إليها تلك الصحوة الفكرية .

الثاني : وهو عنصر يجتلبه الدارس إلى هنا من خارج الرسائل لأهميته في هذا السياق ، وهو يأتي في مرحلة زمنية تالية ، يقول الشيخ : ((فلما جاءت الحرب العالمية الثانية ودخل قريتنا مذياع واحد ذُهلنا وتبدلت في نفوسنا أشياء كثيرة . وقامت تساؤلات : ما هذا ؟ وما الذي يقبل علينا ؟ تداعت الخواطر الطفولية البسيطة كالقطرات الشحيحة ، وحين ملأت القدح النفسي عندي ضقتُ بها ذرعًا ، وكل مضيق لا بد له من معبر ، فقدرت آنذاك أن المعبر هو أن يلتقي الأصدقاء من الشباب في دائرة على هذا المذياع ليلاً ونهارًا ، لنسمع صدى الأحداث فيما بين الألمان والحلفاء ، ثم نثير الجدل بيننا وفق ميول الشباب الصغار ، ....)) [٤] .

هكذا كان المذياع ، وخطابه ، ومحمولات ذلك الخطاب عنصرًا ثانيًا من عناصر صحوته الفكرية .

---

(١) لقاء خاص - بتصرف - .

(٢) التعبير للشيخ في لقاء خاص .

(٣) اليمامة - العدد (١٤٠٩) ص ٦٢ .

(٤) الفيصل ع (٢٢٧) ص ٧٧ .

تلك إذًا هي العناصر التي كان لها الدور الحاسم في انطلاق الحركة الفكرية لدى الشاب ، وفك قيود ملكاته الفكرية من محابسها ، والدفع به باتجاه تجاوز مرحلة الكمون تلك إلى مرحلة الصحوة والحركة هذه .

الثالثة : مرحلة الصدمة :

انبرى الشاب في نشاط فكري مكثف في ظل العناصر التالية :

الأول : الدهشة الحضارية والعلمية :

على إثر أول ندة طرف فكرية له باتجاه الآخر ، وقع الشاب في قبضة الدهشة الحضارية والعلمية المعاصرة ، وهو الذي عاش وتعايش بعمق مع كل لحظة مضت في بيئة لا تعرف أي شيء عن أي شيء من هذا الوافد .

وحين يقدر الشيخ - الآن - حجم تلك الدهشة ؛ فإنه يثبتها في خانة الذهول ، يقول :

((... أذهلتنا مفاجأة العصر وعلومه الكونية واكتشافاته العلمية، ....)) [1] .

لقد وقع الشاب - منذ البداية - في أتون صدمة حضارية ملتهب ، وذلك وحده يكفي لأن يقلق في أعماقه كل ساكن ، وأن يملأها بعلامات الاستفهام الحائرة .

الثاني : الوقوع تحت طائلة إعلام موجه :

وقع طائره الفكري - الذي لم يبارح بعد مرحلة التدريب على التحليق - في مهب عاصفة إعلام موجه ، جرفته إلى آفاق فكرية بعيدة مشحونة بالألوان المتداخلة ، وبالمتاهات التي لم يعهدها من قبل ، ولم يتدرب على التحليق الآمن فيها .

كان ذلك حينما أسلم الشاب نفسه مع أصدقائه بلا تحفظ لإذاعتي ((لندن)) و((برلين)) إبان الحرب العالمية الثانية .

في نبرة ألم وحزن عميقة يكشف الشيخ عن ذلك الاستسلام البرئ ، وعن تداعياته الفكرية والنفسية القاسية عليه وعلى أصدقائه [2] .

الثالث : النهم المعرفي :

فمنذ اكتشف الشاب حقيقة واقعه الفكري - على إثر التقائه ب ((الشيخ، الفيلسوف)) وصاحبيه - انطلقت مراكز الحركة الفكرية لديه تعمل بعنف غير منظم ، في ظل نقص الخبرة

---

(١) الرسائل ٨٦/٢ وانظر ٣٣٥/٢ - ٣٣٦ .

(٢) انظر مجلة الفيصل ع (٢٢٧) ص ٧٧ .

المسبقة التي تصنع الحذر ، واندفعت في كل اتجاه لتلتهم كل ما يقع في طريقها وما لم يقع - أيضا - من الرؤى والتصورات والتساؤلات الحائرة في آفاق الإنسان ، والحياة وما قبل الحياة ، والكون وما وراء الكون ، والموت وما بعد الموت ، في آفاق السياسة ، والفلسفة ، والأديان ، والمذاهب الفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والتاريخية .....

الرابع : حدة المزاج الفكري والنفسي للشاب :

تلك الحدة التي يكشف عنها عراك الفتى مع شيخه الفيلسوف .

في ظل هذه المؤثرات الخارجية والداخلية ، أسلم الشاب قياده ، وأسلسه للحركة الفكرية العنيفة لديه ، ذات الشهية المفتوحة لتجاوز واقعه الفكري البسيط ، وترك مكانه الذي كان يقف فيه آمنا مستقرًا ، وحرك قدمه لاستجلاء ما لدى الآخر ، يقول في رصد حركته هذه والظروف التي أحاطت بها :

((... تجاوزت مكاني الذي كنت واقفًا على قدمي فوق جبهته آمنًا مستقرًا بما أكسبتني إياه أعوامي من يوم مهدتني أمي طفلاً وهدهدتني وحملتني على صدرها ثم تركتني أمشي مع أقراني أجمع في كيسي الذاتي بضاعة السوق لحظة لحظة ، كل ما فيها من همسة أو خفقة ، ولم أدر أن كل شي باق ومحفوظ في كتابي ، وعندما حركت قدمي في اتجاه مفاهيم الآخرين وما خطوه في دفاترهم وما سطروه وما قالوه ، حتى المقدس ، حتى الكامل أنكروه علينا ، فسروا لنا الحياة تفسيرًا ماديًا ، هاجمونا ونحن لا نحمل السلاح عزلاً إلا من فطرتنا وبساطتنا)) [(١)] .

ومضى الشاب، ليجد نفسه في مرحلة من مراحل حياته الفكرية ، يقف على فوهة بركان يحتدم في جوفه خليط مضطرب غير متجانس من رؤى وتصورات ؛ بعضها قادم من الماضي القريب والبعيد [(٢)] ، وبعضها آت من الحاضر ، بعضها مغروس هنا ، وبعضها قادم من هناك ، مزيج تختلط فيه القيمة بضدها ؛ والشيء بنقيضه ، مما قاد إلى نشوب تصادم مذهل في أعماق الشاب تولدت عنه صدمة فكرية عنيفة انعدمت تحت نقعها الرؤية؛ فوقع الشاب في ليل حالك .

يصور الشيخ في عمق تشخيصي ، وفي خصوبة إيحاء ملامح فترة التناقض والصدمة الفكرية الحادة هذه فيقول :

---

(١) الرسائل ١٩٢/١ .

(٢) انظر الرسائل ٢٧٧/٢ .

((في هذا الجو الذي قطعانه من الماشية إن كانت في سوارح القرية أو الصحراء أو كانت في سوارح النفس . اختلف الرعاة داخل النفس ، وثغا كل قطيع ، وعوى كل ذئب ، وما بين ثغاء القطيع وعواء الذئب من تناقض بدأت أعراض هذا التناقض تظهر في غيوم متلبدة في سماء النفس عندي ، وهي ليست كغيوم أثارتها رياح رحيمة بأرض عطشى إلى الري . هي غيوم حجبت القمر ، وأطفأت النجوم ، وفقأت عيني البصر حتى لا تريا الشمس فلم يبق غير الليل البهيم . وهذه التظاهرات ، ليت قلمي ، ليت إحساسي بها يلقي على هذه الأوراق ولو لونًا باهتًا من ألوانها الأليمة ليراها من لم يعانها ولم يدر ما هي فيحتاط لنفسه قبل أن تفاجئه هذه النفس بغضبها عليه لسبب أو لآخر ، ....)) [١] .

هكذا ، شاب تملأ أعماقه الفكرية والوجدانية والروحية مفاهيم ورؤى وتصورات ، تبلورت لديه في ظل الوضع الثقافي والفكري والتصوري القائم ، وفجأة يحركه طموحه المعرفي للتعرف على ما يوجد خارج هذا الواقع ، ولقراءة الأطر الفكرية القائمة في عالم مغاير في رؤاه وتصوراته ومبادئه لعالمه ((هو)) مغايرة تصل إلى حد التناقض التام فتكون الصدمة ، وينشب في أعماق الشاب ذي الطبيعة الفكرية الحادة أصلاً ، صراع عنيف بين إطار فكري ساكن متجذر ، وبين أطر فكرية وافدة ، صراع ملأ آفاق الشاب بسواد انعدمت تحت جنحه الرؤية ، بما كاد يجر أقدامه إلى هوة مظلمة لا قرار لها لولا عناية الله ، يقول :

((وما أعظك به اليوم لم يكن إلا نتيجة لتجربة طويلة مع الآخرين ، أعطيناهم في ظروف مختلفة حسن الظن بهم فحاولوا أن يصوغونا وفق أهوائهم وأن نكون أوراقًا في دفاترهم يخطون فيها ما يشاؤون وما يريدون لا ما نشاء وما نريد ...! أوشك أبوك أن يكون ذيلاً وتابعًا لفلسفة هذا أو ذاك ، ....)) [٢] .

وحين يأتي اليوم من مكانه الذي استقر فيه ليقوّم هذه المرحلة من حياته ويوصفها في سياقاتها الفكرية والتصورية والنفسية يقول عنها وهو يخاطب ولده :

((لا أعرف كيف يصل إليك (صوتي) وعلى أي شاكلة وماذا سترى فيه ؟ غير أني وأنا أخط هذه الرسائل بعد أن أصبح للحياة وللواقع وللسلوك في ذهني صورة غير ما كانت عليه ، أحار مع الكلمة .

---

(١) الرسائل ١/١٩١ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٠٧ .

لو جاءتك هذه الرسائل قبل أربعين أو ثلاثين عامًا [1] لأحرقتها على عتبة البيت وتركت الرياح تذروها في الفضاء رمادًا مبعثه رماد ، ولكنها ظروف وماضٍ نتذكره في أعماق النفس وفي تداعي الخاطرات والصور عليها تداعي الألم والمعاناة من جبل نفسي لم تتماسك أحجاره ولم يكن له عمق في أرضية النفس الواعية ، لأن البدن قد جرحته آفات ذاتية تأكله أكل الذئاب وترمحه بساقها حمى المرض الشديد الذي لا طبيب له ولا عيادة يمكن أن تزار ، ظلت حبيسة النفس ممرضة لاستقرارها وسكينتها ، أوشكت في أكثر من موقف أن تتهدم الجدر النفسية وأن تعبر آفاتها المؤذية إلى الطريق العام مشيرة إلى أنها جنون خرجت من جنون .)) [2] .

تلك - إذن - هي ((مرحلة الصدمة الفكرية)) - كما صورها خطاب الشيخ - ، مرحلة نشب خلالها الصراع في أعماق الشاب بين سياقين فكريين ؛ يتنامى التفارق بينهما إلى درجة التعاكس في بعض الحالات .

الرابعة : مرحلة التجاوز :

غير أن هذا الصراع لم يكن حجرًا سقط في أفق الشاب واستقر فيها جامدًا لا يتحرك ؛ بل كان صراعًا حيًّا بدأ في إطار ظرفي معين ، وسينتهي في إطار ظرفي آخر ، وخلال مسيرته بين البداية والنهاية كانت هناك عوامل حاسمة تسلط عليه فعلها وتدفع به باتجاه الحسم لأحد السياقين ، هذه العوامل يمكن تركيزها فيمايلي :

١- عمق جذور السياق القديم :

إن الإطار الفكري القديم الذي جاء الشاب يحمله من البيئة الثقافية التي استوعبت ما مضى من عمره على ما فيه من بساطة ؛ إلا أنه كان يضرب بجذوره في أعماق التربة الفطرية الروحية والوجدانية والفكرية لدى الشاب ، ففيه ، وبه ، وعليه قامت ؛ ولا زالت تقوم وستظل - إن شاء الله - حياته وحياة بيئته في مختلف سياقاتها.

٢- قوة محمولات السياق القديم :

إن عمق شعور الشاب وقناعته الراسخة بأن هذا الإطار على رغم بساطته وضعف أجنحته ؛ إلا أنه يحتضن بين خطوطه الحقائق الكبرى سليمة من التهدم ، وهي الحقائق التي تنبني عليها الهوية الإنسانية التي يبحث الشاب عنها ، ويتحدد على أساسها الاتجاه الذي يتخذه

---

(١) ذلك ما يقابل ما سبق الخامسة والثلاثين من عمره في حده الأعلى .

(٢) الرسائل ٢/٣١٣ - ٣١٤ .

الإنسـان في هذه الحيـاة ، يقابـل ذلـك الإطـار المكين ؛ أطر متفلته في رؤاها وتصوراتها واتجاهاتها الفكرية ، هائمة على وجهها في مواجهة تلك الحقائق ، ومن هنا كان وجود هذه الحقائق وعلاقـة الشاب بها ، وما ينبني على ذلك يشكل لب القضية الخلافية الـتي نشـب الصـراع بـين السـياقين حولها وعليها .

٣ـ الالتحام بالجذور :

لم يكن الشاب خلال مرحلة الصراع والبحث هذه منبتًا عن جذوره ، ينطلق هائمًا علـى وجهـه أينما أخذتـه الأعاصير ؛ بـل كـان شديـد الارتبـاط بجذوره الروحية والوجدانية والفكرية والأخلاقية المزروعة في إطاره الفكري القديم؛ كيف لا وقد كان البقاء مع الجذور والالتحام بهـا، هو الدرس الأول الذي تعلمه من مجتمعه فوعاه جيدًا ، وأصّله في وجدانه وفكره وأخلاقه .

يقول :

((فأول ما تعلمته من مجتمعنا البدائي الصغير أن نبقى دائمًا مع جذورنا وقريبين من هـذه الجذور لا نجنح بعيدًا عنها في وجداننا بحيث لا يصبنا الغرور أو التعالي عليها فنجرح فينـا مكـارم الأخلاق وجودة المعدن .)) [(١)] .

٤ـ الروح الاستقلالية :

كان الشاب يصطحب معه الرغبة الملحة في بناء إطار فكري قوي خاص بـه ، يكـون فيـه الوافد عبدًا لسيّد الدار ، يخدمه بإخلاص ودقة ، وينظف جدران داره وأفنيتها مما تراكم فيها مـن أتربة ، راكمها مع مرور الزمن الجهل والسذاجة ، فبدأت رحلاته في آفاق الآخريـن تتحـول مـن كونهـا رحـلات استطلاع ، واستقطاب ، واستيعاب معرفي عشوائية ، إلى حركـة حـوار ، وتساؤل ، ومقارنة ، واستنتاج ؛ تهدف إلى تعميق الرؤى والتصورات الـتي جـاء الشـاب يحملهـا من قلب الصحراء ، ولذلك يقول :

((ما أكثر الأيام التي مشيت فيها أبحث عن فقهاء هـذه الحضـارة ومفكريهـا وفلاسـفتها ومتدينيها لأسائلهم ....)) [(٢)] . ولم ذلك ؟

((أما لماذا أقرأ عن فلسفة الشرق والغرب ؟ أما لماذا أقرأ أيضًا لمن تحول إليهم منا ــ نحن العرب والمسلمين ـ ؟ فلكي لا أكون الإمّعة ، ولا أكون الجمـل الـذي يقـوده الخطـام مـن الأمـام ويضربه الآخر بالعصا من الخلف ..! فمسئوليتي من نفسي لا يحملها غيري ....

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٨٧/١ .

[وما النتيجة إذن ؟]

لذلك آمنت بالحكمة والكلمة التي قالها أحمد أمين ....

"آمن ولو ألحد الناس ..... ووثق صلتك با لله وإن قطعها الناس" !)) [(١)] .

ومع أن هذه العبارة تنصرف حرفيًا إلى النواحي التصورية ؛ إلا أنها تحمل بعدًا فكريًا ؛ قوامه تحقق الاستقلالية الفكرية .

لقد تحققت للشاب - إذن - الاستقلالية الفكرية المبنية على أساس راسخ يلتحم فيها الإيمان با لله - تعالى - وأصالة الصحراء - وهما مقوما إطاره القديم - بالعلم الذي اجتلبه من الأطر الوافدة ، يقول :

((ولدي :

أخشى أن تقول عني إنني رجل أحلم ؟ .. أخشى أيضًا أن يقول غيرك : بدوي عاش العزلة فيما بين رمال الدهناء وجبال اليمامة وعاش العزلة أيضًا في مذهبه الديني فصعب عليه أن يرى ما عند الآخرين فذمه أو استوحش منه ، فأقول لك : لي خمسون عامًا وما توقفت عن القراءة (؟) .

أقرأ كل شيء حتى لأعداء ديني ونظام حياتي ، أقرؤه دون تعصب ، فالمتعصب واليابس جلده على العظم لا يقرأ ولا يتحرك من مكانه ، يظل مقيمًا مع عزلته " ما أَقَامَ عَسِيبُ " .. !))[(٢)] .

ثم يصل به الخطاب المسوق آنفًا .

ولم القراءة أيضا ؟

لأني ((... لست ممن تتحرك قدمه على طريق عبده الآخرون وقالوا لي سر عليه معصوب العينين ، مقيد القدمين .....)) [(٣)] .

٥ـ الحـذر :

خلال مرحلة الصراع والمواجهة هذه ، كان الشاب يتسلح بسلاح الحذر الذي كان يحمله سمة من سماته التي غرستها فيه بيئته ليصدر عنها أثناء تعامله مع أي وافد جديد ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ١/٩٦ .

((... إني من الجيل الذي يرتاب في كل غريب لا يعرف نسبه ولا يدري أخلاقه وسلوكه ونوع تفكيره وعلاقته الإنسانية بالآخرين ....))[١] .

هل يصادم هذا ما قرره الدارس آنفًا حينما كان يتحدث عن ظروف مرحلة الصدمة ؟ .

لا ، أبدًا .

فما قرر آنفًا ؛ إنما يصدق على الفترة التي صاحبت بداية الصحوة الفكرية ، حينما كان سلاح الحذر هذا لا يزال معزولاً عن صاحبه ، لانعدام الشعور بالحاجة إليه في بداية تلك المرحلة على الأقل ، ثم إنه كان ـ حينذاك ـ لا يزال خامة لما تشكلها الخبرة ، وتصقلها التجربة بالشكل الذي أصبح عليه في مرحلة الصدمة ، وإنما بدأ الشاب يتكئ على هذا العنصر مع بداية مرحلة الصدمة ، حينما لفتت نظره التجربة إلى ضرورة توظيفه في الصراع ، وما زال هذا السلاح يحتد ويشتد ويصقل ويتشكل وينمو فعله مع حركة الصراع باتجاه الحسم ، حتى لقد أصبح ذلك السلاح في ظل تناميه السريع في فعاليته ـ أواخر مرحلة الصراع هذه ـ أداة مهمة من أدوات الحسم .

٦ ـ نمو التجربة وتعمّق الخبرة :

كان الشاب خلال الفترة التي احتوت مرحلتي الكمون والصحوة الفكرية وقدرًا من مرحلة الصدمة؛ أعزل من التجربة والخبرة اللتين من شأنهما دعم قدرته في التعامل مع ما قد يطرأ في حياته من مستجدات ، وكان لغيابهما في هذه المرحلة دور كبير في تعرضه لذلك الصراع .

لكن عنف تجربة الشاب مع هذه الصدمة الفكرية الحضارية داخل ذاته وخارجها، وعُمقها واتساع آفاقها ، أخذ يصقل الشاب صقلاً ما زال ينمو ويصلب ، وما زال يعمق رؤيته وينمي بصيرته ، بما كان له دور فعّال في إدارة الصراع ودفعه باتجاه الحسم ، يقول :

((أوشك أبوك أن يكون ذيلاً وتابعًا لفلسفة هذا أو ذاك ، ولكن الزمن ، ولكن ردود الفعل أوقفت القدم على قارعة الطريق وقالت : تأمل .. ! كن حذرًا .. ! وعندئذ تخالفت الخطى وتباعدت الرؤى ، ....))[٢] .

في ظل هذه العوامل الفعّالة ، ذهب الشاب يحاول الوصول إلى بلورة إطار فكري خاص

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٠٧ .

به ، ولا يعني هذا أنه كان يحاول إزاحة هذا وذاك ، وابتداع شيء جديد من عنده ؛ كلا ، ولكن الشاب ذهب يجتلب من الأطر الوافدة - في عناية وحذر - ما يعينه على إعادة رمّ وجلي إطاره الأصيل ، على نحو يعيد لذلك الإطار جدته وحصانته وتميزه وألقه ، وقدرته على تفجير النشاط الفكري واحتوائه ، وعلى بناء الشخصية الفكرية المنضبطة المنتجة .

وهذا هو ما تحقق للشاب ، فقد بدأ إطار فكري متين ؛ ينتصب في ميدان الصراع ، فيه حقائق الإطار القديم بقوتها وفعاليتها وتجلياتها الكونية والإنسانية والروحية ، وفيه أيضًا محتوى ذلك الإطار من أصالة الصحراء وطهرها وبساطتها ورصيدها الوجداني والأخلاقي ، ولكنها ـ الآن - تتكئ علىأسس راسخة متينة من الوعي العقدي والعربي والتاريخي والمعرفي والفلسفي والحضاري .

أخذ هذا الإطار ينمو في آفاق الرجل يومًا بعد يوم ، وبدأت حركته تتسارع باتجاه التكامل والتبلور النهائي ، وبالمقابل ، بدأت وطأة ذلك الصراع تخف ، وبدأت حدته تكلّ ، وبدأ الانشطار الذي تسبب في ذلك الصراع يلتئم ، كلما اقترب الإطار الفكري الجديد من اتخاذ شكله النهائي ، ذلك الإطار الذي حسم الصراع نهائيًا حين تمدد جرمه - المرحب به - ليغطي ميدان الصراع كله فاصلاً بذلك بين قطيع الماشية القادمة من الصحراء ، وقطيع الذئاب العادية من خارج الحدود [1] ، ورادًّا الأول إلى إطاره الزماني ، والثاني إلى إطاره المكاني ، واستوى له نهجه الفكري الحيّ .

وهكذا تجاوز الشاب تلك الصدمة ، وذلك الصراع الفكري ، وطواهما تجربة في سجل الذكريات .

الخامسة : مرحلة الاستقرار :

حل الإطار الفكري الفتيّ ـ إذن ـ ، فأخمد في أعماق الشاب ذلك الصراع ، وبسط سلطانه المشروعه على المساحات الفكرية لديه ، وأجلى عنها كل غريب وشائبة ، وأحل الساكن القديم المكان الذي يستحقه ؛ بعد أن نفض عن ثيابه ما ألقى عليها الزمان من غباره ، ونشر الاستقرار في عالمه الفكري ، وأصبح ما مر كله موثقًا في سطور الذاكرة ، أو في سطور لأوراق تحت هذه الصورة الرمزية العميقة ، وأمثالها :

((ولأني بدوي فكل ما في هذا العالم المعاصر غريب علي وأنا غريب عليه . فكرت أن

---

(١) هذه الصورة تتكئ على الصورة الواردة في ١٩١/١ .

ألوذ بمدفني وسط رمال الدهناء وأنستر في جوف الرمـال ، لأن ثوبي الـذي نسـجته مـن صـوف غنمي ، وعباءتـي الـتي هي من وبر ناقتي قد تتعـالى عليّ وتزدريـني فيهمـا هـذه الحضـارة وهـذه المدنية ، وكذا شباب قريتي المفتون بها ، غير أني لذت بكهف من كهوف جبال اليمامـة ، كهـف أظل في الزمن البعيد زرقاءه . وفي غرق مع الصور التي تتـابع مرآهـا علـى خـاطري في الكهـف ، روعتني صورة المدفن الذي أوشكت أن تدنيني منه ظلال طرحتهـا علـى مسـرح الحيـاة ضـلالات الإنسان ، وهنا ركبت الجمل بعد أن كنت راجلاً ، وخرجت مـن الكهـف وذهبـت إلى الأمـل ، فواريت فيه كل مخاوفي وكل رعبي ، وما الأمل إلا الحبل الممدود بين الإنسان وخالقه .)) [١] .

ذهب الشيخ ـ إذن ـ عبر إطاره هذا ـ مع أمله ومـع الصحـراء والقريـة ومجتمعهمـا [٢] ، ومع غار حراء وبطحاء مكـة وطيبـة وأوديتهـا وإنسـانها [٣] ، ومضـى يتحـرك مـن ذلـك الإطـار الفكري الذي ينهل فيه ربيع الصحراء حياته من مياه الغدير السماوية .

هنا يحيا بعمق ، ومن هنا يصدر في إبداعه إلى متلقيه شاكيًا إليه أمسه ، وراصدًا له يومه ، وآملاً لمتلقيه الإفادة من كل ذلك ، حين يقول :

((ولدي :

وادينا الذي منه أكتب لك هذه الرسائل أو تلك التي سبقتها ، ليس فيه أحجار واقفـة في طريق المارة ومدمية لأقدامهم ، فهو وادٍ علمنا الخصب وعلمنا السعة وقـال لنـا ربيعـه وقـال لنـا غديره أبقوني الصورة الجميلة في أذهانكم ، في يقظتكم ومنـامكم ! وهـو مـا حاولنـا ونحـاول أن نحفظ له الوصية ونتعامل بها في حياتنا إن استطعنا ....)) [٤] .

إن هذه الحركة الفكرية التي شغلت ما بين طفولة الشيخ وشيخوخته ، هـي مـا يجلـو عـن طرفيها في تركيز شديد قول الدكتور حسن العلوي :

((إن العلاقة بين الشيخ التويجري ومحيطه هي أكثر علاقاته تعقيدًا فقد فـرض عليـه يافعًـا نمط من الفكر فأفلت من النمط واستمسك بالفكر)) [٥] .

---

(١) الرسائل ٢/٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) انظر الرسائل ٢/١٨٧ - ١٨٨ ، ٢/٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٤) الرسائل ١/٣١ وانظر ٢/٧٧ .

(٥) مقال مطبوع ص ٦ .

ذلك ـ إذن ـ هو الشيخ في مسيرته الفكرية ، مسيرة اتسمت بالبساطة في مرحلة أولى ، وبالحركة العنيفة القلقة في مرحلة ثانية ، وبالصدمة والاضطراب والصراع في مرحلة ثالثة ، وبتجاوز ذلك في مرحلة رابعة ، ثم بالاستقرار المطمئن في مرحلة خامسة وأخيرة .

* * * *

القطاع الرابع : الذات في إطارها الروحي :

في إطار اهتمام الشيخ بذاته الخاصة في رسالته ، صرف جزءًا من جهده الإبداعي إلى تسجيل حركة هذه الذات في إطارها الروحي الذي يحدد حركتها في محيطها الكوني ، وحين يحاول الدارس رصد إشارات الشيخ في هذا المجال ، يجد أنها في عمومها تعكس نموًا في حركته الروحية يتوازى أو يتطابق مع حركة نمو شخصيته الفكرية التي تم الفراغ من رصدها توًا ، متأثرة بها ومؤثرة فيها أيما تأثير .

ومن هنا تبدى للدارس أن هذه الإشارات في مجملها ؛ قد تكرست للكشف عن رحلة الذات في هذا السياق ، وعن المراحل البارزة التي تجاوزتها هذه الذات ؛ واحدة بعد الأخرى في حركتها تجاه وجودها الكوني من الطفولة باتجاه النضج ، ومن الضعف باتجاه القوة ، ومن السطوح باتجاه الأعماق ، ومن القلق باتجاه الاستقرار .

تأسيسًا على هذا ؛ فإن تلك الإشارات قد انصرفت إلى رصد هذه الرحلة أو تلك المسيرة في مراحلها التالية :

الأولى : مرحلة الاستيعاب المسطح :

ولد الشيخ ونشأ وشبّ في بيئة فكرية وتصورية مغلقة ، تعتمد ـ بالدرجة الأولى ـ في رصيدها وحركتها التصورية الكونية ـ خاصة ـ على الموروث ؛ الذي انحدر إليها من بين ركام الماضي الذي فعل فيه فعله ، وعلى الرغم من أن هذه البيئة في إطارها التصوري إسلامية الوجدان والرؤى والتصورات والفكر والحركة ، وعلى الرغم من التحامها بإسلامها التحام الشيء بذاته ؛ إلا أنها كسواها من بيئات هذه الجزيرة العربية الإسلامية الطاهرة ؛ كانت في هذه الحقبة الزمنية تفتقر إلى الوعي الفكري العميق الذي يمكنها من رؤية إسلامها ؛ وما في إسلامها كما هو ، ومن ثم الصدور عنه في رؤاها وتصوراتها وحركتها الإنسانية والكونية صدورًا معافى في جميع جوانبه ، ومن هنا فإن انعكاسات هذا التلاحم ظلت مسطحة في منجزها العملي لدرجة كادت

تدفع به إلى حقل العادة ، ومسطحة في منجزها الرؤوي والتصوري إلى درجة تكاد تنعدم معها الرؤية ، ومسطحة - أيضا - في منجزها الحركي إلى درجة تقترب من الركود .

وأصبح الواعظ البسيط ، والأم والأب ، ومعلم الكتّاب ، وعجائز القرية - وهم الذين انزرعوا أصلاً في هذه البيئة ، وأخذوا عنها كامل رصيدهم الفكري والتصوري - هم المورد الذي لا يجد الناس سواه لملء قربهم الفكرية والتصورية .

في هذه البيئة التصورية الساذجة عاش الشيخ صدر حياته ، أو ما يقابل مرحلة الكمون التي مرت بها مسيرته الفكرية ، عاش هذا الواقع التصوري بعمق ، وتأثر به ، وتشبع بما فيه من تصورات ورؤى عميقة في جذورها ، ولكنها ضحلة ومسطحة في آفاقها وتجلياتها وانعكاساتها ، وأصبح الرصيد التصوري الذي جمعه الشاب من شتات هذا الواقع التصوري ؛ المتكأ الوحيد الذي يستند إليه في نظرته إلى الخالق تعالى ، وإلى الكون ، والحياة وما قبلها ، والموت وما بعده ، وإلى ذاته في سياقها الكوني وعلاقتها بذلك كله .

وقد شكل ذلك لدى الشاب ؛ تراكمات نفسية ستكون لها انعكاسات خطرة حينما يتصدى في ظل صحوته الفكرية لمحاسبة ذلك الواقع في مرحلة تالية .

إن ذلك كله هو ما يكشف عنه الشيخ حين تصدى لتصوير هذه التجربة بقوله :

((أما ما هذه التجربة ؟ فهي أني عشت فترة شبابي مع وعظ الواعظ ومع تربية البيت البسيطة التي فسرت لنا الدين والكون والحياة والقبر وما بعد القبر ، وماذا فيه إلى آخر ما علق بذهني آنذاك عن الحياة وما بعد الحياة من صور لم أستطع احتمالها،وكنت أشعر بالضمور الذاتي ، وأني أصغر في حجمي لحظة لحظة أمام أحجام تملي علي إرادتها ومفاهيمها ، أتقبلها دون تردد أو اعتراض ... عشتها وآمنت بها وقدرت أنها كل شيء وأن ذهني وعقلي وجسدي قدح يملؤه فرخ القطا .. وعالم القرية والصحراء والمسجد المفروش بحصباء الوادي ، وتمرات النخيل ولبن الماعز أو الشاة ، أو حتى لبن أم اللبون ، هم الغذاء الروحي والجسدي لنا في أحضان أمهاتنا وجداتنا وعجائز جيراننا ، نلتقي في أوقات لا نخلفها وماذا نسمع ؟ نسمع الحوار البسيط فيما بين هذه وتلك ، نسمع القصص ، نستوحش مرة ونصاب بالرعب أخرى ، من قصة أو من صورة من الصور تطرحها أم السبعين أو أم الثمانين ممن عرتها السنون من ثياب الشباب وعصرت إناءها حتى لم يبق فيه غير الحثالة وغير العروق وثرثرة اللسان ، ونعجز عن الإدراك أن كل شيء يبقى محفوظًا في وادي الإنسان ..

ثلاثون عامًا والوادي النفسي يستقبل القطرات والخاطرات ، وفي أكثر الحالات يستقبل شلالاً متدفقًا بالأتربة والرمال والمياه الكدرة ، ما كنا نظن أن كل شيء له قرار وله مأوى ومنطرح في منعطفات النفس ، لم نعرف أن هذه النفس سعة أوسع من الفضاء ، لم ندر أن للإنسان ضميرًا يستقبل ويحتمل كل ما يلقى عليه ، يتسامح ويعطي فرصًا تدرأ غضبه وسخطه .
لم ندر هذا كله ، لم نعرف ما الضمير ، ما اللص ، ما العابد داخل النفس ، لم ندر ما نيرون فيها وما الفضيل بن عياض ؟ لم ندخل مطايانا أسواق التناقض والتباين ، لم ندر أن فينا نزلاء وقبائل ، ولكل قبيلة مضرب خيام ، ولكل قبيلة (دفًا) ، نرى أنفسنا في حدود أسوار القرية وحيطانها ، نراها قربة تحقنها الأم أو الأب أو معلم الكتّاب صباحًا وتفرغها مساءً ، نتصور الجمجمة بما فيها واحدة من حبات القرع التي نزرعها ونفتحها ناضجة أو غير ناضجة ! لا شيء في مفهومنا عن العميق فينا ، سيقاننا لا تحملنا إلى تجاوز أكثر من متر أو مترين من الحيطان ، ولا تقطع في عدوها أكثر من أشبار . كل شيء فينا طفولي ، حتى بسماتنا ونظراتنا ، حتى سجداتنا على حصباء الوادي مطلبنا فيها من خالقنا يأتي على قدر تصورنا له ، وهو تصور لم يقدر ﴿ الله حقّ قَدْرِه ﴾ [١] !)) [٢] .

تلك - إذن - هي الذات في حركتها التصورية الكونية — إذا جاز أن تسمى حركة — في المرحلة الأولى من مراحل حياته في هذا السياق ، وهي — كما يكشف عنها الشيخ — تتسم بالضحالة والتسطح ؛ في تلقيها لمحيطها الكوني ، وحوارها ، وتفاعلها معه ، ومع ما وراءه خالقًا ، ومخلوقات ، مشهودًا ومغيبًا .

الثانية : مرحلة الصراع :

كان الشاب - إذن - يحيا هذا الواقع التصوري ، وعلى الرغم من مرارة مذاق هذا الواقع ؛ إلا أنه لم تكن قد نبتت لدى الشاب الخلايا التي يتذوق بها واقعه — حتى الآن — لذلك فقد عاش مع هذا الواقع في أمن واستقرار نفسي وروحي وذهني ، واستوعبه بالعمق الذي صوره في خطابه المرصود آنفًا ، والآخر المحال إليه في ذات الهامش ، غير أن الصحوة الفكرية بروافدها ؛ وبنموها قد ولدت في ظل ظروف فكرية ونفسية وتصورية ساعدت على مدّ نشاط حركته

---

(١) سورة الأنعام (٩١) ، سورة الحج (٧٤) ، سورة الزمر (٦٧) .
(٢) الرسائل ١/١٨٩ - ١٩٠ - وانظر : ٢/٨٥ - ٨٦ .

الفكرية لتستوعب واقعه التصوري هذا ، فقادته على هذا الصعيد إلى الدخول القسري في نوعين من الصراع .

الأول : صراع الشك :

جاءت تلك الحركة الفكرية العنيفة واندفاع ، الشاب معها ، لتدفع به إلى منطقة حادة ، وجد فيها ذاته وقد انجرفت في خضم صراع تصوري رهيب ؛ لا مجال إلى تحاشيه ، أو التراجع عنه إلا بعد الوصول معه إلى النهاية حيث الحقيقة ، وخاض الشاب في هذا السياق تجربة قاسية تحدث عنها هنا بألم ودموع .

وحين ينصرف الشيخ إلى تصوير هذه التجربة العنيفة يأتي خطابه ليلقي الضوء على موطئات تلك التجربة ، وتطورها ، وتداعياتها النفسية والفكرية والروحية ، ليخلص بعد ذلك إلى رصد حركته التي أدت إلى تجاوز هذه التجربة .. وفيمايلي تفصيل ذلك :

أ ـ روافد الصراع :

لم ينبت هذا الصراع من العدم ؛ بل كانت هناك عدة عوامل وطّأت له ، وشكلت في مجملها بيئة مثالية لانزلاق الشاب في خضم ذلك الصراع وأبرزها :

١ ـ البيئة التصورية الرقيقة :

إن البيئة التصورية الضحلة التي عاش فيها الشاب مراحل طفولته وصباه وشبابه ، وحصّل منها رصيده وعدته التصورية ، وشكلت إطاره التصوري ـ كما عكسها خطابه السابق[1] ـ قد شكلت بضمورها ، وعدم قدرتها على استيعاب صحوة الشاب ، والإجابة على التساؤلات التصورية الكبرى التي أثارتها تلك الصحوة الفكرية عاملاً من العوامل التي هيأت المناخ العام الصالح لانزلاق الشاب إلى بؤرة ذلك الصراع .

٢ ـ تراكم التسطّح :

ومن ناحية أخرى ؛ فإن تراكم هذا القش والحطب اليابس من التصورات والرؤى في أعماق الشاب الذهنية والنفسية والروحية ؛ كان يشكل خطرًا داهمًا ، من حيث إنه كان قابلاً لاشتعال حريق مدمر عند تعرضه لأي شرارة قادمة من الخارج ، أو حتى من الداخل ، وبذلك كان هذا الركام من الرؤى والتصورات المسطحة في أفق الشاب عاملاً من العوامل التي أطلقت الصراع وأمدته بالطاقة .

---

(١) انظر الرسائل ١/١٨٩ ـ ١٩٠ ، ٢/٨٥ ـ ٨٦ .

٣ـ التجاوز الخطر :

كان يمكن أن تسير الأمور في حركة أكثر هدوءًا ، وبخطوات أكثر أمنًا لولا حدوث الصحوة الفكرية ، وكان يمكن أن يكون ذلك ؛ لو أن هذه الصحوة تمت في ظلال قدرات فكرية وطبيعة نفسية عادية ، وكان يمكن أن يكون ذلك ؛ لو أن الرصيد التصوري المتراكم في أعماق الشاب كان على درجة من العمق والثراء يستطيع من خلالها استيعاب هذه الصحوة ، والصمود أمام اندفاعها ، والإجابة على تساؤلاتها الكبرى إجابات شافية تتحول بهذه التراكمات إلى قواعد متينة يتكئ إليها الشاب عند تعاطيه مع الآخر وهو في مكانه الحصين الآمن .

لكن الصحوة بمتكآتها قد ولدت واشتدت في حركتها ، والملكات الفكرية ملكات غير عادية في نشاطها كما وكيفًا ، والطبيعة النفسية طبيعة شفافة شديدة الحساسية لا تحتمل استيعاب ما لا تفهمه ولا تعيه وعيًا كاملاً ، وأخيرًا فإن الرصيد التصوري الذي يتكئ إليه الفتى ـ حتى الآن ـ كان أرق من أن يحتمل شيئًا ، وأضيق من أن يتسع لأي شيء من هذا أو يتحاور معه حوار الند للند .

وكان يمكن ـ أيضًا ـ أن يتخذ هذا الصراع طابعًا أخف حدة ، وأقل عنفًا ، لو أنه ظل صراعًا داخليًا يديره الشاب بحرية بينه وبين محيطه الكوني ، وبينه وبين ما انحدر إليه من تصورات ورؤى إدارة تحكم وحوار هادئ ، غير أنه مما أخذ هذا الصراع إلى أوج الحدة أن الشاب قد أحس بكزازة وضيق المنطقة التي يقف عليها ، فتزحزح خطوة إلى الأمام باحثًا عن منطقة أكثر نعومة وانفراجًا ، ولكن العكس هو ما حدث ، ذلك أن هذه الخطوة قد أخذته إلى منطقة أشد حدة وكزازة وضيقًا ، لما تكتظُّ به أرضها ويحجب سماءها من أطر تصورية غريبة مجافية تمامًا للإطار الذي قدم به الشاب من قريته ، وسيقع هو وإطاره التصوري تحت طائلة وابل منها ، ومن وسائلها وآلياتها الخطرة ، حدث هذا ، وحينئذ وجد الشاب نفسه في خضم صراع تصوري بالغ القسوة لا مجال إلى الإفلات منه إذ كان باب الرجعة قد انغلق تمامًا .

هذه الخطوة التي حملت الشاب من مكانه الذي كان يقف على جبهته آمنًا مستقرًا [١] إلى هذا الموقع الشائك الضنك تحققت حينما وقف الشاب على أصابع قدميه ليستشرف ما تحت الأسوار ، فانزلقت به القدم إلى منطقة اشتباك الأطر التصورية [٢] .

---

(١) المصدر نفسه ١٩٢/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣١٣/٢ - ٣١٤ .

عن هذه الاستشرافة التي تجاوز بها موقعه ليقع في معترك صراع الشك هذا ، يتحدث فيقول :

قبل صلاة فجر يوم من أيام القرية كنت أمضي في طريقي - كعادتي - إلى المسجد لأداء الصلاة، كنت في الثامنة عشرة من عمري ، أعرف طريقي ولا أتبين ملامحها المختفية تحت جنح الظلام ، فجأة يصدر صوت من مكان ما في جوف الظلام مرحبًا بي ، دفع إليّ صاحبه بشيء قال عنه : إنه كتاب ، كنت أعرف أهل القرية بأصواتهم ، غير أني لم أعرفه ، إنه غريب ، سألته : من أنت ؟ قال : ستقرأني في هذا الكتاب . اقرأه .

عدت من المسجد ، وقرأت الكتاب .

أوقعني في حالة اضطراب نفسي مؤلمة ، أربكني ؛لأن بضاعتي بضاعة تلقينية هشة ، اضطراب نفسي رهيب ، فلا أنا متحول معه وقابل ما فيه ، ولا أنا باق مع قناعاتي واستقراري النفسي ، هل أهدم ما بناه مسجدي وابن قريتي؟ هل أهدم ما بناه الواعظ؟ هل أهدم ما بناه الميراث ؟ هل أهدم ما بنته أمي؟ سافرت كثيرًا للبحث عن الحقيقة [1] .

ويقول وهو يشخص أسباب أزمته هذه :

((أما ما السبب ؟

فهو أنني تجاوزت مكاني الذي كنت واقفًا على قدمي فوق جبهته آمنًا مستقرًا بما أكسبتني إياه أعوامي من يوم مهدتني أمي طفلاً وهدهدتني وحملتني على صدرها ثم تركتني أمشي مع أقراني أجمع في كيسي الذاتي من بضاعة السوق لحظة لحظة ، كل ما فيها من همسة أو خفقة ، .... وعندما حركت قدمي في اتجاه مفاهيم الآخرين وما خطوه في دفاترهم وما سطروه وما قالوه ، حتى المقدس ، حتى الكامل أنكروه علينا ، فسروا لنا الحياة تفسيرًا ماديًا ، هاجمونا ونحن لا نحمل السلاح عزلاً إلا من فطرتنا وبساطتنا .)) [2] .

تلك - إذن - هي روافد الصراع وموطناته ، وفيها تتغلغل جذور الأزمة ، إطار تصوري رقيق الأسس متصدع البناء ، وتراكمات نفسية وفكرية وروحية قلقة لهذا الإطار ، ومواجهة مع

---

(١) لقاء خاص بتصرف .

(٢) الرسائل ١٩٢/١ .

أطر غريبة مغايرة في عزلة كاملة عن السلاح الفكري والتصوري المعمق التحصين .

ب ـ الشاب في بؤرة صراع الشك :

إن تزحزح الشاب عن موقعه هذا إلى هذه المنطقة التي تختلط فيها الأطر التصورية ؛ في ظل الإطار الذي يحمله بما فيه من تسطح ، وبما له من تراكمات نفسية وروحية وفكرية ، وفي ظل طبيعة الشاب الفكرية والنفسية الخاصة ؛ كان كفيلاً بأن يثير لدى الشاب علامات استفهام كثيرة حول تلك الأسطر التصورية البسيطة التي حصلها الشاب ـ حتى الآن ـ مما انحدر إليه من موروث نقل إليه بأسانيد قوامها واعظ القرية ، ومعلم كتابها ، وتربية البيت البسيطة ، وأحاديث الأم وقصص العجائز .

ولقد محض الشيخ للكشف عن تجربته التصورية هذه رسالة كاملة سماها :

((تَسوُّل لِدَمَعة حَائِرة)) [١] بالإضافة إلى التأكيد عليها في سياق رسائل أخرى .

في بداية هذه الرسالة يتحدث الشيخ عن الأمن النفسي والروحي الذي كان يعيشه في أحضان المتاح من الرصيد التصوري ـ إبان المرحلة الأولى من مراحل حياته التصورية والفكرية (وهي ما سميت هنا بمرحلة التلقي المسطح) وذلك قبل أن يتجاوز مكانه منها ـ ، فيقول :

((ولدي :

ما كنا في أيامنا الأولى نعرف شيئًا اسمه القلق والسأم ، ولا نعرف عقدة أوديب ولا ندري ماذا تعني العيادة النفسية ، لم تخفق الآفات داخل نفوسنا بأجنحتها ولم ينكسر جناح الاستقرار عندنا .. لم تكن أنياب الليث عاضة لاستقرارنا أو مخيفة لسيرنا في أقصى غابته ، أبدًا ، العاصفة هادئة ولا ندريها أو نعرفها إلا من قرآننا الكريم يوم حولت أعاصيرُها النخلات إلى أعجاز خاوية ..)) [٢] .

ثم يشير إلى تزحزحه باتجاه بؤرة الصراع حين بدأ يتلقى ـ وهو في مكانه الهادئ ـ رسائل الآخرين فيقول :

((إلا أن قدرًا لحق بنا على عجل قبل أن ينتهي بنا الطريق فنختفي مع من اختفى وقبل

---

(١) المصدر نفسه : ١٨٧/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٨٧/١ .

أن تتظاهر داخل نفوسنا وخارجها غيوم لم تحمل المياه العذبة بل حملت إلينا مياهًا مالحة كدرة أغرقتنا بطوفانها .)) [١] .

ولشعوره أن هذه التجربة التي يفضي بها إلى متلقيه قد تحدث لدى المتلقي نوعًا من الدهشة لما تتسم به من حدة ، ولما فيها من مباشرة صريحة ، يؤكد أنها تجربة حقيقية عاشها لحظة بلحظة ، واصطلى بنارها كسواه ممن تعرضوا لمثلها فيقول :

((وما ستقرؤه في هذه الرسالة لم يكن خيالاً ولم يكن خبرًا أنقله إليك من مسافر لا أدري كيف أمانته على نقل الأخبار ... ليست قصة من كتاب ألف ليلة وليلة ، لم تكن شهرزاد معللة لك بقصصها ليلة ليلة وصباحًا وراء صباح ... هي تجربة ذاتية لا أستحي من تسجيلها في عصر القلق والسأم ، في عصر العيادات النفسية ، في عصر المعذبين التائهين في فضاء نفوسهم ، العاجزين عن احتمال الضغوط الذاتية .. لا أحد يستحق الشفقة غيرهم .)) [٢] .

وفي إشارة إلى بعض الظروف التي أحاطت بنشوب ذلك الصراع ، وتداعياته النفسية والتصورية ، ودرجة ذلك التداعي يقول :

((ويوم أصابهم العطب النفسي لعلة من العلل ولإحساس مرهف ، ولشرود وراء الحقيقة ولانشطار بين الشيء وضده تعالت في ضمائرهم رقاب الإحساس بالتناقض والانشطار ، فكونت لديهم أمواج هائجة بالاضطراب ، موجة تلاحق أخرى وتطاردها تقفز هذه على رقبة تلك ، وهنا يختل بهذا الإنسان توازنه فيفترش الألم ويلتحفه ، لا قرار له على هذه الأرض ولا جناح له يرفعه عنها ..

تسوّل لدمعة حائرة مهما حاول أن تهبط على نفسه الجريحة فتغسل الجرح ولو لحظة واحدة ، لا تستجيب له ، وإن كانت محدقة في آلامه وفي عذابه من الداخل والخارج ، فالشمس والقمر والنجوم لا تستقبلها نفسه إلا جيوشًا من الهموم والعذاب ومن المخاوف والأوهام..)) [٣] .

ويعود المأزوم إلى التأكيد على معايشته لهذه التجربة القاسية ، وعلى حجمها ، ومعاناته العقلية والنفسية لها ، فيقول :

((ووالدك مر بهذه التجربة القاسية وعاناها أشد المعاناة ، أما كيف فما أطول القصة !

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٨٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٨٨ وانظر ١/٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١/١٨٨ .

وما أكثر تكور العقد فيها ! عذاب أليم أوشك أن يدمر العقل ويبعثر الإرادة ويشعل الحريق . فترة زمنية لو كانت طريقًا معبدة من طرق الصحراء لسار فيها الإنسان سيرًا مضنيًا لا يقطعها إلا وقد هلكت رواحله ومطاياه ، وربما نفسه ..)) [١] .

ويعود مرة أخرى إلى تأكيد واقعية هذه التجربة ، مشيرًا إلى أنه ليس الوحيد الذي تعرض ويتعرض لمثلها ، فيقول :

((لا تظن أنني أخط لك هنا وهمًا أو تحريفًا وتجديفًا على فترة زمنية أملؤها رعبًا وخوفًا لا وجود له ، ولكن لعلمي أنني لست الإنسان الوحيد الذي مر ويمر بهذه التجربة أسجلها لك ، وما أكثر الذين عانوها بالأمس ويعانونها اليوم ، وسيعانونها غدًا ...)) [٢] .

بعد ذلك يصل إلى مباشرة عرض هذه التجربة ؛ بعرض المحيط التصوري الذي تبلورت في داخله حصيلته التصورية،وطبيعة تلك الحصيلة كما وكيفًا ومصدرًا وتقويمًا ، والمرحلة العمرية التي ظل فيها يعيش في أحضان هذا المحيط ؛ ليخلص بعد ذلك إلى عرض الاحتقانات النفسية والروحية التي تشكلت في مصب هذا الواقع من أعماقه [٣] ، ثم ينتقل بعد ذلك العرض إلى عرض الذات في بؤرة الصراع ، أو في منطقة الصراع الحاد التي تلت تحركه من مكانه في خطوة التجاوز الخطرة إلى منطقة اختلاط الأطر التصورية التي تشتبك فيها قطعان الماشية القادمة من القرية القابعة في قلب الصحراء مع قطعان الذئاب القادمة من وراء الأسوار ؛ في أعماق الشاب التصورية والنفسية مشيرًا إلى اختلاط الصور ، وانعدام الرؤية ، واستحكام السواد تحت نقع ذلك الاشتباك بشكل يتعذر معه الوصول إلى الحقيقة فيقول :

((في هذا الجو الذي قطعانه من الماشية إن كانت في سوارح القرية أو الصحراء أو كانت في سوارح النفس .. اختلف الرعاة داخل النفس ، وثغا كل قطيع ، وعوى كل ذئب ، وما بين ثغاء القطيع وعواء الذئب من تناقض بدأت أعراض هذا التناقض تظهر في غيوم متلبدة في سماء النفس عندي ، وهي ليست كغيوم أثارتها رياح رحيمة بأرض عطشى إلى الري .. هي غيوم حجبت القمر ، وأطفأت النجوم ، وفقأت عيني البصر حتى لا تريا الشمس ، فلم يبق

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٨٩ .

(٣) انظر الرسائل ٢/٨٥ - ٨٦ .

غير الليل البهيم ...))[١] .

ويعيد هذا العرض من خلال الإشارة إلى درجة ذلك الصراع وتداعياته الحادة فيقول :

((في تلك الأيام ارتعش كل شيء عندي وانفجر البركان وأوشك العقل أن يذهب مع من ذهبت عقولهم وتاهوا عن أنفسهم .))[٢] .

ولتصوير حجم مصابه ومكانه ، يلجأ الشيخ إلى الموازنة بين تلك الإصابة وبين إصابتين عضويتين مؤلمتين شاهدهما فيقول :

((أذكر أنني مررت في أحد المستشفيات برجل تبتر ساقه ، وآخر تقطع يده فتمنيت لو كانت علتي من هذا النوع الذي يريح حين يبتر مني عضو ، فخسارتي فيه لا تساوي شيئًا بالنسبة لما تموج به نفسي من اضطراب ضد أقدس المقدسات ....))[٣] .

ويعيد عرض ذاته مرة أخرى في بؤرة الصراع من خلال الإشارة إلى طبيعة ذلك الصراع وتداعياته النفسية والتصورية فيقول :

((ولدي :

إن هذه التجربة المريرة أكلت استقراري وأوحشتني حتى من نفسي ومن أقرب المقربين إليّ ، وشككتني في كل شيء وجعلتني في حالة من القلق والعذاب والمعاناة أسعى ليلاً ونهارًا وراء الأمل بالخلاص .))[٤] .

تلك - إذن - هي عين العلة ، إنها علة تصورية قوامها الشك المطلق في كل شيء ؛ شكًا يمد عنقه البشع متطاولاً على أقدس المقدسات وكفى ، وما هذا الاضطراب والقلق والعذاب والمعاناة النفسية والعقلية إلا تداعيات وانعكاسات لهذه العلة .

إنها رعب - هكذا يسمها الشيخ - على الرغم من انسحابها — الآن — من حياته ،وتحولها إلى صفحة عجوز تسكن سجل الذاكرة ، يقول :

((هي صورة لم يستطع حائطي الذاتي أن يحتملها وأن ألصقها عليه ، هي رعب لا أود أن تراه ....))[٥] .

---

(١) الرسائل : ١٩١/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٩٢/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٩١/١ - ١٩٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١٩١/١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٩٢/١ .

ويبدو أن منظر ((الشمطاء)) لا زال يلاحق خياله ، وأن حركتها المزعجة لا تزال تقلق جدار الذاكرة لدى الشيخ ، الأمر الذي جعل من عرضها كما هي على صفحات الرسالة وسيلة تمكنه من الإلقاء ب ((العجوز)) خارج الذاكرة ، واعتقالها في سجلات التاريخ ، فهناك تجد في الأوراق متسعًا لهمهماتها ، وتحركاتها .

ومن نافلة القول إن حدة إحساس الشاب بهذه العلة وبانعكاساتها ؛ إنما تدل على نقاء إنسانيته ، وصحته النفسية والشعورية، فالذين شاب إنسانيتهم النقية ما يعكرها ؛ هم وحدهم الذين لا يعبأون كثيرًا بأمور كهذه ، ومتبلدو الإحساس ؛ هم وحدهم الذين لا يصرخون لأنهم لا يتألمون ، والذين فقدوا شفافية نفوسهم ونقاءها تحت وطأة تراكم الأمراض والعلل ؛ هم وحدهم الذين لا تضطرب نفوسهم ، ولا تقلق ، ولا تعاني الجديد من العلل مهما كان حجمها ، ذلك أنه ((ما لجرح بميت إيلام)) .

ولكن الشاب أخذ هذا الأمر مأخذًا جادًّا ، واعتبره مسألة حياة أو موت ـ وهو كذلك ـ ، ولكن الشاب تألم ، وتعذب ، وتفجر البركان في شعوره ، وصرخ ، ولكن الشاب اضطرب ، وقلق ، وعانى .

وإذا كان الشاب قد وقع في هذه المنطقة عالية التكهرب ، وفي حمّيا هذا الصراع ، فما الخطوة التالية التي عليه أن يقوم بها؟ إنها باختصار:السعي إلى الخلاص من ربقة ذلك الصراع .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما السبيل إلى هذا الخلاص ؟

جـ ـ تجاوز صراع الشك :

إذا كان للشيء بداية ؛ فلا بد أن تكون له نهاية ، وكما بدأ هذا الصراع ؛ كان لا بد أن ينتهي ، وما من شك أن النهاية ستكون جد سعيدة ؛ لأنها حتمًا ستفضي به إلى الحقيقة ، والحقيقة واحدة ، والحقيقة الكاملة لن تكون إلا في أعماق الإطار التصوري المتجذر في أعماق الشاب الفكرية والوجدانية ، ولكنه ــ الآن ــ إطار كامل معمق في أسسه ، متين في تماسكه ، حصين في بنائه ، ثري في مادته ، متناسبٌ بذلك مع ما بذله الرجل في سبيل رمّه وجليه من جهد ، وما خاضه من صراع قاس ، وبذلك يتجاوز المأزوم أزمته ويخمد البركان .

يقول الشيخ في الرسالة نفسها عن تحقق هذا التجاوز ووسيلته :

((قد تسأل : كيف تخلّص والدي من هذا العذاب الذي عاناه في قريته سنوات عدة ؟ وهو سؤال ليتني أستطيع أن أجمع لك فيه أطراف الجواب عليه ولكن طرفًا آخر بعيد قد لا ألحق به مهما أردت ذلك . شيء واحد أعاد لي صحتي النفسية هو إيماني المطلق با لله واعتمادي عليه وإسنادي إرادتي - التي ارتعشت - إلى الإيمان بالقضاء والقدر ، وفي هذه العودة من بعد غياب عن هذا الإيمان عادت إليّ صحتي وعاد إليَّ استقراري وهانت عليَّ مصائب الحياة وذلت لي فطرة جمحت وأوشكت أن تضل الطريق القويم .)) [١] .

هكذا أفلت الرجل من ربقة منطقة الصراع الحاد بعد أن وصل إلى الحقيقة ، واتكأ على عاتقها ، ففتحت له باب العودة على مصراعيه ، فدلفه في شوق ولهفة ، وعاد الغائب إلى أهله ، وتجاوز التجربة المرة في كل شيء إلا في ثمرتها ، تلك التجربة التي يركزها الشيخ في قوله :

((ولدي :

في رسالة سابقة حاولت أن آخذك معي في الصورة التي طال بي الوقت وأنا أتخبط في البحث عنها بين الشك واليقين ، بين الهجران والوصال ؟ ظللت فترة طويلة أعوم في بحر من الشك ومن الرفض والقبول ، وأسير خلف مطايا التاريخ التي حملت إلينا أسفاره وأحداثه وعبره ، كلما ألختها على باب وعيي وتفكيري عضتني بأنيابها الحادة وملأت بيتي ضجيجًا ورغاء . وأخيرًا قاطعتها وهاجرت عن مباركها إلى أحداث غار حراء وبطحاء مكة وأودية يثرب ، وهناك وضعت كل جهدي في تحري الحقيقة والتعرف عليها في يومها الأول فأرتينها المثابرة على حب النهج القويم ، أرتنيها في الإنسان العربي البسيط وهو يتدافع على أبواب الحقيقة التي فتحت بابها له في الكهف الهاجع في جبل من جبال مكة .

رأيت نظام القبيلة وخصائص إنسان القبيلة تتألق في أعماقها إشراقة الروح والوحدة وسرت إلى نفسي الجائعة إلى المعنى مطايا البادية وهي تتدافع حاملة فوق ظهورها الخصب الذاتي وفضائل الصحراء . رأيتها تنيخ مطاياها في بطحاء مكة وأرض يثرب حاملة إليها مكارم الأخلاق وشمائل العرب وفضائلهم ، أطربها صوت الهادي وشهادته لها حين قال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق [٢] ")) [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ١/١٩٣ .

(٢) أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/٥٩ .

(٣) الرسائل : ٢/٢٧٧ - ٢٧٨ . وانظر إشارات أخرى إلى التجربة ٢/٣٣٥ - ٣٣٦ .

هكذا - إذن ــ تجاوز حيرته ، وانحسمت أزمته ، وعاد إليه استقراره وأمنه الروحي والنفسي والعقلي ؛ حين غاد إلى إطاره التصوري ؛ عودة تتكئ على الإيمان المطلق با لله تعالى والاعتماد عليه ، والاستناد إلى قضائه وقدره ، وعلى هجرة واعية إلى غار حراء وبطحاء مكة وأودية طيبة وهاديها وإنسانها كما هي في يومها الأول [1] .

الثاني : صراع التساؤلات :

إذا كان الرجل قد تجاوز صراع الشك الذي شغل مرحلة من مراحل حياته التصورية وأودعه أوراق الذكريات ؛ فإن صراعًا من نوع آخر قد ثار في هذا الجانب من حياته ، ولا زال يشكل لدى الشيخ مصدر إزعاج وقلق ، ولكنه - على أي حال ــ أقل وطأة وأخف حدة وخطورة من صراع الشك .

لقد كان صراع الشك يتكئ على ضياع الحقائق الكبرى التي ينبني عليها كل شيء في حياة الإنسان بين أكوام من الرؤى والتصورات ، وكان لذلك في أعماق الشاب صراع ومعاناة تتناسب في حجمها مع حجم الحقائق الضائعة أو القلقة في عينه ، لكن الحقيقة قد تجلت ، فخمدت بذلك نيران ذلك الصراع الحادّ ، أما اليوم فإن الصراع لا يثيره اضطراب الرؤية إلى هذه الحقائق ، ولكنه صراع مصدره طموح الرجل إلى اقتحام الكونيات ، وما وراءها اقتحامًا يزيح أكبر قدر من الأستار المضروبة حولها ، سعيًا إلى تحقيق معرفة كونية أعمق .

إن ذلك الصراع هو ما يمكن أن يسمى ((صراع التساؤلات)) .

وقبل الاتجاه إلى رصد خطاب الشيخ في هذا السياق واستجلاء آفاقه ؛ يحسن الانعطاف قليلا لرصد ثلاث إشارات يسوقها الشيخ ليبين من خلالها انحسام القضايا الأساسية التي تثور حولها التساؤلات في نظره ، وثبات الخط التصوري العام الذي يحدد موقفه من الحقائق الكونية وما وراءها ، واستقامة ذلك الخط ووضوحه في عينه ؛ حتى وهو في بؤرة أزمة التساؤلات هذه ؛ بما يزيل عن منحاه التصوري في هذا السياق أي لبس قد يبدو للمتلقي .

يقول بعد إثارة سيل من هذه التساؤلات في رسالة بعنوان : ((لم يلق الجواب الذي لا خلاف عليه)) [2] :

---

(١) انظر الرسائل ٢/٢٦١ .

(٢) الرسائل : ١/٢٥١ .

((ولدي :

لا تظن بي الظنون ! فمصلاي لم يسقط ولم يتهدم حائطه ، ....))[(١)] .

فالعقيدة راسخة ، وحبل الوصل موصول .

ويقول في مكان آخر في ذات السياق : ((إذا سامرتني نجوم السماء وكواكبها وأفلت رؤاي لا أقول عنها إنها هي الآفلة ، لا أقول لما لم أره وما لم أحسه وما لم أشعر به إنه غير موجود ، فنفي الصغير للكبير ونكرانه له حماقة من حماقات العقل . أفي ضوء النهار وشموسه وأقماره وكواكبه هاديات لنا أم فيها كبرياء العبث وغروره ؟ إذا تساءلت فليس لأني أخلط بين الحقيقة والوهم ، الحقيقة هنا بينة لا تخطئها البصيرة الواعية ، فالصدف لا توجد نظامًا كونيًّا واسعًا ، لو ركب إليه الإنسان على أجنحة ضوئية وسافر فيه ملايين السنين لما قطع شبرًا من سعته . أيمكن لي أن أجهل قدري وأن أدفن نفسي في رمال هذا الكون وأقول له : لا حقيقة غير أتربتك وصخورك وشموسك الكونية ؟ وإننا من مواليد العبث ؟ لو قلت هذا فما معنى الحياة فينا وفي كل شيء ؟ ما معنى الخفقات الروحية والعاطفية ؟ ما معنى الحب ؟ ما معنى الجمال والقبح ؟ ما معنى الهاديات فينا والمضلات ؟ ما معنى هذا التناقض والتزاوج ؟ ما معنى العلم واكتشافاته ؟ كل شيء يسقط في جوف العدم والبوار لو قبلنا هذا .))[(٢)] .

فالحقيقة واضحة ـ إذن ـ لا غبار عليها ، والتساؤل ؛ تساؤل تعميق معرفي ووجداني ؛ لا تساؤل شك .

ويقول في واقعه الحاضر وحركته إزاء وساوس النفس الإنسانية فيه وشكوكها وتساؤلاتها الحائرة :

((ولدي :

أنا في عفوية الرجل البسيط أفترش عفويتي وألتحفها ولي فيها ملاذ عن شياطين النفس وأبالستها ، وإذا ألحت عليّ هذه الشياطين واقتحمت عليّ فراشي وقالت لي موسوسة ، إن الحقيقة قالت لك عنا إن كيدنا ضعيف ، إذا كان هذا فلماذا تخشانا ولماذا تلعننا وتذمنا وتسقط علينا ذنوبك ؟ أنحن الذين أوجدنا الحياة وأتبعناها الفناء ؟ أنحن الذين خلقنا الجهل والمرض والجوع ؟ أنحن الذين فجرنا أو نفجر فيكم كوارث الطبيعة ؟ أنحن الذين نخلق الحروب ونسيل

---

(١) الرسائل : ٢٥٤/١ وانظر ٧٢/٢ ـ ٧٣ ، ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٠٦/١ ـ ٣٠٧ .

الدماء أنهارًا ؟ أنحن الذين نحرق الحياة في الإنسان ونغرق الأطفال ونوجد القلق والسأم فيكم ؟ أكلما شكوتم من هذه الآفات التي تنزل بكم وتذل آدميتكم رجمتمونا وحملتمونا أخطاء هذه الحياة التي لم تعجبكم ولم تستطيعوا أن تكشفوا سرها وغموضها ؟ .... نعم ولدي : هذه الوسوسة الشيطانية أرفضها ، بكل إيماني ويقيني الذي رسخ داخل وجداني وأخذته مأخذًا روحيًا عميقًا من ممليات هذا الكون وشواهده وبراهينه الناطقة بالصوت الحاني داخل النفس .)) [(١)] .

فقضايا العقيدة في الذات وفي الكون وفيما وراء الكون محسومة سلفًا على محك تصوريّ إسلاميّ متين ، وهذا الصراع الذي نحن بصدد رصده - في مثيره ودوافعه ومشاهده ، وفي حركة الشيخ في خضمه - ليس صراع شك ؛ فقد انتهى زمن الشك في فترة مبكرة من حياة الرجل ، واستقر به الأمر مطمئنًا ما بين غار حراء وبطحاء مكة وأودية طيبة كما رأينا ، ولكن الصراع هنا ؛ صراع بحث ؛ يهدف إلى تكوين وعي تصوري أعمق ، واتصال وجداني أمتن .

والآن ، فإن عودة إلى خط صراع التساؤلات هذا لتتبع الإشارات المنثورة عليه تكشف أن الخطاب قد انصرف فيه إلى رصد عامل إثارته في أعماق الشيخ، ودوافعه،ومشاهد عديدة منه، وحركة الشيخ في خضمه، جاليًا مع ذلك كله عن أبعاده وتداعياته النفسية، فإلى تفاصيل ذلك :

أ- عامل إثارة الصراع :

يتمحور هذا العنصر في الإدهاش الكوني ؛ إذ يشكل الكون بوجهيه ، وبحقائقه الكبرى ، وبما يحيط بهذه الحقائق ، وما وراءه ، وبما في ذلك - كله - من غموض مدهش لا ينجلي للحواس أبدًا ، وبواقع الذات مع هذا - كله - ضاغطًا خارجيًا لا يزال يستفز النفس الحساسة لدى الشيخ ، ويستحثها على محاولة اقتحام ذلك الغموض ، للتعرف على ما وراء أستاره ، مع المعرفة المسبقة بأنه جهد مكتوب في الفراغ.

يشير الشيخ إلى ذلك، وإلى حضوره في رسائله وهدفه قائلاً:

((ولدي :

في كثير من رسائلي حطبت لك من وادي " أُشَيّ " [(٢)] أعوادًا يابسة ، وأوراقًا ذابلة

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٢) ورد في معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، ١/٢٠٣ "((أُشَيٌّ : موضع بالوشم ؛ والوشم : واد باليمامة فيه نخل)) .

فأحراش الوادي جف اخضرارها يوم جفت من عيون السحب قطراتها ، ووادٍ تجافت عنه سحب السماء من أين له أن يربع ؟

ووادي النفس ووادي حنيفة يتساويان في الرمز ، هذا فاتح فاه وسط الصخور والجبال يستسقي الغيث ، وذاك فاتح فاه مشدوهًا ما بين وادي الجبل وأودية الكون ، يحمل أعسر الأقدام في ذهنه ، يحاول أن يخوض بها في مياه المشكلة ويبحر إليها على قدم سليمة ، فلم يستو في خطاه ، فعاقه عن الحركة في اتجاه الهدف مسار لا يرى مدخله ليرى مخرجه ..!)) [١] .

فالحقائق الكونية بغموضها تشكل عنصرضغط عنيف على الملكات الفكرية والعقلية لدى الرجل، مما يستفزها ويحملها على الحركة ، لكسر حدة ذلك الضغط الواقع عليها ، من خلال تحقيق توغل استكشافي في أعماق ذلك الغموض الذي يتأبى على الاختراق ؛ فينشأ عندها صراع تساؤلات على درجة عالية من النشاط .

ب ـ الدوافع الذاتية إلى خوض الصراع :

مجموعة من الإشارات يسوقها الشيخ في هذا السياق ، ليكشف بها عن تعمده الانخراط في تيار التساؤلات هذا ، ومضيه معه إلى أبعد حد ، على الرغم من انحسام القضايا الكبرى في صلبها ابتداء ، وعلى الرغم ـ أيضًا ـ من قناعته بتواضع منجزات حركته في هذا المسار قياسًا إلى طموحاتها ، وفي هذا النطاق يرصد خطابه الدوافع أو المقاصد التالية :

١ ـ بناء وعي تصوري راسخ :

إن سعي الشيخ إلى تحقيق وعي تصوري حصين ، يتسم بالسعة والعافية والعمق ، ويتكئ على رصيد معرفي أعمق وأكثر خصوبة ؛ هو دافع يثيره من الخلف ، وهدف يحدوه من الأمام إلى خوض غمار التساؤل مهما كان الثمن .

يرصد ذاته في بؤرة هذا الصراع ، ويبرر انخراطه فيه ، ويكشف عن غايته أو دافعه هذا فيقول :

((جدل غاضب ومنفعل يعضّ كل ساكن عندي بل قد يتخطى ذلك إلى حافة الجنون ، وإذا جننت من أجل الحقيقة أأكون قد أفرغت عقلي وشعوري وإيماني في الفراغ أم أن لي من طلب الحقيقة شفيعًا يغفر لي خطئي ويصعد أنفاسي إلى فضاء لا تختنق فيه ؟ ويرفعني من الكساح في المقعد الوعر على جناح لا تهيضه بنادق الرماة ولا تكل قوادمه من الطيران ؟

---

(١) الرسائل ١/٢٥١ .

أعتقد ذلك مهما أسرفت في التساؤلات ، ومهما شطحت بي هذه على جنبات الوادي الذي لا أشجار فيه تظللني أو علامات تهديني .)) [١] . ذلك أنّي ((... أؤمن بأن في السؤال المعافى في صحته الأمان من أوهام النفس وأشباح الطريق .)) [٢] .

٢ ـ الرغبة في تجاوز الواقع الحائر :

إذا كان الإدهاش الكوني ـ بما يتولد عنه من استفهامات معرفية ـ قد أوقع الشيخ في براثن الحيرة التفسيرية والهموم ، وإذا كانت ذات اليد أفقر من استيعاب هذه الاستفهامات الباحثة ، وإذا كانت طبيعته الإنسانية الحساسة تأبى عليه إلا أن يبقى ـ أبدًا ـ في مصب هذه التساؤلات ، فإن مواجهة الأزمة بشجاعة ؛ من خلال استقبال هذه التساؤلات ؛ والاشتباك معها ؛ وتصعيد الأزمة إلى أوجها ، ومن ثم حفر الأنفاق في كل شيء للبحث عما يروي عطشها المعرفي ؛ يشكل السبيل الوحيد لتجاوز هذه الحيرة ، وتلك المعاناة ، يقول :

((كلما أظلت سماء نفسي الغيوم ، كلما أرعدت وأبرقت مشيت إليك على أصابع القدمين ، وما أقصر الخطو وأكثره حذرًا من آفات الطريق ! أنحن الذين نصنع الهموم ونستقبلها في بيتنا الذاتي ؟ أم أنها قراصنة رسالتها أن تسرق سعادة الإنسان ؟ لا أفهم شيئًا ولكني أحاول أن أهرب بنفسي كل الهرب عن الطريق المحيِّر ، فما قبلت نفسي أن تقف في صفوف الحائرين من البشر لأن الحيرة صوت إذا نعق أفزعني وهرولت أبحث عن الحقيقة ، عن المعاناة من أجلها لأني لا أجد شيئًا يعوضني عنها أو ينفيها من قلبي .)) [٣] .

((... فالأحجار والطين والرمال أأتهمهم وحدهم بأنهم هم الجماد الذي لا إحساس له ولا نبض في قلبه ولا حياة ؟ لا أدري ، أحار في اليقين فأتجاوز ما لم يكن لي عليه برهان مشرق كشروق الشمس ، فشهادتي قد تكون شهادة زور إذا لم تأت كرابعة النهار . أرقي وقلقي في انتظار الحلم الجميل أيقظني على مأساة نفسية وخلقية إذا لم أحفر النفق وإن تجاوز ميراثي ، فهذا الميراث كثيرًا ما ردم النفق وأبقانا حاشية رديئة على بابه نلهو ونلعب مثلما يلعب أطفالنا الصغار بحلمات يظنونها ثدي الأم يرضعونها بشره وجوع ، ولكنها رقع جافة لا وجود لحياة فيها ولا شراب يروي الطفل الرضيع .)) [٤] .

---

(١) المصدر نفسه : ٧٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٨٧/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٠٥/١ ـ ٣٠٦ وانظر ٢٥٥/١ .

(٤) المصدر نفسه : ١٤٨/٢ وانظر ٣٦١/١ ، ٣٤٤/٢ .

وإذن ـ فرغبة الشيخ في تجاوز أزمته التي جلبتها عليه حيرته الإنسانية في مواجهة معتمات هذا الكون هي التي تدفعه ـ الآن ـ إلى استقبال التساؤلات ، وحفر الأنفاق في كل مكان بحثًا عما يروي ظمأها .

٣ ـ تعميق اليقين :

إن هذا السعي الحثيث إلى حفر الأنفاق في الذات وخارجها ، وفي علاقة هذه بتلك لتحقيق عمق معرفي أفضل ؛ إنما يستهدف في نهاية المطاف تعميق الإيمان با لله تعالى ، ورفع أرصدة اليقين في أعماق الذات ، في زمن تفجرت فيه العلوم وماجت بما لم يخطر على بال بشر ، ولم يعد متاحًا للمرء في ظل هذا الفيض المعرفي المتغطرس أن يجد طمأنينته وأمنه النفسي والروحي في إطار " إيمان العجائز " ، يقول :

((فالبعيد الذي يتقاصر عنه بصر عيَنيْ السرعة الضوئية هو الذي حنى رقبتي وهامتي في ذلة وخضوع واعتراف بالعجز عن تصوره أو تشكله في ذهني أقدسه وأعبده وأسجد له في محراب كونه العظيم أستجدي رحمته وعفوه ، فقلبي يوم يخفق بألفاظ الحب والتعظيم وينطق بها في لغة معبرة في تساؤلاتها عن كل خفقة من خفقات هذا الكون ، ألا ترى أنه نوع من المحاولة ومن العبادة التي يشدنا العلم إليها اليوم وإن كان باغيًا في جماجم أكثر من حملوه ، وإن كان متعاليًا على قدره وعلى إيمان العجائز التي آمنت وكان إيمانها أمنية للرجل العظيم ... !))[1] .

هكذا كان تعميق اليقين ، بما يدرأ عنه المخاطر ، ويجعله في حصانة كاملة عند خوض عراك التساؤلات هدف دافع يحمل الرجل على المضي في تيار التساؤلات البحثية ، واحتمال معاناة الصراع .

٤ ـ الشعور بالمسئولية الكونية :

وشعور الرجل بأن الاشتباك مع إطاره الكوني بوجهيه اشتباك تساؤل وحوار وتفكر جزء من الوفاء بمسئولياته الكونية المتمثلة في الأمانة التي أوكل إليه القيام بها ، ورعايتها في هذه الحياة باعتباره الإنساني ؛ جعله لا يقف عند حد التلقي السلبي الخامل لهذه التساؤلات ؛ بل يتجاوز ذلك إلى اقتحام مطارح التساؤلات في الذات ، وفي الإنسان ، وفي الكون ، في الغيب ، والشهادة ، ليثيرها أينما كانت سعيًا إلى معرفة حدود هذه الأمانة ، للقيام بها كما يجب .

يقول في معرض حديثه عن الأمانة التي جاء الإنسان إلى هنا لرعايتها :

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥٦/١ .

((ولأني عاجز كل العجز عن تصور أبعاد هذه الأمانة وهذه المسئولية الكبرى التي وضعت على كاهل الإنسان سأمشي بعيدًا أطرح السؤال وراء السؤال وأثيره أينما وجدته منطرحًا في الإنسان أو الكون ، ما قربته الحواس وأدنته ، وما لحقت الروح بروائحه الزكية في البعيد الذي لا تلحق به الحواس ، ويقيني أن هذا من أدنى المراتب لحمل الأمانة التي لم يحتمل عقلي وتفكيري ولا تصوري للمسئولية العظمى أنها من نوع هذا التسيب في تفكيرنا وفي وعينا للأشياء .)) [1] .

٥ ـ تجنب الموت الشعوري :

وشعور الشيخ بأن الإبقاء على الذات ـ بعناصرها الفكرية والوجدانية ـ في مهب سموم هذه التساؤلات الخارجية من ناحية ، والإبقاء عليها تصطلي في حميّا تساؤلاتها الداخلية من ناحية أخرى ؛ إنما يمثل رافدًا من روافد نمو واستدامة الإيمان الحي المثمر ، وتجاوزًا دائمًا بهذه الذات عن الوقوع في السكون أو التحجر ؛ دافع آخر من دوافع تعاطيه مع هذه التساؤلات مهما كانت مؤلمة للنفس .

يقول في معرض تبريره لانغماسه في نهر التساؤلات هذا :

((ولدي :

لا تظن بي الظنون ! فمصلاي لم يسقط ولم يتهدم حائطه ، فارق كبير بين تهدم حيطان النفس وبين محراب قبلته خارج دائرة هذا الكون وحيطانه وأتربته وصخوره ، فالجسد الترابي إذا مشينا عليه وحرثناه وأطلقنا رياح السموم عليه حتى يشتوي لا ينقص ذلك من إيماننا بل يمده بالحياة أكثر ويدفع به في جدل كوني محاورًا فينا وفيما حولنا الرتابة وبلادة الحس ... فإيمان لا يحمله على أكتافه جدل وحوار وتساؤل وذهاب إلى البعيد ومجيء منه على جناح لا يمل الخفقان والعلو إلى فوق لا يُثاب عليه حجر ساكن جالس القرفصاء في مستنقع الذات !)) [2] .

كان هذا ما كشف عنه الشيخ من دوافع ومقاصد تحمله على اقتحام معترك التساؤلات ، وخوض الصراع النفسي والفكري معها ، واحتمال المعاناة والآلام من أجلها .

جـ ـ صور من ميادين الصراع :

انصرف جلّ خطاب الشيخ في هذا السياق إلى رصد وتصوير واستيعاب مشاهد من ذلك

---

(١) المصدر نفسه : ٣٣٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٤/١ ـ ٢٥٥ .

الصراع ذي الطابع التأملي - الفلسفي مرة ، والفكري أخرى ، والروحي والوجداني أخيرة - وتداعياته الفكرية والوجدانية في اللحظات الحرجة التي تكون فيها الذات في حمّيا الصراع إبّان لحظات اشتباكها التساؤلي والروحي مع إطارها الكوني ، ومع ما وراءه ، سعيًا إلى تحقيق توغل معرفي وروحي ووجداني أعمق ، في الذات ، ووظيفتها ، ودورها في إطارها الكوني ، وعلاقتها به وبما وراءه .

لقد تعددت - في الرسالة - المشاهد التي تبدو فيها الذات غارقة في أعماق الصراع ، وتعددت كذلك المحاور التي دار فيها ذلك الاشتباك ، وفيمايلي رصد هذه المشاهد في محاورها التي عكسها خطاب الشيخ .

الأول : في الذات والزمن وبداية قصتها مع الحياة :

تأتي عدة إشارات مطولة لتستوعب حركة الذات في مواجهتها لرحلتها من الماضي البعيد إلى المستقبل البعيد ، وهي تحاول تتبع مراحل هذه الرحلة التي قطعتها وتقطعها ، ما بين منحدرها الأول والعودة إليه ، في تساؤل ، وحنين ، وألم ، يقول في رسالته : ((من تقاصرت على الدرب الطويل خطاه أيمكن أن يصل ؟)) [(١)] ، وهو يثير التساؤلات حول درب الرحلة ، وحول واقعه القدري معها :

((ومن تقاصرت على الدرب الطويل خطاه أيمكن له أن يصل ؟ أنسأل الماضي كل الماضي في رتابة سيره ؟ وهل إذا سألناه يسعمنا الجواب ؟ وهل نحن معه ومنه الآن فنصغي إليه ؟ أم أنه في سيره بطيء تثاقلت به الخطى فبرك في أثناء الطريق مثخنًا لا تحمله إلينا أخفافه البالية ؟ أتحسس في تصوراتي لونه ومن أي مكان انحدر وإلى أي اتجاه يسير ؟ أأنا فيه بوعيي أم خارج عنه في العراء ؟ ذراع الوعي عندي قصيرة لا تستطيع الامتداد فتقيس الزمن في سعته .)) [(٢)] .

ثم يمضي إلى محاولة تحسس مكانه ، ووزنه الكوني على هذا الدرب الزماني الطويل فيقول :

((أرتني الذكرى مكاني من الزمن فإذا هو كمفحص قطاة ، فقدّرت هذا الحجم ووزنته لأنه كتابي مدعو أن أقرأه لك أو أهجس به في هذه الرسالة ، فالكتب الزمنية وما خطته يستعصي عليّ خطها ، لا أستطيع قراءته ، ولكني أتصور أني حرف من حروفه لا أختلف عنه إلا في الملامح واللون ، ....)) [(٣)] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٣٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٤٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٣٤٢ .

ثـم يمضـي إلى تسجيـل هواجسـه عـن بدايــة رحلتـه علـى هـذه الأرض ، ودوره فيهـا ، وقدره معها منذ اللحظـة الأولـى الـتي خطـه القـدر فيهـا تـحت جنـح الظلام ــ في زمـان مجهـول وفي مكان أيضًــا مجهول ـ خيطا في واد ما ، ليستقر في بحر الظلمة العميق ، في أحشـاء الصدفـة ، مرورًا بمغادرته لذلك الوادي ولذلك البحر ولتلك الصدفة وخروجه ـ الذي لا يعي عنه شيئًا ـ إلى هذه الحياة ، ووصولاً إلى مرحلة الوعي فيقول :

((في واد من أودية البطون الزمنية خطَّـني القـدر خيطـا رفيعًـا في جنـح الظـلام فلـم أدر مكاني ولم أعِ زماني ، وفي قاع بحر الظلمة العميق ظللت نزيلاً في قلب الصدفة ويـد القـدر تخـط حظوظي ، سعادتي وفشـلي ، صحـتي وسـقمي ، لونـي ، طـولي ، قصـري ، فكـري ، جهـالتي ، والخيط ينمو في انتظار الإذن له بمغادرة البيت المضياف . وعندما أذن له بذلك خرجت وذاكرتـي عن سماع هذا الأذن مفقودة وتصوري هو الآخر عن لون الشفق في مطلع رحيلي من الصدفة ، لا أعي لونه ولا أعرف من استقبلني ، هل حياني أم صرف وجهه عني ؟ من قبلـني أو صفعـني علـى قفاي ؟

كل شيء مجهـول عندي لا تعيــه ذاكرتـي ولا أحـد يقـرؤه داخــل نفسـي ، كـل شـيء صـامت وساكن ، وعرقي الذي تسلل من التربة جامدة ذاكرته ووعيه لم يستيقظ الجامد فيه إلا شيئًا فشيئًا وفي حركة بطيئة أيقظتها في ذاته أصوات العائلة .)) [(١)] .

وحين يستقيظ الوعي من غيبوبته ؛ فإنه لا يستيقظ إلا من خلال خطـوط القـدر ، وحـين يحاول المسافر في خطوط القدر أن يفهم القصة من أولها يتعذر عليه ذلك ، مع أنها بكاملهـا ترقـد في مكـان ما من هذه الذات ، وما بـدا مـن القصـة ووعـاه المسـافر مخيـف قـابض للنفس لا يثير التفاؤل : يقول :

((وفي تثاؤب العرق الترابي بدأت تتضح ملامح قصتي التي خطها لي القـدر وأنـا مسـتلق على قفاي أو على وجهي لا أدري شيئًا ولا أعي دوري ، وما بدا من القصة وتحرك عندي لم أقـرأ فيه ما يعجبني مرآه أو يلذ مذاقه.أقرأتني القصة أشياء مخيفة وقابضة للنفس وقاتلةللتفاؤل عسر في عيني أن تقرأ كامل القصة فقد توارت في مكان أحس وجودها فيه ، ولكني لا أسـتطيع أن أقبـض على كل ما هو موجود في داخلي أو في قصتي،بعيد وبعيد جدًا المسير إليه أو اللحاق به)) [(٢)] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٤٣ .

وعند هذا ينعطف الشيخ ليؤطر تلك التساؤلات في قوله :

((ما كان هذا مني قلقًا شككني في الحقيقة ولكنه تساؤل أفضى بي إلى اليقين .)) [١] .

وإذا كان هذا الخطاب قد استوعب وصوّر مشهد اشتباك الذات مع نفسها وواقعها ومع قدرها ومع دربها الزمني من خلال حديث النفس التأملي هذا ، فإن هناك إشارات أخرى استوعبت انطلاقات الشيخ إلى الجزء المغيب في الماضي وفي المستقبل من هذه الرحلة ، وهو يحاول أن يخوض بخياله ـ في حنين الغائب إلى وطنه القديم ـ في تيار الماضي ، للعودة إلى المنازل الأولى التي غادرها مع أبيه الأول في رحلة الهبوط [٢] ، أو ما يسميه الشيخ " منازل الأحلام الجميلة " [٣] التي جعلها عنوانًا للجزء الثاني والأخير من هذا المؤلَّف ، كما تصوره وهو يحاول أن يخوض بخياله ـ أيضًا ـ تيار المستقبل الذي سيفضي به في نهاية هذه المرحلة من الرحلة إلى تلك المنازل ، حيث تلتحم دائرة الزمن ، وتنتهي الرحلة ، ويعود المهاجر إلى وطنه عودة مؤزرة بالانتصار في معركته مع الحياة [٤] .

الثاني : في الذات وسلوكها وقدرها مع الحياة والموت :

في هذا المحور تبرز عدة إشارات لستوعب تساؤلات الذات ، وحركتها وهي تحاول اقتحام حقيقة الإنسان فيها ، وفي قدرها ، وسلوكها ، ومسيرتها مع الحياة والموت ، يقول :

((ولدي :

يوم كنا صبية صغارًا نأخذ بنادق الصيد ، نخاتل بين الأشجار والنخيل حمامة الدوح وهي تغني على الأغصان ثم نقتل اللحن الجميل وتسقط ذبيحة في يد الرامي فلا تملأ كفه الطفولي ، أتراها سدت جوعه أم أرضت دمويته ؟ ذكريات تملي هنا من الفم الطفل صورًا هي الأخرى طفولية . كيف لي أن أضع الميزان على عاتق السنين الطويلة فتدلي بشهادتها هنا أنني كبرت ؟ أنني تجاوزت سن الطفولة .

هذا الذي يحيرني ، ما معنى الرشد وما معنى الهرم ؟ أليست الطفولة والهرم قدمًا واحدة مشى عليها الإنسان من المهد إلى اللحد ؟ والمسيرة أو السير ، كم أقعدتني على قارعة الطريق

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤٤/٢ .

(٢) انظر الرسائل ١٤٧/٢ - ١٤٨ ، ١٨٧ .

(٣) المصدر نفسه : ١٤٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٧٤/٢ .

أرقب زحامها وهي تتدافع أمام خاطري موجة موجة ، ثم تأخذني الرغبة الشديدة أن أسير معها ولكني أتوقف لأتساءل إلى أين نحن ذاهبون ؟ فيأتي الجواب من كل فم أن لا أدري ، فأحار أأبقى في مكاني أم أعود من حيث بدأت المسيرة ؟ أتركت هدفها وراءها أم لا تزال في طريقها إليه ؟))[١] .

ويباشر الخطاب ذلك بوضوح في مثل قوله : ((... إذًا ما الموت ؟ ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟

أسئلة اقتحمت علينا في آخر العمر ملاذنا الذي لاذت به فطرتنا وحركت رياحها الهوج كل ساكن فينا .)) [٢] .

الثالث : في الذات في سياقها الكوني العام :

وفي هذا المحور يبدو الشيخ غارقًا في تساؤلاته الكونية التي أعيت إجاباتها الإنسانية عبر تاريخها الطويل ، وفي الحيرة التي تتملكه إزاء واقعه في سياقه الكوني العام ، والحركة التي ينبغي عليه اتخاذها تجاه هذا الواقع ، وعزمه على مواصلة خوض معركة التساؤلات هذه إلى النهاية مهما كان الثمن ، يقول :

((لا أتبين في مقعدي هذا مع رسالتي هذه الجواب على تساؤلاتي ، فكل سؤال طرح وجواب تعجل عليه في تاريخ الإنسان كالذي تطرحه حيرتي على ذهني وتُسائله ماذا عنده ؟ وماذا يرى ؟ وما هي علاقته بهذا العالم ؟ وما هي نظرته إليه وإلى هذا الكون ؟ لم يلق الجواب الذي لا خلاف عليه ...! كل سؤال أو جواب تقابلا على الطريق العام قياسه قياس قدم سائله والمجيب عليه . وهنا أقيس أعماقي وأزن حجمي وسط الأعماق البعيدة والأحجام الكبيرة فتذهلني الرؤية ولا أدري ماذا أفعل ؟ أأشد رباط كيسي الترابي وألقي به حجرًا مع الأحجار في منفاها ؟ أم أفتح فم الكيس لستقبل الخطأ والصواب والشك واليقين ؟ ... وعندئذ أعدو عدو جواد امرئ القيس؟ ...في تقديري أن هذه تجربة قاسية لا بد من ركوب حصانه إليها،...)) [٣] .

ولذلك ظل الرجل مسافرًا سفر تساؤلات عميق وراء هذا الكون ، بعناصره المحسوسة والمغيبة ، يثير الحوار بينه وبين الحياة والموت والإنسان والكون ، محاولاً من خلال ذلك أن يكرس في أعماقه اليقين ، وأن ينفي منها ما يخدش ذلك [٤] .

---

(١) الرسائل : ٣٩٧/٢ - ٣٩٨ ، وانظر ٢٥٣/١ ، ٧٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٣/٢ - ٥٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٢/١ - ٢٥٣ وانظر ٢٥٤/١ .

(٤) انظر الرسائل : ٢٥٤/١ - ٢٥٥ .

الرابع : في الذات والحقيقة الكبرى :

وفي " رسالة لاهثة "[١] يأتي الخطاب ليرصد حركة الشيخ على أبواب الخالق عز وجل ، حيث تشكل الرغبة في تمتين العلاقة به دافعًا لاقتحام تيار التساؤلات ، والإصرار على البقاء فيه على ما فيه من قلق ومعاناة .

في هذه الرسالة يبدو الشيخ ـ وقد حلق على جناح وجداني قوي ـ يحوم بروحه حول باب ربه ـ عز وجل ـ ، وهو يناديه نداء المخلوق لخالقه ضارعًا إليه أن يستوعب في سعة رحمته وكرمه حركته الإنسانية إلى تيار التساؤلات والاندفاع معه ، وأن يحضن في هدايته تلك الحركة التي لا تعني إلا إلحاح المخلوق في الوصول إلى أقرب مكان من خالقه من خلال بصيرة عامرة ، يقول :

((يا إلهي ، أناديك بهذا النداء الذي لقنتني إياه الكلمة وألصقته في ذهني إشارة إليك تعاليم المصلح والفقيه وعجائز البيوت وشيوخها ومسارح هذا الكون . أقول يا إلهي في تخاذل الإنسان العاجز ، إذا لم تهدني في حيرتي وتُقِل عثرتي وتصفح عن زلتي وتقبلني بشطحاتي الذهنية والعقلية فأي باب أطرق ؟ ويقيني أن بابك ـ وهو تشبيه مجازي ـ أوسع الأبواب وأكرمها . إذا ضايقتني هذه الحواس في أهوائها فأعتقني من جورها وخذني إليك مغتسلاً من ذنوبي فإني أعبدك حين أشتد في التساؤل عنك ، حين لا أستكين إلى النعاس وأتجه إليه في تثاؤب النيام من البشر . إني شيء غير الحجر ، إني لا أطيق الصمت ، لا أقبل السكوت ، أفر من السكون ، أبحث عن الصوت المفصح .

لهذا سامحني إذا كنت لحوحًا وأردت أن أراك في أجل الصور وأكملها من خلال بصيرة عامرة ناصعة لا رمد فيها ولا حول ، إنك جمال ولا تراك إلا عين بريئة من العيوب .))[٢] .

إن ((الإنسان)) لا يريد أن ينتهي به زاده أو تقف به مطاياه في عرض الطريق بعيدًا عن هدفه ، والبصيرة العامرة بالله تعالى هي الضوء والزاد الذي يتغلب به ((الإنسان)) على مصاعب الدرب ، وهذه لا تتحقق إلا من خلال تحقيق عمق معرفي أفضل ، وذلك بدوره لا يتحقق من خلال السكون والصمت ؛ بل من خلال إثارة الأسئلة ، والاتكاء على قوة الودائع الإلهية في ((الإنسان))، ولذلك يعلن أنه سيترك المقام الضيق ويهاجر إلى ربه ، متكئًا في تلك

---

(١) انظر الرسائل ١/٣٥٩ .

(٢) الرسائل ١/٣٥٩ - ٣٦٠ .

الهجرة على قوة تلك الودائع ، يقول:

((إذًا سأهجر أعرافي وأهاجر إليك في قوة ودائعك التي عندي . سأركبها إلى بابك لعلها توصلني إلى رحمتك . إن إنسانًا تقف به مطاياه مبتورًا في عرض الطريق بعيدًا عنك ، لإنسان خاسر ، وأنا لا أريد أن أكون هذا الإنسان .)) (١) .

إن الهدف النهائي للهجرة هو الوصول إلى رحمة الله تعالى ، ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال اليقين ولهذا: ((سأصرخ وسأبكي وسأتساءل لأصل إلى اليقين ، سأشذ عن صفوف العرج من البشر والعور والدهماء ، سأتركهم يتسكعون خلف الحادين لهم في ضجيج الفوضى والبطون)) (٢) .

إن الغاية بعيدة، والهدف كبير ، والطموح متين ، ولذلك سيصرخ وسيبكي وسيتساءل ، وأنى له بالهدوء في حيز ضيق يقع فيه تحت ضغط هذا الكون من الخارج ، وأضخم الطاقات الشعورية من الداخل ، ولأن الحقيقة ـ هنا ـ خارج مدى الحواس ؛ فليهرع إلى الخيال لعله يحمله إلى مدى يشم فيه روائح هذه الحقيقة ، وإلا فليهرع إلى الشعور الذي تثيره في خاطره كل خفقة من خفقات هذا الكون لما هو وراء الكون ، وأبعد من الخيال ، يقول :

((إذا كانت أعماقي لا أبعاد لها وإذا كانت تصوراتي لا حدود لها ، إذا كنت مشحونًا بأضخم الطاقات الشعورية فلماذا وكيف أهدأ ومن أين لي أن أكون هادئًا . إذا كان كل ما في هذا الكون من عوالم أحجارًا ثقيلة تنزل على وعيي فتثيره مهتاجًا كوهج الشمس فقمين بي أن أهرع إلى الخيال آملاً أن يهديني ويصلني بأردان الحقيقة أتشممها في إبداعها الكوني ، وإذا هي احتجبت عني في حسي قابلتها في شعوري مطّرحًا منكس الرأس كسير القلب ذليل الكبرياء في كل خافقة فيما وراء الخيال .)) (٣) .

فإذا تبلورت ـ نتيجة لذلك الجهد ـ تصوراته حول هذه الحقيقة فإنها ستظل في حدود الأدب والسلوك الإسلامي السوي مع الخالق عز وجل ؛ دون الإغراق في التهويمات ، والشطحات المتفلتة من أسباب التصور الإسلامي الصحيح ، يقول :

((وإذا تصورتها أبيت على نفسي الصغيرة أن تتخطى حدودها وتسيء الأدب والسلوك في تصوراتها لما هو أمنع على العقل والخيال أن يحده أو يقيسه .

---

(١) المصدر نفسه : ١/٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٣٦١ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٣٦١ .

إذا كانت كل الأشياء قابلة للوزن والقياس والتخرصات فإني أطرد من ذهني في حدة الغضب كل وسوسة تقول لي : تصوره . جسّده . ضع صفاته ...! ورددي دائمًا : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[١] ،))[٢] .

وإذا كانت الطاقات العقلية لا تطيق حمل ((الإنسان)) إلى ما وراء الحواس ، وإذا كانت الحقيقة تتأبى على الخيال ؛ فإن العبور إليها لن يتحقق إلا من خلال الحب الخالص ، فهو البوصلة الإنسانية التي يمكن ((للإنسان)) أن يطمئن إلى صواب اتجاه رحلته طالما بقيت معلقة ـ في صدره ، في وضعها السليم ، يقول :

((إذًا فطريقي إليه الحب الخالص له دون شريك ...))[٣] ، ولذلك : ((حطمت في حبه كل شيء يعوقني عن الوصول إليه ....))[٤] .

لعلي أنجح في تجربتي الجديدة هذه التي لا أجور بها على أحد ، ولكني أحاول أن أنقذ بها نفسي من صراعاتها . يقول : ((لعلي بذلك أنجح مع التجربة الجديدة وأخلص بنفسي المعذبة من جحيم القلق والسأم ، فهل أنا بهذا جائر على أحد ؟ أبدًا ، إن الجائرين على الإنسان هم المقيمون للسدود في وجه الجداول النفسية الجارية حتى صارت مستنقعًا للبذاءة والغفلة والجهل بالأسمى ...!))[٥] .

د ـ حركة الذات في خضم الصراع :

تبرز طائفة من الإشارات لترصد حركة الذات في خضم صراع التساؤلات ؛ وهي تكابد، وتتألم ، وتعارك في سبيل تحقيق أهدافها ، والوصول إلى غاياتها .

يقول عن حركة التساؤلات في أعماقه ، وحاله معها :

((جدل غاضب ومنفعل يعضّ كل ساكن عندي بل قد يتخطى ذلك إلى حافة الجنون))[٦].

---

(١) سورة الشورى آية رقم (١١) .

(٢) الرسائل : ٣٦١/١ - ٣٦٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٦٢/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٦٢/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٦٢/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٧٤/٢ .

وبعد أن يشير الشيخ إلى دور الإدهاش الكوني في إثارة صراع التساؤلات هذا [(١)] يمضي إلى رصد خطوط حركته العامة مع ذاته ومع تساؤلاته ؛ في الوقت الذي يكشف فيه عن محمولات رسالته ، وعن دوافعه ، وأهدافه التي تحمله إلى ركوب ذلك التيار فيقول :

((خططت لك في رسائلي ألوانًا من الصور والهذيان الذاتي ، منها ما ألقت عليه جهالتي دوائر من البقع وخلطت فيها بين هذا وذاك من الألوان التي ألقتها الحياة في طريقنا معها ومع التجربة ... ومنها ما ذرعت أبعادًا أوقعتني في خطأ التقدير فجلست معها في مقاعد مختلفة أضع بذوري على أرض لا أملكها ولا هي صالحة للزرع ولا منبتة له لأن البذار ألقته في يدي أعاصير الرياح النفسية والذهنية وما تثيره الأعاصير وتحمله في أفق الإنسان أو أفق السماء يلقي كثافة على البصر فلا يرى شيئًا ، يتهيب السير خوفًا من السقوط في الحفر وهنا تحار القدم وتقف وسط دائرة أحاط بها سرادقها من كل جانب ، فيتعجل من داخل نفسه زورق النجاة يدفع به ولكن على غير مياه ، وهنا أرتاب في كل شيء خلفته ورائي أو هو معي الآن أو منتظر أن ألحق به ... والارتياب ، أهو تحول من مركبة الفضاء إلى السير فوق الأقدام الحافية ؟ أم أنه وقوف على قدم من الخيال أو التأمل ؟ ...

لا أتبين الآن في مقعدي هذا مع رسالتي هذه الجواب على تساؤلاتي ، فكل سؤال طرح أو جواب تعجل عليه في تاريخ الإنسان كالذي تطرحه حيرتي على ذهني وتسائله ماذا عنده ؟ وماذا يرى ؟ وما هي علاقته بهذا العالم ؟ وما هي نظرته إليه ، وإلى هذا الكون ؟ لم يلق الجواب الذي لا خلاف عليه ... !)) [(٢)] .

لكن الشيخ في خضم هذا التيار الجارف يشعر - أحيانا - بالحاجة إلى لحظة هدوء يسترد فيها أنفاسه فيما يمكن أن يكون ((استراحة محارب)) في الوقت الذي لا يهدأ فيه التيار أو يعطيه هذه الفرصة ، فكيف يصور الشيخ ذاته في مواجهة هذا الواقع ، وفي خضم صراع التصادم هذا ، يقول :

((كثيرًا ما تتكاثر الأسئلة وتتداعى على خاطري فأتوارى عنها في مجاهل الصحراء ، وما كان منها لا يحتمل الصدود عنه ولا يستطيع أن يعود من حيث أتى يلحق بي ويزعجني طرقه العنيف للباب الذي أغلقته بيني وبينه ، وما أثقل على رب البيت من طارق الليل ! .... وهو طفيلي حركت قدمه داخل الذات وقاحته ودمامة مرآه ، لو كان جميلاً ، لو كان كريمًا

---

(١) انظر الرسائل ٢٥١/١ .

(٢) الرسائل : ٢٥١/١ - ٢٥٢ وانظر ٢٥٥/١ - ٢٥٦ ، ١٩٦/٢ .

لانتظر الصباح ، فإن أذن له بالدخول يدخل ، وإلاّ يبق في مفهوم "التوجيه الكريم" [١])) [٢] .

* * * *

القطاع الخامس : الذات في إطارها الوجداني :

ينصرف الخطاب في هذا الإطار إلى رصد عوالم الشيخ الوجدانية ، ومكنوناتها ، وحركتها في تفاعلاتها الشعورية مع ما يسكنها ومع ما هو خارجها .

وعند تعميق النظرة في حمولة الخطاب الذي اتخذ هذا الاتجاه تتكشف ـــ بوضوح ـ معالم صراع آخر يخوضه الشيخ في إطاره الوجداني ، لتؤكد أن الشيخ كان ولا زال يعاني في أعماقه الوجدانية النفسية والعاطفية معركة حادة ؛ تمزّق هدوءه النفسي خاصة ، وتقلق أمنه الوجداني عامة .

فما حقيقة ذلك الصراع ؟ وما موقف الرجل في صراعه هذا ؟ ولم وقف ذلك الموقف ؟ . ذلك ما يكشف عنه قوله التالي :

((ولدي :

كلما صرختْ أعماقي وبكتْ هواجسي وظنوني وضاقت الدروب في خطوي وأثقلتني صخور الدرب الوعر وأدمت قدمي ، وأرهقت نفسي وعثاء السفر الفكري تذكرتك وناديت عليك أن شاركني همومي ، ارفع عن كاهلي جلابيب الهموم . وما همومي إلا غزو داخلي معركته معي منتصرة على وعيي وعلى فكري وعقلي .)) [٣] .

وإذا فالصراع صراع هموم ، تهاجمه فيقف أمام زحوفها مشلول الحركة ، عاجزًا عن مجابهتها بما جابه به صراعيه الفكري والتصوري ، إذ هم غزاة داخليون تتعذر مواجهتهم أولاً ، وهي تتحصن في حصون وجدانية ذات طبيعة خاصة لا تخضع لسلطات الوعي أو العقل أو الفكر ثانيًا ، ومن هنا كان حسم هذا الصراع أملاً بعيد المنال .

إذا وضح هذا، فما أنماط صراع الهموم هذا؟ وما مصادرها؟ وما انعكاساتها الوجدانية؟. يكشف الخطاب عن نمطين كبيرين من هذا الصراع :

---

(١) إحالة إلى قوله ﷺ : ((إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع)) . البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا . .

(٢) الرسائل : ١٨٦/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٥٩/١ .

الأول ـ صراع الهم الخاصّ :

حيث ينصرف الخطاب ـ هنا ـ إلى الكشف عن الهموم التي تتعلق بذات الشيخ الخاصة وتقوم من أجلها ، وعن مصادر هذه الهموم ونوعها ، والكشف عن انعاكاساتها الوجدانية وحركة الذات إزاءها .

ويمكن رصد الخطاب في هذا المحور باعتماد مصدر الهم ومعطاه الوجداني مائزًا بين ألوان صراع الهم الخاص على النحو التالي :

أ ـ معاناة رحلة الحياة وتجاربها :

إذ تشكل رحلة الستين عامًا المنصرمة من العمر ـ في ظل ظروف اجتماعية لم تخلُ من القسوة في صدرها ـ في مهب أعاصير الحياة وخضم أمواجها ، وبما تحمله هذه الرحلة الطويلة من تجارب انتهت ؛ ولكن جروحها في الوجدان لا زالت حية ، أو تجارب لا تزال تخز بأشواكها وجدانه ، معلنة عن تأبيها على الهدوء أو الانفلال ، وبما انتهت به رحلته إليه الآن ـ مصدر إزعاج متواصل للشيخ ؛ إذ لا يزال معها في صراع وجداني يقلقه ويسلب منه هدوءه وسكينته ، ويحقن وجدانه بألوان من الآلام والمعاناة .

يقول عن قسوة رحلته مع الحياة وآلامها وحركته معها :

((أنا لم أجلس على مقعد أجلستك عليه في مدرستك لأن أبي لم يجد مقعدًا في عصره ليجلسني عليه . فالمقعد الذي لم يجده أبي أجلستني عليه الحياة ثم قست ، ولأنها قست علي بفقدان الأم والأب وتركتني أركب الموج وحدي ، تشبثت بالنجاة هاربًا من الغرق وإن كان هروبًا يعلل به الإنسان نفسه ....)) [(١)] .

ويقول أيضًا عن معاناة الرحلة مع الحياة :

((ولدي :

لقد حملتني الحياة وأخذتني أحلام اليقظة في دروب متجعدة الوجه، دموع عينيها حفرت أخاديد على طريق أزعج الأحلام الواقعة على جنباته في انتظار تفسير الحلم ..)) [(٢)] .

ويقول عن تجهم وجه رفيقة دربه ، وعن معاناته من ذلك :

((كثيرًا ما تلقي الحياة على خاطري ما يفسد عليّ تفاؤلي ويطفئ كل ضوء وكل

---

(١) المصدر نفسه : ٦٧/١ وانظر ٢٤٠/١ ، ٣٩١/٢ - ٣٩٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٠١/١ وانظر ٣٩١/٢ - ٣٩٢ .

قمر ....)) [١] .

ويقول عن تجارب الرحلة التي ما زالت حية تحز محيط وجدانه من الداخل ، وعن معاناته إياها :

((أفي الذاكرة واعظ أم شامت ؟ ليت الإنسان يمشي في طريقه العام دون ذاكرة ، ليتها تصاب بآفة النسيان ! ما أشقى رجلاً توقظه ذاكرته من مرقده لتقول له ساهرني مع النجم لأقرأ لك كتابك فقد حفظته فراجعه معي ! ما أكثر الليالي التي لا تسمح لي فيها ذكرياتي أن أنام ! أأنا وحدي مصاب بالأرق ؟ لا أدري ولكني أحس مشكلتي تقودها إليَّ الذكريات من أعماق السنين الطويلة تعرضها علي واحدة واحدة ، وموقفًا موقفًا ، تتشكل أمام ناظري هذه الذكريات في أشكال مختلفة وصور متباينة ، دمامة المرأى والأشكال والصور تصيبني بالدوار وتجعلني أحار في سفري الخاص . أترى أن في إبقائنا عليه دفينًا في أعماق السريرة يقصيه فلا يراه أحد ولا يلحق به نشور ؟ ليتني أتصور ذلك فأسكن في مساكن النائمات عنهم ذكرياتهم .)) [٢] .

وما من شك أن تجربتيه الفكرية والتصورية اللتين تم الفراغ منهما آنفًا ؛ تأتيان على رأس التجارب المؤلمة التي عاناها ، ولسعته نارها خلال هذه الرحلة .

وعن معاناة ما أفضت به هذه الرحلة إليه من واقع عمري يقول :

((أبلتني الحياة مع من أبلت ....)) [٣] .

ذلك - إذن - صراع المعاناة الذي يخوضه الشيخ في وجدانه ، نتيجة وقوعه تحت طائلة آلام الرحلة وجروحها .

ب- معاناة وجوده الكوني :

إن وجوده الإنساني الكوني المؤطر بالجراحات لا يزال مصدر هموم توقعه تحت وطأة مكابدة شعورية حادة .

لقد جاء به قدره إلى هذه الحياة على غير اختيار منه ، ومعه ومع الحياة أخذته الحركة بين أفراح لا يملك استجلابها لنفسه ؛ وأتراح لا يملك دفعها عنها ، وهو يمضي بعد ذلك تاركًا هذه الحياة على غير رغبة أو اختيار ؛ إلى دار لا يدري ماذا سيكون حاله فيها ، وليس له من الأمر

---

(١) المصدر نفسه : ٩٢/١ ، وانظر ١٥٢/١ ، ٣٩٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٠٤/١ - ٤٠٥ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٩/١ ، وانظر ١٩/١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٢٢٨/٢ .

أكثر من أن ينظر بأسى وحسرة إلى حصانه الثاوي المشدود في مربطه بانتظار الرحيل ، وأن يرقب في ألم حركة طائره ذي الجناح الكسير ، وقدمه المصابة في أطرافها ، وهما يظلعان في الدرب الوعر متكئين على كتف قدر صارم متجهم ، ماض بهما إلى مصيرهما المحتوم ، لا يمنحهما من الحرية أكثر من اختيار ما يلبسان من ثياب هو ذاته الذي أعدها سلفًا لهما إن هما رغبا فيها ، أو تركها إن هما رغبا عنها .

إن هذا الوجود الجريح ؛ المحفوف بتلك الظروف ؛ يشكل مصدر هموم تدمي وجدان الشيخ ، وتحقن نفسه بالآلام والمعاناة ، وتجعله تحت وطأة ضغط شعوري حزين دائم .

في هذا السياق ينتظم جانب من الخطاب ليستوعب حركة وجدان الشيخ ، ومعاناته ، وأنينه في هذا الإطار .

وتمثل رسالة ((ذوبان في فم القطرات)) [(١)] الصرخة الأعلى للشيخ تحت وطأة ذلك الصراع الوجداني .

جـ. معاناة الانشطار :

وكان وقوع الشيخ تحت وطأة انشطار في الحركة الوجدانية ؛ بابًا آخر دلفت من خلاله الهموم إلى نفسه ، وجلب لها الآلام والمعاناة ، ويأتي ذلك الانشطار الوجداني في محورين .

الأول : الانشطار بين وجودين :

إذ يقع الشيخ ـ كما سيكشف عن ذلك خطابه ـ تحت وطأة تنازع وجداني حاد بين وجودية : الحاضر في هذه الحياة ، والماضي والقادم في عالم الغيب .

ففي الوقت الذي يبدو فيه الشيخ أكثر ما يكون تشبثًا بالحياة ورغبة فيها ؛ يبدو في مكان آخر راغبًا عنها ، زاهدًا فيها ، تائقًا إلى ساعة الرحيل .

وفي الوقت الذي يبدو فيه هاربًا من شبح الموت الذي يعبر به إلى العالم الآخر ؛ يبدو في مكان آخر يحن إلى ذلك العالم ويتوق إليه .

يصور الشيخ تشبثه بالحياة ، ورغبته القوية فيها في أجمل مراحلها ، وبكاءه على ذاته التي تمرق في عجله باتجاه النهاية ، وذعره من تلك النهاية حين يقول :

((ولدي :

لا أدري ورسالتي هذه تتكور على بعضها بعضًا وتمتنع عليَّ كلما حاولت أن أخرج بها

---

(١) انظر الرسائل ٣٩٣/١ ـ ٤٠٠ وانظر ٦٤/١ ـ ٦٥ ، ٣٤٣ ، ٢٢٨/٢ ، ٢٣٧ ـ ٢٤١ .

من عقدة التكور ، أفيها صورة من الصور التي ترضى عنها ؟ أم أنها فجيعة نفس ذوت نضارتها ، وتاقت إلى العبور إليك ، يوم لم تستقبلها مرآة الحائط الذي علق عليه أبوك مرآته الزمنية ؟ وصار في كل لحظة من اللحظات يقف أمامها يستجديها الخبر ؟ فإذا الجواب ذوبان في النضارة وذبول في أوراق الربيع ، فجفلت هذه النفس من البداية والنهاية ، وتعجلت في خط مثل هذه الرسائل إليك .... ؟)) [١] .

و ـ إذن ـ فإن الخوف على وجوده المادي في هذه الدار ، والذي أصبح الآن مهددًا بالذوبان ، هو الذي دفعه إلى كتابة هذه الرسائل ، ليحقق من خلالها الحفاظ على وجوده الأدبي على الأقل .

ومع أن الشيخ يكابد في هذه الحياة صنوفًا من الآلام والمعاناة ؛ إلا أنه لا يزال ينجذب إليها ، ويحتمل عذاباتها في صبر وتحمل ؛ يدفعه إلى ذلك من ناحية ؛ أمله في الوصول إلى واقع حياتي يفلت فيه من سلطة عذاباته ، ويتحقق له فيه ما يصبو إليه دائمًا من سعادة وهدوء ، وهو ـ حتمًا ـ لن يتحقق إلا بعودة الحياة معه كما كانت ، يقول :

((وذكرياتنا مع هذا الوادي ومع الجبال المحيطة به هي التي أحن إليها وإلى أيامي معها .... فهل لي بقية من العمر أستطيع معها أن أعود إليه ؟ فأبني خيمتي على جناحه إلى أن يأتي قدري فيطوي الخيمة ثم يدفنني في التراب الذي بُنيتْ عليه ؟)) [٢] .

ويدفعه من ناحية أخرى ؛ إلى الالتصاق الوجداني بالحياة ـ على عللها وعذاباتها ـ المصير المخيف بما يحيط به من ضبابية وغموض ، ذلك المصير الذي يعي أنه مكتنع له على نقطة ما من الطريق ، حيث تنتهي الرحلة في هذه الدار ، وتبدأ هناك مرحلة جديدة تنقبض لها نفسه حينما يرى بدايتها ، يقول :

((والعطب في الجناح أو في أطراف القدم لا أدري متى أصابته بندقية الرامي ، وحتى عاتق القبر يوم تدفع بنا إليه المنية محمولين إليه على عاتق الأهل والأقارب مسرعين بنا يستقبلنا ضيوفًا عليه ، لا نعرف القرى .... !)) [٣] .

---

(١) الرسائل : ١/٤٠٠ وانظر ٢/٢٣٧ - ٢٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٦٠ وانظر ١/٣٩٤ ، ٢/٢٣ ـ ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٣٩٤ .

إن مجرد استشعار هذا المصير يحقن وجدان الشيخ بالإحساس بالرهبة والوجس والتوجس مما يجعله - دائمًا - أسير قبضة القلق وحمأة الآلام المتنامية ، والمعاناة المرة ، ويلون حياته ورؤيته لها بالسواد ، يقول :

((ولدي :

ليتني أستطيع أن أعصب عيني عن الظلام فلا أرى غير الورود والضوء أو النجوم والأقمار والشموس لأرسلها إليك تفاؤلاً في هذه الرسالة .. ولكن كلما وقفت أمام وردة شابة ورصدتها لحظة أو لحظات ذوت أمام عيني ثم اختفت في فم الرياح ، ومثلها النجم كلما رصدته واستأنست به مال إلى مغيبه وتركني أعاني فراقه ، ومثله القمر أدمى قلوب عشاقنا ظنوه سميرًا لهم وحافظا لأسرارهم فخاب ظنهم يوم وطئه الإنسان بقدمه فرآه أتربة وأحجارًا ....)) [1] .

هكذا يتجه الشيخ بوجدانه إلى الحياة تحت وطأة الرهبة من المصير المخيف ، وذلك في حد ذاته مصدر معاناة ، ولكن الصورة تبدو له على غير ما يؤملها فيتضاعف حجم المعاناة .

ولكنه في أماكن أخرى يتجاهل خوف نفسه ، ويمضي مع روحه ليرصده الخطاب هناك وهو يتشوق للعودة إلى المكان الذي أتى منه [2] ، مرفوع الرأس ، مليئًا بنشوة الانتصار ، لينعم هناك بجني ثمار جهده هنا ، ولينعم هناك بعدل الله ، وبتجاوز الحيرة الإنسانية التي كابدها في الحياة ، وبتجاوز مظالم الأرض وغموضها . يقول :

((... فما أنا هنا إلا عابر سبيل طال سفره أم قصر ، ولا بد أن تجري به سفينته عائدة به منتصرًا في معركة الجدل الذاتي ، والحوار العقلي والنفسي ، سيعود هذا الإنسان حاملاً على كفه ثمرة الشجرة التي ربما ظمئت هناك فجاء هنا ليكدح من أجل ريها ومن أجل نضوج الثمرة فيها .

وعند الله وعدله فينا نحن البشر سنتجاوز مظالم الأرض وغموضها ، وما نراه تناقضًا اختلف عليه الإنسان سينجلي عنه الغموض وتنتفي الحيرة .)) [3] .

ويعكس الخطاب حنينه وشوقه ؛ بل وهربه من وجه الحياة المشوه إلى تلك المنازل التي انحدر منها في يوم رحلته الأولى وهي ما يسميها ((منازل الأحلام الجميلة)) [5] حين يقول :

---

(١) المصدر نفسه ١/٦٤ - ٦٥ .

(٢) انظر الرسائل ١/٣٨ .

(٤) الرسائل ٢/٧٤ .

(٥) انظر الرسائل ٢/١٤٨ .

((ولدي :

أتحتمل حنيني إلى ماض بعيد لا أدري منه غير أيامي وأعوامي التي سجلها الميلاد؟ ولأني عجزت أن أقبل بأن يكون ميلادي هو كل الماضي الذي لي ولا شيء غيره ، فستراني هنا هاربًا إلى ذلك الماضي السحيق الذي يتجاوز سنوات عمري وإن كان بعيدًا . نعم حنيني طويل وشوقي عظيم وخطاي في هذا الحنين وهذه الأشواق لم تقف بي على مدرج الكهف الذي هبطت منه قدمي وأخذتني إلى صدرها عمة أو خالة أو جارة من جارات أمي !

أحلم بأن الطريق التي مشيت عليها إلى حشاشة نفس الأم ، وإلى ما بين جوانحها هو الذي يعاودني ويراودني في أحلامي كلمّا اضطجعت . فعالم يتراءى لي في صور الأحلام ألا ترى أنه هو عالمنا ؟ لا أشك أن منازلنا الأولى هي منازل الأحلام الجميلة والرؤى التي لا تعترضها صورة واحدة من الصور التي تعترضنا في هذه الحياة مشوهة الوجه محطمة المرأى ، فما هنا غير ما هناك ، أحسه نداء لا يهدأ)) [1] .

إنها تلك المنازل التي سيعود إليها ، يقول :

((ولدي :

قريبًا وغير بعيد ألقى ربي وأرحل عن هذه الحياة عائدًا من حيث أتيت ....)) [2] .

إنه حنين وأشواق وجدانية عظيمة بلغت في عظمتها حدًا جعله يطلقها عنوانًا للجزء الثاني والأخير !!! من مؤلفه هذا .

إن ذلك الحنين وتلك الأشواق ؛ في حد ذاتها مصدر معاناة ، وإن كانت معاناة لذّة .

لكن المعاناة الكبرى تأتي من خلال هذا التشتت والتنازع الوجداني الحادّ الذي يئن الشيخ تحت ضغطه .

يأخذه الشوق إلى منازل الأحلام الجميلة ؛ حين تدمي قدميه خشونة دروب الحياة ، لكن رهبة الموت المتربص في مكان ما من الطريق تحمله على الهرب الوجداني إلى أيام الشباب الجميلة ، وتكشر الحياة في وجهه عن أنيابها الحادّة فيأخذه الحنين إلى منازل الأحلام الجميلة ، ولكنه ما إن تعرض له رهبة الموت حتى يقفل عائدًا إلى أيام الربيع مرة أخرى .

وهكذا يمضي الشيخ في صراع انشطار وتنازع وجداني ، لا ينتهي بين وجوده هنا

---

(١) الرسائل : ٢/١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٣٨ .

ووجوده هناك وما يحيط بكل واحد منهما .

إن هذا الصراع المعقد الدائر في الأعماق الوجدانية الواعية لدى الشيخ بسبب التضارب المريع بين المشاعر والأحاسيس يجعل هذه الأعماق مسرحًا للآلام والمعاناة والقلق المتصل .

الثاني : الانشطار بين واقعين :

اضطر الرجل - بحكم الواقع الحضاري الوطني ، وبحكم موقعه من المسئولية في وطنه ، ومكانته الاجتماعية ، وواقعه العمري — إلى أن ينسحب من إطاره الحضاري ، والاجتماعي ، والزماني والمكاني - المترع بالدفء والبساطة والحرية والهدوء - الذي عاشه وتعايش معه معايشة عميقة أسكنت كلا منهما الآخر ؛ إلى إطار الحياة المعاصرة ومدنيتها الجافية ، بمادياتها ، وتعقيداتها ، وصرامتها ، وتكلفها وقيودها ، وقلقها .

لكن ؛ هل استطاع هذا الواقع الجديد - بما فيه من بريق خطف ويخطف الكثير من العيون والعقول والقلوب - أن يخطف شيئًا من ذلك على الرجل ، أو أن يسيطر عليه ؟ وهل استطاع هذا الواقع الجديد أن يملأ بمادياته وترفه الفراغ الذي تركه واقعه القديم في وجدانه أو يعوضه عنه أو ينسيه إياه ؟

الجواب : لا ، لم يحصل شيء من ذلك .

فإذا كان - اليوم - يعيش في بيت كسرى أنوشروان ؛ فإن ذلك على حد المثل القائل : ((مكرهٌ أخوك لا بطل)) [1] .

ولذلك فهو دائم الشكوى من كدر واقعه هذا وعبوسه ، مما يجلب له الهموم والمعاناة ، ويجعله في سرىً دائم وراء الذكريات ؛ حبًا ، ووفاءً ، واحتواءً لأشواق الوجدان ، يقول مخاطبا ولده :

((أنا أعيش معك الآن في بيت كسرى أنو شروان ، هاجر بنا إليه من الصحراء كرم ((دارين)) [2] ، وظنناه كرمًا غير منغّص ، ظنناه لونًا من عطائها القديم ووجهًا مصونًا من العبوس ، أتراني هاجع فيه معك من غير هموم ، من غير ذكريات ، من غير معاناة ؟ تكون

---

(١) المفضل بن محمد الضبي : أمثال العرب ، ص١١٢ .

(٢) ورد في معجم البلدان ((دارين : فرضة بالبحرين ....)) ، والبحرين قديمًا تطلق على ما يعرف الآن ب ((الأحساء)) في المنطقة الشرقية ، أما الشيخ فإنه يحيل بها إلى ما يتاخم الخليج العربي من المملكة العربية السعودية (المناطق النفطية) كما ذكر ذلك للدارس .

غبيًا لو ظننت ذلك بأبيك !)) [١] .

وإذن فليس الأمر مجرد نفي التآم نفسه مع هذا الواقع ؛ بل يتجاوز ذلك إلى اعتبار مجرد الظن بتحقق هذا الالتئام تهمة غبية هو بريء منها .

ولكن ما حقيقة هذه الهموم والمعاناة ؟ وما روافدها ؟

أما تلك الهموم والمعاناة فإنها ـ كما يكشف عن ذلك خطاب الشيخ في العديد من إشاراته ـ تتمحور في عذاباته الوجدانية التي يكابدها الرجل في إطاره الحياتي الجديد ، وفي واقعه الحياتي اليوم .

أما روافد هذه الآلام والمعاناة والعذابات الوجدانية فهي ـ كما يكشف عنها الشيخ أيضا ـ تتركز في طبيعة واقعه في ظل الحياة المعاصرة ؛ قياسًا إلى طبيعة واقعه في ظل حياة الماضي ، وانشطاره الوجداني بين الواقعين ، يقول :

((فذكراي لركوب الجمل وأنشاه في قلب الصحراء ، أحن إليها كلما علوت متن مراكب اليوم في الفضاء أو في الأرض وسكنت في ناطحات السحاب وتلاحقت أمام بصري صور تزوّر الحياة وتزوّر الحقيقة وتزوّر الفضيلة . وليس هذا تجديفًا مشوشًا في ذهني أو تشويهًا لفضائل هذه الحضارة ولكن ما جدوى فضيلة لا تأتي إلا في آخر قافلة الوسائل الرديئة والمحيطة بها ، ولا يصل إليها الإنسان من زحام السلبيات حولها إلا بمشقة ، وقد تختفي وسط هذا الزحام فلا تكون هنالك فضيلة بل قافلة من السلبيات والوسائل الرديئة .

فإذا أركبتني على كتفها مركبة فضائية وتركتها تصوغ لي الحس والشعور والكبرياء والعظمة ، إذا تعاظمت هي وتصاغرت أنا أمامها ، إذا تماسكت في جسدها وانضبطت في قانونها وحسبت بكل حركة وخفقة من خفقاتها أدق الأرقام ولم تترك مكانًا للصدفة ، فماذا عني ـ أنا ـ أمام هذا اللون من الألبسة التي نسجتُها من روحي ومن عقلي ومن كل ذرة من ذرات كياني ؟ أأنا منضبط كانضباطها ؟ أأنا السيد لها أم العبد ؟ أهي هاربة بي من أمني ومن بيت أطفالي ومن استقراري إلى قلق الفضاء وجاذبيته ؟)) [٢] .

إن هذا الخطاب وغيره من الإشارات الكثيرة التي نثرها الشيخ في تضاعيف رسالته لعلاج هذا الجانب ـ ولا سيما التي أحيل إليها في هذا العنصر المطروح الآن للعرض ـ تكشف أن

---

(١) الرسائل ١٥٢/١ وانظر ٣٩٩/١ ، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦٣/٢ - ٢٦٤ وانظر ٤٩/٢ - ٥١ ، ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ١٥٥/١ ، ١٣٦ .

للمعاناة الوجدانية في هذا السياق روافد عديدة تتسم بالتركيب .

إن زيف هذه الحضارة ، وسلبياتها المركبة ، وإلغاءها لإنسانية الإنسان ووجوده الأدبي واستقلاليته وأمنه ، واعتباره مجرد ترس جامد في دولابها تحركه ظروفها كما تشاء هي لا كما يشاء ، واضطرار الشيخ إلى التعامل معها على معرفته بحقيقتها هذه ، وما يتطلبه هذا التعامل من حذر ويقظة يستهدفان الإبقاء عليه بمنأى عن الانجراف معها ، والانمياع في بوتقتها ؛ يشكل مصدرًا من مصادر المعاناة الوجدانية ورافدًا من روافدها .

لكن هذا ليس كل شيء، ذلك أن هذه الحضارة بحقيقتها تلك ، وحركة الشيخ المشحونة بالقلق معها تدفعه إلى استعادة واقعه القديم الذي كان - ببساطته ودفئه الشعوري ورقة حواشيه وسموه الإنساني - عالم أمن واطمئنان والتئام نفسي، لم تجد فيه مثل هذه المعاناة والآلام والقلق طريقًا إلى أعماق الفتى - حينئذ - فتكون هذه الموازنة الوجدانية - في حد ذاتها - رافدًا آخر للمعاناة .

لكن الشيخ لا يقف في هذا عند حدود استعادة الماضي ؛ بل يتجاوز ذلك إلى محاولة الهروب من واقعه الغريب هذا ، والإفلات من ربقته إلى ذلك الماضي ليعيش فيه بوجدانه ؛ لا بل إنه يحاول أن يفلت منه ماديًّا بالعودة المادية إلى الصحراء ، أو الاستحضار الفعلي لبعض رموزها وأدواتها داخل أسوار قصره ؛ من خلال بيت الشعر الذي أقامه الشيخ في ركن بارز من أركان حديقة قصره ومحتوياته مما يحتويه البيت المنصوب في قلب صحراء ما قبل هذه الحضارة .

وما بين أشواق الوجدان المسافرة إلى الماضي ، وأحكام الواقع الذي يقيده إلى الحاضر ، يقع الشيخ في ربقة انشطار حادّ مشحون بالآلام ، والقلق ، والمكابدة ، فيكون بذلك رافدًا آخر للمعاناة .

يقول عن هذا الرافد :

((أرجو ألا تنشطروا مثلنا ، فالذي ضايقني في كل ما كتبته هو الانشطار ، هو ماض أحببناه وعشناه ، وحاضر نحن فيه غرباء .... !)) [1] .

وحين يحقق المأزوم رجوعًا وجدانيًّا إلى الماضي ، أو ماديًّا إلى ما بقي من إطاره المكاني متحملاً في سبيل ذلك آلام الانشطار ؛ يجد حركة الزمن، ومد المدنية الحديثة ؛ قد طمست معالم ذلك الماضي وأخفت ملامحه تحت ركامها ، ولم يعد له وجود يتجاوز وجوده الرمزي ، فيحترق وجدانه ، وتتصاعد آلامه ، فيكون هذا الرجوع وذلك المصير رافدًا آخر للمعاناة .

---

(١) المصدر نفسه ١٩٢/٢ وانظر ١١٤/٢ .

لكن ذلك كله لم يقف حائلاً دون محاولة الشيخ اقتحام الماضي ـ كما هو ـ اقتحامًا وجدانيًا خالدًا من خلال هذه الرسالة ، فها هو ذا يسافر عائدًا إلى الماضي من خلال إطلاق العنان لوجدانه المكتوم بقيود هذه الحضارة والمدنية ، ليحلق في آفاقه ، ويتمسح بأرضه ، ويتمدد في زمانه ، ويتنفس هواءه ، ويتحرك في دروبه كما يشاء ، وينعم فيه بالحياة التي كان يحياها يومًا ما ، محققًا ذلك من خلال استعراض الماضي ؛ كما هو في الذاكرة مرة، وتصوير مآله ثانية ، والبكاء عليه ثالثة ، والحنين إليه رابعة .

وقبل الإيغال في رصد هذه التحليقات الوجدانية ؛ ينبغي التنبيه هنا إلى أن لفظة ((ماضي)) لا تقف في دلالتها عند مجرد إحالتها الزمانية ! بل تستوعب في أحشائها ما يسكن ذلك الزمان ، أو يرافقه من مكان ، وكائن ، وعمر ، وطبيعة حياة ، مع ما تبلور في ظل ذلك كله ، أو انحدر إليه مما سبقه من أخلاق ، ومبادي ، وقيم إنسانية راقية ، ومخزونات شعورية تتسم بالنقاء والخصوبة ، لا مكان لها اليوم إلا في ذاكرة الشيخ .

إلى هذا العالم الحالم ؛ إلى الماضي بمفهومه الشامل هذا ؛ ينطلق وجدان الشيخ انطلاقًا مؤطرًا في عمومه بحنين لا يهدأ ولا تخمد جذوته في صدره .

في هذا السياق تكثر في الرسالة إشارات الشيخ التي ترصد حركة العودة هذه ، ومع أن الطابع العام لخطاب الشيخ ـ هنا ـ شامل يستوعب هذه العودة في اتجاهاتها المتعددة ، إلا أن طبيعة الدراسة التي تنهج نهج التحديد تستلزم تجزيء هذا الخطاب بما يتواءم واتجاهه العام الذي يسلكه إلى الماضي ، لذلك فمن الملاحظ أن خطاب الشيخ حين ينطلق إلى الماضي فإنه يحقق ذلك من خلال الأنماط التالية :

١ـ عرض الماضي :

يأتي الخطاب في هذا السياق ليرصد اقتحام الشيخ أسوار ذاكرته التي انسحب إليها عالم الماضي وسكنها ، ويبدو في هذا النمط من العودة إلى الماضي ينصرف في همه إلى عرض ذلك الماضي ـ الذي استوعب طفولته وشبابه ـ كما كان ، وكما عاشه وتحرك فيه ، صحراء ، وقرية وجبلاً ، وواديًا ، ومجتمعًا ، وطبيعة حياة ، وقيمًا أخلاقية ، وحركة وجدانية ؛ بل وتاريخًا إنسانيًا انحدر إليه والتحم بواقعه فيه .

يعرض الصحراء وحياتها ومحتواها من ذلك ، وحركته في هذا الوسط فيقول :

((هذه الصورة القلقة في نفسي .... عن الصحراء المحيطة بها أوديتها ورياضها والجبال التي كم صعدنا إلى هاماتها ومددنا منها الأعناق إلى رعاة الغنم ورعاة الإبل ، وكم من

مرة أصابنا الظمأ من شدة العدو من هامة جبل إلى أخرى ، فنزلنا إلى أدنى راعية أو راع فأضافتنا من حليب شياهها أو أضافنا من حليب إبله كأننا إخوتهم أو من أبناء قبيلتهم .. أضافونا ويضيفون سوانا لأنهم كرماء لا يعرف الشح إلى نفوسهم طريقًا ..!)) [١] .

وماذا في الصحراء غير هذا ؟ فيها قصة أمة ، وتاريخ مسيرة ، وحكاية إنسان ، وفيها - أيضا - مع ذلك الحرية والبساطة ، وفيها الفضيلة ، وفيها دفء الوجدان والأمن النفسي .

يقول : ((تحولت الصور من الذاكرة ومن الحياة ومن الحب ومن العاطفة ومن الأدوار التي عبرت بنا في قلب هذه الصحراء على أحلى الأماني وأجمل المطايا ، ركبناها فلانت لنا رقابها واتسعت خطاها لم نضربها بالعصا ولم نضع في رؤوسها الرسن ، لم تبرك بنا في مبارك موبوءة لأن تربتنا سليمة ليس فيها وباء ، صانتها خصائصنا وحمتها من الرذيلة فضائل الأخلاق وتربية الصحراء ، فنجوم السماء في أفئدتنا لم تأفل ، هكذا كنا وهكذا كانت الحياة معنا ....)) [٢] .

إنها حياة تحرك فيها الإنسان عبر تاريخه الطويل ؛ ما بين طهر الأرض وأضواء السماء ، فكانت الصحراء بذلك مسرحًا للإنسانية في أروع صورها وأنقاها، إلى ذلك يشير حين يقول :

((ولدي :

هذه الصحراء التي أخط لك من قلبها هذه الرسالة أثارت في نفسي ذكريات لأصوات الرعاة وخفقات قلوب المحبين ....! [٣].... فعند كل جبل أو واد أو شعب أو روض تقف بنا الذكريات عنهم ، ....)) [٤] .

ولا غرابة - بعد هذا — أن تكون الصحراء عالمًا تهفو إليه قلوب الحالمين بالعودة إلى الإنسانية في سمتها الأعلى ، يقول :

((ولدي :

ما أكثر ما تثيره هذه الصحراء في نفسي من ذكريات ... ! وما أكثر ما ألتقي فيها بالحالمين وأمانيهم ...!)) [٥] .

---

(١) المصدر نفسه : ١٢٢/٢ وانظر ٥٢/٢-٥٣ ، ٢٢٨-٢٢٩، ٣٦٢-٣٦٤ ، ١١٢-١١٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٦/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ١٣٥/٢ وانظر ١٣٧/٢ .

لكن هذا ليس كل شيء ، ففيها إلى جانب ذلك ؛ الاستقلال، والكرامة المحفوظة، يقول:

((لا أتذكر أن لنا من خارج الصحراء حاجة نذل لها ونتباكى عليها إذا تباطأت عن السير إلينا لسبب من الأسباب ، فالطير في الصحراء وآرام الفلاة ألفوها منازل لهم وتجاوروا معنا ، وكانوا جيرانًا لا ينوون الرحيل ...)) [١] .

وإذا كانت هذه الصحراء قد أنجبت قيسًا وليلى وجميلاً وبثينة وعروة وعفراء وكثيّرًا و عزة ؛ فإنها كذلك قد أنجبت عنترة وعبلة ، كما أنجبت عمرًا وخالدًا وسعدًا وابن الجراح .

يا لها من صحراء يلتقي فيها الرعاة والمحبون على أطراف الغدير الذي تمده السماء بأسباب الحياة فتطيب به الحياة [٢] .

تلك ـ إذن ـ صور للصحراء مكانًا وكائنًا وتاريخًا ماديًّا ومعنويًا، يرصدها الشيخ في قلب رسالته ؛ من خلال سفرات وجدانه إليها .

أما القرية القابعة وسط هذه الصحراء فـ ((ما أجمل ذكرياتنا عن القرية !)) [٣] .

فماذا في الذاكرة عنها ؟

إنها عالم راوٍ بالجمال ، فيها الأم ، وفيها العيد وفيها الثوب البسيط ، فيها السماء الصافية ، وفيها الأطفال يقفون على هامات مآذن المساجد يرقبون الهلال ، وفيها الفرح والتهلل والجري في أفواه السكك ، وفيها ليلة العيد وصباحه المشرق وزينته ومصلاه ، وفيها القبل الصافية والعناق والأحضان ، وفيها الناس تروي السكك بالحياة ، وفيها عيد الوالدة ، وفيها المشاركة الوجدانية الطاهرة في كل شيء ، يقول :

((ولدي

ما أجمل ذكرياتنا عن القرية ! ما أجملها يوم تخيط لنا أمهاتنا ثوب عيدنا وتقيسه علينا قطعة من الخام الذي لا يرهق ثمنه لقمة العيش ! ما أجملها يوم نقف على مآذن مساجدنا نرقب هلال العيد في أفق السماء، شاحبًا كالخيط الدقيق ، يوم يراه أحدّنا بصرًا ، فيدلي بشهادته عليه ، نصفق له ونرقص في أفواه سكك القرية فرحًا بليلة العيد وصباحه ! مع طلوع الشمس نطلع من بيوتنا البسيطة لابسين زينتنا البسيطة ذاهبين إلى مصلانا ، فيه يقبل بعضنا بعضًا ونعود منه

---

(١) المصدر نفسه : ١٩٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٦/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢١/٢ .

إلى أفواه السكك ، كل منا حامل عيده الذي أجهدت أمه نفسها في أن يكون من أطيب الأعياد ، كل منا يفاخر صديقه وأخاه بعيده ، يقوم هذا إلى عيد ذاك ليذوقه ولا يتثاقل واحد منا عن عيد والدته ويجلس وحده . وشركتنا في الأعياد مثل شركتنا في اللباس ، وشركتنا في المصلى ، وتداعينا نأخذ بعضنا بعضًا بالأحضان ..)) [(١)] .

نعم ، فيها البساطة في المأكل والمشرب والملبس وفيها العرق ، وفيها الأطفال وأغنامهم والنقاء ، وفيها حنين القطا، وفيها الأمان ، وفيها الكتّاب ومعلمه وأسلوب الدراسة فيه ، يقول :

((وثوبي الذي لا يساوي قرشًا آنذاك ، وثوب ابن جاري ورفيقي الذي ترقعه أمه ووجبتنا التي لا تصل إلينا إلا بالجهد الشاق من رب البيت وربته ما أحلاها من ذكرى وإن كانت تعلة وليست وجبة سادة للسغب والجوع ! ما أجمل الذكرى يوم نتناثر أبناء عشر أو سبع سنوات بعد العشاء ، كل منا ماسك أذن عنزه أو نعجته ذاهب بها إلى بيت أمه أو أبيه آتية معها من قوت الصحراء وأعشابها بأنظف الشراب وألذه وأطهره لأنه من نبت الصحراء تكوّن . ما أجمل حنين القطا وصوته يوم يرد الغدير وحبائلنا منصوبة له فيسقط في الشبكة .... فضاء يسبح فيه الطير في أمان من الرماة ....)) [(٢)]

وفي الذاكرة عن القرية الجبل الذي تهجع قريتنا في كنفه وعند أقدامه بأمن واطمئنان ، وفيها خيرات السماء تدفع بها سيقان الوادي المعترض حولها ، يقول :

((فالجبل الهاجعة تحت سفحه قريتك هل صعدتَ في يوم من الأيام إلى قمته ولاحظت سيقانه الممتدة في اتجاهها ؟ لا أدري ولكني في أكثر أيامي وعمري معه كنت أتساءل عن سيقانه ، وهل لهذه السيقان أقدام تمشي عليها ؟ وفي أي يوم أو شهر أو سنة يأتي [زائر كريم] [(٣)] إلى قريتك ؟ وكان السؤال لا تجيب عليه الأتربة والصخور ولكن الجواب يأتي من الغمام ومن السحب الثقيلة ، حاملتها إلينا في قريتنا سيقان الوادي ....)) [(٤)] .

في هذا المحيط النظيف عاش الإنسان ؛ بمعزل عن عواصف الحياة ؛ في ربيع ، وأمن ، وتماسك ، فكري ، وتصوري ، وروحي ، ونفسي في أكناف البساطة ، والسعادة والرضى بقدر الله ، عاش الحياة في طهارة نفس ، وحياة ضمير ، وتلاحم وجدان ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه : ١٢١/٢ - ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٨٩/٢ - ١٩٠ وانظر ٤٩/٢ ، ١٠٣/٢ .

(٣) الصحيح [زائرًا كريمًا] .

(٤) الرسائل : ٦٠/٢ .

((يوم كنا والقرية معزولين في الصحراء كانت الحياة معنا في عزلتنا ربيعًا وكنا معها أطيارًا لا نخشى على قوادمنا من الرماة ، ليس فينا جناح كسير وليس فينا أعاصير نفسية ، فلا قلق ولا سأم ولا تصور فاحش عن الله ، عن الكون ، عن الشيء وضده ، سعداء بهذه البساطة وبهذا اللون من الحياة ، نستقبل مصائبنا بالرضى والصبر والاحتمال ، نحمل جنائزنا إلى مدافنها متفائلين لها بالخلود لأن طهارة الصحراء ونظافة تربتها في الجنازة لا تجعلنا نرتاب في رضى الله عنها . الرقيب على تصرفات إنسان القرية والصحراء من نفسه ، فلا شرطي ولا إشارة مرور لا تأذن لنا بعبور الطريق إلا حين يطيب لها ذلك ، ولا صخب ولا خوف ولا وجوه غريبة ، ولا تعقيدات ولا أهواء ولا سجون ولا قضاء معقد مرتاب في أمانتنا وفي أقوالنا . قضاؤنا واثق بطهارتنا مثلما نحن واثقون به ، في أكثر الحالات يقضي بين الخصمين وهو ماشٍ في أثناء الطريق ، يقضي بالكلمة فتكون مقبولة وتكون حكمًا شرعيًّا سجلته في الوجدان وفي الضمير الكلمة لا فم القلم !! الدولة في بساطة كل إنسان وفي طهارته فلا كسرى ولا قيصر بواقفة حاشيتهما الغليظة على بابه ، أبدًا .)) [(١)] .

ذلك هو الماضي ، في الصحراء والقرية الهاجعة في قلبها ، وطبيعة الحياة فيها ، وحركتها على مختلف الخطوط ، وذلك هو العالم الذي استوعب طفولة الشيخ وشبابه ، وذلك هو العالم الذي يسكنه ويجذبه إليه من واقعه الحاضر .

٢- مصير الماضي :

ولكن ما مصير هذا الماضي بمادته وروحه ؟

ذلك هو ما يكشف عنه الشيخ في نمط آخر من أنماط العودة الوجدانية إلى ذلك الماضي .

لقد تحولت الصحراء ومحتواها إلى رسوم وأطلال ، وجفاها حفيد إنسانها ، وسكنها غير أهلها !!! يقول :

((هل بقي للصحراء وذكريات الصحراء من يقبل بها رسومًا وأطلالاً ؟ ....

ولدي :

أين الذئب ؟ فالجبل الذي ترددت أصداء عوائه على جنباته هو اليوم حزين تصرخ الثعالب فيه من منازل العقبان وفي غابات الذئاب .)) [(٢)] .

---

(١) الرسائل ٢/٥١ - ٥٢ وانظر ٢/٤٧ - ٥٠ ، ٢/١٧٢ - ١٧٣ ، ١٤٥،١ - ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٩٥ وانظر ٢/٢٣٩ - ٢٤٠ ، ١١٣ - ١١٤ .

والقرية بمحتواها المادي والمعنوي - أيضًا - ((صارت .... إلى ذكرى ....)) [١] .

فعيد القرية : ((...كيف أصفه لك وقد صار إلى حلم وطلل نمرّ به في ذكرياتنا على أفواه السكك ؟)) [٢] ، و ((... بيت الطين البسيط الذي بناه الأب وولدت فيه الأم أفراخها ، جار عليه الابن اليوم ، فهدمه وأقام عليه لونًا آخر من ألوان مزاجه ونفسيته وما أوحت به ظروف الحياة إليه وفرضته .)) [٣] .

ذلك هو مصير الماضي - كما رآه وصورة الشيخ - وهو مصير مفجع يحرق النفس ، ويعذب الوجدان .

٣- بكاء الماضي :

لحق الدمار المادي والمعنوي - إذن - بعالم الطفولة والشباب والقيم والأمن ، فراح وجدان الشيخ يحترق ، وانبرت الجروح تنزف بالألم والمعاناة ، وذهب في نمط آخر يطوّف بوجدانه المكلوم بين أنقاض ذلك الماضي ، ويقف على رسومه في ذاكرته وقوف بكاء وأنين وعبرات ودموع .

وها هو ذا يطرق أبواب الجيران في لهفة ، ويقول :

((ولدي

أكتب لك هذه الرسالة من سكك قريتي .... طرقت بيت عمرو ثم بيت أخيه زيد فردت عليّ أصداء النفس أن قد رحلوا ، حاولت أن أقص الأثر فإذا الرياح قد كنسته ، فاضت العبرات وتساقطت الدموع وتثاقل القدم يوم أثقلته الهموم .)) [٤] .

فلما لم يجد أثرًا لأحد منهم ذهب إلى أسواق القرية ، يقول :

((مشيت في أسواق القرية وطال تجوالي ....)) [٥] و ((ظللت أسير في أسواق القرية أبحث عن أهلي في مساجدهم أو في مقهى القرية العام أو في مكان اللقاء الذي تعارفوا عليه فلا أجد غير الذكريات والصور المتحركة في الذهن .)) [٦] ، وانطلق إلى مزارعها ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه ١٨٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢٢/٢ وانظر ٤٧/٢ - ٤٩ ، ٥٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٤٧/٢ - ٤٨ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٣/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٤٧/٢ .

((مشيت إلى مزرعة الصديق والفلاح ، لعلّي أجد هناك من يعطيني الخبر ويبقيني ضيفًا عليه ، وعندما لم أجد غير النخلات ساكنة رياحها لا تميل واحدة منها إلى أختها، ساءلتُ نفسي ، أهنّ حزينات مثلي ؟ .. وعلى ماذا ؟ .. أتراهن صرن إلى ماض عند تقدمية العصر ؟ لا أدري ولكن القرية التي كانت دنيانا وكانت عالمنا وكانت مسجدنا الذي يصلنا بالسماء ويستر عوراتنا ويجمع شتات نفوسنا هي اليوم في خاطري ذكريات وإن قام على الكوخ القصر وعلى الظلام النور ، هي في خاطري جرح ينزف ألمًا ، أجمع له أقداح القرية التي كانت مملوءة كرمًا وعطاءً لأصبه فيها حتى لا ينطرح على التراب . ولأن الجرح عميق أختار لذكرياتي أبعدها في مسار النفس ، أذهب إليها في ملاعب صباي فأرى الرفقاء واحدًا واحدًا يتراكضون في خاطري على قيعان القرية يستنون كما تستنّ صغار الإبل في أيام الربيع فتجثو الذكرى على ركب الألم تحتضن الصورة التي لم يبق معي غير ظلالها ، ....))[1] .

إنه ذهول وغرق في الألم : ((غرق في الألم .... الذي أذهلني يوم زرت قريتي ورأيت كل ما فيها قد تبدّل وتغيّر .))[2] .

ماذا يفعل إذن ؟ !!!! ((فلما لم أجد قريتي في أثوابها التي عليها ، خرجت إلى مدافن الموتى ، وهناك ، وقفت بينهم ، ولكن الصور لم تقف ولم تمت ولم تكن التي دفنت في التراب بل عرضت لي نفسها أحزانًا وآلامًا وعبرات أنطقت فينا الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة .))[3] .

وإزاء هذا فـ ((... كل ما أستطيع أن أفعله الآن .... أن أخط لك رثائي وأحزاني من قلب هذه المدافن التي فيها أهلي وأحبابي ومن قضيت عمري معهم وسبقوني إلى هذا المصير وظللت وحدي أحملهم معي في يقظتي ومنامي ..))[4] .

إنها أزمة نفسية ، وعاطفية حادة ، يسكبها في أعماق الشيخ مصير عالمه هذا ، تلك الأزمة التي يرصد خطاب الشيخ ـ هنا ـ روغانه الوجداني وأناته تحت كلكلها الحاد .

---

(١) المصدر نفسه ٢/٤٨ ـ ٤٩ وانظر ٢/٥٢ ـ ٥٣ ، ١٣٣ ، ٣٦٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٥٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٥٣ وانظر ٢/٤٧ ـ ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٥٤ . وانظر ٢/١٧٢ ـ ١٧٣ .

٤- الحنين إلى الماضي :

ذلك - إذن - هو العالم الحالم الذي ينزع إليه الشيخ من بؤرة واقعه الحاضر ، وذلك هو مصيره المؤلم ، وذلك - أيضًا - هو وقع ذلك المصير على وجدان الشيخ .

ولكن ، هل استسلم الطفل والشاب والشيخ والمبدأ في أعماقه لهذا الواقع ؟ وهل أخمد ذلك في نفسه طموحات العودة إلى عالمه الجميل ؟ .

أبدًا ، لم يحصل ...!!

فها هو ذا الشيخ يحمل - بأمانة ووفاء وحب - ماضيه زمانا ومكانًا وكائنًا وواقع حياة في جميع تجلياتها ، إنه يحمل كل ذلك في أعماقه أينما ذهب ، متجاوزًا بها عوائق الزمان والمكان وظروف العصر ، ها هي ذي تسكنه ويسكنها ، وتحيا فيه ويحيا فيها ، وتصدر عنه ويصدر عنها ، فهي بذلك عالمه الحي الذي شكل ولا يزال - ويقيني أنه سيظل - يشكل حركة الشيخ ، وهو بذلك عالمها الذي تنغرس فيه في طمأنينة وأمن ، وتحقق فيه ومن خلاله وجودها [1] .

ويأتي الخطاب في هذه الرسائل ليصور ذلك الالتحام القوي بين الشيخ وماضيه ، من خلال الأنماط المنوه عنها آنفًا ، ومن خلال نمط رابع ؛ قوامه الحنين المباشر الذي لا يهدأ ولا تنطفيء جذوته ، ومما يمضي في هذا النمط قوله :

((ولدي :

أينما ذهبت أحمل معي قريتي القابعة وسط الصحراء ، أحمل معي ذكريات طفولتي وطفولة أقراني ، وكم تمنيت أن تبقى قدمي في حدود القرية وأن حاولتْ تجاوزها تنكسر ، وكم تمنيت أن أبقى في تلك الصورة التي كنا عليها ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ...!)) [2] .

فحنين الشيخ إلى ماضيه يحمله على أن يتمنى أن لم يكن غادرها – أصلاً – ولكن لأن ذلك متعذر ؛ فليحملها معه ، وليعش فيها بروحه ووجدانه أينما ذهب ، حتى وهو في سفينة الفضاء ، يقول :

((ولدي :

أكتب لك هذه الرسالة من فوق السحاب ، من فوق المحيطات ، وهي أجواء ليس فيها مدفن لعزيز علينا ، وليس فيها رائحة الخزامى وشجرة الرمث ، وليس فيها مضرب خيام امرئ

---

(١) انظر الرسائل ٦٩/٢ - ٧٠ ، ٢٩/١ ، ٧٤/٢ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٧٢ .

(٢) الرسائل ١٨٦/٢ .

القيس أو قس بن ساعدة ، هي قفر لم يلحق بها جناح غير الجناح الذي حملني إلى هناك . وحملت إليك مشاعري وحنيني إلى الصحراء والبحار العميقة التي تجاوزتْ أخطارها وظلمتها ووحشتها جمجمة الإنسان المعاصر ، أتراها هي الأخرى أذهلتني عن قريتي وعن صحرائي....، أبدًا)) [١] .

وحتى وهو في عقر دار الحضارة ، يقول : ((... وعواصم القوم التي بعد لحظات تحط بنا سفينة الفضاء في قلبها ، أتراها أخذتني إلى ملذاتها وإلى انفضاحها وإلى تعريها وتبديها في إغراء غير محتشم فتُنسيني القرية والصحراء ، أبدًا)) [٢] .

وحتى وهو على ضفاف بحيرة ((أنسي)) مع أصدقائه على أطراف ثياب الشقراء ؛ فإنه في الوقت الذي تتسلط فيه دهشة جمال هذه البحيرة ، وفتنة الطبيعة فيها وفيما حولها على ألباب أصدقائه ، فإن هذا الجمال ؛ وتلك الفتنة لا تعدو في عين الشيخ أن تكون علامة إحالة إلى جمال الصحراء وفتنتها [٣] .

هكذا يحن الشيخ إلى ماضيه حنينًا حارًا ، ويتوق للعودة إليه واقعًا ماديًّا ومعنويًّا حيًا ، يقول :

((وذكرياتنا مع هذا الوادي ومع الجبال المحيطة به هي التي أحن إليها وإلى أيامي معها ... فهل لي بقية من العمر أستطيع معها أن أعود إليه ؟ فأبني خيمتي على جناحه إلى أن يأتي قدري فيطوي الخيمة ثم يدفنني في التراب الذي بُنيتْ عليه ؟)) [٤] .

ولا غرابة بعد ذلك أن يقول عن رسائله : إنها ((... في أكثريتها تائهة مع الخيال ، وجانحة بي في متاهات الصحراء ، التي لا أرى في هذا الكون مكانًا أعز على نفسي وأكثر جمالاً منها ، فقد قلت في إحدى الرسائل : لن أتركك يا أرضي وإن رحل كل البشر عنك وراحوا بعيدًا إلى النجوم ... !)) [٥] .

نعم ، إن الشيخ ليزداد تشبثًا بالماضي ، والتصاقًا به ؛ كلما ازداد تسلط هذه الحضارة على واقعه ، وتحكمها في حركة حياته ، يقول :

---

(١) المصدر نفسه ٢/١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/١٨٩ .

(٣) انظر الرسائل : ٢/١٢٣ - ١٢٧ .

(٤) الرسائل : ٢/٦٠ ، وانظر ١/٣٩٤ ، ٢/١٢٣ — ١٢٦ ، ١٢٩ — ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٨٨ - ١٨٩ .

(٥) المصدر نفسه : ١/٢٠ .

((ولدي :
هذه صورة من صور الماضي فينا ومعنا ، وهذا حنين وبكاء لم تستطع هذه الحضارة ولن تستطيع هذه المدنية التي أنتم من جيلها أن تمحو من نفوسنا حياة عشناها جدّدت ذكراها في نفوسنا هذه الحضارة .)) [1] .

لكأني بهذا الخطاب المركّز يؤكد ما ذهب إليه الدارس في رصد معاناة الشيخ بين هذين الواقعين ، إذ يشير على نحو ما إلى انصراف خطابه في هذا السياق ؛ إلى رصد الماضي الحيّ كما كان معه ، وكما آل إليه ، وكما أصبح في أعماقه ذكرى ، بعد أن أتت عليه الحياة المعاصرة ، كما يشير إلى حنين الشيخ إلى ذلك الماضي وبكائه عليه ، وإلى حضوره الفعّال في وجدانه رغم أنف الحضارة التي يمجها ذلك الوجدان ، ولا يزيد الشيخ إيغالها في إزاحة الماضي والضغط عليه ومضايقته إلا تشبثًا منه بماضيه والتحامًا به .

وإن لكل شيء من ذلك معاناته ، وآلامه الخاصة ، و إن لذلك في مجموعه بما يولده من تصادم شعوري عنيف معاناة أخرى .

تلك - إذن - هي المعاناة الوجدانية المركبة التي يعكسها خطاب الشيخ في سياق الهم الخاص ، معاناة رحلة حياة وتجارب ، ومعاناة وجود كوني ، ومعاناة تنازع بين وجودين وواقعين وانشطار بينهما ، على نحو يبدو معه وجدان الشيخ مسرحًا لصراع حاد مؤلم ، ومعركة شعورية بالغة القسوة .

الثاني : صراع الهم العام :

إذا كان ما مضى رصده من خطاب الشيخ في هذا المبحث قد ركّز على الكشف عن حركة الهم الخاص ، وتصوير المعاناة التي يحقنها في وجدانه ، ويثيرها فيه واقعه الإنساني والحياتي الخاص فإنه - هنا - ينصرف إلى الكشف عن معاناة الشيخ لهموم عامة ، ركبت إلى وجدانه وتركب متن غيرة العربي المؤمن الأصيل في ؛ ولائه ، ووفائه ، وخوفه ، وحبه لمبادئه ووطنه وأمته وإنسانيته وشعوره بالمسئولية ، ومواقفه في هذه السياقات ، وهي مشاعر يحركها في أعماقه — في حدة - الواقع العام في مختلف قطاعاته .

---

(١) المصدر نفسه ٢/٥٥ .

يقول :

((ولدي :

لي هنا حرية الكتابة إليك ، وليس لي التجاوز على حريتك ، لي حرية الاختيار في الطريق التي أمشي عليها ، أرثي الجنازة وأصلي عليها أو أتوارى عنها وهي سائرة وأترك لها ولحامليها على أكتافهم عبور الطريق دون أن أعترض مسيرتها ، ولكني أرثي لكل جنازة إن كانت ماشية على أقدامها أو محمولة إلى المدفن .

ولوعتي على الجنازة ورثائي لها حيثما كانت عليه هي التي تملي عليّ في كل رسائلي إليك ترحّمي عليها وحبي لها ومشاركتي في العزاء فيها ، ولا أكثر إيلامًا وأكثر فجيعة من أن تصل جنائزنا نحن العرب إلى المدفن ، وهي في سلوكها جنازة ، كل قيمة ترثيها رثاءً أليمًا وحزينًا . ووالدك ألا ترى أنه واحدة من الجنائز ....))[1] .

هم عام - إذن - يتحرك في دائرة الواقع بكامل قطاعاتها وحقولها[2] ، وإن كان التركيز هنا ينصب - في أعمق اختراقاته - على قطاعها الإنساني الأعلى .

لقد كانت الأمة في مستوييها ، ووجودها ، ومقومات هذا الوجود الروحية والفكرية والثقافية والأخلاقية والإنسانية ، وما ينظم حركتها ويحفظ لها توازنها على خط التاريخ الطويل — بين ماضٍ مشرق في علوه ، وقاتم في سفحه ، وحاضر قلق ، ومستقبل مجهول - وما انبجس وما ينبغي أن ينبجس عن هذه الحركة من معطى إنسانيّ وحضاري ، هي الهم الأول الذي نبتت الرسالة وتشكلت في بؤرته ، وصدرت عنه ، وتمحورت حوله ، تقرأ وترصد وتحلل وتعالج .

ومن هنا فليس من المبالغة في شيء القول إن الرسالة بكاملها تأتي بصورة أو بأخرى لترصد معاناة الشيخ لهذا الهم العام ؛ الذي يتجاوز معاناة همومه الخاصة ، ليشمل معها معاناته لهموم مجتمعه ووطنه وأمته ؛ بل وهموم الإنسانية كلها في ظل واقعها المعاصر الحرج .

ومن هنا - أيضًا - كانت الرسالة - بجميع مضامينها - ثمرة ناضجة لذلك الهم ، ولذلك كان من المتعذر - هنا - تتبع هذا الهم في روافده ومساربه وتجلياته بما يتجاوز الإشارة الخاطفة التي

---

(١) المصدر نفسه ١٨١/٢ وانظر ما يؤكّد هذا أو ينعكس عنه في تجليات أعمق ٩٣/١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٣٥ ، ٨١/٢ - ٨٢ ، (١٦٧ — ١٧٣) ، (١٧٧ — ١٨٢) (٢٢٧ — ٢٣٣) ، (١٧٤ — ٢٧٥) ، ٣١٨/٢ .

(٢) ستكون هذه الدائرة مدار الدرس في الفصل التالي إن شاء الله .

تحيل إلى كامل فصول هذه الدراسة في جانبها الموضوعي - بجميع عناصرها - حتى في هذا الفصل الذي يبدو - لأول وهلة - أنه يدور في حدود استقطابات الشيخ لذاته الخاصة ، بمنأى عما هو خارجها .

فإذا أمكن الانعطاف إلى هذه الدراسة لرصد تجلي هذا الهم العام الذي ينتظم فصولها الموضوعية اتضح أن الشيخ حين يتحدث عن ذاته في سياقها الإبداعي ، أو عن رسالته ، أو عن متلقيه - كما يتجلى في الفصل الأول - فإن ذلك لا يأتي إلا في إطار برامجه لإيصال هذه الهموم العامة إلى متلقيه بشكل واضح مؤثر ، ودعوة صريحة وغير صريحة لذلك المتلقي إلى المشاركة الفعّالة في تحمل نصيبه من هذا الهم ، ومباشرة مسئولياته الكونية بعزيمة وإخلاص .

وحين يتحدث عن ذاته الخاصة في الخطاب المرصود في هذا الفصل ؛ فإن حركيّة الخطاب ومقاصده الأعمق تأتي في الإطار ذاته ، من خلال الكشف عن الواقع الحرج الذي يعيشه الإنسان العربي المؤمن الغيور على مقومات وجوده الكوني المادية والروحية والإنسانية ، ومحاولات علاج علله .

وحين يأتي - في الفصل الثالث - ليتصدى لرصد الواقع الوطني والعربي والإسلامي والإنساني ويحلله ويعالجه - كما سيتضح - فإنه يظل في بؤرة هذا الهم الذي يدفعه إلى تلك الحركة الإبداعية المهمومة بذلك الواقع .

وحين ينصرف الخطاب إلى الإطار الكوني - كما سيتضح في الفصل الرابع - فإن ذلك يتم في نطاق هم إنساني عام يدفع الشيخ إلى محاولة فهم ذاته الإنسانية ، ووظيفتها ، ودورها في سياقها الكوني محاولاً من خلال ذلك إيصال صوته ورؤيته الكونية المسلمة إلى متلقيه المقصود بالخطاب المباشر ، و إلى أخيه الإنسان - عمومًا - في الإطار الذي يحضن حركة الإنسانية كلها وتتلاقى فيه .

وحين يتحرك الشيخ في خطابه ما بين الإبداع والذات والواقع والكون كشفًا ورصدًا وتحليلاً وعلاجًا ؛ فإن ذلك - كله - يأتي في سياق هم والد وهاجس محوري تدور حوله الرسالة كلها ، ذلك هو الهم التربوي الذي تكرست الرسالة بتمامها لإيصاله إلى الشريحة التي ينصرف إليها الخطاب في اتجاهه المباشر ، وهي الشريحة المتوالدة في أعماق وجود هذه الأمة ، التي يعلق عليها الشيخ وعلى فعلها آمالاً عراضًا في صناعة وتحقيق تجاوز أمتها لواقعها المؤلم ، وما خروج الشيخ من هذا الإطار - حين يخرج - إلا فيوضات هذا الهم المحوري ، أو هوامش عليه من

الإحالات والشروحات والتوضيحات والأساليب التي تستهدف - في المقام الأول - إيصال صوته الذي يحمل هذا الهم كاملاً في محتواه وتأثيره إلى متلقيه.

ويكفي لتأكيد هذا - كله - العودة إلى الإهداء [1] والمقدمة [2] والخاتمة [3] التي أطّر بها الشيخ مؤلفه دون الغوص للبحث عما يؤيد هذه الرؤية ، وإن كانت الرسالة - بكاملها - تؤيده على نحو مباشر وغير مباشر ، ففي هذه القطع الثلاث تتجلى ملامح هذا الهم ، وخطوط هذه المعاناة العامة ، هما ومعاناة وصلت في فعاليتها وقوة ضغطها على وجدان الشيخ درجة احتمال مخاض إبداعي عسير طويل نتج عنه ولادة رسالة شغلت أربعين وثمانمائة صفحة ، مع ما لهذا المخاض من امتدادات عميقة في إبداعات الشيخ السابقة لهذا المؤلف والتالية له .

تلك هي ملامح الذات ، في أطرها الاجتماعي ، والثقافي ، والفكري ، والروحي ، والوجداني ، وتلك هي الخطوط البارزة لحركة هذه الذات في تلك الأطر ، كما كشف عنها خطاب الشيخ عن ذاته ؛ فهل استطاعت هذه القراءة - المحدودة - أن تكشف عن شيء من حقائق وجماليات اللوحة التي رسمتها ريشة الفنان لتجسد شخصيته في هذه الأطر كما وعاها ؟

ذلك ما يرجوه الدارس ، على أنه يريد - هنا - أن يلفت النظر إلى أنه أمام ترامي مساحة النص ؛ وخصوبته ، وازدحام قضاياه ، وأمام القيود التي تقيمها في طريقه الظروف التي أنجزت هذه الدراسة في ظلها ؛ فإنه قد اضطر إلى أن تبقى معالجاته للنص - في هذا الفصل بالذات -- في حدود الإشارة السريعة ، ورصد ملامح السطوح ، والعبور الحذر الذي يتجنب استثارة ما في خلية النص وما وراءها - شأنه في ذلك شأن غيره من الفصول - إذ من شأن ذلك أن يفتح أبوابًا لا طاقة لهذه الدراسة المتواضعة على احتواء أو استيعاب تدفقاتها .

---

(١) انظر الرسائل : ٧/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥/١ - ٢١ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٠٩/٢ - ٤١٢ .

الفصل الثالث

الخطاب في دائرة الواقع

القطاع الأول : في واقع الـذات

القطاع الثاني : في واقع الآخر

القطاع الثالث : في علاج الواقع

توطئـــة

اتسعت مساحـــة الخطاب الـذي وجهـه الشيخ إلى قـراءة الواقـع التـاريخي في قطاعاتـه الوطنية ، والعربية والإسلاميــة ، والعالمية محـاولاً مـن خـلال ذلـك عـرض هـذا الواقـع في كافـة حقوله ، وواقع الإنسان وحركته في خضمه ، ورد مظاهر هذا الواقع إلى عللها وأسـبابها الأولى ، ليخلص بعد ذلك إلى محاولة علاج هذا الواقع ، ورسم الطرق إلى تجاوزه ، من خلال اقتراح جملـة من الدعائم التي يمكن أن تتكئ عليها الأمة ، إن هي أرادت أن تتجاوز واقعها ، وتتحرر من ربقته بذاتها وبالإنسانية كلها ، ممارسا من خلال ذلك ـ كله ـ دوره ، ومباشرًا مسـئولياته تجاه عقيدتـه وأمته وإنسانيته [١] .

تأسيسًا على ذلـك ، ستتجه هـذه الدراسة في هـذا الفصـل إلى قـراءة جهـود الخطـاب ونشاطاته في القطاعات التالية :

القطاع الأول : في واقع الذات :

في هذا القطاع ؛ يوجه الشيخ خطابه إلى قراءة الذات الوطنية ، والعربية والإسلامية ، في خضم واقعها التاريخي قراءة رصد وعـرض وتحليـل وتفسـير ومحاكمـة لا تفتقـر إلى القـدرة علـى النفاذ ، والعمق في التشخيص ، والجرأة في المواجهة ؛ على نحو يمكن رصده وتنظيمـه وعرضـه في الحقول التالية :

الحقل الأول : في واقع الوطن :

في هذا الحقل انصـرف الشـيخ إلى مقاربـة الواقـع الوطـني في بعديـه التـاريخي السياسـي ، والحضاري الاجتماعي ؛ في خطوطه العامة ؛ ابتداءً بالدرعيـة ؛ زمانًـا ومكانًـا وإنسـانًا ومنهجًـا ، وانتهاءً بالمرحلة الزمنية التي أنجز فيها رسالته ، فجاءت صورة الواقع في هذين البعدين على النحو التالي :

الأول : البعد التاريخي السياسي :

اتجـه الخطاب في هذا البعد إلى تسجيل وقفـات الشـيخ أمـام بعـض مشـاهد مسـيرة هـذه البلاد ؛ ورجالهـا علـى خط التاريخ السياسي ؛ منذ كانت هذه المسيرة دورًا تاريخيًا يحمله الشيخ

---

(١) انظر الرسائل ١/١٦ - ١٧ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٨٢ ، ٢/٢١٧ - ٢١٨ ، ٤٠٢ .

محمد بن عبدالوهاب على أكتافه ؛ متنقلاً به في نجد من قرية إلى أخرى ؛ في حركة بحث عمن يحمله معه وينصره ويذبّ عنه ، مرورًا بانطلاقها من الدرعية ، وحتى استقرارها في رياض الحاضر .

في هذا البعد ستمضي هذه الدراسة إلى متابعة نشاط الشيخ أمام تلك المشاهد قارئًا وراصدًا ومحللاً .

ففي رصد حركة الشيخ ((المصلح)) بين قرى نجد ـ آنذاك ـ وهو يحمل عقيدة التوحيد الصافية ، باحثًا عمن ينصره ، ويتبنى دعوته من زعماء نجد يقول :

((فرحم الله حامل الدور على أكتافه الماشي به من قرية إلى قرية ومن فدفد إلى فدفد مناديًا على نفسه : ألا من يستقبلني ؟ ألا من يتستضيف عقيدة التوحيد ؟)) [١] .

وعن حقيقة العقيدة التي جاء الشيخ ((المصلح)) يحملها، وانتمائها ، ووعيه لها يقول :

((وهي عقيدة سلفية حنبلية لا قيد عليها من فلسفة أو تذبذب في الذهن فقد وضحت وضوح الشمس في ذهن الشيخ رحمه الله ....)) [٢] .

وعن ترحيب الدرعية الحارّ بالشيخ ((المصلح)) و((بالدور)) الذي جاء به ، واستعدادها المطلق لحمل ذلك الدور ، والاضطلاع بتبعاته دون سواها ، والأسباب والمقومات التي تتكئ عليها في قبول هذا الدور ، وتحمل مسئولياته الخطرة رغم بساطة عدتها يقول :

((ويوم أضناه السير وجفاه هذا وذاك أشارت إليه الدرعية أن تعال إليّ نزيلاً لا ضيفًا ينزل اليوم ويرحل غدًا ، تعال إليّ وإن كنت قرية بسيطة هاجعة على جناح الوادي ...نادته أن تعال إليّ ، فهنا الإيمان بفكرة التوحيد ، وهنا الإمام المهيأ لمناصرة الدور ، ليس هنا مسيلمة الكذاب ، لعل التاريخ ولعل الأقدار والأزمان تغسل أثر هذا بذاك ، لعل نكران مسيلمة وردة الأعراب عن رسالة يثرب في هذا الوادي غسلت عارها ونجاستها فكرة التوحيد ونظافة الصحراء ...)) [٣] .

وقبل الشيخ عرض الدرعية ، وأتى إليها ، لكنه ((لم يأت خارجيًا ولا معتزليًا ولا طالب مجد ، ولا ثالبًا لكرامة ولا مؤذيًا لآمن ، ولا باغيًا على حق ، أتى سائرًا على قدميه لا يملك غير

---

(١) الرسائل : ٢/٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٤٠ - ٤١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٤١ وانظر : ٢/٤٢ ، ٢/٣٤ .

عقيدته التي حملته على أحر من الجمر فصبر واحتمل ....))[١] .

وإذن فقد أتى يحمل معه التوازن التصوري ، والإخلاص المتجرد من الغرض ، وصيانة إنسانية الإنسان وأمنه ، والعدل ، في وعاء دعوته السلفية ، نعم ، لقد ((... أتى ماشيًا على قدميه حاملاً معه عقيدة التوحيد وتنظيف عقل الإنسان وفكره من الخرافة من ناثرات الودع ، من زاجرات الطير ، من الواقفات على القبور والواقفين عليها .. يستجدون الأمان لأنفسهم ..))[٢] ، ((فما أكثر الخاطرات التي تمر في ذهني الآن عن عالم البشر آنذاك ، عن مدنه المكتظه ، عن تزحلقه في أعماق القاع ...))[٣] .

أما الدرعية فلقد رحبت بالدور لأنها ((قدرت أنذاك أن الاختيار العظيم الذي هبط عليها وحدها حاملاً معه دورًا تائهًا في عالم البشر قد اختار الصحراء وطهارتها لائذًا بها ، لا ليكون ضيفًا ثقيلاً ينزل اليوم ثم يقال له غدًا ارحل ! فليس لدينا قرى ...! لم تقله الدرعية مثلما قاله غيرها ، رحبت بالدور لا لتبني إمارة أو أميرًا ، ولكن لتبني وحدة قرآنية ، وحدة لحمتها وسداها من فضائل الدين وخصائص الصحراء .... تاقت إلى أن ترفع عن إخوانها العرب في البلاد العربية وإخوانها المسلمين الظلم والخرافة ....))[٤] ، لقد ((أرادت بهذه الأمة الخير وأرادت لها الوحدة ، ....))[٥] .

أهداف كبيرة تتمحور حول إعادة بناء الأمة ، عقديًا ، وسياسيًّا ، وإنسانيًّا ، على الأسس التي قامت عليها في زمنها الأول .

على هذه الأهداف التقى الشيخ والأمير ، وخطوا في اتجاهها على الدرب الطويل ، يقول :

((وقد حملها الشيخ رحمه الله ، وذبّ عنها وناصرها إمام لن يختفي من أذهاننا ما دمنا مؤمنين ومسلمين ...))[٦] .

التحام قوي ـ إذن ـ بين شيخ وأمير وقرية وعقيدة وتاريخ ، والتقاء على أهداف نبيلة .

---

(١) المصدر نفسه ٢/٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٤١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٣٤ وانظر ٢/٣٣ ـ ٣٤ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/٣٥ .

(٦) المصدر نفسه : ٢/٤٢ .

وانطلقت المسيرة ، وتحرّك هذا الخماسي من الدرعية على الطريق الشاق باتجاه تحقيق تلك الأهداف .

عن هذه الانطلاقة ، وعن الجهد المبذول في تحقيقها ، وعن منجزاتها الأولى يقول :

((وعلى قدم قوية لم تتهيب وعورة الطريق خطت الدرعية آنذاك ، وسارت تجمع ما تبدد وتسعى إلى وحدة العرب والمسلمين ، يوم وحّدت شبه الجزيرة العربية يوم أذلّت الجبابرة وأمّنت الخائف وارتفع صوت المؤذن .... فمشَت قوافل التوحيد أرتالاً أرتالاً ....)) [١] .

لكن المنتفعين من الشتات والضلال القائم من أصحاب الأهواء والطموحات الخاصة يستيقظون على حركة المسيرة فيعصف بهم الهلع والغضب ، إلى ذلك يشير قائلاً : ((ويوم سمع المرتابون في عالم البشر والمنتفعون والضالون آنذاك حنين إبلهم وصهيل خيولهم ، يوم قال أميرهم في رسالته " من سعود إلى سليم " ألا تتصور أنها تظاهرت أمام أبصارهم وأمام كل شيء متعفن في عالم العرب والمسلمين جيوش خالد بن الوليد وابن الجراح وقتيبة بن مسلم وسعد بن أبي وقاص وغيرهم ... ؟)) [٢] .

فماذا فعلوا ؟ ((... فقال لها أشرار العالم أوقفي خطاك ! ورموا الصخور في وجهها بكل وسيلة حتى تجاوزا المحرم والمقدس ، كم قذَفوا طهارتها ! وقالوا عنها ألأم الأقوال ، ....)) [٣] .

لقد هدموا حيطان الدرعية وحولوها إلى خرائب وجدران متثلمة ، ظنًّا منهم أنهم يهدمون روحها التي تغذي هذه المسيرة وتدعم بقاءها وحركتها [٤] ، لكن المسيرة تستمر ، ويبقى سير التاريخ باتجاه أهدافه الكبرى حثيثًا ((لأن روح الوحدة والتقاء الأخ بأخيه قالت للواقفين حراسًا أشداء على العزلة والفرقة أفسحوا لي الطريق ، فالأصالة معي والرسالة معي والإحساس بالمسئولية التاريخية أمام أجيال آتية معي !)) [٥] ، ولأن: ((فيه ورثة كبار ، كلما حاول معول أن يهدم البنيان ويجعله خرائب تصدى له أحدهم وقال : لا! قالها عبدالعزيز الأول ، وقالها ابنه سعود ، وقالها تركي ، وقالها فيصل ، ثم قالها عبدالعزيز ...)) [٦] .

---

(١) المصدر نفسه ٣٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٥/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٣/٢ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ١٧١/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٧٧/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٤٢/٢ وانظر ١٧١/١ .

وعندما قالها عبدالعزيز ؛ فإنه لم يقلها أنانية ولا شرًّا ولا كسلاً ، ولم يقلها خطب أمانٍ وأحلام هائمة صنعت بليل لمداعبة قلوب البسطاء ، ذلك لأنه لم يكن رحمه الله ((مؤسسًا لإمارة وضع عليها علمه وقال كفى ألمًا فلأسترح ... !)) [١] لم يكن دمويًا ولا كسولاً... ولأنه ((... رجل عظيم لم يعصب جمجمته على مفهوم باني مدنية أفلاطون أو مشعل الحريق في مدنيته...)) [٢] ، ولكن ((... عبدالعزيز المنتصر خلقيًا ونفسيًا وروحيًا ....)) [٣] ، قالها بالفعل القوي المنجز المدعوم بالوعي والواقعية ، فعل يبين ((... كيف يتعالى العِلْم ويضيء جوانح الملك عبدالعزيز في الوقت الذي أنكره واستوحش منه الآخرون .)) [٤] ، وبالفعل الكريم المسئول المنجز أيضًا ((فالمنجزات العظيمة في والدنا العظيم لنلاحقها ولنتابعها في بيوت البسطاء ، في بيوت المظلومين ثم نسائلها ماذا عندك من أخبار ومن قصص ؟ وسيأتينا الرد : افتحوا دفاتركم وسجّلوا أعظم القصص .)) [٥] .

على أسس متينة من هذا الرقي الخلقي والروحي والنفسي، والطموح الواعي، والواقعية ، ونبل الهدف والوسيلة، والصدق مع النفس ومع الآخرين ؛ تسلم الملك عبدالعزيز راية الركب ، وقاده ، وواصل المسيرة على الطريق الطويل ، وكابد مشقاته ، ولكنه حقق الهدف وأنجز ما هو أطول من الطريق ، وأوسع من زمن حركته ((فالطريق التي مشى عليها مؤسس هذه المملكة الحديثة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - طويلة لا يمكن أن نقيسها بالسنوات التي خطاها في وعورة الجبال الشاهقة آلاف الأميال وعشرات السنين.نعم.الطريق طويلة ، ولكن من ذا يستطيع أن يقص الأثر ... هذا هو السؤال المحير ...)) [٦] ، وشمخ ((البنيان الذي بناه وخيرة رجاله وشعبه يوم قام العَلَم الواحد وطويت الأعلام الكثر . لم يكن هذا العَلَم علمًا جائرًا ولا مذلاً للآخرين ، بل رأى فيه كل من أسلم علمه واستسلم لرجل الوحدة أبًا رحيمًا ووالدًا لا نزال اليوم نرث منه هذا السلوك العظيم والسماحة التي لم يلوثها الغضب أو الحقد أو الكره.)) [٧] .

---

(١) المصدر نفسه : ١٦٣/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٢/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٧١/١ .

(٤) المصدر نفسه : ١٦٤/١ ، وانظر ١٦٤/١ - ١٦٥ .

(٥) المصدر نفسه : ١٧١/١ .

(٦) المصدر نفسه : ١٦٣/١ .

(٧) المصدر نفسه : ١٦٤/١ .

وهكذا فإن ((... ما تهدّم في الدرعية بنته العقيدة في الرياض واستعادته على جناح السرعة ولم تمهل طغاة الأرض آنذاك أن تفرح بأن كل شيء انتهى وتهدم يوم تهدمت حيطان الدرعية.))[١]،وها هم أولاء الأنجال يواصلون حمل الهم الذي حمله عبدالعزيز وينهجون نهجه[٢] .

وهنا يلتفت الشيخ إلى حركة الركب على الطريق ما بين درعية الأمس ورياض اليوم ليسجل انطباعاته ، وتحليلاته ، ومواقفه تجاه أحداثها ، وتجاه رموزها الإنسانية والمكانية قديمًا وحديثًا ، وإنجازاتها ، وليدعو أبناء هذه البلاد إلى وعي ذلك ، وتقديره ، والحفاظ عليه ، ومواصلة ما بدأه الأجداد ، وحمل المسئولية التاريخية الملقاة على عاتق إنسان هذه البلاد بحكم دورها القيادي روحيًا وأخلاقيًا وسياسيًا [٣] .

الثاني : البعد الحضاري الاجتماعي :

تضمنت الرسالة إشارات كثيرة تحيل إلى الواقع الحضاري الاجتماعي العام ، و إلى تحوّلاته التي عايشها الشيخ معايشة عميقة منذ فتح عينيه على الحياة ، وحتى الحقبة الزمنية التي أنجز فيها رسالته .

يقول عن هذه المعايشة :

((ولدي :

في تجربتي ، وفي حياتي ماضي القرية ، وعيش القرية ، وإنسان القرية والصحراء ، وفيها أيضًا تجربة المدينة ، وإنسان المدينة ، والطائرة وكل ما في هذه الحضارة وعندها من معطيات وحاشية .)) [٤] .

إن إشارات الشيخ في هذا الإطار جاءت منثورة في أماكن كثيرة من الرسالة على نحو تبدو فيه المساحة التي تحيل إليها الإشارة الواحدة جزءًا منتزعًا من مساحة كلية أكبر ، هي

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٤٠ .

(٢) انظر الرسائل : ٢/٢٣٠ - ٢٣٣ .

(٣) انظر : أ - رسالة : ضيق الصدر من ضيق الوعي ١/٧٣ - ٨٤ .
ب - رسالة : الطريق التي مشى عليها مؤسس هذه المملكة ١/١٦١ - ١٧٢ .
جـ - رسالة : هذه القرية الهاجعة في قلب الزمن ٢/٣٣ - ٤٣ .
وانظر(١/٩٩ - ١٠٩) ، (٢/(١١٥ - ١٦) ، ١٢٦ - ١٢٨ ، (١٦٧ - ١٧٣) (١٧٧ – ١٨٢) (٢٣٠ - ٢٣٣) (٢٥٨ - ٢٥٩).

(٤) الرسائل ٢/٥٠ - ٥١ .

الصورة التي تشخص ملامح الواقع الحضاري الاجتماعي بوضوح تام .

وعند التحليق في فضاء الرسالة في محاولة لتجميع هذه المساحات الصغيرة المنثورة على سطحها ، ومن ثم فرزها ، فإعادة تركيبها ولحمها وتنظيمها في محاولة أولى لإعادة بناء تلك الصورة - يتضح لأول وهلة أن الشيخ قد علق في هذا القطاع الكبير إطارًا كبيرًا ، وفي داخله نقش صورتين متمايزتين تنصرف أولاهما إلى استقطاب الماضي – زمانًا ومكانًا وكائنًا وطبيعة حياة - وتشخيصه والإحالة إليه ، بينما تنصرف الأخرى إلى استقطاب الحاضر – كذلك – وتشخيصه والإحالة إليه - أيضًا ــ كما عاشهما الشيخ ، وكما استوعبتهما تجربته العميقة ، فكانت الصورتان على النحو التالي :

أ - صورة الماضي :

قال الشيخ : ((وأنقلك إلى مضرب خيامنا والسكك الضيقة في قرانا ثم أقودك إلى مجالس سمّارنا وشيوخنا وعجائزنا ورجال ديننا ودنيانا لترى لمحة عن واقع عشناه ورأينا فيه امتدادًا لمن عاشه قبلنا . فإننا لم نجدد ولم نغير في الحياة التي أكسبنا إياها الآباء والأجداد في عاداتهم وتقاليدهم ، نحن مقلدون وارثون وهم أيضا لم يبنوا جديدًا . بنوا لنا مثل ما بنى لهم آباؤهم وأجدادهم لبنة لبنة ، ومقياسا بمقياس ، لم تختلف الملامح ، وإن اختلفت في موقف من المواقف أو في مكان أو زمان تشكّلت في صورتها الأولى وتجمعت في شكلها البيئة التقليدية الموروثة وتاه التغيير وانبهتت ملامحه .)) [١] .

تلك هي الصورة العامة المستقرة للحياة التقليدية الموروثة التي انسربت إلى جيله من الماضي ، فما العناصر الأساسية في تلك الصورة ؟

إنها كمايلي :

١ - الزمان :

الفترة الزمنية التي شهدت طفولة الشيخ وشبابه واستوعبتهما ، ويمكن تحديدها فيما بين عامي ١٣٣٦هـ و ١٣٧٠هـ على وجه التقريب ، مع مراعاة التركيز على العقدين الأولين من هذه الفترة [٢] .

---

(١) المصدر نفسه ٨٣/٢ - ٨٤ .

(٢) انظر الرسائل ٦٧/١، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٢/٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ — ١٢٢ ، ١٨٩ .

٢ـ المكان :

الجزيرة العربية ، مهد الرسالة والإنسانية ، مساحة مترامية الأطراف [١] ، تتمدد الصحراء على معظم رقعتها ، وفي قلب الصحراء " نَجْدٌ " ، وفي قلب نجد ؛ وإلى سفح أحد جبالها تتكئ ((المَجْمَعَةُ)) [٢] ـ قرية الرمز والواقع في خطاب الشيخ ـ وهي القرية التي كانت مسرحًا استوعب تلك الفترة من حياته .

وفي القرية الصغيرة ، تنتصب على ضفاف السكك الضيقة البيوت البسيطة المبنية من الطين ، جلها مكون من دور واحد وأقلها من دورين ، وربما وجد أكثر من ذلك ، ولكنها متلاصقة في دفء ؛ وترابط ؛ وألفة بحيث يحس الجار بنبض جاره على الجانب الآخر من الجدار ، والقليل منها متباعد في اعتدال [٣] ، ومن قلب القرية ترتفع مآذن المسجد المفروش بحصباء الوادي [٤] ، وفي أماكن ما منها ؛ سوق القرية البسيط ، والمقهى العام ، ومكان أشبه بمنتدىً تعارف رجال القرية وشبابها ، ومعهم فتيانها الصغار على اللقاء فيه لتجاذب أطراف الحديث في أوقات تعارفوا عليها أيضًا ، وفي مكان ما منها مصلى العيد ، وبين هذه كلها تنتشر شبكة من السكك الضيقة ، حددت اتجاهاتها وسعتها تلك البيوت وتلك المرافق ، أترعتها جدةً حركة الإنسان الدائبة بين مسجده وداره وجاره وسوقه ومقهاه ومنتداه ومصلى عيده ومزرعته وصحرائه [٥] ، وحركة قطعانه الصغيرة من الأغنام والماعز بين القرية والأودية والشعاب والجبال المجاورة ، وحركة ناقته وجمله وبقرته وثوره ودابته إلى مزرعته ومنها [٦] .

وعلى أطراف القرية وحولها تنتشر مزارع أهل القرية [٧] ، وبالقرب من إحدى حافاتها يسافر الوادي ـ أبدًا ـ حاملاً خير السماء مما استقبلته للتو الجبال والشعاب المجاورة ، فما لبث أن دفعت به على كتفه وأرسلته هدية إلى جاراتها القرى الساكنة على ضفافه [٨] .

---

(١) المصدر نفسه ٨١/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٦٠/٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٧/٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ .
(٤) المصدر نفسه : ١٨٩/١ ، ٤٧/٢ ، ١٢١ .
(٥) المصدر نفسه : ٦٦/١ ، ٤٧/٢ ـ ٤٨ .
(٦) المصدر نفسه : ٢٣/٢ ، ١٨٩ .
(٧) المصدر نفسه : ٤٨/٢ .
(٨) المصدر نفسه : ٦٠/٢ .

أما الصحراء (البادية) [١] التي تحيط بالقرية إحاطة السوار بالمعصم [٢] ، ففي قلبها تلمع الخيمة في كبرياء وعزّة وحرية كما يلمع النجم في قبة السماء [٣] ، وفيها وعلى مقربة من القرية الجبال وكهوفها وطيورها وهوامها [٤] ، وفي وسطها تتحرك الطيور والآرام والجراد والضباع على ضفاف السراب وفي لجته [٥] ، وتتمدد الأودية والرياض [٦] ، أما السماء التي تحضن الصحراء والقرية ففيها السحب الملأى بالخير تزين زرقتها الناصعة [٧] ، وفيها أنثى السماء تتهادى إلى مغيبها وراء سعف النخيل [٨] ، وفي فضائها الليل وقوافله وسراته من النجوم والأقمار والشموس تسري قافلة قافلة محيطة بقمر السماء [٩] .

تلك - إذن - هي أبرز خطوط الصورة في عناصرها الزمانية والمكانية وبعض محتواهما ، وهي عناصر تشكل خلفية الصورة التي تجسدها في عمومها إشارات الشيخ التي تمّت الإحالة إليها هنا .

٣- الإنسان :

وعلى هذه الخلفية يشعّ المجتمع [١٠] ، ويبرز إنسانه في كل مكان فيها ، وقد ملأ اللوحة بالحياة والحركة والإنسانية ؛ في نمطين من الحياة : صحراوي بدوي، وقروي حضري [١١] ،

وينصرف الخطاب في هذا المستوى من اللوحة إلى مقاربة هذا المجتمع من خلال رصد مقوماته وعلاقاته ونشاطه وحركته على النحو التالي :

أولاً : مقومات المجتمع :

تبرز في الصورة عدة ألوان تكشف عن المقومات التنظيمية والمادية والإنسانية التي

---

(١) انظر الرسائل ٢٣/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٢٧/٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٢٢٧/٢ - ٢٢٨ .
(٤) المصدر نفسه : ١٠٣/٢ .
(٥) المصدر نفسه : ١٠٤/٢ ، ١٩٠ ، ٤٠٠ - ٤٠١ .
(٦) المصدر نفسه : ١٢٣/٢ .
(٧) المصدر نفسه : ٦٠/٢ .
(٨) المصدر نفسه : ٩١/٢ .
(٩) المصدر نفسه : ١/ ١٨ ، ٦٦ .
(١٠) المصدر نفسه : ٢٢/٢ .
(١١) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .

تبلورت في ظل الواقع الاجتماعي الموروث والقائم ، واتكأ ويتكئ عليها المجتمع في حركته ونشاطه وعلاقاته ، وفيمايلي أبرز هذه المقومات :

المقومات التنظيمية :

في هذا المجال تنصرف الإشارات في عمومها إلى رسم معالم النظام الاجتماعي القائم حينئذ ، من حيث حجمه، ومستواه الحضاري ، وضوابط حركته العامة وخصائصها ، فهو مجتمع بسيط صغير [١] ، صحراوي قبلي [٢] ، يتكوّن من أسر كبيرة ، تتساوى مع سواها من أسر القرية [٣] في شتى شئون الحياة بما لم يتح مجالاً لظهور الطبقية [٤] ، وتتكتل هذه الأسر فيما يشبه أحزاب اليوم ، وتئول زعامة كل أسرة فيه إلى الأسخى والأكثر احتمالاً وصبرًا وقدرة على قيادة الأسرة ومناصريها [٥] .

في هذا المجتمع ((الرقابة الذاتية ملجمة للمجتمع من الاعتداء على القيم والمثل ، والشواذ قليلون جدًّا.)) [٦] ، و ((... الرقيب على تصرفات إنسان القرية والصحراء من نفسه ، فلا شرطي ولا إشارة مرور لا تأذن لنا بعبور الطريق إلا حين يطيب لها ذلك ، ولا صخب ولا خوف ولا وجوه غريبة ، لا تعقيدات ولا أهواء ولا سجون ولا قضاء معقد مرتاب في أمانتنا وفي أقوالنا . قضاؤنا واثق بطهارتنا مثلما نحن واثقون به ، في أكثر الحالات يقضي بين الخصمين وهو ماشٍ في أثناء الطريق ، يقضي بالكلمة فتكون مقبولة وتكون حكمًا شرعيًّا سجلته في الوجدان و في الضمير الكلمة لا فم القلم !! الدولة في بساطة كل إنسان وفي طهارته فلا كسرى ولا قيصر بواقفة حاشيتهما الغليظة على بابه ، أبدا .)) [٧] .

وفي الأسرة الصغيرة يسكن رب البيت وربته وأطفالهما في بيت الطين الذي بناه الأب وولدت فيه الأم ((أفراخها)) [٨] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥٩/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ١٥٩/٢ .

(٦) الرسائل ٢٤/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٥٢/٢ .

(٨) انظر الرسائل ١٢٢/٢ ، ١٨٩ .

المقومات المادية :

وحين تتجه الإشارة إلى رصد المجتمع في مادياته ووسائله وأدواته ومقومات حياته ، تبدو على جانب من البساطة والتوازن ، إذ الجميع متساوون في كل شئون الحياة حين لم تختل موازين الثراء، ولم ترتفع كفة على كفة بما يؤدي إلى ظهور الطبقية المادية [١] .

الأسرة تملك بيتًا بسيطًا من الطين [٢] ، ومزرعة صغيرة [٣] ، تُزرع وتُحرث بوسائل بدائية قوامها الجمل والبقرة والحمار ، فإن لم توجد فبالمسحاة واليد ، وتُروى من قاع البئر التي يسحب منها الماء بواسطة الجمل أو الناقة أو البقرة أو الحمار - أيضًا - فإن لم يوجد شيء منها سحب باليد وبالجهد الشاق جدًا [٤] .

وإلى جانب البيت البسيط والمزرعة الصغيرة تملك الأسرة قطيعًا صغيرًا من المعز والضأن [٥] .

أما الوجبة التي تصل إلى الأسرة بالجهد الشاق من رب البيت وربته وأطفالهما فمن نتاج المزرعة ، ومن اللبن وربما من الصيد أو الجراد ، وإن كانت في أغلب الأحيان لا تسد السغب ، ولا تسكت الجوع [٦] .

أما الملبس فثوب لا تساوي قيمته قرشا - آنذاك - تخيطه الأم من قطعة من الخام المتواضع وترقعه [٧] ، حتى ثوب العيد الذي يتزين به الرجل والمرأة في يوم عيدهما ، فهو ثوب بسيط لا تتعدى قيمته الريال الواحد ، أو ما يساوي اليوم قيمة حبة برتقال أو تفاح واحدة في ذروة وفرتها .

ذلك عن مجتمع القرية الحضري ، فماذا عن مجتمع الصحراء البدوي ؟

إنه لا يختلف عن أخيه القروي في شيء من بساطته ، غير أن بيت الأسرة فيه خيمة ربما

---

(١) المصدر نفسه ٢٣/٢ ، ٢٤ ، ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠٣/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٣/٢ ، ٤٩ .

(٥) المصدر نفسه : ١٨٩/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ١٠٤/٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤٠١ .

(٧) المصدر نفسه : ٤٨/٢ ، ١٢١ ، ١٨٩ .

صنعتها من أصواف غنمها، أما نشاطه فإنه يتمحور حول مواشيه التي تشكل مصدر معاشه [١] ، أما إذا فكر أحد من هؤلاء أو من أولئك في السفر من مكان إلى آخر فالغالب أنه سيمتطي في رحلته ظهر مطيته في طرف من النهار ، وربما تحت جنح الليل ، وربما في رابعة النهار [٢] .

المقومات الإنسانية :

على الرغم من أن طبيعة هذا المجتمع الصحراوي القبلي هيأت لبروز عنصر التنافس بين الأسر ؛ إذ كانت تتنافس فيما بينها ، وتتكتل فيما يشبه أحزاب اليوم ، إلا أن التنافس لم يكن من الحدة بحيث يخلق تضاريس حادة في العلاقات [٣] ؛ ذلك أن المقومات الأخلاقية والعلاقات الإنسانية الدافئة هي القاعدة العامة التي تتكئ عليها تركيبة المجتمع وبنائه ، ولأن ((الثراء موازينه لم تختل ولم ترتفع كفة على كفة بشكل يقوض موازين الرحمة والعدل والتواضع والتراحم ، لم تكن بيننا طبقة ميّزتها الثروة فجعلتها هدفًا لحقدنا وكرهنا لها ، أبدًا .)) [٤] .

ورغم شظف العيش [٥] وصعوبة الحياة وشح الموارد [٦] فـ ((ما أكثر كرم القوم وأرحب نفوسهم وأطهرها ، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لا يمكن أن يشبع الرجل وجاره جائع ... مجتمع بسيط خلافاته بسيطة ، مشاكله غير معقدة ، يتساوى الجميع في اللبس ، في السكن ، في العيش ، ....)) [٧] .

وإذا جاء العيد رأيت القرية وقد حولها أهلها إلى ((دار ضيافة ودار فرح وعناق ومحبة ، ورأيت القرية يعانق بعضها بعضًا لابسة زينتها ، .... لا شيء يثير الأحقاد والبغضاء ، لا طبقة تعلو على طبقة ، الإيثار والمحبة والصفاء فطرة القرية وإنسان القرية ، البساطة فارشة رداءها من سعف النخيل أو من سعف النفس الذي لم تفجر به أعاصير الغضب والكره.)) [٨] ، فـ ((مع طلوع الشمس نطلع من بيوتنا البسيطة لابسين زينتنا البسيطة ذاهبين إلى مصلانا ، فيه يقبل

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٤٩/٢ ، ٩١ .
(٣) المصدر نفسه : ١٥٩/٢ .
(٤) الرسائل ٢٣/٢ .
(٥) انظر الرسائل ١٠٤/٢ .
(٦) المصدر نفسه : ١٨٩/٢ .
(٧) الرسائل ٢٣/٢ - ٢٤ وانظر ١٢٣/٢ .
(٨) المصدر نفسه : ٤٨/٢ .

بعضنا بعضًا ونعود منه إلى أفواه السكك ، كل منا حامل عيده الـذي أجهـدت أمـه نفسـها في أن يكون من أطيب الأعياد ، كل منا يفاخر صديقه وأخاه بعيده ، يقوم هذا إلى عيد ذاك ليذوقه ولا يتثاقل واحد منـا على عيد والدتـه ويجلس وحده . وشركتنا في الأعياد مثل شـركتنا في اللبـاس ، وشركتنا في المصلى ، وتداعينا نأخذ بعضنا بعضًا بالأحضان ..)) [1] .

إنـه مجتمـع يؤمـن إيمانًا عميقًـا بمكارم الأخلاق ، وجـودة المعـدن ، والتواضـع ، ويعمـل على تطبيقها بقوة ، ويرفض من يخرج عليها أو يجرحهـا [2] ، وفـوق ذلـك فهـو مجتمـع حرّ ، يملك زمام أمره بيـده ؛ إذ ليس له مـن خارج الصحـراء حاجـة يذل لهـا ويتبـاكى عليهـا إذا انقطعت لسبب مـن الأسباب [3] ، وهـو إلى جـانب ذلـك مجتمـع حـذر يشـك في كـل غريـب ، ويتعامل معه بيقظة وحرص [4] .

تلك ـ إذن ـ هي المقومات الأخلاقية والإنسانية والوجدانيـة الـتي تحكـم علاقـات المجتمـع ويقوم عليها بناؤه ، مقومات قوامها ، الرحمة والعدل والتواضع والتراحم والكرم ورحابة الصـدر وطهارة النفس والإيثار والتعاطف والرقابة الذاتية والحرية والاستقلال والحفاظ على القيـم والمثـل والأخلاق الأصيلة .

ثانيًا : حركة المجتمع :

في هذا المستوى من الصورة تتحرك إشارات الشيخ إلى رسم معالم حركة المجتمع ونشـاطه في مجالات الحياة المختلفة ، وإبراز حدود تلك الحركة وذلك النشاط .

ففي مجال النشاط الوظيفي والحركة العامة تبدو الأسرة في علاقـة حـب وتلاحـم وكـدح وتعاون على ظروف الحياة ، كل فيما يلائمه من دور ، فها هو ذا رب البيت وربته منهمكان في تدبر أمور العيش وجلب وجبتهما هما وأطفالهما بالجهد الشاق،وها هي ذي ربةالبيت تخيط ثياب أطفالها وترقعها وتقيسها عليهم ، وتصنع لهم أعيادهم [5] ، وها هو ذا الفلاح في مزرعته البسـيطة يـزرع أرضـه ويحرثهـا ويرويهـا من قاع البئر بمساعدة جمله أو ناقته أو بقرته أو دابته ؛ فإذا لم يجد

---

(١) المصدر نفسه : ٢/١٢١ ـ ١٢٢ .

(٢) انظر الرسائل ٢/٢٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/١٩٠ .

(٤) المصدر نفسه : ١/ ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/١٢١ ، ١٨٩ .

شيئًا من ذلك قام مقامها في كل ذلك [١] ؛ فإذا نما زرعه دخل مع الطير في صراع على حبات السنابل وتمرات النخيل [٢] ، وها أولاء هم الأطفال من أبناء السبع والعشر سنوات يمسكون بآذان عنزاتهم ونعاجهم ذاهبين بها من بيوتهم ، أو عائدين بها إليها من المرعى ؛ ومعها من قوت الصحراء وأعشابها أنظف الشراب وألذه وأطهره ، وها هم أولاء ينصبون على ضفاف الغدران شباكهم لاصطياد القطا والعودة به إلى أمهاتهم [٣] .

أما في الصحراء فتبدو فيها البدوية سارحة أو رائحة مع شياهها ، والبدوي كذلك مع إبله [٤] .

ذلك فيما يتعلق بالكدح في سبيل تأمين لقمة العيش ، وتدبر أمور الحياة ، وهو كدح يستنزف رقعة يومهم وطائفة من ليلهم وجل جهدهم .

لكن الحياة الجادة تحتاج إلى الترويح عن النفس بين فينة وأخرى ، ولذلك لن تعدم من الرجال والفتيان الصغار والشباب من يقضي طائفة من وقت فراغه في مقهى القرية العام ، أو في مكان اللقاء الذي تعارفوا عليه [٥] ، فإذا جاء الليل رأيت بعض الرجال والشباب يجتمعون في مجالس سمر دافئة [٦] ، بينما تجد الأطفال يتحلقون حول أمهاتهم يستمعون إلى قصصها وحكاياها [٧] ، وفي أوقات معينة تجدهم متحلقين حول جداتهم وعجائز جيرانهم يستمعون إلى قصصهن الموحشة مرة ، والمرعبة أخرى [٨] .

وتحت شمس الصحراء ترى الشباب المتدفقين رشاقة وحيوية يصعدون على هامات الجبال ، ويمدون أعناقهم إلى رعاة الغنم والإبل، ويهبطون إليهم ليكونوا في ضيافتهم على شربة من اللبن [٩] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ١٠٣/٢ - ١٠٤ .
(٣) المصدر نفسه : ١٨٩/٢ .
(٤) المصدر نفسه : ١٢٣/٢ .
(٥) المصدر نفسه : ٤٧/٢ .
(٦) المصدر نفسه : ٨٣/٢ .
(٧) المصدر نفسه : ١٠٤/٢ .
(٨) المصدر نفسه : ١٨٩/١ .
(٩) المصدر نفسه : ١٢٣/٢ .

فإذا جاء العيد رأيت الأمهات يخطن ثياب أطفالهن ، ويقسنها ، ويصنعن أعياد أولادهن [١] ، ورأيت الأطفال يقفون على مآذن المساجد يرقبون هلال العيد، ويصفقون لرؤيته ، ويرقصون في أفواه سكك القرية فرحًا بليلة العيد وصباحه ، فإذا طلعت الشمس طلع الناس مثلها من بيوتهم البسيطة لابسين زينتهم البسيطة - أيضًا - ذاهبين إلى مصلى عيدهم حيث يقبّل بعضهم بعضًا ، ويعودون منه إلى أفواه السكك ، وكل من الأطفال حامل معه عيد أمه الذي يفاخر به [٢] ، ورأيت الناس وقد حولوا القرية إلى دار ضيافة وأفراح وعناق ومحبة وصفاء [٣] .

وفي مشاهد أخرى من مشاهد الحركة الاجتماعية والنشاط الدائب ترى الناس في أسواقهم بين مسوق ومتسوق ، وربما كان هناك من أتى لمجرد التسلية أو الاطلاع أو قضاء وقت فراغ لديه ، فإذا حلت الصلاة ذهب الجميع إلى مساجدهم [٤] .

وها هو ذا معلم الكتّاب ينتصب جادًّا في رأس حلقة من الأطفال ، يلوح بعصاه في كل اتجاه ، ويلقن تلاميذه القرآن والقراءة ، وأحيانًا الكتابة ، يتحلقون أمامه وعلى صدر كل واحد منهم لوح يقوم مقام سبورة اليوم ، وهم يكادون ينفرون من خوف المعلم وعصاه، الأمر الذي يجعلهم يتحينون الفرص للفرار إلى رؤوس الجبال ، والاختفاء في كهوفها بين الطيور والهوام [٥] ، وها هو ذا الواعظ يأخذ مكانه من المسجد في أوقات معينة [٦] ، غير أن الحياة والمجتمع هما المدرسة الكبرى التي يتعلم فيها الجميع ولا مجال للفرار منها [٧] ، ومع ذلك ، فإن الحركة الفكرية تظل في الحدود التي أشير إليها في فصل سابق [٨] .

ولكن ، ما حال النفوس مع هذا اللون من الحياة ؟

ذلك ما يكشف عنه قول الشيخ : ((يوم كنا والقرية معزولين في الصحراء كانت الحياة معنا في عزلتنا ربيعًا وكنا معها أطيارًا لا نخشى على قوادمنا من الرماة ، ليس فينا جناح كسير

---

(١) المصدر نفسه : ٢/١٢١ - ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/١٢١ - ١٢٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٤٨ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٤٧ .

(٥) المصدر نفسه : ١/١٩٠ ، ٢/١٠٣ .

(٦) المصدر نفسه : ١/١٨٩ .

(٧) المصدر نفسه : ١/١٧ - ١٨ ، ٦٧ ، ٢/٢٢ ، ٢٣ .

(٨) راجع - الفصل الثاني - البيئة الثقافية . أو انظر ١/١٨٩ - ١٩٠ ، ٢/٨٥ - ٨٧ ، ٩١ - ٩٢ .

وليس فينا أعاصير نفسية ، فلا قلق ولا سأم ولا تصور فاحش عن ا لله ، عن الكون ، عن الشيء وضده ، سعداء بهذه البساطة وبهذا اللون من الحياة ، نستقبل مصائبنا بالرضى والصبر والاحتمال ، نحمل جنائزنا إلى مدافننا متفائلين لها بالخلود لأن طهارة الصحراء ونظافة تربتها في الجنازة لا تجعلنا نرتاب في رضى ا لله عنها .)) [١] .

فأين هذا اللون من الحياة اليوم ؟ وهل بقي له أي حضور في حياة الشيخ ؟

ذلك ما يكشف عنه قوله : ((في هذا المجتمع عشت وتداخلت حياتي معه وصار اليوم إلى ذكرى في نفسي ، ذكرى جميلة وحزينة ، جميلة لأنها قوة تدعمني من السقوط في هوة المدنية المعاصرة ، وحزينة لكونها صارت إلى ذكرى ولم تعد باقية فينا مجسدة ، فملامحها التي أصابها النحول شمسها تدلف إلى المغيب .)) [٢] .

ذلك هو ما أبرزته إشارات الشيخ عن الواقع الحضاري الاجتماعي الذي قضّى فيه مراحل الطفولة والصبا وصدر الشباب ، وهي إشارات عكست في تركيز ملامح هذا المجتمع في زمانه ، ومكانه ومقوماته التنظيمية والمادية والإنسانية ، وحركته الدائبة في مختلف الاتجاهات .

ولكن شمس هذا العالم الجميل بمحتواه المادي والمعنوي غابت ، ولم يعد له وجود إلا في ذكريات الشيخ وسلوكه .

نعم ، غابت ؛ لأن هذه الحضارة وهذه المدنية قدمت بزحوفها ((... فهدمت البيت البسيط وأحرقت الخيمة وأخرجتنا في العراء ، ثم تلقفتنا كأننا لقطاء في الطريق ، لا شيئًا أعطت ، ولا عريًا عندنا كست)) [٣] ، ولأن الناس غرقوا في كرم ((دارين)) [٤] .

ب ـ صورة الحاضر :

لم تكن إشارات الشيخ إلى الحاضر في هذا البعد ـ في عمومها ـ تنصرف إلى الرصد المباشر لمعالم هذا الحاضر ، وتوثيقه تاريخيًّا كما هو ـ إذ كان دائم العزوف عنه إلى الماضي ـ ؛ بل كانت تتجه إلى تسجيل رؤيته ، وموقفه الخاص من هذا الحاضر من حيث جوره على الماضي ، وما ألحقه به من دمار وتخريب ، في ظل الزحف الحضاري والمدني القادم من الخارج ، وفي مسقط تدفقات

---

(١) الرسائل ٢/٥١ ـ ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١/١٥٥ وانظر ١/١٣٦ ، ١٨٧ ، ٣٧٨ ـ ٣٧٩ ، ٢/٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

(٤) انظر الرسائل ١/١٤٥ ـ ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٢/١٧٢ ـ ١٧٣ ، ١٨٧ .

الترف المادي الذي تبجس عنه قلب الصحراء وشواطئ الخليج ، وانعكاس ذلك عليه وعلى جيله ممن عايش الماضي .

ومع ذلك؛ فإنه يمكن تصيد الخطوط العامة في الواقع الحضاري الوطني القائم إبّان مخاض الرسالة من خلال الاتكاء على تلك الإشارات ، لإعطاء صورة بالغة التعميم عن ذلك الواقع .

لقد طرأ تحول هائل على طبيعة الحياة في هذه البلاد [١] ، فمنذ تفجرت آبار النفط بخير الأرض أثرى أهل الصحراء ، وتغيرأسلوب حياة إنسانها [٢] ، إذ كان من المتعذر أن تبقى البلاد بمعزل عما يجري في عالم اليوم ، ففتحت أبوابها لاستقبال المد الحضاري والمدني والعلمي بمضامينها المادية والمعرفية والحركية [٣] ، ومع قوة مدها الجارفة ، ومع ما أحدثته من زلزلة عنيفة في أعماق إنسان هذه البلاد [٤] ؛ إلا أنه قد استطاع – حتى الآن على الأقل – امتصاص هذه الصدمة ، والتماسك أمامها ، والتعامل معها بما يضمن له الحفاظ على هويته الكاملة وتوازنه من ناحية ، وبما يحقق له الإفادة من الوافد إلى أبعد حد ممكن من ناحية أخرى .

يقول الشيخ عن تمكن إنسان هذه البلاد من احتواء الصدمة الحضارية والمدنية والعلمية بالاتكاء إلى عقيدته والتشبث القوي بها :

((فقد فاجأتنا الحياة ونحن نمشي على أقدامنا أو راكبين ظهور جمالنا مفاجأة مريعة ، فاجأتنا ونحن نمشي في أثناء الطريق فأصابنا الدوار العنيف ، لو لم نتمسك بالعروة الوثقى ونشد عليها لجرفنا تيار هذه المفاجأة العلمية وغطنا الموج العاتي في أعماق القاع غذاءً للأسماك الجائعة وسط البحار... !)) [٥] .

ويقول عن الأسلوب الحذر في تعامل إنسان هذه البلاد مع هذا المد الطاغي ، وتماسكه السلوكي والتصوري أمام هذه الزحوف :

((هذه الحضارة ، وهذه المدنية .... لا يستطيع إنسان اليوم أن ينظف ثيابه من رذاذها عليه ، ولكننا نرقب زحوفها علينا بحذر ... نحن حتى الآن لم يتساقط أبناؤنا وبناتنا تحت الأشجار شبه عراة ، ونحن حتى الآن مشدودون إلى السماء .... !)) [٦] .

---

(١) المصدر نفسه : ١٥٥/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٠٥/٢ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧٢ - ١٧٣ ، ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٦/١ ، ١٥٢ ، ١٨٧ ، ١٤٢/٢ ، ١٨٧ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٦/١ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٨٧ ، ١٤٣/٢ ، ١٨٧ .

(٥) الرسائل : ٣٧٨/١ - ٣٧٩ .

(٦) المصدر نفسه : ١٤٢/٢ وانظر ٢٨٠/١ .

ويقول عن الانفتاح الواعي المتعقل على معطيات العصر ، والتوظيف الفعّال لهذه المعطيات ، والإفادة المتبصرة من إيجابياتها في البناء والتطوير ومواكبة كل جديد مفيد بما يعود على إنسان هذه البلاد بالخير دون المساس بقيم أصالته :

((نحن شعب المملكة العربية السعودية لم نكن معصوبي العينين لا سمع لنا ولا بصر ، نحن من هذا العالم ، ماتت العزلة وصار كل شيء مرئيًا ومعلومًا لدينا ، لم نكن عربَ القبيلة والأمية والعزلة ، لدينا عدد كبير من الجامعات والمدارس التي لحقت بالقرية والصحراء مثلما لحقت بالمدينة . لدينا شبابٌ كثير في جامعات الغرب ، لدينا إنفاق عام في جميع مرافق الحياة واحتياجات الأمة . لدينا استقرار وأمن ، لدينا تراحم ، لا ثارات بيننا . لدينا سير في اتجاه التطور ، لم يكن مرتجلاً ولم تكن أقدامه ثقيلة ومتباطئة عن السير في اتجاه الأفضل .)) [١] .

لكن ذلك لم يكن بلا ثمن ، فعلى المستوى الوجداني دفع الإنسان هنا؛ ولا سيما الجيل المخضرم الذي عايش الواقعين ـ الماضي والحاضر ـ ثمنًا غاليًا، يقول عن نفسه :

((أنا أعيش معك الآن في بيت كسرى أنوشروان ، هاجر بنا إليه من الصحراء كرم ((دارين)) وظنناه كرمًا غير منغّص ، ظنناه لونا من عطائها القديم ووجهًا مصونًا من العبوس ، أتراني (هاجع) فيه معك من غير هموم ، من غير ذكريات ، من غير معاناة ؟ تكون غبيًّا لو ظننت ذلك بأبيك !)) [٢] .

وعلى المستوى الاجتماعي استطاعت عجلة المدنية أن تدخل عش الأسرة ، لتتساقط بفعل حركتها العنيفة كثير من الأشياء الجميلة داخل البيت [٣] .

لكن ((مجتمعنا لا يزال في أكثريته مليئًا قدحه بالخير فلم تخرج القيمة من باب بيته ، لا يزال محافظًا عليها وعلى مُثُله ، ولكن الخوف كل الخوف أن نصاب بالعدوى فنفتح أبوابنا لنوع من الحياة التي ضاق بها الإنسان المعاصر .)) [٤] .

ومع كل ذلك ، فلا زالت هناك فئة من أبناء الصحراء؛ تعيش في تواصل قوي مع ماضيها، مؤثرة النأي بنفسها عن خضم المدنية المعاصرة ، أو الانخراط الكامل في عجلتها [٥] .

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٠١ - ١٠٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٥٢ .

(٣) انظر الرسائل ١/٢٦٣ - ٢٦٥ .

(٤) الرسائل : ١/٢٦٨ .

(٥) انظر الرسائل ٢/٢٢٨ - ٢٢٩ .

تلك إشارة سريعة إلى واقع هذه البلاد في بعده الحضاري ، في ماضيه البسيط وفي حاضره الطموح ، رصدت هنا وأبرزت معالمها كما رصدها خطاب الشيخ .

وبذلك يكتمل تشكيل الشيخ للقطاع الوطني في بعديه التاريخي السياسي والحضاري الاجتماعي .

* * *

الحقل الثاني : في واقع الأمة :

في هذا الحقل حشد الشيخ مساحات واسعة من رقعة رسالته لمناقشة واقع أمته في محيطيها العربي والإسلامي ؛ في مختلف تجليات ذلك الواقع ، كاشفًا من خلال هذه المناقشة عن همومه وهواجسه تجاه أمته وتجاه واقعها القائم ، ومواقفه من ذلك الواقع .

وبالتمعن في معالجات الشيخ التي ينتظمها هذا الحقل يمكن القول : إنها قد انصرفت في مجملها ، وفي اتجاهاتها الكبرى إلى عرض ذلك الواقع في أبعاد عديدة من هذا القطاع ؛ ابتداءً به حين كان فتيًّا ؛ يتمتع بصحته الكاملة ، متمكنًا على ذؤابة قمة عظمى أخذته إليها حركته في الاتجاه الذي صنعه التحام رسالة السماء بأصالة الصحراء وسمْت إنسانها [١] مرورًا بتدحرجه على ((السفح)) [٢] ، حين زلت به قدمه خارج ذلك الاتجاه ، وصولاً إلى صورته القائمة في ((قاع الجبل)) [٣] .

ولكن نشاط الخطاب وتحركاته ، لا تقف عند عرض ذلك الواقع ، وتحديد معالم صورته في جانبيها المشرق والمعتم ؛ بل يتجاوز ذلك إلى ؛ رصد حركة الإنسان في خضم هذا الواقع ومعه في مواقعه بين القمة والقاع في طرفي الصورة ذاتها ، محاولاً تحليل ذلك الواقع وتعليله ، ومن ثم رسم معالم المنهج الذي يرى أنه لا يمكن تجاوز هذا الواقع ـ كما هو في صورته التي اتخذها في هذا العصر ـ إلا من خلاله .

تأسيسا على ذلك تمضي الدراسة في هذا الحقل إلى رصد خطاب الشيخ في الأبعاد التالية:

البعد الأول : عرض الواقع :

في هذا البعد من أبعاد هذا القطاع يمضي الخطاب إلى رصد واقع الأمة على امتداد خط

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٢٦ - ٢٧ ، ١٦٢ ، ١٧٩ - ١٨٠ ، ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٨٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٦ .

مسيرتها التاريخية الطويل ؛ ابتداءً بمرحلة انطلاقتها التاريخية الأولى من أبواب حراء وبطحاء مكة وأودية ((يثرب)) ؛ وحتى عصرها الحاضر ، كاشفًا من خلال متابعته لهذا الواقع في مسيرته الطويلة عن طبيعته في علوه الكريم [١] ، وفي سفحه المتردي [٢] ، وفي حاضره الحائر [٣] ، وهو ما يمكن تنظيمه في الخطوط التالية :

أ- الماضي الكريم :

في هذا الخط تحتشد التفاتات الخطاب التي ترصد معالم الصورة التي يتشكل فيها واقع الأمة في زمنها الأول، - زمن رسول الله ﷺ والراشدين وتلاميذ مدرسة النبوة رضوان الله تعالى عليهم جميعًا - ذلك الواقع الذي يتجسد فيه تجسيدًا كاملاً التحام الإسلام الغض - كما أنزل - أبًا بأصالة الصحراء ومكارم أخلاقها وشمائلها وفضائلها وإنسانية ابنها أمًّا في أعماق إنسان هذه الأمة ، يقول الشيخ :

((ظللت فترة طويلة أعوم في بحر من الشك ومن الرفض والقبول ، وأسير خلف مطايا التاريخ التي حملت إلينا أسفاره وأحداثه وعبره ، كلما أنختها على باب وعيي وتفكيري عضتني بأنيابها الحادة وملأت بيتي ضجيجًا ورغاء . وأخيرًا قاطعتها وهاجرت عن مباركها إلى أحداث غار حراء وبطحاء مكة وأودية يثرب ، وهناك وضعت كل جهدي في تحري الحقيقة والتعرف عليها في يومها الأول فأرتنيها المثابرة على حب النهج القويم ، أرتنيها في الإنسان العربي البسيط وهو يتدافع على أبواب الحقيقة التي فتحت بابها له في الكهف الهاجع في جبل من جبال مكة .

رأيت نظام القبيلة وخصائص إنسان القبيلة تتألق في أعماقها إشراقة الروح والوحدة وسرت إلى نفسي الجائعة إلى المعنى مطايا البادية وهي تتدافع حاملة فوق ظهورها الخصب الذاتي وفضائل الصحراء . رأيتها تنيخ مطاياها في بطحاء مكة وأرض يثرب حاملة إليها مكارم الأخلاق وشمائل العرب وفضائلهم ، أطربها صوت الحادي وشهادته لها حين قال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ")) [٤] .

حدث هذا ؛ فإذا بإنسان الصحراء البسيط الذي نشأ وتشرب سمته في بيت هذين الأبوين

---

(١) المصدر نفسه : ٢١٨/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٨٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٨/١ .

(٤) الرسائل ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ .

الكريمين يسمو في نفسه ، ويسمو بأمته وبواقع أمته معه إلى منزلة لم تصل إليها الإنسانية من قبل ، يقول : ((في هذا المجتمع رأيت الإيثار في أعلى صوره . رأيت تمجيد الإنسان ، تمجيد العقل ، تحرير النفس ، تقديس الحرية . رأيت المساواة الحقة ....)) (١) .

وفي هذا المجتمع مضت الأمة تبني واقعها على سياقات ((غار حراء .... الملئ بالرحمة وتنظيم حياة الإنسان تنظيما رحيمًا عادلاً لا كسروية فيه ولا قيصرية ، لا كوخ فيه ولا قصر،....))(٢) .

فكان الواقع الذي وقف فيه البدوي البسيط لا يخشى شيئًا ((أمام الرسول العظيم محتجًا عليه قائلاً له : أهذا وحي أم رأي ؟ قال له : بل رأي ، قال : إذن هذا الرأي غير صائب ، ارحل من هنا وأنخ مطاياك هناك !)) (٣) ، وفي هذا الواقع ((قال له البدوي الآخر وهو يوزع المال : ما عدلت فينا يا محمد !! أعطيت قومك وحرمتنا ، فما غضب محمد ولا شهر سيفه ولا قطع لسانه ، بل فتح الحوار معه وقال له : ألا تتركهم يعودون بالشاة والبعير وتعود أنت بمحمد؟ ....)) (٤) ، وفيه قال قائد الأمة للأغنياء : ((ما مِنْ أهلِ عَرصةٍ باتَ بينَهم جائعٌ إلا بَرِئَتْ مِنْهُمُ الذّمّة .))(٥) .

وفيه أيضًا ((أمر الخليفة الثاني الناس ألاّ يسرقوا ولا يقطعوا شجرًا ولا يؤذوا ذمّيًا ، وأن يتراحموا فيما بينهم....)) (٦) ، وفيه يبدو قائد الأمة وخليفة رسول الله ﷺ ((عمر رضي الله عنه وهو واقف يحاكمه المسلم على ثوب أضافه إلى ثوبه فيخضعه المسلم لمعارضة لا ينجيه منها إلا شهادة الشهود بأن هذا الثوب استعاره ليقيه شدة البرد .... !!)) (٧) .

إنه واقع كريم ، فيه الرواد الرائعون ((في نسكهم وطهارتهم وعدلهم وقوة بصيرتهم

---

(١) المصدر نفسه : ٢٧٨/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦١/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٩١/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٩١/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٩١/١ وانظر ٢٨٢/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٦١/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٢٨/٢ .

فيما يعرض لهم من مشاكل المسلمين !)) [١] ، وفيه ((نماذج الخير والعطاء والعدل والرحمة في ديننا الحنيف)) [٢] .

فيه العدالة الاجتماعية والإيثار والبذل والتعاون والتراحم والخير الكثير [٣] ! وفيه تجسدت أروع صور العدالة ((... على الأرض ، إن كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ....)) [٤] .

وفيه - أيضًا - تشكل الواقع ، وراح يتحرك بنشاط وتوازن تحت ظلال الرسالة التي ساوت ((بين الأبيض والأسود وجعلت للإنسان قيمة لا ترتبط باللحم والدم ، نفت العنصرية وأكبرت قدر الإنسان وكرمته أعظم تكريم ، حاصرت دون المساس بكرامته أو إيذائه في شريعة عادلة ورحيمة كل غطرسة وطغيان وظلم وأذى يلحق به . رسالة أمرت الإنسان أن يرفع رأسه إلى السماء ليتفكر ، ليعقل ، أعطته إشارات وملامح هذا الكون ، نفت عنه الجمود وأعلنت بلسان عربي مبين ما هي عليه هذه الأفلاك وهذه الشموس وتلك المجرات من جريان وحركة دائبة ....)) [٥] .

ومن هذه القمة العظمى [٦] ، وفي هذا الواقع المعافى استطاعت الأمة أن تكون أمة ، وأن تعطي لوجودها معناه ، وأن تمارس دورها الإنساني والكوني الخير كاملاً ، وغدت بذلك - في إطارها الذاتي الخاص ؛ وفي إطارها العالمي العام مصدر خير وهداية وإشعاع إنساني ،

يقول : ((فأقداحنا نحن العرب وأقداحنا نحن المسلمين يوم كانت على قمم جبال أرض يثرب وعلى جبال بطحاء مكة مستوية على قمة الجبل ، كانت وردًا للظامئين وللحائرين على هذه الأرض ....)) [٧] ، وعلى هذه الأماكن وحولها ((بني ....عرب الصحراء الحاملون

---

(١) المصدر نفسه : ٢٨/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٧/٢ .
(٣) انظر الرسائل ٢٨/٢ .
(٤) الرسائل : ٢٢٠/٢ .
(٥) المصدر نفسه : ٢٦/٢ - ٢٧ .
(٦) انظر الرسائل ٢٦/٢ .
(٧) الرسائل ٧٢/٢ .

معهم الهداية حضارة إنسانية مادتها وروحها من الأخلاق والنفس والضمير.)) [١] ، وغدا هذا الواقع الكريم مصدر خير وعطاء إنساني عميم حين ((ملأته القبائل العربية أحقابًا طويلة بخصائصها وأخلاقها ومميزاتها ورسالتها الإنسانية .....)) [٢] ، واستقامت الأمة على هذا النهج، وتماسكت مع هذا الواقع فترة وجيزة من عمر الزمن ، ولكنها ظلت تعيش مجد تلك الفترة ، وتحصد محصولها الثر قرونا طويلة كانت فيها ملء عين الدنيا وسمعها في مختلف مناحي الحياة ، ولا تزال هي ، ولا تزال الإنسانية كلها تجني الثمار التي جادت بها شجرة الأمة في تلك الفترة ، وما اعتمد عليها من أحقاب تالية .

تلك هي الملامح العامة لواقع الأمة في إطارها الداخلي والعالمي خلال فترة توازنه على القمة وتماسكه عليها .

ب- الماضي المتردي :

لكن هذا الواقع لم يدم له توازنه في الفرد والمجتمع ، بين المادة والروح ؛ إلا فترة قصيرة ، هي ما أشير إليها [٣] ، وذلك ((أن هذه الرسالة التي كرّم الله بها الإنسان العربي في جبل من جبال مكة ، تركها الإنسان العربي حين نزل من القمة إلى السفح بقيت هي هناك وحيدة تعاني الغربة ، وظل هو يتدحرج في السفح ، في خشخشة الأشجار الميتة ...!)) [٤] .

لقد تزحزحت الأمة في لحظة غفلة عن الاتجاه الذي أخذ صدرها إلى القمة ، وتاهت عنه لتتردى في السفح ؛ حين انشغلت عن تفحص مواضع أقدامها ، وعن مواصلة السير على ذلك الطريق ببناء القصور على جوانبه والركون إليها ، وانحصار جلّ نشاط الحداة فيها ؛ فيما بين غرف النوم وغرف الطعام ، فماذا كانت النتيجة ؟ يقول :

((ويوم أقاموا القصور بدل الخيمة ولاذوا بها حتى ضاقت بهم أبوابها من السمنة وغرفها من الغطيط الذي لا لغة له ولا تعبير عن الجميل في الإنسان العربي ماذا عنهم ؟ اذهب إلى خرائب قرطبة والحمراء ، واذهب إلى كل مسجد مهجور إلى كل مئذنة لا يصعد إليها مؤذن في أصقاع الأرض وسائل هذه المآذن وتلك المساجد متى عهدها بصوت المؤذن ؟ فإذا لم تجبك

---

(١) المصدر نفسه : ٩٩/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٩/٢ .

(٣) انظر الرسائل ٢٧٩/٢ .

(٤) الرسائل ٣٨٢/٢ وانظر ٢٦/٢ .

فاسحب السؤال وألق به في طريق قصَّاص الأثر لعل واحدًا منهم يقصّ لنا خبر القوم.))[١] .

لقد تحولت القصور إلى خرائب ، وتحولت رباتها إلى غجريات هائمات على وجوههن يضربن الدف والوتر الحزين ، ويذرفن الدموع بين أنقاض تلك الخرائب[٢] ، ويورثن ضياعهن حفيداتهن .

جـ- الحاضر الحائر[٣] :

في هذا الخط انصرف خطاب الشيخ إلى عرض الواقع المعاصر الذي تعيشه الأمة وتشريحه وإبرازه - كما هو في تجربته - في خطوطه العامة .

يقول عن طبيعة ومهام خطابه في هذا الخط ، وحدود أنشطته : ((إنني بذلك أذرع لك في أرض أجدادك العرب قامة العملاق الذي تراجع وتصاغر وانكمش فقبضت عليه هذه الحضارة اللئيمة في كبرياء البداوة الجاهلة وغطرستها ، ....))[٤] .

وعند محاولة تحديد المحاور التي سار فيها الخطاب في هذا الخط ؛ فإنها تبدو وقد تمحورت حول واقع الأمة في السياقات التالية :

١- واقع الأمة في سياقها الداخلي :

لقد وصلت الأمة في هذا السياق - اليوم - إلى قاع الجبل[٥] ، وإن شئت فقل : إلى " حضيض " من كل شيء في حياتها لم تتردَّ إليه من قبل ، وذلك منذ صارت ((أمتنا — في عالم العرب والمسلمين - شاردة في أكثر تشريعاتها إلى غرب أو شرق أو إلى تصورات خاصة واجتهادات لم تمنح الأمن والاستقرار والعدالة لمجتمع من المجتمعات ....))[٦] ، وهي - الآن - تعيش مرحلة ضياع[٧] حقيقي في كافة أوجه حركتها .

ضياع تصوري أضحى معه الدين بؤرة تنفث بالفتنة ، والاختلاف ، والشقاق حين تحول - لدى طائفة من أبناء هذه الأمة ((الدين الواحد من المصب الواحد من الإله الواحد

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٩٩ - ١٠٠ .

(٢) انظر الرسائل ١/٥٠ - ٥١ ، ٩٣ - ٩٤ ، ١١٨ ، ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢١٨ .

(٤) الرسائل ١/١٥٤ .

(٥) انظر الرسائل ٢/٢٦ ، ٣٨٢ .

(٦) الرسائل ٢/٢٢٠ وانظر ٢/٣٨٢ .

(٧) انظر الرسائل ٢/٢٢٠ .

للإنسان الواحد إلى ركائز للفتنة فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان ....)) [(١)] .

وضياع سلوكي وأخلاقي تحول معه الواقع إلى غابة كبيرة تكتظُّ بالرذيلة وبالوحوش المفترسة وبالدماء ، حين أصبح التوباد ((اليوم رسمًا لا يزوره أحد ولا يعرف ماذا جرت به أقدار قيس وليلى في سفوحه أو على قمته ....)) [(٢)] ، وحين انطلقت ((هذه المراكب المتدافعة في هذا العصر المادي على خط القوي يأكل الضعيف ، الثراء والسلطان لمن بطش وسرق ونهب وقتل المصلحين ....)) [(٣)] .

وضياع سياسي حين تصدعت الأمة إلى يسار ويمين [(٤)] ((والوسط بين هذا وذاك حائر يقف وحده تأكله الحيرة وتحفر له قبرًا من اليأس يدنيه من الأجل لحظة بلحظة .

وفي هذه الحالة تبددت الروح وانهزم الإنسان العربي وانهزم معه ماضيه كله وتاريخه . ومع هذا لا يريد أن يسمع من يقول له الخطر الخطر ! لا يريد من يقول له تنبه ! تفهم ! إنك في عالم لم يعد عالم الشعارات أو عالم التشنج أو عالم الأحقاد !)) [(٥)] .

وحين استحكم العبث السياسي والسعار الثوري ، إذ ((لنا الآن أكثر من ثلاثين عامًا وبلادك العربية تدعي أنها تحررت من يد الأجنبي وأنها تتحول من طور إلى طور ومن لباس إلى لباس تستبدل حاكمًا بآخر وثائرًا بثائر إلى آخر القصة ....)) [(٦)] ، ومن الرجعية إلى التقدمية راحت التهم والشتائم تتعالى بحدة [(٧)] ، بل تجاوزت الأمور تلك الحواجز إلى الفعل الدامي ، فإن ((من يقص الأثر في الوطن العربي ويعمق النظر يجد الفجيعة ، أخًا يقتل أخاه ، والقتل لا يعني إزهاق روحه فحسب ، فروح أزهقها الجور أو العدل قد تذهب إلى ربها مؤمنة بالعدل هناك ، ولكن أشد الألم عذابًا وتنكيلاً بالروح أن تغتال أجمل ما فيها من رؤى ومن فكر ومن إبداع ومن تحدٍ للجائرين عليها !!)) [(٨)] .

---

(١) الرسائل ٢٨٩/١ .

(٢) المصدر نفسه :١٧٩/٢، وانظر١٣٦/٢.

(٣) المصدر نفسه : ٢٨٠/٢ .

(٤) انظر الرسائل :٢٣٠/١ ، ٣١٧/٢ .

(٥) الرسائل : ٣١٨/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ١٦٢/٢ وانظر رسالته الكاملة " أكانت الدبلوماسية العربية ثوبًا " ١٧٥/١ - ١٨٣ .

(٧) انظر الرسائل ٢٣٠/١ .

(٨) الرسائل ٣٢٣/٢ وانظر ١٣٠/١ - ١٣٩ ، ٣٢٠ ، ٣٧٩/٢ .

((ولدي :

أهذا مني سياسة ؟ والسياسة محرمة ومحروسة على كل باب بحراس غلاظ خصوصًا في عالمك العربي ؟!)) [١] .

بهذا ، ولهذا اتجهت الأمة في معاركها وصراعاتها إلى الداخل ، وراحت ((الأمة يأكل بعضها بعضًا ويدمي هذا قلب ذاك ويفجر في عيون الأمهات الدموع غريرة ..!)) [٢] ، وذهبت تطحن ذاتها بضراوة ((لأن جواد امرئ القيس اليوم هو الذي يركضه الإنسان العربي في سكك مدينته وقراه ، لا في شعاب الجبل كما ركضه امرؤ القيس ...!)) [٣] .

يحدث هذا ((ومآذن قدسنا ومآذن حيفا واللد والرملة ومآذن طرابلس ومآذن أرضنا هناك أنزل عنها المؤذن؟ أهدِّمت ؟ ماذا ينتظرها ؟ وماذا ينتظر مآذننا في لبنان أو سواها ؟)) [٤] .

ومع هذا الواقع تحول الماضي الذي كانت هذه المآذن آمنة في كنفه إلى ميراث ضائع فـ ((ما أكثر ما لدينا ـ نحن العرب والمسلمين ـ من مواريث كريمة وعظيمة ...! غير أن سفهنا لم يصن أكثر ما في هذا الميراث العظيم الكريم ....)) [٥] ، وما صنع هذا الواقع ولا يسأل عنه إلا ((أمة عصبت عينها عن النور أفعالاً وأخلاقًا دونها أخلاق الضباع والحيات ...!)) [٦] .

لقد ((كنا فيما مضى نجد القبيلة شريحة من شرائح الأمة العربية ملتزمة بخصائصها وفضائلها واليوم نرى ملايين البشر ولكنا لا نرى خصائص الإنسان العربي في مسلكه وفي وقاره ومسعاه إلى أن يجمع ويحتمل في ذلك كل ما يعترضه ويؤلمه من عقبات.)) [٧] .

إن ((ما يجري اليوم في عالمك العربي من صراع وضجيج وشجار وقتال من شارع إلى آخر)) [٨] إذ أوازنه بما في ((ذكراي عن القرية وعصبية القرية ، وذكراي عن القبيلة ونظامها

---

(١) المصدر نفسه : ١٢٩/١ ، وانظر ١٣/١ ، ٩٤ ، ٣٢٣/٢ ، ٣٧٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢١/٢ وانظر ٣١٩/١ - ٣٢٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٣١٧/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٨٩/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٨٥/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ١٤٠/١ .

(٧) المصدر نفسه : ١٦٢/٢ .

(٨) المصدر نفسه : ٣١٨/١ .

أفرغ من نفسي اليوم كل تفاؤل بقبائل العرب الجديدة الراكد منها والمتحرك في قفزات غير منظمة وغير منضبطة وغير مسئولة .)) [١] .

((لقد خفَّت الأحلام وطالت الأنياب والأظافر ، والجسد العربي الممدد من المحيط إلى الخليج ، أثخنته الجراح من يد أبنائه والمسعورين من آكلي لحوم البشر .)) [٢] ، ولم يعد إلا أن ((... أختم هذه الرسالة بتساؤلات أرسلها إلينا أبو الطيب من بعيد ، لا أدري ألها مستمع ومتأمل ؟ قدر أبي الطيب مع عصره [أو] [٣] قدرنا مع عصرنا يلتقيان في صورة واحد ، قال :

"أمَا في هذه الدُّنيا كَرِيـــمٌ ... تَزُولُ به عن القَلبِ الهمــوم ؟

أمَا في هذه الدُّنيا مَكَـــانٌ ... يُسَرُّ بأهلِهِ الجارُ المُقِيـــمُ ؟ [٤]

تَشَابَهتِ البهائمُ والعِبِـدّى ... عَلَيْنَا والموَالي والصَّمِيـــمُ

فَمَا أدْري أذا دَاءٌ حديــثٌ ... أصَابَ النَّاسَ أَمْ داءٌ قَديمُ" [٥])) [٦] .

هكذا وعى الشيخ أمته في واقعها الداخلي ، وفي حركتها مع ذاتها ، أمة شاردة في تنظيمات حياتها وضوابط حركتها وحاديات مناشطها عن حبال السماء التي ما كانت أمة إلا بالاستمساك بها ، فكان من الطبيعي بعد ذلك أن تضطرب رؤيتها لدينها ، وأن تضل في سلوكها الأخلاقي والاقتصادي والسياسي والديني ، وأن تتحول أرضها إلى ثفال رحى يطحن عليه إنسانها أخاه بلا رحمة ولا شفقة ، في معارك داخلية تتراوح ما بين تصفية الحسابات الخاصة ، وقطع الألسن القلقة، وكتم الأنفاس الحارة ، وتحقيق الطموحات الفردية الصغيرة ، منشغلة بذلك عن أهدافها الكبرى ومسئولياتها العالمية ووظيفتها الإنسانية التي حملتها إياها رسالة السماء واضطلعت بها برهة من الزمن ثم نكصت عنها ، وكان من الطبيعي بعد ذلك كله أن تفقد الأمة خصائصها وسمات شخصيتها التاريخية المميزة برزانتها فيحتدم الصراع ، ويرتفع الضجيج ، ويحتد الشجار ، ويستشري القتال ، وتضطرب الحركة ، وينجرح الجسد العربي في كل مكان منه .

---

(١) المصدر نفسه : ١٦٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٣/٢ .

(٣) ربما كان الصواب [و] .

(٤) ورد في نص الشيخ " يسر به الجار المقيم " .

(٥) المتنبي - الديوان ٢٨٢/٤ .

(٦) الرسائل ٣٨٩/١ - ٣٩٠ .

هذا هو واقع الأمة في سياقها الداخلي كما وعاه ورصده الشيخ من موقعه السياسي المشرف ، وكما خبره بتجربته الحية ، وكما جلته له معرفته المعمقة بما جرى ويجري في قمم الجبال الأخرى وفي سفوحها ، حيث نصبت هناك مقاعد مديري حركة الواقع ، وحرّاسه بما دفعه إلى الاتكاء على التمثل بتجربة صديقه الحكيم .

٢ـ واقع الأمة في سياقها العالمي :

إذا قد تكشفت الملامح العامة لواقع الأمة في سياقها الداخلي بالشكل الذي تم عرضه توًّا فما حالها في سياقها العالمي العام ؟

ذلك هو ما محضه الشيخ مساحة واسعة من خطابه الذي انصرف إلى هذا القطاع مركزًا من خلاله الأضواء على هذا الجانب في محورين بارزين :

الأول : الأمة في ميدان صناعة الفعل العالمي :

إن الواقع الداخلي المؤلم الذي تعيشه الأمة في عصرها هذا قد صدع بناءها ؛ لدرجة لم تعد الأمة معها آمنة على نفسها في داخله ؛ فضلاً عن أن يحتمل حركتها على سطحه ؛ إن هي أرادت الاستناد إليه ، والتعاطي منه للتطلع إلى أملاكها الأولى ، والانطلاق من فوقه لاستعادة تلك الأملاك العليا والمواقع الإستراتيجية التي تدار منها حركة العالم ، أو حتى السعي إلى استرجاع ما سلبه منها اللصوص على السفوح ؛ بل وفي قاع الوادي .

لقد تحول هذا البناء في ظل الواقع القائم ((إلى شظايا وإلى تباعد ما بين هذا وذاك لا أمل معه أن ننستر في هذا العالم أو نعيد حقًا من حقوقنا .))[١] .

تلك هي حصون الأمة وقلاعها التي تتحرك فيها ومنها في سياقيها الداخلي والعالمي ، وهي صورة لا يأتي وجهها بخير ، فماذا عن حضورها في ميدان الفعل العالمي ؟

بكل أسف ؛ فإنها في هذا الميدان ليست بأوفر حظًا منها في سياقها الداخلي ، أو في حصونها وقلاعها في سياقها العالمي ، فلها هنا صور ((تئن وتبكي دمعًا غزيرًا على ذهني الذي كلما مددت يدي إليه لأحقن قلمي منه لعل شيئًا جميلاً يجمل مسيرتنا مع هذا العالم ، لا أجد غير الفراغ.))[٢] ، ((فراحلتي المناخة على باب بيتي أو الراحلة التي تحملني في الفضاء ، كم تساءلت : ألنا معك ذكريات ؟ أفيك نفس عربي ونبض فكري لمفكر عربي ؟ فيعود إليّ السؤال

---

(١) المصدر نفسه : ١/٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٢٨ .

كئيبًا وحزينًا قائلاً لي : الجواب ، لا ...)) [١] ، وها هو ذا الإنسان الآخر ((يصعد على قمم الجبال الكونية ونحن نمشي على رمال الدهناء وقيعان الصحراء يغرينا فيها السراب الخادع بأنه ماء قراح أنزلته السحب ثم يخوننا حين لا نجده شيئًا)) [٢] ، وها هو ذا ـ أيضًا ـ ((يلقي في كبرياء وتعاظم علينا حواره ونحن جلوس في مقاعدنا فوق أتربة الأرض وتلاعها التي إذا حركت تربتها الرياح تهنا وسط الضباب ...!)) [٣] .

لقد أصبحت أيها العربي والمسلم في ((عالم يحقرك ويذلك بعلومه ، باكتشافاته ، باستقراره ، عالم حولك عن ظهر جملك وحصانك ودابتك ، وحملك على جناح العلم ، وهو جناح لا تملك منه ريشة واحدة حتى أزرار ثوبك التي كانت تصنعها لك ربة بيتك.تحسس جيبك هل هي باقية فيه ؟ أم أنه جيب اندثر وعرّتك منه هذه الحضارة وألبستك جيبها في اتكالية استهلاكية مريبة ؟))[٤] .

إن ((جمال الحوار الكوني أشرق على وجوههن (النجوم) بصباحة الوجه فعشقه الرواد وخرجوا مع الخوارج في فكرة متباينة كل التباين ، تلاحقت التسمية فظلت الأولى صريعة في أرض النهروان والأخرى تسير اليوم مع الأفلاك في مسارها تحتج على البلادة الحسية وتنكر عليها غباءها وخضها في القرب البالية في قيعان الغبراء.)) [٥] ، ((وقمر السماء الذي رحل إليه الإنسان كيف استقبله ؟ لا أظنه في استضافته له قد فتح ذراعيه وحياه ، لأن الطائيَّ ليس هناك ، والآتي إليه ليس من قبيلته .. !)) [٦] ، ((وهنا تقف بي رؤاي وتصوراتي عند قدمي لأني ممن لا يرون البعيد ، ولم يفكروا فيه ومن فكر من قومي وقومك في التاريخ البعيد تلصص إليه سراق الفكر من عالم الغرب أو الشرق .. وقليل منهم من اعترف بالسرقة وأثنى على جمجمة ملأت قدحه .)) [٧] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٢٨/١ وانظر ٢٦٧/٢ - ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٣٦/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٩/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣١٨/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٠/١ وانظر ٥١/١ ، ٦٠/٢ - ٦١ .

(٦) المصدر نفسه : ٣٩٩/٢ وانظر ٣٢٢/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٣٤٧/٢ .

تلك ـ إذن ـ مجموعة من الصور الباكية التي تجسد بوضوح وعمق واقع الأمة في عصرها هذا ، في عالمها هذا ، بشكل تبدو معه قطعة خاملة قابعة في ركن قصي من الوجود ، بعيدة عن مواقع صناعة الفعل العالمي في أكثر صوره فعالية ، قانعة من حضورها وفعلها بالتسمر إلى مقعد متفرج مشدوه بما يرى : ((... في عصر صار عالمه وصار إنسانه يمتليء قدحه الذهني من أسرار هذا الكون يومًا بيوم وشهرًا بشهر وعامًا بعام وكلما امتلأ هذا القدح أراقه على ذاته وتخطاه إلى غيره من الأقداح الكونية ، وهكذا نشهد التحول العظيم ، نراه مشدوهين مذهولين بل ربما مكابرين في غرور الصغار الذين لم يبلغوا الحلم وإن شاخوا ..))[1] ، يحصّل قوت يومه مما يتسوله أو مما يتطاير إليه من ميدان الفعل الحادّ ذاهلاً عن ذاته وعن مقدراته ، ذلك أن ((موائدنا ملأى ونركض في تسول مهين إلى موائد الآخرين الجاهزة نأكل من فضلاتها دون احترام لأنفسنا .))[2] .

تلك هي صورتنا إذا كانت الحركة محورية ، فأما إن كانت تتابعية فالصورة أنكى وأكثر إيلامًا ، إنها صورة تجسد الأمة في انسلاخها عن ثوبها وعن دورها ، وهرولتها البلهاء خلف قوافل القوم، يقول :

((فالعلوم المكتسبة من أسرار هذا الكون ومن جيب الحياة الملئ بها لم تكن إبداعًا من قبل الإنسان ولا خلقًا ، ولكن إنسانًا دون آخر طرق باب البيت الذي هي داخله فلما أذن له ، وجاء الإذن مؤقتًا بزمن ، تحولنا عن ظهور جمالنا وخيولنا وطوينا خيامنا ومشينا مع قافلة العصر نتساءل في لهاث ضاق به النفس إلى أين نحن سائرون ؟ متى كان هذا ؟))[3] .

حقا ((إننا نعيش في هذا العالم على قافية غير موزونة وغير مستقيمة))[4] ، ((وما الحالة التي نحن عليها إلا شاهد على أن أكثر من ألف مليون مسلم على وجه هذه الأرض قد خف وزنهم في يد الأحداث ، وضمر حجمهم ضمور الجرادة ... !))[5] ، يحدث كل ذلك ((واللسان العربي المبين في القرآن العظيم راقدة فيه أسرار هذا الكون ، وما بعد الكون ، أسرار

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢١٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٢٤٢ وانظر ٢/١٣٦ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/٣٨٥ .

هذه الحياة وما بعد الحياة ...)) [١] ، والمفكر العربي ، والمفكّر المسلم ، وعالم الدين ، في كل الأرض واقف ((... في جداره الخاص كالوتد الذي يبس ونضبت الحياة من عوده فالتصق في مكانه ، كل من مرّ به علّق عليه أثواب الماضي كل الماضي وقال هنا خلعت ملابسي الرثة وسألبس كل جديد جاءت به هذه الحضارة وإن كان الجحود والنكران والعدم والتفسخ والقطيعة !)) [٢] .

أما شباب هذه الأمة ، أما مواكب خريجي جامعاتها ف : ((لا تتصور أن كل من دخل الجامعة و أشغل معلمه ومقعده خرج منها مليئًا قدحه بالمعرفة ! كثيرًا ما أثبتت الأيام والملاحظة في عالمك العربي أن جامعات كثيرة استقبلت قوافل من الشباب خرجوا منها كما دخلوها ، لم نر إلا القليل منهم الذين تتسكع داخل نفوسهم وعقولهم أمنيات أهلهم ومجتمعهم في سكك النفس الضيقة والتي لا تسمح للهدف الذي من أجله قطع الأب والأم والمجتمع والدولة من لقمة العيش والملبس وألقوها في فم ابنهم لتكون قوتًا في فم المعرفة وسمو الخلق.)) [٣] .

هذه حال أبنائنا الذين تلقوا علومهم في جامعاتنا ، فأما أولئك الشباب الذين ذهبوا لتلقي علومهم في جامعات الآخرين ف :((ما من عائد منكم في الغالب الأعم إلا صار واحدًا من اثنين ، إما إلى سلبي يجتر من فكره ومن كسبه قشورًا علقت به من حضارة غربية أو شرقية فاختار الكسل الروحي والعقلي وعاش في جمود أحجار بلاده ، وآخر جاء متوترًا طائشًا يحمل في جيبه ثقابًا من نار ليشعل الحريق ويدمر كل شيء !! . ولا أنفي المحاولة الكريمة عمن حاول أو يحاول ....)) [٤] .

إنه واقع غابت معه الأمة عن حضورها الحي ، فكان حضورًا أشبه بالغيبة ، وتاهت معه عن ماضيها وعن أصالتها وعن هويتها ، حين تحولت عن ظهور جمالها وخيولها وطوت خيامها ، وأهملت قرآنها وحمّل مفكروها وعلماؤها فتاهت عن فعلها ، وأصبحت هائمة على وجهها في وسطها العالمي إلى غير غاية:((أهذه فينا (الصور)قطع لتراث بائد فأين أصالته ؟ أأذهب من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أسأل المارة وأستجدي الخبر عن هويتنا ، أتراها في الغبراء أم في خرائب

---

(١) المصدر نفسه : ٣٨٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٢١/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٩٣/٢ وانظر ٣٢٢/٢ - ٣٢٣ ، وانظر تفاصيل أوسع عن هذا الواقع وتداعياته وروافده وجناياته ٣٥١/٢ - ٣٥٧ ، ٣٧٧ - ٣٧٩ .

قرطبة والحمراء ؟ أيمكن أن أجدها عند غراب البين ، أو بوم الخراب فأشتريها ؟ ألا يمكن أن يكون لي عند الغجرية ضاربة الدف والوتر الحزين في خرائب الحمراء ذكريات فأبتاعها ثم أحكيها لك في قصصي الآتي وحواري معك ؟)) [(١)] .

عند هذا يلتفت الشيخ إلى تسجيل بعض التعليقات التي يبرز من خلالها حجم المأساة التي تعيشها الأمة في هذا السياق ، متكئًا في ذلك على أقوال السابقين وأخبارهم ، حين يقول :

((ولدي :

قديمًا قال أبو الطيب لأميره :

"لَيْتَ الكواكبَ تَدْنو لي فأنظِمها   عقود دُر فما أرضَى لكم كَلِمي" [(٢)]

وهنا تثير في نفسي أمنيات أبي الطيب شيئًا من الغرق النفسي ... ليت الكواكب استجابت لشاعر العرب ولم تستجب لشاعر الآخرين .. فالكواكب والنجوم ، لو نظمها أبو الطيب في عقد وألبسها رقبة الإنسان العربي لما كانت حالنا كهذه الحال ، ولا أدري أرقبة الإنسان العربي قصيرة لا تقبل النجوم والكواكب أن تكون لها زينة ؟ ليس بعيدًا ذلك !)) [(٣)] ، ((والنجم أحالهُ مثل حالنا ؟ هل هوى مثلما هوينا ؟ فعليه وعد بذلك في كتابنا العزيز ، ماذا عنه وعن الإنسان اليوم ؟ ... الإنسان لا حق به يطارده والملاحقة لم تكن على سيقان من الطين ولكنها على جناح لم ينتف ريشه باقل[(٤)] العرب .... والرمز هنا بجدنا باقل لم يكن اعتداءً عليه ولا تحقيرًا له ، ولكنه يوم دلى لسانه ، تدلى في بئر الزمن العميق وعينا واندفن ...!)) [(٥)] .

((ولعل في إحضاره هنا....من أعماق السنين البعيدة تجريدًا لغرور الذين ورثوه منا نحن العرب ، فهو يوم ضاقت حيلته دلى لسانه وكان تعبيرًا تاريخيًّا ، ولا أدري ألنا نحن اليوم ـ أمة العرب ـ لسان فندليه ؟ الجواب في ذمة الغيب .)) [(٦)] .

---

(١) المصدر نفسه ١/٥٠ - ٥١ وانظر ٢/٣٦ - ٣٧ .

(٢) لم يرد البيت في شعر أبي الطيب ، ولكنه ورد في : قول على قول ، لحسن سعيد الكرمي ، (١٣٧/٨) منسوبًا إلى عمارة اليمني .

(٣) الرسائل ١/٣٧٧ .

(٤) جاء في مجمع الأمثال ((٣٨٨/٢ ، برقم ٢٥٩٥)) للميداني ((هو رجل من إياد ، .... بلغ من عيّه أنه اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا ، فمر بقوم ، فقالوا له : بكم اشتريت الظبي؟ فمد يديه ، ودلع لسانه ، يريد أحد عشر ، فشرد الظبي وكان تحت إبطه .)) .

(٥) الرسائل ١/٣٧٨ .

(٦) المصدر نفسه : ١/١٥٦ .

تلك هي رؤية الشيخ وتصويره لمعالم الواقع المحيط بحضور هذه الأمة ، وهو حضور ناقص يعكس كائنًا هزيلاً في حجمه ، خاملاً في فعله ، ذاهلاً عن ذاته وعن مقومات وجوده الفعّال ، يتسم بغباء وبلادة ، وخلو ذات اليد من الفكر أو الفعل البنّاء ، يعيش حياة تطفل مذلّة ، وانسلاخ مؤلم في رؤاه ووسائله ، ويتحرك في جوف هذه الحياة المعاصرة حركة مصابة ؛ فإذا به يخف في وزنه العالمي ، ويضمر في حجمه حتى غدا في ضمور الجرادة، مما أدى به إلى فقد هويته العالمية التي ما كان في علو الزمن ؛ ولن يكون يومًا إلا بها ، ولم يعد للأمة في ظل حضورها هذا إلا أن تدلي لسانها كما دلى لسانه قبلها جدها باقل .

الثاني : الأمة في ميدان المواجهة :

أما في هذا المحور فقد انصرف الخطاب إلى تركيز الأضواء على ميادين مواجهة الأمة مع الآخر ، محاولاً من خلال ذلك الكشف عن موقفها في هذه المواجهة ، وإبراز صورتها الراهنة في هذا الموقف .

إن ما حمله خطاب الشيخ من صور الأمة في سياقها الداخلي ، وفي حضورها في ميدان صناعة الفعل العالمي يشي بطبيعة موقفها في هذا الميدان ، ويشير إشارة تكاد تكون واضحة إلى حقيقة واقعها في هذه الجبهة ، غير أنه لا بد من رصد ما رسمه الشيخ لموقفها هذا من صور .

وعند تتبع إشارات الخطاب التي اتخذت هذا الاتجاه يتبين أنها قد رصدت واقع الأمة في ميداني المواجهة التاليين :

١ـ الأمة في مواجهة الزحف الصهيوني :

في هذا الميدان ينصرف الخطاب إلى رصد وتصوير واقع هذه الأمة في مواجهة عدو وجودها ، الذي التقم في برهة من زمن غفلتها التي لما تفق منها بعد جزءًا من أغلى وأقدس أرضها، وقتّل أهله ، وهجرّهم ، وأذل من أصرّ منهم على الالتصاق بأرضه ، وأقام على أطلال منازلهم وكرامتهم شيئًا أسماه دولة ، شحنه بالحقد والشر والدمار ، ثم مضى بعد ذلك يصول ويجول في كل اتجاه في حرية لا مثيل لها ليقتطع ـ كلما تهيأت له الظروف ـ جزءًا آخر يضمه إلى سابقه في إطار مخططه طويل الأجل الهادف إلى شطر الجسد العربي ، لإعاقة حركته المعهودة إن هو استفاق من رقاده التاريخي ، وذلك بإقامة ما يسمى ب ((دولة إسرائيل الكبرى)) ، كل هذا يحدث ونواطير مصر لم تفق من نومها ، ولا يبدو أنها تريد أن تفيق .

يصور الشيخ هذه المواجهة مع عصابات صهيون ، ودوافعهم الذاتية ، ومن أغمدوهم خنجرًا مسمومًا في خاصرة هذه الأمة فيقول :

((... نقف اليوم وإياها وجهًا لوجه يدفعها في اتجاهنا لؤمها وحقدها علينا ويسوقها العالم تجاهنا ونواياه في ذلك يغطيها غطاء كاذب وذميم من الشفقة عليهم ....)) [١] .

ويصور موقف العار الذي وقفته الأمة أمام عدوها ، واستلابه لكرامتها ولمقدساتها ، حين يقول :

((أصحيح أن أكثر من ألف مليون عربي ومسلم أذلته وهزمته وحقرته أمام العالم ثلاثة ملايين مغامر أتوا بأحقادهم وشرورهم إلى أقدس بقعة وأعزها علينا ؟ ...)) [٢] .

لكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد ؛ بل كانت ولا زالت أخطر من ذلك ؛ فإن وجود الأمة نفسه أصبح مهددًا تهديدًا حقيقيًّا ، يؤكده استمرار العدو في نشاطه الشرير الذي يمده ويدعمه من إلينا أرسلوه شرطيًّا شرسًا من جانب ، واستمرار الأمة في سلبيتها وخمولها وتبدد اتجاهاتها من جانب آخر ، يقول :

((فنحن اليوم مهددون في وجودنا ، وإن ظن غير ذلك من لم ير هذه الحقيقة مقبلة إليه ، فغزو صهيوني أرسلته إلينا قوى الشر ، لن يتراجع إلا حين تتراجع خطانا الماشية على طرق مختلفة ومتباينة .)) [٣] .

ويذهب الشيخ بعد ذلك إلى تحليل خاطف لطبيعة العدو [٤] ، وعرض قدرته الخبيثة على استغلال واقع الأمة لاختراقها ، ومن ثم صناعة واقعها بما يهيء أرضية الأمة لتحقيق أهدافه القصوى حين يقول :

((ألا يتصور كل إنسان أن المغامرين وأن المتعصبين وأن التائهين في هذا العالم والرافضين له ، مواليد العقد النازية ، مواليد الميراث الطويل الذي كلما تساءلوا في التاريخ وتشابه عليهم البقر وجاءهم الوصف الكريم ذبحوه ، ما أتوا إلى أرضنا ارتجالاً دون حساب دقيق ، فقد تابعونا عبر التاريخ جيلاً بعد جيل وسجلوا في دفاترهم مواطن الضعف والقوة ، وكلما رأوا حائطًا عربيًّا قابلاً للتثلم تسللوا إلى ذهنه وإلى عقله وإلى غرائزه فهدموها بطريقتهم الخبيثة ، ومن شك في ذلك فليتابع التاريخ وليسائله في كل مكان ! ما أكثر الجدر العربية التي كانت عامرة ومنيعة فهدموها يوم هدموا أخلاق ربها ، معنى هذا أنهم اختاروا عصرنا نحن ، جيلنا نحن ،

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤٢/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٣١/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٨١/١ - ٢٨٢ .

(٤) انظر تحليلاته للعدو في خطاب الوعي بالآخر ، في هذا الفصل ، وانظر ٣٤١/١ - ٣٤٤ .

وآمنوا أنه الجيل الذي منه يستطيعون أن ينيخونا واحدًا واحدًا وأن يأخذوا منا ويسلبونا كرامتنا ، وكما تعلم لقد أناخوا أكبر قافلة [١] من قوافلنا وعقلوها في سجن لا أدري متى يأتي يوم الخلاص منه .. !)) [٢] .

و - إذن - فما معنى هذه الأشياء التي يسمونها معاهدات وجهود سلام ؟ .

إنها لا تعدو أن تكون أمصال تخدير ، يحقن به الخبثاء جسد الضحية ؛ كلما تحرك من شدة آلام الاقتطاع أو التعذيب التي يمارسها الجلاد عليه ، ولذلك فهي لا تعوق سيرهم الحثيث إلى الهدف ؛ بل تعززه وتدفع به إلى الأمام أكثر .

صنعوا كل هذا ، ولم يقفوا عند هذا الحد ؛ بل إن روحهم العنصرية الشريرة ، وواقع الأمة المذل جعلهم يستقطبون إلى كيانهم الشرير - بطريقة أو بأخرى - مَن كان على دينهم في عالمنا العربي ؛ ليكونوا جنودًا شرسين يدمون بخناجرهم العربية ظهر الأمة وخاصرتها ، في الوقت الذي وقفت الأمة من ذلك بين ؛ متفرج لا مبال ، ومشلول عن الحركة، ونهّاز للفرص يقول :

((وهنا يخطر لي سؤال جارح : لماذا فتحت البلاد العربية الباب على مصراعيه لهجرة المواطن اليهودي من يمننا السعيد إلى أقصى المغرب ؟ لا أعرف ما هي الصورة في ذهن كل من أرسلهم جنودًا شرسين إلى إسرائيل ! شيء يحير في مقياسنا مع الأحداث القائمة ومع الديموقراطية ! هل صحيح أنهم صاروا بين عشية وضحاها إلى ديموقراطيين يعبرون عن أحاسيسهم وأفكارهم تعبيرًا سليمًا ومعافى من الأحقاد والبغضاء ؟ ....)) [٣] .

ويعود الشيخ إلى تصوير اقتحام العدو على الأمة عقر دارها، وخطف وتدمير أشيائها ، ودوافع اقتحامه هذا ، ومن أرسلوه ، وقدر هذا الجيل مع الذل والانهزام في هذه المواجهة ، فيقول :

((فإذا جاءت اليوم هذه الفئة الصهيونية العنصرية متداعية على أرضنا ناهبة لبيوتنا ومزارعنا ومقدساتنا ومشردة لأولادنا وأسرنا في فلسطين فقدرنا - نحن هذا الجيل العربي - أنكد الأقدار وأقساها قبضة على رقابنا ، إنه يشنقنا ويفضح عوراتنا فضحًا مهما حاولنا إخفاءها

---

(١) الإشارة تنصرف إلى مصر التي عقدت معاهدة سلام " كامب ديفيد " مع إسرائيل عام ١٩٧٨م .

(٢) الرسائل ١/٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٨٢ - ٢٨٣ .

أو للمنا شرائح أثوابنا الرثة عليها ....))[1] .

واقع مذل ، وموقف مخزٍ ، وتعاسة ، ونكد، ومحنة يتمنى الإنسان معها لو لم يكن: ((ليتنا في مدافن الأموات أو في أصلاب آبائنا لم نخرج إلى الحياة .... ما أتعس هذا الجيل ..!! ما أنكد حظه ! ما أشد المحنة على أهلنا شعب فلسطين !! ما أعظم صبرهم !))[2] .

إنها تجربة أربعين عامًا مع العدو ، ومع هذا الواقع ((معذرة إذا أخذني التشاؤم واختفى عني التفاؤل ، فأربعون عامًا مع العدو ، مع أنفسنا ، لم تبق لنا تفاؤلاً يحمي الإنسان من السقوط في حفرة اليأس ، ....))[3] .

تلك هي الخطوط العامة ؛ في موقف الأمة ، وواقعها في مواجهتها مع عدو وجودها ، وعدو الإنسانية كما صورها الشيخ ورسم ملامحها وهو كذلك .

٢ـ الأمة في مواجهة الزحف الحضاري :

أما في هذا الميدان ؛ فإن الخطاب ينصرف إلى رصد موقف الأمة إزاء الزحف الحضاري العنيف المتواصل عليها منذ زمن بعيد ، ومعطيات ذلك الموقف .

وحين يتجه الشيخ إلى رصد هذا الزحف الحضاري والمدني المعاصر ؛ فإن رؤيته النافذة لا تتوقف عند المظاهر السطحية التي تتزيا بها في عيون مضيفيها ؛ من وسائل مادية ، وعلوم تجريبية نافعة ، من شأنها مساعدة الإنسان على خوض معترك الحياة المعاصرة ؛ ولكنها تتجاوز ذلك إلى ما تختزنه في أعماقها من محمولات أخلاقية ، وثقافية ، وفلسفية ، ومذهبية ، وعلمية ، ومادية هي في خطرها على سلوك الإنسان وإنسانيته وعقله وروحه ووجدانه وأمنه المادي والمعنوي أشد من الموت ذاته، يقف خلفها إنسان آخر ـ بالمعنى العميق للكلمة ـ تلهب صدره أطماع ومقاصد شريرة .

يصور الشيخ هذا الزحف الذي أصبحت الأمة العزلاء تشوى وترجف وتنتثر دماؤها الفكرية والروحية والنفسية في مهب حمولته الفكرية والفلسفية والمذهبية ، المتفجرة عليها من كل أفق فيقول :

((نشاهد الأزمة تلفح أرضنا نحن العرب وتهب عليها أعاصير الشرق والغرب ، مع الشرق أعلام مرفوعة للفقراء ، ومع الغرب آمال مرفوعة للأغنياء ، مع أولئك مذهب اشتراكي

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٣٤٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٧٨ .

ومع هؤلاء مذهب رأسمالي يسمي عالمه العالم الحر ، مع المذهب الأول الإلحاد ، ومع المذهب الثاني الصهيونية العالمية والانحلال ونحن معنا الفراغ !!)) [١] .

ويصور الأمة في موقف الاختراق الحضاري الكامل لحصونها ماديًا وأخلاقيًا وسلوكيًا وروحيًا وفكريًا ونفسيًا ، وهي منقبضة في زاوية ما ، مصغية في ذل وانكسار إلى خطاب هذه الحضارة وهذه المدنية على ما فيه من سخرية وازدراء وعنف وصلف ، عاجزة، لا تملك أن تدفع عن نفسها من مضامينه شيئًا فيقول :

((... لقد طوى التاريخ الماضي في صفحاته ، وظل يرقب الأحداث في عصر فتح كتابه وصار يملي إرادته ولون حياته وسلوكه من الفضاء ، ولم يعد في الأرض حائط سميك لا تخترقه تموجات الذهن والسلوك .)) [٢] .

ويقول : ((رأيناها (الحضارة) فوق القمر وفوق الخيال استباحت الحصون والجدر ، أغلقنا الأبواب دونها فاقتحمت حتى غرف نومنا وحتى جماجمنا طاردتنا في سرائرنا ، ذبلت عين زرقاء اليمامة حتى لم تعد ترى شيئًا ، ....)) [٣] .

ويصور الواقع الذي أصبح فيه تدمير الأمة ماديًا وروحيًا ونفسيًا ، وسلب مقدراتها المادية غاية للآخر ، وظف ويوظف كل وسائله وطاقاته المادية والمعنوية لتحقيقها ، وموقف الأمة إزاءه ، فيقول :

((أرجو أيضًا أن يلملم عالمنا العربي والإسلامي جروحه ويستيقظ من رقاده ، فيقف على قدم وعيه أمام عالم آخر يمشي إليه بمادياته وجبروته لا ليؤاخيه ويعطيه فرصة المشاركة فيما عنده من إيجابيات ، بل ليسحقه وينهب ما لديه من خيرات ويفرغه ويفرغ روحه حتى يكون خواءً ، ويكون أشباحًا تعيش في الظلام ...!)) [٤] .

وكان الاستعمار الذي كابدته هذه الأمة ولا زالت ـ إذ يؤكد الواقع أنه إذا كان قد انزاح عن أرض الأمة وإنسانها بأشكاله المادية ؛ فإنه لا زال بمضامينه الأشد فعالية ـ وسيلة أخرى من الوسائل التي اتكأ ويتكئ عليها الآخر لتحقيق أهدافه تلك ، وما هذا الوباء الخبيث الذي سموه "إسرائيل " إلا أداة من الأدوات التي يتكئ عليها هذا الآخر لتكريس حركية

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٨٠ وانظر ١/٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٥١ .

(٤) المصدر نفسه : ١/١٠٦ وانظر ١/٢٧٣ ، ٢/٢٦٠ ـ ٢٦١ .

الاستلاب المادي والروحي والنفسي والسياسي لهذه الأمة ، يقول :

((لسنا فقراء ، لسنا ضعفاء ، نحن أغنى البشر ، لذلك اختاروا كلب الاستعمار فأدخلوه الغابة وعلموه كيف ينذر بالخطر في نباحه ليستجيبوا له كلما أراد ذلك وأرادت مصالحهم أن تعتدي على لقمة العيش وعلى أقدس ما فينا وما عندنا...!))[1].

لم تتوقف أنشطة الاستلاب المادي والمعنوي هذه عند هذا الحد ؛ بل تجاوزت ذلك إلى سرقة كل جميل من تراث الأمة الفكري والمعرفي وإنكاره ، يقول :

((... ومن فكر من قومي وقومك في التاريخ البعيد تلصص إليه سراق الفكر من عالم الغرب أو الشرق ... وقليل منهم من اعترف بالسرقة وأثنى على جمجمة ملأت قدحه.))[2] .

وإلى ذلك كله ، فمن نحن في نظرهم ؟ وما وزن هذه الأمة في مقاييسهم ؟

إنها في رؤيتهم وفي إحساسهم بها أمة حقيرة[3]، لا تعدو أن تكون حطامًا وبقايا أشجار ميتة[4] ، وهي رؤية لم تأت من فراغ ؛ بل كانت انعكاسًا حيًّا لواقع هذه الأمة في مواقفها في سياقاتها المختلفة ، كما يراها ويحس بها الآخر من خارج دائرتها ، وما من شك أن رؤية الدائرة ، ومضامين الدائرة من الخارج ، أتم وأقدر على التقويم الصائب .

وحين يتأمل الشيخ واقع الأمة في كيانها ومقوماتها المادية والروحية والأخلاقية، في موقفها الذي تقع فيه تحت طائلة هذا الزحف الطاغي يراها اليوم في مقعد امتحان ضنك تبتلى فيه ابتلاءً شديدًا ليس له سابقة في تاريخها على الرغم من اكتظاظ سجله بالنكبات الكبيرة ، يقول :

((إن عقيدتي وأصالة أمتي لم تمتحن وتتفجر الأخطار والمذابح الروحية والخلقية في تاريخها الطويل مثلما تمتحن به اليوم في عالم لم يكن له تاريخ نقرئه أولادنا ونضعه بين أيديهم ليقرأوه ، ....))[5] .

ولكن ، هل وعت الأمة واقعها هذا ؟ وهل استطاعت أن ترتفع بإحساسها إلى مستوى تشعر معه بآلام واقعها وكزازة مقعدها تحت طائلة هذا الزحف القاتل ؟

يبدو أنها لم تستطع ، أو لم يُرَدْ لها ذلك ؛ فإن وعت أو أحست ظل ذلك في حدود التلقي

---

(١) المصدر نفسه : ٢٧٨/١ وانظر : ٣٤٦/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤٧/٢ .

(٣) انظر الرسائل ٣١٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٨١/٢ .

(٥) الرسائل ٢٦/١ .

السلبي الذي لا يتحول معه هذا الوعي وهذا الإحساس إلى فعل مسئول بناء ، يدفع بها ولو خطوة باتجاه تجاوز واقعها ، فها هي ذي تكاد تكون وحدها في هذا العالم التي تجمد في مقعدها مشلولة الحركة تستقبل ولا ترسل ، تأخذ ولا تعطي ، تسمع وتطيع دون حوار أو مناقشة ، يقول :

((أكثر الشعوب ـ ما عدانا ـ قومت هذه الحضارة ومعطياتها وسعت إليها سعيًا حثيثًا ، اقتحمت عليها بيتها فأعدتها بعدواها وصارت شريكة فيها لأنها حضارة الإنسان .)) [١] .

وحينما تستقبل أو تأخذ ، فماذا تستقبل ؟ وماذا تأخذ ؟ إنها لا تستقبل ، ولا تأخذ من هذه الحضارة وهذه المدنية إلا أمرين :

أحدهما : فضلات موائد الآخر ، مما تخدر به جسدها الواهن ليسترخي أكثر ، ولتخمل فيه خلايا الإحساس أكثر ، ولتذل أكثر يقول :

((هذه الحضارة المعاصرة نتعامل معها في سذاجة الأطفال وننظر إليها على أنها أبقار سمان شحمها ولحمها يأتينا رغدًا)) [٢] .

ويقول : ((موائدنا ملأى ونركض في تسول مهين إلى موائد الآخرين الجاهزة نأكل من فضلاتها دون احترام لأنفسنا .)) [٣] .

وثانيهما : ما أعدوه لها لتدمّر به ذاتها ، يقول :

((أما نحن العرب فكل الذي أخذناه منها الموت والدمار ، صنعناه لأنفسنا بوسائلهم التي صنعوها للشعوب المغبونة والتي لا تتعامل مع هذا الكون ومع العقل الإنساني معاملة وثابة بل تشحذ سكاكينها وأمواسها وفؤوسها للهدم والتدمير وليس غير .)) [٤] .

إنها في أكثريتها تتعامل مع هذه الحضارة تعاملاً منبتًا عن عقيدتها وأصالتها ووعيها القادر على التمييز والاصطفاء ، يقول :

((قليل من يراها ويحاول في عالمنا الإسلامي وعالمنا العربي أن يتعامل معها في وعي العقيدة والأصالة واكتساب الأجود والأفضل مما فيها.)) [٥] ، مما جعل هذه الأكثرية تفقد

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤٦/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣٤٦/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٤٦/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٧/١ .

شخصيتهـا ، وتضيّع هويتهـا ، وتنمـاع فـي ذل تحت أقدام خطاب هـذه الحضـارة ، يقـول : ((... وقومي ألف مليون أو أكثر ، أليست رائحة هذه الحضارة هي الشم وهي السيد لأكثرهم وهي الآمرة والناهية ؟ ....))[1] ، فماذا بعد كل ذلـك ؟ ((... أتظننـا في طريقنا إلى الفناء أم ماذا ؟))[2] .

إنه موقف انتحار حقيقي ، فهل ملت الأمـة وجودهـا ، وأعيتهـا الحيـل في التـأقلم معـه ، فرأت في الانتحار مخرجها الوحيد من ذلك الوجود المحاط بتلك الآلام والغصص ، والانتحار محرم في شريعتنا .

ها هي ذي المرحلة الأولى ، من مراحل تدمير الذات تؤتي أكلها القاتل ، بانسـلاخ الأمـة عن جلدها ، وهرولتها البلهاء خلف قافلة هذه الحضارة وهذه المدنية ، منزاحة بذلك تحت نقعهما المفاجئ عن الخط المتين الذي ما وجدت ذاتها ، ولا عاشت مـع هويتهـا ، وشـخصيتها الكونيـة ، وتوازنها الداخلي والخارجي وأهدافها السامية يومًا إلا عليه ، يقول :

((... تحولنا عن ظهور جمالنا وخيولنا وطوينا خيامنا ومشينا مع قافلة العصـر نتسـاءل في لهاث ضاق به النفس إلى أين نحن سائرون ؟ متى كان هذا ؟))[3] ، وأصبحت بذلك تعيش غربة موحشة ، ((... ولا أشد من غربة هذه الحضارة وهذه المدنيّة حين يتيه الإنسان في سـلبياتها عـن أصالته ورسالته الإنسانية .))[4] .

تلك هي الخطوط العامـة لواقـع الأمـة ، وموقفهـا العـام إزاء الزحـف الحضـاري والمدنـي المسلط عليها من كل اتجاه ، وهي خطوط تعكس موقفًا حرجًا تبدو فيه الأمة عـزلاء تحـت وطـأة تيارات مادية وفكرية وفلسفية ومذهبية وتصورية غريبة ؛ فإذا بها تحترق ماديًّا وروحيًّـا وأخلاقيًّـا وسلوكيًّا وفكريًّا ونفسيًّا ، بشكل مذلّ شالّ للحركة ، جعلها ، وجعل مقدراتها المادية والمعرفية، ومقوماتها الأخلاقية والروحيـة والنفسـية نهبًـا للصـوص ، ومسـرحًا مثاليًّـا لتجريـب وسـائلهم ، واختبار فاعليه شرورهم ، كل هذا يحدث والأمة تنظر - في ذهول وانشداه ودهشـة بلهـاء - إلى المشاهد المريعة على جسدها الممدد من المحيط إلى الخليج .

---

(١) المصدر نفسه ٢٧٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٦/١ وانظر : ٣١٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢١/١ وانظر : ٣٧٨/١ .

لكنّ هذا لا يعني أن الأمة قد عقمت وفنيت فيها الخلايا أو الأعضاء الحية ، فها هـي ذي صرخات الغيورين من أبنائها تتعالى من هنا وهناك ، وهـا هـي ذي بعـض أعضائهـا تجـاهد الواقـع العام ، وتحاول استفزاز الجسد الكبير بحقن الأمصال العلاجية لعلـه يفيـق مـن رقـاده أو غيبوبتـه، ولكن فداحة الواقع لا زالت تخذل هذه الأصوات وتلك المحاولات وتحيلهـا إلى مجـرد شتات مـن الأنات والتأوهـات الحارة تصدر عن المراكز التي لا تزال تحس وتعاني هذا الواقـع ، وتطمـح إلى الإفلات بذاتها وبأمتها منه ، وما هذه الرسائل القادمة من أعماق الصحراء إلا أنة طويلـة ملتهبـة في هذا السياق .

هـذا وذاك هـو واقع الأمة فـي سياقهـا العالمي حضـورًا وفعاليـة وموقفًـا مـن الزحـف الصهيوني والزحف الحضاري ، وهو ـ كما تجلى ـ واقع بـالغ الخطـورة : ((... لكـن أيظـن عـالم اليوم وأقوياء اليوم ومؤيدو مظالم اليوم أن كل شيء انتهى عند هـذا الحد ؟ .... أبـدًا ....)) [1] ـ إن شاء الله ـ وهذا ما يؤكده تاريخ هذه الأمة المليء بالنكبات والتساميات ، ولكن ((الرقـــاد الطويل متى يستيقظ ؟ ....)) [2] ، هذا ما لا يعلمه إلا الله .

البعد الثاني : وضع الإنسان في إطار هذا الواقع :

لكن الشيخ لم تتوقف به خطاه عند رصد ملامح الواقع العام الـذي عاشـته وتعيشـه هـذه الأمة ؛ بل تجاوز ذلك إلى رصد حركة الإنسان العربي والمسلم ذاته في إطار ذلك الواقـع ومعـه ، وتأثره به ، وتأثيره فيه منذ كان فيه وبه فارسًا على القمة وحتـى صـار فيـه وبـه ـ أيضـا ـ كائنًـا مطحونًا في أعماق الوادي ، يكابد آلام هذا الواقع وأوجاعه الحادّة ، فما حال إنسان هـذه الأمـة راكبًا على ذؤابة القمة ؟ وما حاله متدحرجًا على السفح ؟ وما حاله في بطن الوادي ؟

ذلك ما يكشف عنه الشيخ بتفصيل لا مناص معه من الاختزال والمرور عليه في خطوطـه العامة فحسب .

يوم كان الواقع متغلغل الجذور في تربة القمة ، ويوم كان الإنسان الذي يصنع الواقع مـع توازنه عليها متماسكًا معها بروحه ، صادرًا عن ذلك التماسك القـوي في حركتـه ، ومناشـطه في كل اتجاه كان هناك عملاقًا في إنسانيتـه ، وفي حركتـه ، وفي مقاصده ، وفي مواقفه ، ومنجزاته ، فصنع بذلك واقعًا مشرقًـا ((ملأتـه القبائـل العربيـة أحقابًـا طويلة بخصائصها وأخلاقها ومميزاتها

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٨٢ .

ورسالتها الإنسانية ....)) [١] .

في ظل هذا الواقع الذي صنعه إنسان القمة قام مجتمع راق تجسدت فيه الإنسانية في أرقى معانيها ، مجتمع إنساني ((الزعيم)) فيه يقول : ((ما منْ أهلِ عَرصَةٍ باتَ بينَهم جائعٌ إلا بَرئَتْ مِنْهُمُ الذّمة)) [٢] ، و ((الزعيم)) فيه يأمر جنده ألاّ يسرقوا ، ولا يقطعوا شجرًا ، ولا يؤذوا ذميًّا ، وأن يتراحموا فيما بينهم [٣] ، و ((الزعيم)) فيه يخضع لمعارضة ((مسلم بسيط)) ظن أن ((الزعيم)) قد اختص نفسه بثوب سابغ دون رعيته [٤] ، ويرجع عن رأيه حينما قرعته ((المرأة البسيطة)) بالحجة القرآنية [٥] ، مجتمع القائد فيه ((خالد [٦])) ، و ((الشاعر)) فيه يقول ((لأمير)) العرب والمسلمين :

" أتصحُو أَمْ فؤَادُكَ غيرُ صاحٍ   عَشيَّةَ هَمَّ صَحبُكَ بالرّواحِ" [٧])) [٨] .

ويقول - أيضًا -

" ظَعائِنَ لَمْ يَدِنَّ مَعَ النَّصارَى   ولا يَدْرِينَ ما سَمَكُ القَراحِ" [٩])) [١٠] [١١]

((والرجل البسيط)) فيه يقول لـ ((الزعيم)) في بساطة كبساطته : ((ما عدلت يا ((محمد)) !! أعطيت قومك وحرمتنا، ....)) [١٢] ، ويحتج عليه البدوي الآخر قائلاً :((أهذا وحي أم رأي ؟)) [١٣] ، فيرد عليه ((الزعيم)) قائلاً : ((بل رأي)) [١٤] ، فيقول البدوي البسيط : ((إذن

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥٩/٢ .
(٢) المصدر نفسه :٢٩١/١ وانظر ١١٧/٢ ، ٢٨٢ .
(٣) انظر الرسائل ٢٦١/٢ .
(٤) المصدر نفسه : ١٠٧/١ ، ٢٨/٢ .
(٥) المصدر نفسه : ١٠٧/١ .
(٦) المصدر نفسه : ٢٧١/٢ ، ٢٧٢ .
(٧) جرير - الديوان - ٨٧/١ .
(٨) الرسائل ٢٦٧/٢ .
(٩) جرير - الديوان -٨٧/١ .
(١٠) الرسائل ٢٦٧/٢ .
(١١) انظر تفسير الشيخ لهذين البيتين ٢٦٧/٢ - ٢٦٩ .
(١٢) الرسائل : ٢٩١/١ .
(١٣) المصدر نفسه : ٢٩١/١ .
(١٤) المصدر نفسه : ٢٩١/١ .

هـذا الرأي غير صائـب ارحـل من هنا وأنخ مطاياك هنـاك !))[1] ، فيرحل ((الزعيم)) وجنـده إلى حيث أشار . ((والرجـل البسيط)) فيه ـ أيضًا ـ يحاكم ((الزعيم)) على أن لبس ثوبًا سـابغًا في الوقت الذي لم يحظَ هو فيه إلا بثوب قصير ، ويخضع ((الزعيم)) لمحاججـة لا ينجيـه منهـا إلا شهادة الشهود على أنه قد استعار ثوبًا آخر ليصله بثوبه حتـى يقيـه مـن شـدة البـرد[2] ، ولكـن ((الرجل البسيط)) في أخلاقه وفي سمته قيس وجميل وكثير وعروة .

أما ((المرأة البسيطة)) في هذا المجتمع الإنساني فهي التي تحـاكم ((الزعيـم)) لاسـتعادة حقها وتقرعـه بالحجة القرآنية فينخ على الفور ، وينزل عند رأيها ، ويشهد لهـا بأنهـا أكـثر فقهًـا منه .[3] ولكنها في أخلاقها وفي سمتها ليلى وعزة وعفراء وبثينة .

((في هذا المجتمع رأيت الإيثار في أعلى صوره . رأيت تمجيـد الإنسـان ، تمجيـد العقـل ، تحرير النفس ، تقديس الحرية ، رأيت المساواة الحقة))[4] .

ذلك ـ إذن ـ هو الإنسان في رأس الهرم وفي قاعدته ، وتلك هي حركته في ظل واقع كان في القمة يظلل إنسانها ، ويصنع بفعله وبحركته الواعية التي تتغذى من مناهلهـا الصافيـة ، فـالتقى الإنسان هناك لأول مرة مـع كرامتـه كاملـة ، ومـع إنسـانيته غـير منتقصـة ، ومـع أمنـه النفسـي والروحي وانصلاح أموره .

ولكن الإنسان تزل به قدمه ، ويغادر تلك القمة في حركة تدحرج طويلة ، وعلـى طـول السفح، وخلال قرون التدحرج ينشأ واقع جديد، صنعه ذلك الإنسان بحركته المتردية مـن سـفل إلى سفل ، فجاء ذلك الواقع مضطربًا في حركته ، حادًا في تقلباته وانحناءاته ، جارحًا في ترديـاته ، عميقًا ومؤلمًا في جروحه ، وأصبح الإنسان في خضمه ضائعًا عـن ذاتـه ، منفلتًـا عـن الحبـال الـتي تصله بمناهل عقيدته وأصالته وإنسانيته الصافية من أي كدر ، وهي تنظر إليه مـن فـوق ، وتبكـي عليه في ألم وحرقة ، وتنتظر في صبر لحظة قبضته على حبالها لتنقذه من ترديـاته ، وأضحـى إنسـان السفـح بكـل طاقاتـه وحركتـه وإنسانيتـه تحت وطأة هذا الواقع الجارح متقزمًا في حجم الغجرية

---

(١) المصدر نفسه ٢٩١/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٠٧/١ ، ٢٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠٧/١ ، ٣٢٠/٢ .

(٤) الرسائل ٢٧٨/٢ .

ضاربة الدف التي تعزف على مزمارها الباكي دموع الفجيعة والحسرة [(١)] ، وظل هذا الرمز الإنساني الحزين يتوارثه الخلف عن السلف بأمانة وإخلاص ، وظلت دائرته تتسع وتتداح حتى جاء في هذا العصر ، وفي ظل هذا الواقع المحروس حراسة مغلظة [(٢)] ليندس بين أضلاع الإنسان العربي والمسلم المعاصر أينما كان على نحو ما ، وتمددت معه دائرة ((حسرة العربي)) [(٣)] ، لتبتلع مساحات شاسعة أخرى .

لقد احترقت فوق لهب هذا الواقع في كثير من حلقات سلسلة الأمة الطويلة منابع المشاعر ، وماتت العواطف ، وضاقت الصدور ، وأفقرت الجيوب ، وجفت غدران الوعي ، وبدت هذه الحالة مكشرة عن أنيابها الشرسة المتعطشة إلى الافتراس ، يقول :

((ولدي :

أفي شح المشاعر وفقر العواطف وضيق الصدر وخلو الجيب مما يسد العوز ، وجفاف غدران الوعي ، طريق آخذتك إليه كل الآفات ....لا أدري .... ولكني أراها حالة بادية أنيابها ، شرسة في الافتراس في أكثرية أمتك العربية والإسلامية ،....)) [(٤)] ، ونتيجة لذلك أمست ((الرمية يخافها رجل اليسار مثلما يخافها رجل اليمين ....)) [(٥)] ، وأمسى الرعب يمزق قلب الأم البارة بأمتها على ولدها الذي أهدته إلى أمته وأرادته خيرًا لها ، يقول :

((... الصور المتشائمة تعرض نفسها على كل أم طفل كابدت حمله ثم كابدت تربيته ثم دفعت به خارج البيت إلى إخوته وأبناء عمومته وقالت : هؤلاء هم أهلك وهم قومك ، فأنا أمك الأولى ، أما أمك الثانية فهي بلادك ، هي وطنك ولن تكتمل رجولتك ولن يكتمل إيمانك إلا بالبرّ به مثلما تبرّ بي .... أرادته لبنة صالحة في مجتمعه ! .... ولكن هل هذه الإرادة أمنت طفلها ومدت له في الحياة أم أن أخاه وابن مجتمعه واقف له على أفواه الطرقات حاملاً بندقيته ؟ لا أدري ولكن الأحداث تجيب على كل سؤال ينطرح ولا يجد من يجيب عليه ....)) [(٦)] ، وأمسى الفكر المبدع ، وأصبح التعبير الرزين الحرّ الهادف يرتعد في دهاليز الجماجم ، يقول :

---

(١) انظر الرسائل ١/٩٣ - ٩٤ ، ١١٨ ، ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١/١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٤٦ .

(٤) الرسائل ١/٣٣٦ .

(٥) المصدر نفسه : ١/٢٣٠ .

(٦) المصدر نفسه : ١/١٢٨ - ١٢٩ .

((تصور معي رأسًا لا تضاجعه فوق وسادته أثناء الليل إلا صورة الجلاد ، كيف له أن يفكر أو يحس بالأمان في هذا الحال .. ؟!! وما أكثر الرؤوس التي تضاجعها مرأى السيوف، وما أكثر الرقاب التي تقبلها السيوف بشفاه دامية في تاريخ العرب ! قدسوها لأنها القريبة من أعناقهم وقالوا عنها "إنها أصدق إنباء من الكتب" [١])) [٢] ، وأمست الشعوب العربية والإسلامية في مجملها تكابد آلام ذلك كله ، يقول :

((هل هناك شعب من شعوبكم سعيد يعيش الرخاء ويعيش التعبير الصحيح عن أفضل ما فيه ؟ هل هناك من يحترم أخاه وإن خالفه في معتقده ؟)) [٣] ، وأمسى ((فقيرنا ــ ومجتمعنا في سعته ــ واضع يده على بطنه الجائع ، ويده الأخرى تتلمس خيط النجاة في الصبر والاحتمال ، .... هذه حال فقرائنا فلنر حال أغنيائنا وأثريائنا في العالم العربي والإسلامي .. من هم الأغنياء ؟ ومن هم الأثرياء الذين يمكن أن يكونوا محسوبين في حساب العالم الحر والمنحازين إليه ؟ إنهم لا شيء ، إنهم السراب في أرض العرب ، إنهم النبت الرديء ، إنهم في غالبيتهم خضراء الدمن ، ليس لهم أصالة في علم المال والاقتصاد ، وبعضهم أكياس موبوءة تجمعت في داخلها حصيلة من الثراء المرتجل القائم على السرقات والغش والربا والاستغلال . لا أتصور أن بينهم من فكر في مجتمعه ، في فقرائه وإذا فكر واحد منهم قال أمد يدي بقليل من الصدقات تمحو ذنوبي وتزكي ثرائي ، إنها خدعة من خدع الغش الذي درج عليه . المال والمؤسسات المالية في عالمنا المعاصر لها نهج ولها قانون وعليها محاسبة من القانون ، وشر ما عندنا أن فقرنا وغنانا لم يصن بعضنا عن الانحرافات الخطيرة ، فإن من أغنيائنا وفقرائنا من يظن ألا بقاء لحياته ووجوده وكيانه إلا حين يخرج بنفسه عن كل قيمة من قيمنا ويتحول إلى عدو شرس يعطي صورة بشعة للتشهير بنا .)) [٤] .

أما قيس فقد ذهب، وراحت ليلى وعزة بعده تطويان خيمتيهما من مضارب العشيرة : ((فالخيام ومضارب العشيرة لم تعد في أودية نجد ومنازل ليلى ، وعزة عقلت جملها ، أو أهملته في الصحراء بائسًا حزينًا حين أنزلت من على ظهره هودجها وقالت له : ركوبي عليك بعد اليوم

---

(١) أبو تمام - الديوان - ص١٨ .

(٢) الرسائل : ٢٤٢/١ وانظر ٩٤/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠١/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٨٠/٢ - ٢٨١ .

حرام ، لم تعد حمامة دوح آمنة في الصحراء .... !))[١] ، وهجرت جدل شعرها بأوراق سدرة الوادي إلى أصباغ هذه المدنية ، يقول : ((والسدرة المورقة التي كانت أمك أو خالتك أو عمتك في الصحراء تجدل بأوراقها شعرها الجميل وتسقيه من فم الطبيعة أنظف الشراب .... تجافت عنها وريشتها إلى أصباغ هذه المدنية ....))[٢] ، أما صخر فقد مات ، وها هي ذي خنساء العصر واقفة على ضفاف الوادي العربي الكبير تبكي أخاها[٣] .

أما البيت العربي فلقد دخلته آلة الحضارة الباردة ، ودخله الغرباء، فذبل ما فيه من جمال[٤] ، لقد أمسى الإنسان العربي وأخوه المسلم يعيش مع ذاته في خضم هذه الحضارة حياة قلق وتنافر ورعب متبادل ، يقول الشيخ : ((... أيمكن لك أن ترى في عالم العرب والمسلمين بيتًا سعيدًا بهذه الحضارة ؟ أيمكن لك أن ترى أخًا فاتحًا صدره لأخيه يقبله قبلة حب ، لا قبلة موت ، من مسدس أو قذيفة ؟))[٥] .

أما الشباب - على وجه خاص - فلقد بات يعيش مع هذه الحضارة حياة تجاف وصخب وشتات نفسي وفكري ، يقول : ((أما أنتم - أعانكم الله أيها الشباب - فقد قضت حكمة الله أن تتحطم في عصركم هذا كل السدود ، وتنهار المسافات حتى صار الواحد منكم لا يرى أباه أو أخاه أو جاره أو ابن قريته إلا نادرًا . صخب وضجيج هي حياتكم وميراثكم وعالمكم : لغات مختلفات ومفاهيم متباينة وألوان وأحوال ومقاييس في المفاهيم والأفكار تأتي إليكم على عجل وفي سرعة تفوق سرعة الضوء ، ....))[٦] ، ليس هذا فحسب ؛ بل إن ((من يرى حال أهلك العرب ، من يرى نوع حياتهم ، وسلوكهم وأخلاقهم ، فقد يتهم العروبة وقد يكفر بها ، وقد يعاديها ، وقد يذهب عنها بعيدًا إلى عالم الشرق أو الغرب ، ....))[٧] .

لهذا وذاك وقع الشباب - ولا سيما من ذهبوا يتلقون علومهم في الغرب - في بؤرة صراع شد عنيف بين خطاب جذوره التي تشده من قدميه وخطاب الحضارة الذي يشده من جمجمته يقول :

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣٩/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٦٤/٢ .

(٣) انظر الرسائل ٢٢١/٢ ، ٢٤٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٦٣/١ - ٢٦٧ .

(٥) الرسائل ١٥٦/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٦٦/١ .

(٧) المصدر نفسه : ٧٦/٢ - ٧٧ .

((إذا لفّ رأسك الدوار وهزته في عنف هذه الحضارة بجبروتها وأفكارها ومعطياتها ماذا عنك ؟ إذا جذبتك إليها في خطام فتلته لك أول ما فتلته على مقعد الدرس ، وقالت لك أمك أو قال لك أبوك أو أخوك أو جارك ممن لا يحتملون ذهابك بعيدًا عنهم قف ! وشدوك من قدمك شدًا عنيفًا أن لا تسر ! وهددوك بكسر القدم ، فماذا عنك ؟ بين من يجذبك من جمجمتك بخطام عنيف ، ومن يشدك من الساق عن الحركة ؟ ....)) [1] ، فانشطر تحت حدة هذا الشد شباب هذه الأمة ، بين حضاري غارق به جرمه في جرم هذه الحضارة المعاصرة ، وأوراق خريف لربيع ودّع شبابه ، وأبقى على الطريق العام جفاف روحه وتساقط شبابه [2] ، ومن هنا كان انسلاخ كثير من مفكري هذه الأمة ، ومن فلذات كبدها عن جذورهم ، والتحاقهم بقاطرات الآخر ؛ ركابًا في عربة الأمتعة والحاجيات والوسائل ، يحملون لأمتهم من العداء والبغض والازدراء ، ومن معاول الهدم - بوعي أو بغير وعي - ما يحمله سادة الرحلة وأخطر [3] .

لا ، ليس هناك ((أشد ولا أنكى من الظلم الذي يقع اليوم على الإنسان العربي بالذات ...!)) [4] ، إنه اليوم يعيش ((الضياع)) [5] ذاته .

لقد آلم هذا الواقع إنسان هذه الأمة ، وضاق به ذرعًا ، وغضب عليه ، وحنق وتوتر وضجر وقلق وسخط ، ولذلك ؛ فإنه لا يزال تراوده الأماني والأحلام في تجاوزه ، ولذلك ؛ فإنه دائب الحركة في هذا الاتجاه ، ولكن حركته - في أغلب الأحيان - تأتي عشوائية ، ليس فيها قطرة وعي أو شعور بالمسئولية ، مما يجعلها حركة مدمرة تعمق الجروح ، وتضاعف الآلام ، وتكرس الواقع ، وتذهب به بعيدًا ، مما جعل الطين يزداد بلة ، يقول الشيخ :

((وقلبنا الذي فجرت فيه صورة التخلف فينا أفتك سلاح وأكثره خطرًا علينا لا على جزء منا ، ماذا كانت ردود الفعل عندنا ؟ لا شيء .... !

---

(١) المصدر نفسه ٦٧/١ .

(٢) انظر الرسائل ٢٧١/٢ .

(٣) انظر : - رسالة " ما لم أقو على القبض عليه من ثعالب السريرة " ٩٩/١ - ١٠٩ .
- رسالة " من جرذان سد مأرب " ٣٣٤/١ - ٣٣٦ .
- رسالة " ما معنى الظاهرة الصوتية " ٢٤٧/٢ - ٢٥٣ " .

(٤) الرسائل ٣٨٢/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٢٠/٢ .

كل المنفعلين، كل المتوترين ، كل الذين ارتابوا في الماضي ردّوا كل شيء إليه ، ومالوا إلى إيذائه أو بالأصح عادوه عداءً أضاف إلى الفراغ فراغًا أكثر وإلى الشقاء شقاءً أعظم...)) [١] .

لقد آلم هذا الواقع ((... أكثرنا وضاقوا بالحياة فتوتروا وضجروا وقلقوا ثم سخطوا على كل شيء وقسوا حتى على أنفسهم وصار الأخ يرمي أخاه ببندقية أو بتهمة ، ويرد الواقع القائم هذا إلى ذاك ....)) [٢] .

وهكذا تحول الإنسان العربي وأخوه المسلم في خضم هذا الواقع إلى جنازة ترثيها أصالتها ورسالتها ، يقول ((... ولا أكثر إيلامًا وأكثر فجيعة من أن تصل جنائزنا نحن العرب إلى المدفن ، وهي في سلوكها جنازة كل قيمة ترثيها رثاءً أليمًا وحزينًا .)) [٣] .

ذلك ـ إذن ـ هو الإنسان العربي والمسلم المعاصر ، وتلك هي حركته في خضم واقعه ، منذ كان يصنع واقعه ويتفيأ في ظلاله في قمة تواجده ووجوده الإنساني المعافى ، مرورًا به مع واقعه الذي صنعه لنفسه في السفح ، وصولاً إليه تحت كلكله الحاد في قاع الجبل ، وهو اليوم يعيشه في أنكى صوره وأشدها فجيعة تائهًا في خضمه عن أصالته وعن رسالته وعن ذاته ، مشدوهًا بمعاناته [٤] ((تسلّيه في محنته اليومية نفحة الدين وتعلقه بها تعلقًا غيبيًّا جاهلاً لا برهان له عليه في نفسه وفي عقله وفكره يحميه من التضليل والتشويه والتشكيك .)) [٥] .

ولعل من المناسب ـ الآن ـ إغلاق هذين البعدين من هذا الفصل بطائفة من إشارات الشيخ التي اتجه فيها إلى سبر أعماقه الخاصة لاستجلاء انطباعاتها عن هذا الواقع ، وعن حاله كأنموذج إنساني عربي مسلم مسئول يعايش هموم أمته بعمق ، ويحملها بإخلاص ، ويعانيها بصدق ؛ وهي إلى جانب ذلك تكمل تصوير الواقع وتؤطره .

يقول عن ذاته وعن رسالته مع هذا الواقع ، وعن أمنياته لتجاوزه ، وعن انعكاسات كل ذلك على نفسه :

((تصور يجثو على قدميه الهزيلتين على خاطري أو على هذه الأوراق كلما أوحشتني هذه الحضارة وأخافتني على أمة يأكل بعضها بعضًا ويدمي هذا قلب ذاك ويفجر من عيون

---

(١) المصدر نفسه ٢٧٦/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٣/١ وانظر ٢٤٣/١ ، ١٢٩/١ - ١٣٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١٨١/٢ .

(٤) انظر الرسائل ٢٧٣/١ - ٢٧٥ ، ٢٦/٢ ، ٣٨٢ .

(٥) الرسائل : ٢٨٠/٢ .

الأمهات الدموع غزيرة ..! فدموع الخنساء ، هل أرسلتها إلينا ميراثًا وأوصتنا أن ابكوا وواصلوا البكاء على صخر ؟ ..)) [١] ، ((... نعم ، ألا ترى أن وادينا الكبير واقفة على جنباته أخت صخر تبكي وتنشج وتلقي رثاءها في أسماعنا ،....)) [٢] ، ((لا أدري ماذا قلت وماذا ستقول ؟ .... ضباب أثارته عندي رياح النفس فتظاهرت في هذه الرسائل تظاهرًا لا كتظاهر الغيوم الممطرة على أرض عطشى ناشف ريقها ...! هذه هي الشيخوخة .... وهذا هو الهرم ...! هذه صرخات وأصداء لجبال نفسية عاتية صخورها تستقبل الصوت وتردد أصداءه فينا من على صخرة العلم الذي لم يعلق بنا منه غير الصدى ..! فإذا لبست في زهو ثياب عيدك ، ومررت على الشارع العام ورأيت كل من فيه لابسًا أثواب عيده فسائل نفسك : على أي شيء عيّدنا أو على أي شيء نعيد ؟ ومثل هذا السؤال لم يأت بشيء جديد ، فقبلنا تساءل أبو الطيب حين قال :

عيدٌ بأيَّةِ حَالٍ عُدْت يا عِيدُ   بما مَضى أم لأمْرٍ فيك تَجديدُ [٣]

تساءل أبو الطيب وتساءلنا فجاء الجواب العاجل مع العيد ينزف دمًا وضياعًا وألمًا وحسرة في قلب كل إنسان .... أجابت عجائز لبنان وفلسطين وكذا عجائز العراق وإيران وأياماها [٤] وأطفالها وشيوخها عن السؤال الذي تحدر إلينا من البعيد قبل ألف عام .... ولا ندري ماذا يأتي به الغيب ....!)) [٥] ، ((وهنا أحدب على هذه الرسالة وأثني رقبتي عليها لتتقاطر الدموع فتحقن قلمي رثاءً يفوق رثاء الخنساء لأخيها صخر.)) [٦] ، والآن يا ((ولدي :

سأمنحك الراحة ، وأمنح نفسي وحدة مع آلامي فما أحوجنا إلى الحياء وما أحوجنا إلى أن ننستر حتى وإن كان بستر الكفن ...! ما أثقلنا على عاتق التاريخ ...! اللهم سترك ...! اللهم لطفك..!)) [٧] ، فلعل ذلك نذير بالسقوط النهائي من صفحاته القابلة .

---

(١) المصدر نفسه ٢٢١/٢ وانظر ٨١/٢ - ٨٢ ، ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٤٢/٢ .

(٣) أبو الطيب - الديوان ١٣٩/٢ .

(٤) إشارة إلى نكبة الحرب العراقية الإيرانية .

(٥) الرسائل ٢١٣/٢ - ٢١٤ .

(٦) المصدر نفسه : ٣٣٥/١ .

(٧) المصدر نفسه : ٢١٤/٢ .

البعد الثالث : تعليل الواقع :

تم آنفًا رصد خطاب الشيخ الذي صرفه إلى تصوير واقع الأمة ، وحركة الإنسان فيه ومعه ، أما الآن فسيتم الاتجاه إلى رصد مضامينه التي حاول من خلالها تعليل ذلك الواقع ، تمهيدًا لعلاجه ، حيث انطلق إلى هذا الميدان ، ليغوص في أعماق العلل ، في حركة تستهدف البحث عن أسبابها ، وروافد ظهورها واستمرارها ، ومن ثم الكشف عنها وتعريتها ، فما النتائج التي توصل إليها الطبيب المبدع ؟ .

لقد حمل رسالته الكثير من المضامين التي كشف بها عن مغذيات ظهور واستمرار هذا الواقع ، وأبرزها :

١ـ الانحراف المنهجي :

ذلك ، أن الكوارث التي أتعبت الأمة عبر تاريخها الطويل عامة ، وفي هذا العصر خاصة ما حلت بها إلا منذ أُخِذت في حركتها الشاملة بعيدًا عن مصدر هدايتها ومنهجها السماوي ، ذلك المنهج القرآني الذي ما وجدت الأمة نفسها ، ولا حققت ذاتها ، ولا عرفت معنى لوجودها العزيز إلا بثبات أقدامها عليه إبان عصرها الأول ، يقول الشيخ :

((ولدي :

إذا تراءى لإنسان هذا العصر أننا نحن العرب حطام وبقايا من الأشجار الميتة وهانت عليه ـ في كبرياء غروره وطغيانه المادي ـ رسالتنا الإنسانية، ولم يحفل بنا، أتراه مسئولاً أم غير مسئول؟...

أنا لا أميل إلى لومه وتحميله مسئوليتنا ، ولكن يذلني أمام نفسي وأمام عقيدتي وأمام لغتي انحراف صحتي . فرسالتي العظمى التي لو أبحر الإنسان في أعماقها وركب إليها في سرعة الضوء بنات فكره ، لما أقامت في وجهه حاجزًا أو سدودًا أو عائقًا وقالت له : قف هنا فليس وراء هذا العائق جمال ولا غنى ولا صورة مشرقة [1] . والخطر هنا أن هذه الرسالة التي كرّم الله بها الإنسان العربي في جبل من جبال مكة ، تركها الإنسان العربي حين نزل من القمة إلى السفح بقيت هي هناك وحيدة تعاني الغربة ، وظل هو يتدحرج في السفح ، في خشخشة الأشجار الميتة ..! كلام كثير ، وصوت أبح ، وحشرجة ، واللسان العربي المبين في القرآن العظيم راقدة فيه أسرار هذا الكون ، وما بعد الكون ، أسرار هذه الحياة وما بعد الحياة ....)) [2] .

---

(١) في هذا تصحيح لرؤية أولئك الذين يعلقون فشل الأمة على إسلاميتها .

(٢) الرسائل ٣٨١/٢ - ٣٨٢ وانظر ٢٧٥/١ ، ٣٥٤ ، ٢٦/٢ ، ٣١٦ .

حدث هــذا ، فتكسرت الأقــداح ، وانتشر منهـا مـاء الحيـاة فـوق الرمـال ، فـألهب الظمـأ كبـد الإنسان ، يقول :

((فأقداحنا نحن العرب وأقداحنا نحن المسلمين يوم كانت علـى قمـم جبـال أرض يـثرب وعلى جبال بطحاء مكة مستوية على قمة الجبـل ، كـانت وردًا للظـامئين وللحـائرين علـى هـذه الأرض فلما

"تشابَهتِ البهائمُ والعِبِّدّي   عَلينا والمَوالي والصَّمِيمُ " [١]

كما قال أبو الطيب حملت أكثريتنا نحن العرب والمسـلمين الأحجـار وحطمـت الأقـداح فظمئـت أكبادنا يوم انتشر ماء الحياة فوق الرمال !)) [٢] ، ولماذا ؟ .

لأن ((كل خطو ينحرف عن طهارة الرسالة الإنسانية التي وضعت رئيس الدولة عمر في موقف المحاسبة على ثوب ، وأوقفته أيضًا حين قال : أخطأ عمـر وأصـابت امـرأة ..! لا بـد وأن يسقط في فوهة البركان ....!)) [٣] .

فيوم اقتيدت الأمة بعيدًا عن منهجها ذلـك ، ويـوم أخذهـا حداتهـا إلى دهـاليز جانبيـة ، تاهــت عـن مكانها ، وعن وجودها الأمثـل ، وعـن توازنهـا ، وعـن أمنهـا ، وسـقطت في فوهـة البركان .

ذلك هو المصدر الأب ، الـذي صنـع الواقـع وأمـده ولا يـزال بغـذاء البقـاء ، وحطـب التوقـد ، وضروريات الاحتدام ، وتبقى الروافد الأخرى مجرد مسارب يغذيها ذلك المصـدر الكبـير لتغـذي هي بدورها هذا الواقع وتمده بطاقة البقاء والفعالية المتنامية .

٢ ـ الشتات التشريعي :

كانت أولـى نتائـج هــذا الانحراف ، وأشدهــا خطرًا ، وأعمقهـا انعكاسًـا علـى حركـة الأمة تباعد الأمة عن شريعتها السمحاء التي تضبط مناشطها الحياتيـة ، وشـرود أكـثر تشـريعات حياتها إلى غرب وشرق ، أو إلى تصورات خاصة ، واجتهادات لم تمنح الأمن والاستقرار والعدالة لمجتمع من المجتمعات ، فكان ذلك التباعد وهذا الشرود عاملي هدم كرسا ضيـا ع الأمـة ، وشـتتا مسالكها [٤] .

---

(١) المتنبي ، الديوان ٢٨٢/٤ .

(٢) الرسائل : ٧٢/٢ وانظر ٣٢٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠٧/١ وانظر ١٠٨/١ ، ٢٧٦ .

(٤) انظر الرسائل ٢٢٠/٢ .

٣ـ التخلف المعرفي :

وكان التباعد عن الرسالة التي تستثير في الأمة روح الإبداع ، وتبقي عليها في أوج التوقد والنشاط [١] ، وعن القرآن ؛ مخزن الأسرار [٢] عامل تثبيط أصاب في النفوس طموحها المعرفي ، ورغبتها وقدرتها على الإبداع ، فضمر حجم الأمة في هذا الجانب ، وتضاءلت فعاليتها ، وذبلت أوراقها ، ووقعت في ربقة تخلف معرفي حادّ [٣] .

٤ـ غياب الوعي السياسي :

وأدّى هذا التباعد إلى غياب الوعي السياسي المسئول ، بما يكفي لظهور نزعة التسلط والأثرة ، والاستيلاء على كل شيء ، فصودرت حرية التعبير المسئولة [٤] ، وأغلقت الأبواب والنوافذ أمام الضوء ونسيم الرياح ، وسدت الطريق في وجه الشورى والمناصحة [٥] ، مما أدى إلى تشطّر الأمة إلى يسار ويمين ووسط ، ومن ثم إلى الإرهاب [٦] ، وانجرت قدم الأمة ـ في ظل غياب الوعي هذا ـ إلى فوضى سياسية ، وعراك مؤلم مع الذات ؛ عمق جروحها وبددها ، وأصابها بالأمراض المزمنة التي تقف إسرائيل ومذاهب الآخرين على رأسها [٧] ، وكانت له انعكاسات مؤلمة أخرى [٨] .

كما أدى غياب الوعي السياسي إلى تجافي الأمة عن أصالتها ، وعن مفهوم الدولة الواحدة ؛ مما كرس شتاتها ، وصدع وحدتها ، وجعلها مسرحًا لعبث العابثين [٩] .

٥ـ ضياع الهدف الواحد :

في غمرات هذا الضياع المركب ؛ كان من الطبعي أن تضيع عن الأمة أهدافها المشتركة

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٣٨١ - ٣٨٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٨٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٢/٢١١ ، ١/٣٩٦ - ٣٩٧ .
(٤) المصدر نفسه : ١/٢٤٢ ، ٢/٣٢٣ .
(٥) المصدر نفسه : ١/١١٧ - ١١٨ .
(٦) المصدر نفسه : ٢/٣١٧ - ٣١٨ .
(٧) المصدر نفسه : ١/٢٣٠ ، ٢٨٢ ، ٢/١٦٢ .
(٨) المصدر نفسه : ١/٢٨٢ .
(٩) المصدر نفسه : ٢/١٦١ - ١٦٣ .

الكبرى ، فاختلفت الرؤى ، وغابت الكلمة الواحدة ، واستحال الحوار المثمر[١] ، مما كرّس الشتات والتباعد؛ بما لم يبق معه كبير أمل في الانستار ، أو استعادة الحقوق في ظل الوضع القائم[٢].

٦ ـ انعدام القدرة على ضبط النفس :

فإن غضب هذا على ذاك ، وتوتره ، وعدم القدرة على كبح جماح الغضب ، وضبط النفس في المواقف الحرجة ـ وما أكثرها ـ شكل سلاحًا خطرًا قتل الأمة وأهانها وأذلها أمام التاريخ ، وأغرقها في وحل السلوك والدماء والمهانة في عالم ضجر يقاتل عن وجوده بكل سلاح عقلي ومادي ، مما جعل الأقوياء لا يرون لها وزنًا وإن فاضت مياه غضبها وغطت اليابسة ، لأنه غضب وتوتر ليس له منطلق واحد ، وليست له إستراتيجية واحدة أو هدف واحد [٣] ولم يكن هذا ليحدث شيء منه لو أن الأمة باقية على منهجها .

٧ ـ الفقر المادي والروحي والوجداني :

فإن شح المشاعر ، وفقر العواطف ، وضيق الصدر ، وخلو الجيب مما يسد العوز ، واتساع دائرة غلاظ القلوب ، وتحول ذلك في نفس الإنسان إلى أنياب شرسة في افتراسها للأمة ، سببت للإنسان هنا وهناك نوبات عقلية وغريزية أجهضت من نفسه مُثُله وقيمه ، وحولته إلى إنسان عدواني فاغر فاه ، يفترس كل شيء ، ويعتدي على كل شيء [٤] .

٨ ـ التشبع بغثاث الماضي :

إن تشبع بعض قطاعات الأمة بتخريفات الماضي وأتربة الأفكار والتصورات التي ولدت وترعرعت في تربة بعد الأمة عن الوعي بعقيدتها ، وغض النظر عن تلك الممارسات التخريفية وما ينتج عنها ؛ قد ضاعف أزمة الأمة ، وأحدث فيها شروخًا تباعدت معها الرؤى والتصورات والدوافع والأهداف [٥] .

---

(١) غيبة الحوار عنصر أساسي في هذا المحور .

(٢) انظر الرسائل ١/٢٣٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٣٣٦ ، ٢/٢٧٩ ، ٣٢١ .

(٥) المصدر نفسه : ١/١٣٩ ، ٤١١ ـ ٤١٢ .

٩- الركون إلى الدعة :

حين كان الأجداد مع جمالهم وخيولهم وخيامهم [١] يتحركون في كل اتجاه ، حاملين معهم الهداية والشعور بالمسئولية بنوا على الأرض ((حضارة إنسانية مادتها وروحها من الأخلاق والنفس والضمير ، ويوم أقاموا القصور بدل الخيمة ولاذوا بها حتى ضاقت بهم أبوابها من السمنة وغرفها من الغطيط الذي لا لغة له ولا تعبير عن الجميل في الإنسان العربي ماذا عنهم ؟ اذهب إلى خرائب قرطبة والحمراء ، واذهب إلى كل مسجد مهجور وإلى كل مئذنة لا يصعد إليها مؤذن في أصقاع الأرض وسائل هذه المآذن وتلك المساجد متى عهدها بصوت المؤذن ؟ فإذا لم تجبك فاسحب السؤال وألق به في طريق قصَّاص الأثر لعل واحدًا منهم يقصّ لنا خبر القوم .)) [٢] .

١٠- ضمور الوعي التربوي :

وحين بعدت الأمة عن روح إسلامها ، وعن أصالتها الحقة ، خبا شعورها العميق بمسئوليتها التاريخية والكونية ، ففترت في النفوس الدوافع إلى صناعة الأجيال وتثبيت أقدامها على النهج الذي ثبتت عليه أقدام الأوائل ، فتاهت الأجيال الجديدة ، واختلفت سبلها ، وغاب الوعي عنها ، وحاورت الجهالة أختها وورّثتها ، ونمت الوحوش في أحشائها ، مما جعلها عامل صناعة وتكريس للواقع بشكل أو بآخر [٣] .

١١- غيبة المثال :

وحين ابتعدت الأمة عن منابع هدايتها اختفت القدوة ، وغاب المثال الحي عن مسرح الممارسة العامة على كافة المستويات إلا لمامًا ، فذهب الكثير من أبناء هذه الأمة للبحث عنه هنا

---

(١) المصدر نفسه ٢١٦/١ .

(٢) الرسائل ٩٩/٢ - ١٠٠ .

(٣) انظر الرسائل ٤٦/١ - ٤٧ ، ١٠٥ ، ١١٧ - ١١٩ وانظر رسالتي .
- ما لم أقو القبض عليه من ثعالب السريرة (١٠٠/١ - ١٠٦) .
- من جرذان سد مأرب (٣٣٤/١ - ٣٣٥) .

وهنـاك ، مما أدى إلى انسـلاخ الكثير منهم عن جذورهـم ، والانمياع في سياقات الغرباء ، فكـان ذلك رافدًا عريضًا من روافد الواقع ، يقول :

((إن الذيـن كفـروا بـالدين وحـاربوا الديـن ورفضـوا التديـن وخرجـوا عليـه أيمكـن أن يكونوا معذورين ؟ كلا ... لا عـذر لهـم ، لكـني أجـد أن مـن يبحـث عـن الحقيقـة ويطلب القـدوة والمثال الحي في الديـن فلا يجدها في الممارسة اليومية في مجتمعاتنا المتعاقبة ، تنفتـح داخـل نفسه فجوة من الفراغ الروحي والفكري فيعدو هنا وهناك صارخًـا متوتـرًا باحثًا عـن أي شـيء يتعلق بـه ، وفي هـذه الحـال تـأخذه أفكـار الآخريـن وفلسـفاتهم واجتهـاداتهم بـل وحضـاراتهم وخصوصًا حضارة العصر بكل ما فيها من شرور وسلبيات ..)) [١] .

١٢ـ الذهول :

كما أدى هذا التجافي عن الرسالة ، وعن الأصالة اللتين تبقيان على الأمة في قمة اليقظـة والوعي والتركيز والحضور الذهني والوجداني ؛ إلى وقوعها في نوع من الذهول الذي لا تفيق منه تحت صعقة كارثة ما ،حتى تعود إليه مرة أخرى [٢] .

١٣ـ الانشغال بالذات :

وكان تباعد الأمة في عمومها ، والإنسـان فيهـا خاصـة عـن الرسـالة الـتي حـددت لكـل منهما وظيفته ودوره الذي يؤديه للوفاء بالمهمة الكونيـة الكـبرى الـتي شـرفت هـذه الأمـة بحمـل تكاليفها ؛ كان هذا التباعد سببًا في انكفاء الأمة داخل ذاتها لإدارة صراعاتها الداخلية ، وضبـط الأمور في المسارات التي توافق هوى هذا أو ذاك ، وإلى انكفـاء الإنسـان فيهـا في مختلف مواقعـه على ذاته ، يتحسس همومه الخاصة ، وطموحاتـه الذاتيـة ويسـعى إلى تحقيقهـا ، وحـين انشـغلت الأمة وإنسانها بهذه الهموم الجانبية كـان مـن الطبيعي بعـد ذلـك أن تتحـرك بعيـدًا عـن مهامهـا الكونية الكبرى التي ما تحقق للأمة ولا لإنسانها وجودهما الأمثل في غيبة عنها ، فكان ذلك كلـه عامل صناعة وتكريس للواقع [٣] .

---

(١) الرسائل ٢٨٩/١ وانظر ١٠٣/١ .

(٢) انظر الرسائل ٢٣٠/١ - ٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٠/١ - ٥١ ، ٣٥١/٢ - ٣٥٢ .

١٤ـ الغرق الحضاري :

كما أدى تباعد الأمة عن رسالتها وأصالتها ـ التي تمنحها هويتها الخاصة ، وتحرك فيها الإحساس بالذات والثقة بها واحترام النفس والاعتزاز بها ـ إلى أن تفقد شخصيتها المميزة في مواجهة الحضارة المعاصرة ، فبدلاً من أن تقف منها موقفًا واعيًا قادرًا على التمييز والاختيار والقبول والرفض والمشاركة ؛ راحت تتداعى بصورة أو بأخرى على هذه الحضارة بغثها وسمينها ، مما أدى إلى الغرق فيها ، والضياع في متاهات سلبياتها ، وتعميق البعد عن منابع الرسالة الإنسانية والأصالة العربية، وهذا أدى بدوره إلى تكريس الواقع المؤلم وتعميق جذوره[١] ، والقليل في عالمنا العربي والإسلامي من يتعامل مع هذه الحضارة بحذر ووعي وأصالة [٢] .

١٥ـ الذهول المادي :

وكان تفجر المادة والثراء في أراضي الأمة ، وتحول الجيوب الفارغة فجأة إلى ما يشبه البنوك المتحركة في ظل انفلات الأمة وإنسانها عن رسالته وأصالته في طوفان سلبيات هذه المدنية وآفاتها عامل غرق آخر ، وعامل جذب استعماري متواصل ، مما أدى إلى صنع الواقع وتكريسه [٣] .

١٦ـ تسليط الواقع :

وأخيرًا ؛ فإن هذا التباعد المتواصل للأمة عن رسالتها وعن أصالتها أدى إلى تكريس خضوع الأمة لواقعها ، وانهزاميتها أمامه ، فأسلست له قيدها ، وتركته يتحرك بها أين يشاء وكيف يشاء أو كيف يُشاء له ، وهنا تسلط عليها ، ومضى يتشكل كيفما اتفق ، وكيفما أريد له ، وكان طبيعيًّا ـ والحال هذه ـ أن يقودها ويتحرك بها إلى الأسوأ من كل شيء ، وكان طبيعيًّا ـ أيضًا والحال كذلك ـ أن تتحرك إلى الواجهة بعض النماذج المعلولة بعلل هذا الواقع لتتسبب ـ بشكل أو بآخر ـ في تعميق جروح أمتها وتبديدها وتوزيعها وإصابتها بالعلل المزمنة[٤].

---

(١) المصدر نفسه ٢١/١ ، ٢١٦ ، ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه :٢٧/١ ، ١٤٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٠٢/١ ، ٣٤٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١٦٢/٢ .

تلك هي علل الواقع ، أو هي المضاعفات الخطرة المترتبة على انحراف الأمة عن المنهج الذي رسمته لها رسالتها السماوية وأصالتها العربية ، فكانت بذلك عللاً وأسبابًا مدت مساحة هذا الانحراف وعمقت هوته ؛ ولا زالت من جانب ، وصنعت الواقع وكرسته ولا زالت من جانب آخر .

لكن الشيخ لا يتوقف عند كشف هذه العلل وتعريتها لمتلقيه ؛ بل يتجاوز ذلك إلى تلمس العلل الأولى المندسة في أعماق الإنسان نفسه ، تلك العلل التي قادته إلى الانحراف الأول ؛ الذي ضاعت تحت وطأته المواريث الكريمة ، وتبلور تحت نقعه الواقع المؤلم ، فما هي في نظره ؟

إنها باختصار شديد ، الطفولة التي لم تكبر ولم تصل إلى سن الرشد [١] ، وتراكم الذنوب والأخطاء [٢] ، والتنكر للرسالة [٣] ، والجهل [٤] ، ورثاثة الوعي [٥] ، والسفه [٦] ، والبلادة الحسية والغباء [٧]، والجمود العقلي والروحي [٨]، وتراكم غبار العصور وتخريفها في النفوس [٩] ، والجور على الدين الواحد وعلى رب الدين الواحد [١٠] .

هذا كله تحول بالذات العربية والإسلامية إلى خرائب نفسية وعقلية ووجدانية وروحية تشبه في تهدمها ووحشتها خرائب قرطبة والحمراء ، والمآذن الخالية ، والمساجد المهجورة والبيوت الخاوية في فلسطين وسواها [١١] .

* * * *

---

(١) المصدر نفسه : ٣١٨/١ .
(٢) المصدر نفسه : ١٥٠/١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٣) المصدر نفسه : ٢٧/٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٢٧٥/١ ، ٣٢٣/٢ .
(٥) المصدر نفسه : ١٥٠/١ ، ٢٨/٢ ، ٣٢٣ .
(٦) المصدر نفسه : ٣٨٥/٢ .
(٧) المصدر نفسه : ٥٠/١ .
(٨) المصدر نفسه : ٢٤٤/١ .
(٩) المصدر نفسه : ١٠٥/١ .
(١٠) المصدر نفسه : ٢٨٩/١ .
(١١) المصدر نفسه : ٥١/١ ، ١٠٠/٢ .

القطاع الثاني : في واقع الآخر :

إذا كان الشيخ قد رصد في رسالته الأمة في ميدان المواجهة مع الآخر ؛ فإنه قد تخطى مواقع الذات إلى أعماق مواقع الآخر في توغل يستهدف الكشف عما يجري هناك ، والتعريف بواقع هذا الذي تقف الأمة ذليلة منكسرة منكسة الرأس في مواجهته ، وتعرية حقيقته ، كما وعاه وخبره .

وحين اتخذ الشيخ هذا الاتجاه ؛ فإنه ركّز أضواءه على الآخر في الحقول التالية :

الحقل الأول : العدو الصهيوني :

تم في مبحث سابق رصد إشارات الشيخ التي اتجه بها إلى الكشف عن موقف الذل والانهزام الذي تقفه الأمة في مواجهة الزحف الصهيوني ، لكنه لم يتوقف في هذا الميدان عند حدود الذات وواقعها في ميدان المواجهة ؛ بل تجاوز هذا الميدان ليحقق توغلاً في أعماق هذا العدو ، ليحلله نفسيًّا وأخلاقيًّا وتاريخيًّا ، محاولاً الكشف عن طبيعته البشعة ، والإدلاء بشهادة تاريخية تعري حقيقة هذا الكائن المشوه الخارج على الإنسانية ، المجافي لخطها .

حقق الشيخ هذا التوغل الدراسي في إحدى رسائله [١] التي يستهلها بالإشارة إلى غموض تاريخي يحيط بشخصية هذا العدو ، وطبيعة مقنعة تخفي وراءها سلوكًا غريزيًّا تاريخيًّا متوحشًا ، مشيرًا إلى النزعة العنصرية المقيتة القائمة على فكرة التميّز ، التي أمدت وتمد هذا السلوك المتغطرس ؛ لتتحول بهذه الفئة ـ على امتداد تاريخها المترع بالرذائل واللؤم ـ إلى وحوش كاسرة ، يقول :

((في رسالتي هذه لا يمكن أن ترى ملامح ذلك الوجه الكريه الذي يعاديك لأنه مقنع ، ومدفونة جذوره في أعماق الصخور الزمنية والمدافن التي يواريها الحقد والكره ، ويسقيها من البغضاء والطمع عدو شحنته بكبريائها وغرورها فكرة مميزة له عن سواه ، لا يمكن أن يتراجع عنها أو يتسامح أو يظل منسجمًا مع الحياة والناس ، ولكنه يبقى منعزلاً في نفسه ومتسلطة عليه فكرة التميز وأنه الصفوة المختارة وما الناس إلا حاجياته وسوق تجارته .)) [٢] .

---

(١) انظر رسالة : لولا شدة الأعاصير ما كتبت لك ٣٤١/١ وما بعدها .

(٢) الرسائل ٣٤١/١ - ٣٤٢ .

وحينما أطلق الشيخ هذا الحكم على تلك الفئة ؛ فإنه لم يكن يصدر فيه عن حس عاطفي منفعل ؛ بل كان يستمد أحكامه من حقائق التاريخ الذي رصد - بدقة - حركة هذه الفئة منذ يومها الأول ، ومن واقعها في يومها هذا ، يقول :

((وحتى لا أكون مغاليًا أو متجنيًا في الحكم على هذه الفئة من البشر دعني أبحث في التاريخ والواقع القائم اليوم عن شاهد مادي يبرئني من الظلم والانحياز .)) (١) .

ويكشف الشيخ عن الخطر الذي يحيق بالإنسانية جراء حركة هذه الفئة إلى تحقيق أهدافها القصوى ، مشيرًا إلى أن عدوانها على هذه الأمة ليس في حقيقته إلا مرحلة من مراحل عدوان أكبر وأشمل استهدف ويستهدف البشرية كلها ، يقول :

((إذا كنا نقف اليوم وإياها وجهًا لوجه .... فليس ذلك إلا مرحلة من مراحل عدوانهم على البشرية عبر التاريخ ...)) (٢) .

ثم ينتقل إلى تصوير وحشية هذه الفئة ، وحربها على الإنسانية وقيمها ، وما جلبته على البشرية من آلام ومعاناة عبر التاريخ فيقول :

((هذه الفئة من البشر أثقلت تاريخ البشرية بالهموم والمتاعب وأوقدت في أرضه الحروب وفجّرت الدماء وزعزعت السكينة وأعلنتها حربًا على كل القيم الإنسانية حتى قيمها .)) (٣) .

ويقف الشيخ عند شكوى هذه الفئة مما حل بها على أيدي النازيين - إبان الحرب العالمية الثانية - مؤكدًا أن ذلك لن يكون مسوغًا لتبرئة هذه الفئة من جرائمهما التاريخية قائلاً :

((وإذا كانت النازية في القرن العشرين قد قتلت وأقامت المجازر والمذابح لهذه الفئة كما تدعي ، فلن يحملنا ذلك على تبرئة قتلة الأنبياء والرسل والمعاندين لهم والمكابرين .)) (٤) .

ويعود إلى الكشف عن طبيعة النفسية اليهودية، وانعكاساتها على حركة هذه الفئة ، وعلى علاقتها بسواها من البشر ، فيقول :

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤٢/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤٢/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٤٢/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٤٢/١ .

((إذا كانت العنصرية المزمنة قد أبقت هذه الشريحة من البشر في عزلة نفسية وغريزية عن كل الناس عبر التاريخ [و] [١] عاجزة عن اللحاق بالركب الإنساني وحبه والتعاطف معه ، فما ذاك إلا لغموض في سريرتها أقصاها عن قيم الإنسان وتسامحه وحبه وإلفته لكل المجتمعات الإنسانية .)) [٢] .

ويعمد الشيخ إلى تصوير انحراف هذه الفئة عن خط الإنسانية ، وعجزها الغريزي عن الالتئام معه ، وذلك من خلال الموازنة بين هذه الفئة وسواها من أمم الأرض التي التأمت على هذا الخط رغم تفارقها في الأعراق واللغات والتقاليد والتصورات والثقافات ، فيقول :

((إن شعوب أوروبا وأمريكا بل وشعوب العالم كله أجناس وأعراق مختلفة اللغات والتقاليد والقوميات تكونت منها المجتمعات البشرية ، وصهرتها في بوتقة واحدة القيم الإنسانية والنوع البشري الواحد وامحت من ذاكرتها ومن أعماق شرائحها وجذورها وتحولت إلى أمم وشعوب . ونحن العرب المستعربة ، نحن العدنانيين ، من أي عرق نحن ؟ أعراقنا ضاربة في التربة الساميّة ولكننا بحكم الواقع وبحكم الروح المتسامحة استعربنا وتآخينا مع العرب القحطانيين وكان لنا منهم وفيهم شرف العروبة .... لماذا لم ينصهروا في هذه الشعوب كما انصهرت ؟ ألأنها منبوذة من شعوب هذا العالم ؟ لا أظن أن ذلك وارد ولكنها هي التي ترفض وهي التي تنبذ وهي التي تحتقر .)) [٣] .

إنها مصابة بعلل عميقة الجذور ، مستحكمة في نفسيتها ، تستعصي على العلاج وتتشكل مع الظروف ، ولا يزيدها التقادم الزمني إلا تراكما واستفحالاً وتعميقًا : ((إنهم في تيههم في هذا العالم لا يزالون يعكفون على عجلهم ، لم يتغير شيء ، الزمن البعيد فيهم هو الزمن القريب إن كانوا في صحراء سيناء وشحها أو في عالم الغرب والشرق وخصبه وعلمه ومعارفه ومؤسساته ، هم المنطوون على أنفسهم الحانقة والغاضبة على كل شيء .)) [٤] .

وأخيرًا ، يرسلها الشيخ الحكيم صيحة إنذار بالخطر الداهم لا تحدها الحدود قائلا :

---

(١) ربما كان العطف خطأ مطبعيًا .

(٢) الرسائل : ٣٤٢/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٤٣/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٤٣/١ .

((إنهم اليوم يدنون من النهاية نهايــة البشرية أو نهايتهم وحدهــم .)) [١] ، ذلـك أن للوجود الإنساني طبيعة لا تقبل التصادم ، فإما أن يكونوا هم ، وإما أن تكون الإنسانية ، وإما أن يذهبا جميعًا بيد أحمر عاد [٢] .

* * *

الحقل الثاني : في قطبي السيطرة :

وتوغل الشيخ في مراكز السيطرة الحضاريـة والسياسـية والاقتصاديـة والفكريـة العالميـة توغلاً محدودًا يستهدف الكشـف عنهـا ، وعـن المبـادئ الفلسـفية الـتي تؤطـر حركتهـا الداخليـة والخارجية ، ووحشيتها في فرض سيطرتها على شعوب الأرض .

يشير الشيخ إلى القوى التي تتنازع هذا العالم ، والأرضية الفلسفية اللا أخلاقية التي تتكئ عليها كل قوة فيقول :

((وكما ترى ، فإن أعتى ما في الأرض اليوم هما قـوة الغـرب بمؤسسـاتها الماليـة المرابيـة المتكبرة وقوة المعسكر الشيوعي [٣] بمذاهبه المادية المستبدة .)) [٤] .

ويوغـل في عرض الفلسفات والمبادئ التي يقوم عليها كل من المعسكرين، ومضامينها فيقول :

((مـع الشــرق أعـلام مرفوعـة للفقــراء ، ومــع الغرب آمــال مرفوعـة للأغنياء ، مـع

---

(١) المصدر نفسه ٣٤٣/١ .

(٢) للاستزادة من المعرفة المباشرة بهذه الفئة . يمكن مراجعة المصادر التالية :

١ ـ أحجار على رقعة الشطرنج لمؤلفه وليام غاي كار ترجمة : سعيد جزائرلي ،مراجعة وتحرير م/بـدوي ـ دار النفائس .

٢ ـ بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة: محمد خليفة التونسي ، دار الكتاب العربي .

٣ ـ الماسونية . تأليف الدكتور / أسعد الحمراني ، دار النفائس ، بيروت .

٤ ـ التوراة ـ مؤلف أمريكي : ترجمة وتعليق سهيل ديب ، دار النفائس ، بيروت .

٥ ـ اليهود . إعداد : زهدي الفاتح .

٦ ـ التلمود . ظفر الإسلام خان ، دار النفائس ، بيروت .

٧ ـ شهود يهود : د . أسعد الحمراني ، دار النفائس ، بيروت .

(٣) إذا كان المعسكر الشيوعي قد انهار فإن الإنسانية لا زالت تكابد جناياته حتى اليوم ، وسيطول الوقت قبل أن تندمل جراحاتها منه .

(٤) الرسائل : ٢٥/٢ .

أولئك مذهب اشتراكي ومع هؤلاء مذهب رأسمالي يسمي عالمه العالم الحر))[(١)] ، ((مع المذهب الأول الإلحاد))[(٢)] ، الذي يقوم ((على ضيق الصدر والحنق والثورة القاسية))[(٣)] ، ((ومع المذهب الثاني الصهيونية العالمية والانحلال))[(٤)] ، وكلاهما يفلسفان ((الحياة والوجود والكون والإنسان فلسفة مادية بحتة لا تحلق بها إلى أبعد من آفاق المادة))[(٥)] ، وكلاهما يمضيان على ((خط القوي يأكل الضعيف ، الثراء والسلطان لمن بطش وسرق ونهب وقتل المصلحين ....))[(٦)] ، وتبلورت في ظل هذا الوضع ((الكتل البشرية والأحزاب التي يقوم أكثرها على الأهواء والعصبية الحزبية التي تلغي كل من هو خارج دائرتها ، وهي عصبية تفوق في عنفها وقدرتها على تعميق الكره والبغضاء كل نظام قبلي أو أسري متوارث .))[(٧)] .

صنعا هذا الوضع ، ثم أقاما حوله المظلة المرعبة التي تحميه وتكرسه ، مما جعل الوجود الإنساني مهددًا بالانقراظ بين لحظة وأخرى ، يقول :

((ولكني يوم أمشي في الأسواق على قدم هذه الحضارة التي لها سرعة الجناح ماذا أرى ؟ .. أرى الفجيعة ، أرى أنيابًا بارزة وليست كبروز أنياب الليث ، إنها الموت والدمار ، أرى هذه الأنياب في فم ذئب متوحش قد ينفعل في لحظة من اللحظات فيفترس الأرض مثلما يفترس الذئب نعجة الراعي ، وليس ببعيد وليس بمأمون ذلك ... فناب افترست " هيروشيما " وهي ناب بدائية بالنسبة لناب اليوم من يثق بها ؟ من يأمنها ؟ ....))[(٨)] .

تلك - إذن - إطلالة سريعة على معسكري القوم ، رصد الشيخ من خلالها الملامح العامة لطبيعة الوضع ، ولما يجري هناك .

* * *

---

(١) المصدر نفسه : ٢/٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٨٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٨٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٢٨٠ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/٢٦ .

(٦) المصدر نفسه : ٢/٢٨٠ .

(٧) المصدر نفسه : ٢/١٦١ .

(٨) الرسائل١/٣٢٩ وانظر٢/٢٦٩ .

الحقل الثالث : في الحضارة المعاصرة :

رغم علاقة التلازم بين الحضارة وقطبي السيطرة على وجه خاص ؛ إلا أن للحضارة شأنًا أكثر شمولاً في مصادره، وامتدادًا في سلطاته وتوغلاته وتأثيراته العميقة لدرجة لم يعد معها للإنسان ؛ أي إنسان في هذا العالم مناص من التعامل الموصول معها ، والانخراط في تيارها شاء ذلك الإنسان أم لم يشأ ، مما جعلها أكثر حضورًا ، وأعمق فعلاً في حياة الإنسانية بما فيها صناعها ومحركو عجلتها أنفسهم ، مما استلزم معه فصل هذا عن ذاك .

وحين اتجه الشيخ إلى التوغل في المعسكر الحضاري ؛ فإنه زاول ذلك من خلال رصد منجزاتها المادية ، وعرض الواقع الإنساني في خضمها ، وتعليله ، ليخلص بعد ذلك إلى تقويم هذه الحضارة وهذه المدنية .

تأسيسًا على ذلك ؛ فإنه يمكن رصد توغلاته في المحاور التالية :

المحور الأول : المنجز الحضاري :

في هذا المحور يتجسد انصراف الشيخ إلى رصد الحضارة في منجزاتها العلمية والمادية ، واختراقاتها المتسارعة بأدواتها ووسائلها وطموحها ؛ الجدر التي كانت في يوم ما أمنع على الخيال إلى الأعماق الإنسانية والكونية لدرجة تحولت معها الأرض وعالمها إلى قرية صغيرة ، وتحولت معها الإنسانية إلى ما يشبه العائلة الواحدة ، محققة في ذلك كله ما هو أشبه بالمعجزة ؛ التي لم يكن لها سابقة في تاريخ الإنسانية الماضي كله ، وتحول معها الكون بكواكبه وأقماره ونجومه ومجراته إلى صخور متجاورة ، يقفز عليها الإنسان بأدواته من صخرة إلى صخرة ؛ في رحلات شديدة الطموح للبحث عن المجهول .

يقول في تصوير منجزات هذه الحضارة في مجالها العلمي ، وقدرتها على اقتحام الجدر الإنسانية والكونية القريبة والبعيدة :

((رأيناها (الحضارة) فوق القمر وفوق الخيال استباحت الحصون والجدر ، أغلقنا الأبواب دونها فاقتحمت علينا غرف نومنا وحتى جماجمنا ، طاردتنا في سرائرنا ، ذبلت عين زرقاء اليمامة حتى لم تعد ترى شيئًا ، فعين زرقاء هذه الحضارة ، أو بالأصح هذه العلوم ، كسرت قدم

ابن بطوطة وأفسدت على ابن سيرين تفسير الحلم ....)) [١] .

ويعمق الكشف عن مساحات وعمق هذا المنجز حين يقول :

((وجدت القوم هنالك (في الغرب) قد ألبسوا الحياة في عصرها الحاضر لباسًا جديدًا ، أبدعوا ، غيروا مفاهيم ضخمة وتحركوا بأقدامهم العلمية من الأرض إلى الفضاء . ولا مجال للمكابرة رأيناهم بأعيننا يهبطون على القمر ويطمحون إلى أفلاك أخرى ، شاهدناهم يقيسون بمقاييس ضوئية سعة هذا الكون وأبعاده ، رأيناهم يكشفون ستر الأرض وعوراتها ويلحقون بكنوزها الثمينة في أعماق البحار وأعماق اليابسة ، رأيناهم يملكون سلاحًا نوويًا قاتلاً للحياة ....)) [٢] .

وحين يقول عن عصر الخصب العلمي هذا : ((في عصر صار عالمه وصار إنسانه يمتلئ قدحه الذهني من أسرار هذا الكون يومًا بيوم وشهرًا بشهر وعامًا بعام وكلما امتلأ هذا القدح أراقه على ذاته وتخطاه إلى غيره من الأقداح الكونية)) [٣] .

إن ما تحقق ويتحقق في هذا العصر معجزة [٤] انتفضت بها الحياة على الرتابة الزمنية فيها [٥] .

هكذا يمضي الشيخ في رصد هذه المنجزات في خطوطها العامة [٦] ، ولكنه في هذا المحور لا يتوقف عند رصد منجزات هذه الحضارة ؛ بل يتجاوز ذلك مرة إلى محاولة فلسفة ما يحدث وتفسيره فيقول :

((ولا أظن ولا أتصور أبدًا إلا أن الحياة قد فتحت نافذة على أسرارها وأخذت الإنسان وقالت له هذه هي النافذة ، عليك أن تطل منها على البعيد الذي لم يره إنسان قبلك منذ كان

---

(١) المصدر نفسه ٥١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥/٢ - ٢٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٢/٢ - ٢١٣ .

(٤) انظر الرسائل : ٣٨٧/١ .

(٥) المصدر نفسه :: ٤١٢/١ .

(٦) للاطلاع على المزيد من الإشارات التي تكرست في هذا الخط راجع١٩/١ ، ٣٢٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦ - ٣٨٧ ، ١٨٧/٢ - ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٦٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٣٧٧ - ٣٧٩ ، ٤٠١ .

للإنسان قدم على هذه الأرض ...!)) [١] .

وغالبًا ما تنطبع تفسيراته وتعليلاته في هذا السياق خاصة بشيء من التشاؤم [٢] .

وأخرى إلى تقويم ما يحدث ؛ أخلاقيًا ، حين يرى أن هذه الطفرة المعرفية قد أخذت إلى الطريق الخاطئ ، حين أطره أهله بالأنانية والجشع المتسلط ، يقول :

((ما نراه اليوم في عالم البشر ومنه عالمنا العربي مقاييسه مختلفة ، فكل يد تحمل مقياسًا تغرسه في التربة ، ومن غرسوه بكدح ومثابرة في تربتهم لحقوا بما لديهم من مياه وعي ـ آبارها كانت مطمورة مع الزمن البعيد ـ فحفروها في هذا العصر حتى لحقوا بالمياه الغزيرة فأدلوا بدلائهم فيها وظلوا يمتاحون ، ولا ندري إلى أي حد يصل بهم هذا المتح ؟ إلا أنهم بذلك غير كرماء ولا يملأون قربة لظامئ ولا يقبلون ضيفًا على مائدتهم ، فهم جياع إلى ما في أيدي الآخرين ، متى ما صح لهم أن يسلبوه قوته وقوت أولاده لا يتورعون عن ذلك لا لشيء إلا لأنهم الأقوياء والآخرون ضعفاء !!!!)) [٣] .

وروحيًا ، حين تحول معه وبه إنسانه إلى كائن منفلت عن حبال الروح وعوالمها ، يقول :

((فقلبي يوم يخفق بألفاظ الحب والتعظيم وينطق في لغة معبرة في تساؤلاتها عن كل خفقة من خفقات هذا الكون ، ألا ترى أنه نوع من المحاولة ومن العبادة التي يشدنا العلم إليها اليوم وإن كان باغيًا في جماجم أكثر من حملوه ، وإن كان متعاليًا على قدره وعلى إيمان العجائز التي آمنت وكان إيمانها أمنية للرجل العظيم [٤] ...!)) [٥] .

وأخيرًا ؛ فإنه يتجاوز ذلك كله إلى رصد أمنياته الإنسانية الخاصة لهذا الإنسان بأن يثوب إلى رشده ، وأن تقوده طفرة كشوفه العلمية هذه إلى فهم ذاته ، وإدراك دوره الكوني ليرفع بذلك الظلم الذي أوقعه بذاته وبأخيه الإنسان [٦] .

---

(١) الرسائل ٢١١/٢ وانظر : ٩٤/١ ، ٢٢٩ ، ٥٥/٢ - ٥٦ .

(٢) انظر الرسائل : ٢٩٩/١ - ٣٠٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨١ .

(٣) الرسائل ١٧٨/١ - ١٧٩ .

(٤) يعني به عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه .

(٥) الرسائل ٢٥٦/١ وانظر : ٣٣٤/٢ .

(٦) انظر الرسائل : ٣٣٦/٢ - ٣٣٧ .

المحور الثاني : الإنسان في خضم التيار الحضاري :

ويتجاوز الشيخ رصد هذه الحضارة في منجزها العلمي والمادي ؛ إلى رصد الواقع الإنساني العالمي المؤلم في تيارها العنيف .

فإذا كانت هذه الحضارة وهذه المدنية بمنجزاتها وأدواتها ووسائلها قد تمكنت من تحويل هذا العالم إلى صورة العائلة الواحدة ؛ فإنها بدلاً من أن تكون عامل سعادة للإنسانية ، وأمن ورخاء غير منغص ، اقتحمت كل البيوت لتعدي الحياة فيها بقلقها وماديتها وعنف حركتها وصخبها ، يقول :

((ولدي :

أيوجد بيت على هذه الأرض كلها لم تدخل عليه هذه الحضارة وهذه المدنية ؟ لا أتصور ذلك ، وما أسعد بيتًا لم تره وتقتحمه ولم يرها فيشقى !))[١] .

وبدلاً من أن تؤدي إلى قيام عالم تلتحم فيه الإنسانية حول إنسانيتها ، وترتبط فيه بعلاقات كريمة من الود النقي والاحترام المتبادل والتعاون البناء في سبيل الرقي بإنسانية الإنسان والحفاظ على كرامته ؛ فإنها قد كرست الفجوة بين هذه الشعوب ، ومدت مساحتها ؛ حينما حولتها إلى قبائل تتفاوت فيها المنازل والأقدار ، ويستلب فيها القوي الضعيف ليكرس ضعفه وذله ، وليجعله مجرد ورقة من أوراقه يكتب فيها ويمحو منها ما شاء وكيف شاء ومتى شاء ، يقول :

((فعالم اليوم وحضارة اليوم وتحول الأرض والبحار إلى قبيلة واحدة لا تتساوى فيها مجالس القبيلة وأدوارها على هذه الأرض ، أذهلنا ، فمنها الجائر ومنها الضعيف ، ومنها القارئ ومنها الأمي الذي لاأمل فيه أن يقرأ حتى حروف الهجاء ، فما قرأه الإنسان في تاريخه الطويل الذي نجهله أو سجله ، لم يعد بالنسبة لقراءات اليوم وقارئ اليوم إلا طفلاً خجولاً خطت به أقداره عند قوم جفّت عواطفهم وأرحامهم من حب الأطفال وإنجابهم ...))[٢] .

وبدلاً من أن تكون ـ بمنجزاتها العلمية والمادية ، وبقدرتها على الوصول إلى الحقائق التي تمس حياة الإنسانية وتؤثر في حركتها ، وبقدرتها على الوصول إلى أعلى درجات الضبط ـ عاملاً

---

(١) الرسائل ٣٨٨/١ ، وانظر : ٣٢٩/١ - ٣٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٧٩/١ .

يساعد البشرية على استعادة توازنها ، وضبط حركتها الروحية والنفسية والفكرية والسلوكية ؛ فإنها ضاعفت من اضطراب الحركة الإنسانية ، وأخذتها إلى المزيد من الشطط والتفلت ، واختلال القيم .

يقول عن تغير مقاييس الأشياء ، واضطراب الموازين ، واختلال القيم في عين إنسان العصر نتيجة وقوعه تحت طائلة مصب الدفق الحضاري المربك :

((ولكن تقابل الضدين في رؤية الأعمى [١] أفينا من يراها اليوم ونرضاه حكمًا عليها ؟ هذا الذي عليه مسافة الخلف ، وعليه يقع التساؤل وتقع عليه أخلاط من القبائل البشرية التي انفرط عقد النسب بينها ولم يعد كل من باقل ومادر وحاتم وقس في مكانه الذي هو عليه ! لعل (باقلاً) صار سحبان وائل ، ولعل (ماردًا) صار (حاتمًا) وهي ظروف وأحوال وعصور ومقاييس بيد هذا أو ذاك لحق بها القرن العشرون فقال لها لقد حضرتُ وأحضرتُ معي مقياسي الخاص وقصائدي التي لم ينظمها امرؤ القيس أو عروة بن الورد أو من قال :

وإنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانَه لآتٍ بما لم تستَطِعْهُ الأوائِلُ [٢])) [٣] .

وفي الوقت الذي يفترض أن تكون فيه الحضارة بوسائلها عامل تعزيز وصيانة للروابط الاجتماعية في الأسرة وفي المجتمع ، وباعث وعي بأهميتها ، فإنها قد تحولت إلى أداة هدم لجسور هذه العلاقات وتدمير لبنائها ، مما جعل الإنسان يتحول معها إلى ما يشبه الآلة الباردة الهائمة على وجهها في كل اتجاه [٤] .

وبدلاً من أن تحنو على إنسانية الإنسان ، وتحررها من الرق ، وتعيد لها كرامتها كاملة ؛ فإنها قد كرست عبوديتها ، حين حولته إلى مجرد سن من أسنان تروسها [٥] .

وبدلاً من أن تساعد الإنسان على الغوص في ذاته لفهمها وفهم حقيقة وجودها ودورها الإنساني والكوني ؛ فإنها قد أخذته بطغيانها المعملي بعيدًا عن هذه الذات ؛ حين سلخته بماديّاتها

---

(١) يقصد به : أبا العلاء المعَرّي .

(٢) سقط الزند ، ص١٩٣ .

(٣) الرسائل ٢٥٨/١ - ٢٥٩ .

(٤) انظر الرسائل : ٣٢٩/١ - ٣٣٠ ، ١٣٩/٢ - ١٤٣ . ٣٢٤/١ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، ٢٥/٢ .

(٥) المصدر نفسه : : ٢٦٤/٢ .

عن عالمه الروحي [١] ، وعن أخلاقه وقيمه الإنسانية السامية [٢] ، وحولته إلى كائن معدوم الضمير ، يمارس ضد أخيه الإنسان أبشع ألوان الإرعاب الفكري والنفسي والمادي [٣] ، وانتزعته من أمنه واستقراره لتلقي به في قبضة القلق والاضطراب [٤] ، والرعب [٥] ، فتشطر الوجدان الإنساني بين : قلق تمزقه التساؤلات ، وتضطرم في أعماقه نيران الشك والحيرة والمخاوف [٦] ، وهارب إلى الضياع وإلى المخدرات [٧] والانغماس في الشهوات والرذائل [٨] ، وهارب إلى القمر وإلى النجوم [٩] حاملاً معه رعبه وضجره إليها [١٠] ، وهارب إلى بيوت الخرافة وناثرات الودع ومدافن الموتى يبحث عن الأمان لنفسه [١١] ، وواضع إصبعه على زناد الموت وفناء الإنسانية ، يهجس في قلق وتوتر متى ستكون طلقة خصمه ليستبقها ، ولينهي كل شيء [١٢] .

رعب وفقر ودماء [١٣] وفوضى تعج بها أسواق العالم ومدنه في ضوضاء مذهلة من الافتتان بالشهوات والعشق الذاتي [١٤] تحولت معه الأرض إلى ((كوكب مليئة أرضه وبحاره بالذنوب وبالمظالم وبالفجيعة وبالبعد الشاسع الذي راح إليه الإنسان في أعماقه بنيّة متوحشة .)) [١٥] .

---

(١) المصدر نفسه: ٣٢٥/١ ، ٦٢/٢ ، ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٨/١ - ١٧٩ ، ٣٢٩ ، ٣٨٧ - ٣٨٨ ، ٢٥/٢ .

(٣) المصدر نفسه :: ٧٣/١ - ٧٤ ، ١١٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٨٠/٢ .

(٤) المصدر نفسه : : ٢٦٤/٢ .

(٥) المصدر نفسه : : ٣٢٩/١ .

(٦) المصدر نفسه : ١٦/١ - ١٧ .

(٧) المصدر نفسه : : ٣٣٠/١ .

(٨) المصدر نفسه : : ٣٠٨/١ .

(٩) المصدر نفسه : : ٣٣٠/١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٦٣/٢ ، ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(١١) المصدر نفسه : ٣٢٤/١ - ٣٢٥ ، ٣٢٧ .

(١٢) المصدر نفسه : ٦٣/٢ ، ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(١٣) المصدر نفسه : ٣٨٨/١ .

(١٤) المصدر نفسه : : ٣٠٨/١ .

(١٥) الرسائل ٣٥٤/٢ - ٣٥٥ .

وتوارت عن الواجهة - في ظل حركـة هـذا المارد الشرس المنفلت عن المبادئ والأخلاق والقيم الإنسانية التي كان يمكن أن يلجم بها - النماذج الخيرة التي يعوّل عليها في انتزاع الإنسانية من بين فكي أزمتها الحادة ، فاستتبت الأمور للمارد ورعاته ، يقول :

((تساءلت ألا يوجد فقيه أو فقهاء يعظونها ويقـودون قافلتهـا إلى بـر النجـاة ؟ فجـاءني الجواب أن كل فقيه ، كل كريم ، كل مخلص ، كل مستح من الانفضاح قد توارى عـن الأنظـار واختفى في ثياب ألمه وحزنه وترك القافلة البشرية تسير إلى قدر الله فيها .)) [١] .

وتأتي بعد ذلك التفاتات الشيخ إلى ذاتـه لاستقطاب مـا يتحـرك في أعماقهـا مـن همـوم تجـاه الإنسانية ، ومن شفقه عليها من واقعها الحرج ، حين يقول :

((ليتني في طهارة قيس وعفته وعزلته ، فأرثي ليلى الجميلة رثاءً تصيخ له جبال أجا وسلمى ، ويصيخ له جبل التوباد الذي رعيا الغنم في سفحه سويًّا .... وما أمنيتي هذه إلا رمز لرثـاء كـل جَمـال في هذا العالم ، فطبيعة العربي بكاءة على جنائزها وفية لها تذرف الدمع وإن كان دمًا . ليتني أستطيع أن أتجاوز الصحراء إلى عالم البشر فأذرف دمعي على تربته التي جفت فيها الدمـوع وصـارت إلى ذهول وارتعاش وتبدد وتوزع وفراق ....)) [٢] و ((ليت الوحـوش الـتي في الأقفـاص تعـود إلى الغابة نعاشرها وتعاشرنا ، نتصالح معها أو نختلف فهي أرحم من الإنسان الذي بـدّد سـكينة أخيـه الإنسان ودمّر استقراره وأمنه)) [٣] .

ذلـك هـو واقـع الإنسان في أتون هذه الحضارة وهذه المدنية التي طوحت بـه بعيـدًا عـن إنسانيته ، وقادته إلى صراع روحي ونفسي وفكري ووجداني عنيف ، وأوقعت الإنسانية كلها في خضم أزمات فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية متنامية لا قبل لها بها .

المحور الثالث : تعليل الواقع الإنساني :

ويتجاوز الشيخ رصد هـذا الواقـع الإنسـاني ، إلى محاولـة إبـراز مغذياتـه الأولى ، وعللـه وأسبابه التي جعلت من الإنسان ريشًا خفيفًا ملقى في صحـراء الحيـاة ، حتـى إذا ضربتـه أعاصير هذه الحضارة جرفته إلى هذا الواقع الحرج بسهولة ، فيقول :

---

(١) المصدر نفسه : ٣٨٧/١ - ٣٨٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٢٩/١ - ٣٣٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٨٨/١ .

((عالم يستحق الشفقة والرحمة فما هرب إلى المخدرات وإلى الضياع ، وإلى القمـر وإلى النجوم وإلى أنياب الموت إلا لأنه أفرغ نفسه وروحه من الصبر والاحتمال وأطفأ عينه المبصرة ، فظل يعيش بعين واحدة هي عين المادة ...)) (١) .

ويقول : ((فهم اليوم يصدرون لنا الموت والدمار ، لا لأنهم أشرار فطروا على الشر ، ولكنهم في غياب عن الروح وعن القيم .. طوحت بهم اكتشافاتهم ومادياتهم وغرور الإنسان في متاهات الغلظة وجفاف القلب ..)) (٢) .

و- إذن - فإن انسياق الإنسان وراء عيون حواسه القاصرة ، وآلات مخابره الجامدة ، وعجبه بذاته ، وانبهاره بمنجزاته العلمية والمادية التي وضعت يده على الحقائق الكونية الصغرى ، قد أذبلت في أعماقه الحس الروحي الذي يتواصل به مع الحقائق الكونية الكبرى وما وراءها ، وهي الحقائق التي لا يحقق الإنسان إنسانيته الكاملة ، ولا يكون لوجوده معناه وقيمته ، ولا يتحقق له أمنه في هذا الوجود إلا من خلال انخراطه التام والسويّ في مجراها ، والانضباط في سياقها ، وإلا كان الصدام معها ، وكان الضياع ، وكان الشقاء .

المحور الرابع : تقويم الحضارة :

إذا كان هذا هو واقع الإنسان في خضم هذه الحضارة وهذه المدنية ، وإذا كانت هذه هي جناياتها على الإنسانية ، فما أحكام الشيخ عليها ؟

لقد أطلق عليها أحكامًا تستند إلى الأزمات التي جلبتها على الإنسانية ، والكوارث التي قادتها إليها .

فهي في نظره حضارة ومدنية مادية ، تتعامل في صلب حركتها ومنجزاتها مع كومة التراب في الإنسان ونوازعه السفلى ليس إلا ، يقول :

((فأكثر ما في هذه الحضارة وهذه المدنية كريم على الجسد سخي عليه ....)) (٣) ، وهي بذلك : ((تزوّر الحياة وتزوّر الحقيقة وتزوّر الفضيلة.)) (٤) ، وهي في حقيقتها ، وفي أكثر

---

(١) المصدر نفسه : ٣٣٠/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٠٨/١ وانظر ٢٧٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٥/٢ وانظر : ٣٨٥/١ - ٣٨٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٦٣/٢ .

ما فيها ، نمط جديد من البداوة الجاهلة في أبشع صورها وأنكاها ، إذ ((ليس أحط ولا أبشع من بداوة هذه الحضارة التي أنارت غرفة نومي وأظلمت بجهالتها قلبي.)) [١] ، وهي حضارة ومدنية : ((قصير جناحها وإن حلقت بي فوق الأفلاك لأنها حملتني على جناح هرب بي عن سعادتي وأبعدني عن استقراري إلى منازل اختنقت فيها روحي وأصابها القلق .))[٢] ، وهي - أيضًا - مدنية متبذلة تذيب في الإنسان رجولته وصلابته وقوة عقله وروحه[٣] ، وهي حضارة متوحشة لا قلب لها ، قتلاها ((قد يصلون إلى آلاف الملايين.)) [٤] ، لا ((ليست هذه الحضارة سلوكًا إنسانيًا موقرًا ولكنها خليط من الذكريات والأوهام أراقت عليها البذاءة الذاتية من عرق جسدها ورغباتها وغرائزها المتوحشة ألوانًا من السلوك الهائج في غير احتشام.)) [٥] ، ومن هنا ((فإذا رأيت البسطاء اليوم يلبسون عباءاتهم المرقعة زهدًا في هذه الحضارة فلا تحمل ذلك على جهالتهم أو رجعيتهم أو حنينهم الساذج إلى أحلام الماضي وتخريفه ، قابل صحوتهم العقلية والروحية بوجه بشوش واحترم احتجاجهم العفوي والفطري على بلادة الحس وأتربة الذات وروائحها الكريهة عند من يخلطون بين الحقيقة والوهم في تقويم هذه الحضارة .)) [٦] .

تلك - إذن - هي طائفة من أبرز أحكام الشيخ على هذه الحضارة ، وأكثرها حزمًا ووضوحًا ومباشرة ؛ وإن كان يحاكمها ويدينها في كل كلمة صرفها إليها في رسالته .

غير أن الشيخ يستشعر ردود الفعل لدى من لا يوافقه على موقفه هذا ، ومن لا يرى ما يراه ، ولذلك يذهب إلى تعليل موقفه هذا تعليلاً مباشرًا قائمًا على وعيه العميق بهذه الحضارة وتجربته معها ، فيقول :

((ولا تظن أنني بدوي جافى ما في هذه الحضارة من إيجابيات ومعطيات جيدة ولكنني أرفض عطاءً لا يحقق للإنسان داخل نفسه الأمان)) [٧] .

---

(١) المصدر نفسه : ١٥٢/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٢/١ - ١٥٣ .

(٣) انظر الرسائل : ١٥٣/١ - ١٥٤ .

(٤) الرسائل : ١٥٣/١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٥٣/١ .

(٦) المصدر نفسه : ١٥٣/١ .

(٧) المصدر نفسه : ١٥٣/١ ، وانظر : ١٥٥/١ ، ٣٣٠ ، ٢٥/٢ ، ٢٦٤ .

فهو - إذن - لا ينكر ما في هذه الحضارة من مضامين إيجابية مفيدة ، ولكنه يرى أن هذه المضامين الإيجابية قد ذابت ، وانبهتت ملامحها في خضم مضامينها السلبية التي جنت على الإنسان من الآلام ما عكر عليه حياته .

* * * *

القطاع الثالث : في علاج الواقع :

عندما تصدى الشيخ للواقع العربي والإسلامي والعالمي ، ولواقع الإنسان فيهما وتعليله وتقويمه ؛ فإنه لم يتوقف في هذه السياقات عند مزاولة وظائف المؤرخ الذي يتمحور عمله حول هذه الخطوط ، لا يكاد يجاوزها ؛ بل حمل إلى جانب هذه الوظيفة وظيفة ((المصلح)) الذي لا يحمل هم أمته فحسب؛ بل يحمل معه هم الإنسانية كلها ، ويعاني آلامها ، ويحس بأزماتها ، ويغير على إنسانيتها المتهنة ، ومن هنا مضى يشفع كل ما سبق بما من شأنه حلحلة عقد الأزمة ، والعودة بأمور الأمة إلى المنهج الذي يمكن أن يدفع بها مرة أخرى إلى القمة التي كانت مستقرة عليها يومًا ما ، والعودة بأمور الإنسانية كلها إلى ما يمكن أن يعيد لها إنسانيتها ناصعة عزيزة كريمة .

وحين ينصرف الشيخ إلى هذا النوع من المعالجة ؛ فإنه يبدو أشبه ما يكون بالطبيب الماهر في عيادته .

لقد تعامل مع هذا الواقع - عرضًا وتعليلاً وتقويمًا وعلاجًا - متكئًا على أرضية متينة من الأصالة العربية والإسلامية والإنسانية مرجعية ودافعًا ، وعلى تجربته الخصبة في أطره الثقافي والفكري والتصوري والاجتماعي والسياسي والإنساني مصدرًا ، وعلى نظرته المحيطة بما يدور في هذه الأطر وخبرته المعمقة فيها وسيلة ، فتوصل إلى قناعات بالغة القوة والنضج .

لقد أحضر المريض إلى عيادته ، وفحص حالته ، وعرف علله كما هي ، وتغلغل في أعماق هذه العلل توغلا تشريحيًا وتحليليًا يستهدف الوصول المحقق إلى علل هذه العلل ذاتها ، وأسبابها وتجسيد جذورها ومغذياتها ، ومن ثم الكشف عنها وتعريتها في عين المتلقي — أيا كان هذا المتلقي جنسًا وموقعًا وانتماءً - بصورة عامة ، وفي عين الأجيال العربية والإسلامية الناشئة على وجه خاص ، حتى إذا خلص الطبيب من معرفة أسباب هذا الواقع وعلله ومغذيات وجوده واستمراره وتعريتها - كما هي - تهيأ له بعد ذلك - في مرحلة أخيرة — أن يصف العلاج في دقة وثقة .

وحين حرك الشيخ خطابه باتجاه معالجة هذا الواقع ، فإنه قد أنجز ذلك في نوعين متكاملين من العلاج .

الأول : علاج نفسي :

حيث عمد الشيخ إلى إخضاع متلقيه من أبناء هذه الأمة لنوع من العلاج النفسي ، الذي يستهدف به تحريك هذه النفس ، لإيقاظها وإعادة الحيوية إليها واستفزازها في مواجهة واقعها ، وبث الحماس فيها لتستعيد ثقتها بذاتها وبمقدراتها الخَلْقية والأخلاقية والروحية والعقلية والمنهجية والمادية ، وبعث الآمال والطموحات فيها من مكمنها الذي توارت فيه تحت ضغط الذهول مرة ، والكسل ثانية ، والإحباط ثالثة ، وقوة الواقع رابعة ، والهوى والنزعات النفسية الدنيا خامسة، وعدم المبالاة سادسة ..... ، ومن ثم استثارتها للتحرك من منطقة الخمول إزاء هذا الواقع إلى منطقة الفعل الإيجابي الرّزين .

وللوصول إلى هذه الأهداف العلاجية اتكأ الشيخ على أساليب مختلفة ، وعناصر فنية وموضوعية متنوعة ، ليس هنا مجال عرضها ، وإنما يتم الوقوف عند ذلك في مضامينه ، في صورته العامة التي اتخذت نمطين من العلاج النفسي :

أحدهما : استفزاز النفس ضد الواقع :

حيث عمد إلى تحريك النفس - لدى المتلقي - واستثارتها ضد هذا الواقع ، وإشعال حفيظتها تجاهه ، واستفزاز كبريائها أمامه ، بوضعها تحت تأثير انفعالات بالغة الحدّة ، تتراوح بين التقزز والامتعاض من الواقع مرة ، والخوف منه على الذات ومقدراتها ثانية ، و الكبرياء والغيرة على الذات ومقدرات الذات ثالثة ، .....

وهذا النمط من العلاج النفسي هو ما يمكن تحققه من خلال مضامين الشيخ التي رصدت في الخطوط المفروغ منها آنفًا في إطاريها العربي والإسلامي ، والعالمي ، حيث عمد الشيخ فيها إلى عرض هذين الواقعين ، وواقع الإنسان فيهما ، وعللهما ، في أنكى صورهما ، وأشدها عبوسًا ، وأحدها إيلامًا بصور تحقق هذا الاستفزاز في أبلغ صوره وأكثرها تأثيرًا .

ثانيهما : إعادة الثقة بالذات وبمقدرات الذات :

أما في هذا النمط من العلاج النفسي فقد اتجه فيه الشيخ إلى محاولة حفز النفوس باتجاه استعادة الثقة بذاتها ، وبمقدراتها المادية والمعنوية ، والاعتداد بهما .

ففي محاولة لإعادة الثقة بالذات وبمقوماتها الخَلْقية والأخلاقية وبسمتها المميز ومتكناته، في مواجهة الذبول الذاتي يقول :

((نعم ولدي : ما أكرم خصائص الإنسان العربي ! .. وما أكثر ما في أعماقه من خير لأن فيها ميراث الآباء والأجداد ، لأن فيها دفين ومكين طهارة الرسالة لكنها مدافن غطت عليها كثافة العصور والتخريف والجور ، فمنذا يستطيع أن يزحزح هذه الكثافة لتبدو ناصعة جاهرة بالحق والعدل ؟)) [(١)] .

ولإعادة الشعور بالمسئولية ، والضرورة الكونية للذات ، ودورها الخير الذي لا بد للأمة من مزاولته ؛ ولا سيما في هذا العصر يقول :

((ولأننا في خصائصنا الإنسانية وفي أصالتنا ومعتقداتنا ما كنا ولن نكون إلا دعاة خير ورحمة للإنسان ، فإن مكاننا في هذا العالم شاغر ، هوته واسعة ولا يمكن أن يملأه أحد سوانا ، وإذا لم نملأه فقد يختل توازن العالم ويضطرب جناحاه في الشرق والغرب . إن من يستخف بهذه الحقيقة وتذهله عنها الدعارة العقلية لا منابت للفضيلة في نفسه ، أقول ذلك ويؤكده للبشرية لقاء السماء مع الأرض في الرسل والأنبياء والمصلحين والقيم الخلقية ، فكل همسة بين السماء والأرض أو دمعة أو آهة ، وكل فكر وروح صدرت للإنسان كانت من قدر هذه المنطقة ، وإذا قلت إن فيها فراغًا لن تملأه إلا أجيال عربية متدينة تستطيع بأخلاقها وخصائصها الإنسانية أن تعزل الشر عن الأرض وتضع مكانه قيم الإنسان وتصوغها له من جديد فقد أخلقت ثيابه ، فإني محق وإذا لم تجددها هذه المنطقة الوسط وتنسج ثيابها من جديد فستظل البشرية عارية المناكب وإن نزلت فوق النجوم .)) [(٢)] .

ولإعادة ثقة الأمة في أرصدتها الروحية ، وموروثاتها الأخلاقية ، والمنهجية ، ومصادر تحديد هويتها الكونية في مواجهة زحوف الآخر يقول في خطاب مطول يشير فيه إلى واقع الأمة في زمنها الأول وإلى الرسالة التي أكرمها الله وأعزها بها :

((... كل شيء في هذا المعنى ، وفي هذا الواقع ، وفي هذه الصورة ، مملوء لا فراغ فيه ، ملأته القبائل العربية أحقابًا طويلة بخصائصها وأخلاقها ومميزاتها ورسالتها الإنسانية التي

---

(١) الرسائل ١/١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه :٣٤٧/١ وانظر ٢١٩/١ ، ٣٨١ - ٣٨٢ ، ٢٨/٢ .

يجذبني الحنين إليها في سكون الليل أو في سكون النفس ، يجذبني الحنين إليها من كهف النفس كما يجذبني إلى غار حراء . وغار حراء ماذا عنه في نفسك ؟

أهو كهف لائذ بجبل فغر فاه ، صورته في رؤاك علاها الصدأ في مرآة لم تقف أمامها متأملاً في أعماق الصورة للمرأى الجليل والعظيم لصورة كهف أكرمت السماء الإنسان بضيافته عليه ؟

لا أظن فيك إلا خيرًا ، فلا شيء في هذه الحياة وإن تلاحقت بروقه في ذيول السحب أو في رقابها الحاملة لأثقل المياه والفائضة بها على أودية الأرض وقيعانها بملغ من النفس ومميتٍ فيها الربيع مثلما يميته الخريف في الصحراء . فيوم لا أملّ من تتابع رسائلي إليك ، ماذا والصورة التي لا تستقبل الملل في أعماقها ؟ أهي مرآة علقتها في جدار النفس عاطفة الأبوة ؟ ولم تستقر على حائطه ولن تستقر إلا حين ترى الابن واقفًا أمامها يسائل نفسه أفي مرآة أبي أجد نفسي وأجد صورتي في صورته ومرآته ؟ فحيطان الآخرين وما فيها من مرايا معلقة عليها قد لا أجد فيها مقياس حجمي ولوني ، قد تشكلني بتشكل الحائط الذي أسندت ظهرها عليه وبأعماقه وبلونه وأعود منها مفلسًا أو مشوهًا . وهنا تتكور جمجمتي مع قدمي فأصير إلى حجر في حائط ليست صخوره صخورًا عربية وإنسانية من جبل غار حراء ..

ولدي :

كثيرًا ما ألوذ بك في جوف غار حراء وآخذك إليه ، وناطحات السحاب وراكبات جناح العلم إلى أرض القمر تحاول بكل جبروت عقليّ وذهنيّ أن تخرج بالإنسان منه وتبعده عنه ، ليكون كهفًا لا ذكر له ولا وجود سوى أنه فراغ في جناح جبل من جبال الجزيرة العربية .

وحتى لا تتصور أنني ألفت هذا الغار مع ما ألفت من كهوف جبال الجزيرة العربية وأوديتها فعميت عن كل شيء سواه ، وهانت عليَّ وفي خاطري متغيِّرات العصر وثورته على كل شيء ، أود أن أؤكد لك هنا وبشكل قاطع ويقيني أنني منذ صباي الباكر وأنا أتابع وأقرأ في كتاب هذا الكون وفي كتاب الإنسان نفسه ، في قوته وضعفه ، وفي جبروته وعلوِّه وتدنّيه عائدًا كسير الجناح من رحلة الغرور وطغيان الغنى ، فزادتني هذه القراءات وتمّعني فيها إيمانًا على إيمان بأن كل شيء في هذا الكون مشاهد تجذبني إلى الإيمان وتشدني إليه .

غار حراء هو وحده الذي لا فراغ فيه وهو المليء بالرحمة والهداية وتنظيم حياة الإنسان تنظيما رحيمًا عادلاً لا كسروية فيه ولا قيصرية ، لا كوخ فيه ولا قصر ، بهدايته أمر الخليفة الثاني الناس ألاّ يسرقوا ولا يقطعوا شجرًا ولا يؤذوا ذمّيًا ، وأن يتراحموا فيما بينهم لتنجذب

إليهم كل البشرية وتنزع إلى رسالتهم كل النفوس الخيّرة .

ولدي :

لا تقس أعماق الرسالة الإنسانية بمقياس ميراثك من أبيك أو أخيك أو جارك أو كاتب التاريخ لك ، المقياس هناك في أعلى مصادر الرسالة ، إنه في بيت تلامذة محمد نبي الرحمة والهداية ، في بيت الخليفة الأول والثاني والثالث والرابع ثم عمر بن عبدالعزيز .)) (١) .

ويؤكد ذلك ويعمقه بالعودة إلى الاتكاء على تجربته الخاصة ، مشيرًا إلى أن ما في صدر تاريخنا هو لب ما تبحث عنه الإنسانية لو اهتدت إليه فيقول :

((نعم ، لقد قرأت وشاهدت وأصغيت ثم تابعت السلوك ، ركضت هنا وهناك ، قابلت عددًا كبيرًا من الشامتين بنا نحن العرب والمسلمين ومن المعترضين والساخرين منا ، وأجريت الحوار وجهًا لوجه ولم يزدني كل ذلك إلا إيمانًا لا يتزعزع بأن القمة في غار حراء هي الرحمة المهداة لكل البشرية لو عرفها أرباب النظريات المعاصرة وقرأوا معانيها السامية في سيرة الرسول العظيم والخلفاء الراشدين قولاً وعملاً وسلوكًا لما فارقوها ولما خرجوا عليها....)) (٢) ، ولذلك :

((لا نريد شيئًا من شرائع الآخرين ولا قوانينهم وأنظمتهم ، ولكننا أغنياء بشريعتنا السمحاء .)) (٣) .

ولإعادة الثقة بالنفس في أصالتها الروحية ومتانة منهجها ، وصلابة القواعد التصورية التي تتكيء عليها في مواجهة الانفجار المعرفي المعاصر ، والزحف الحضاري المادي الحاضر يقول :

((وهنا يجب أن يشمخ إيمان المؤمن بعظمة الخالق ، فما نراه وما تأتي به الأحلام من اكتشافات ومن جلوس على ذرى العلم في أقصى الطريق أو أدناه لا نردّه إلا لمبدع هذا الكون وخالق الإنسان ، فمن رآه وآمن به وردّه إلى الله فحظه كبير ، ومن طغى وبغى وتأله ألا نرثي لحاله ؟ ....)) (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ٢٥٩/٢ - ٢٦٢ وانظر : ١٠٧/١ - ١٠٨ ، ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٢٧٣ - ٢٧٨ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ ، ٢٦/٢ — ٢٨ ، ٣٦ — ٣٧ ، ٢٢١ ، ٢٤٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ — ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٣٢٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٢٠/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٧٩/١ - ٣٨٠ .

ويقول في تأكيد ذلك : ((ما الذي خلّفناه وراءنا بمفرغته حضارة العصر ، لأن فيه الرسالات وفيه محاولة الإنسان وجهده وفيه مآذننا التي لا يمكن أن نقبل بأن تنزلنا من عليها مآذن هذه الحضارة التي أذن مؤذنها على سطح القمر ، فمسجدي الذي في قريتي ومئذنته هي في يقيني ممدودة الرقبة إلى ما لا تصل إليه رقاب مآذن علماء العصر مهما أذن مؤذنهم على كوكب من الكواكب ، فمآذن قرانا هي التي تلحق بالبعيد وتستقبلها فيه رحمة الله .))[1] .

ولإعادة ثقة الأمة بأصالتها التاريخية والسلوكية ، القائمة على البساطة والإنسانية الحقة في حركتها ، في مواجهة غطرسة ومادية الزحف الحضاري والمدني المعاصر وجناياته على الأمة ، يقول :

((فجمل يرفسه راكبه بالقدم ويدفع به في قلب الصحراء أيامًا وشهورًا لا يمل ظهره ولا توحشه الوحدة ، وأنثاه يوم يُدَرِّبُها الفلاح لسقيا زرعه فيطعم جياعه وجاره وابن السبيل من عرقها واحتمالها ، وقطعان القبيلة التي يحدو لها الرعاة في رأس الفلاة ألا نحملها معنا حيثما كانت ؟ سنظل ركابًا للجمل حداة له ، وإن غاظ ذلك مدنية العصر ، وإن عابتنا به .))[2] .

ويؤكد ذلك حين يقول : ((خير لنا أن نعود إلى جمالنا وخيولنا وحميرنا وكلاب صيدنا وصقورنا وبيوتنا المسقوفة بسعف النخيل، من أن نزحف على جباهنا مذلولين مهانين موزعين مبددين نجاهر بالفحشاء والقطيعة فيما بيننا تعميقًا لبداوة هذه الجهالة في أرضنا وسمائنا....))[3] .

ولإعادة الثقة بالذات في قدرتها على إنجاب وصنع القيادات والنماذج الزعامية الرفيعة في شتى شئون الحياة كرس الشيخ جملة من المضامين التي عرض من خلالها مجموعة من النماذج القيادية العربية في مواقف مشرفة ، تهتز لها النفوس إكبارًا وإعجابًا وفخرًا ، معممًا الصورة على خريجي مدرسة ((يثرب)) الذين كانوا نماذج قيادية رائعة في شئون دينهم ودنياهم[4] .

ولإعادة الثقة بالذات في مواجهة الواقع الداخلي الفادح وصلفه يقول :

((... لن يدوم الاضطراب النفسي والعقلي والانفعالي عند إنسان هذه المنطقة))[5] .

---

(١) المصدر نفسه : ٣٨٧/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٨٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٥/١ - ١٥٦ .

(٤) انظر الرسائل ٢٦/٢ - ٢٨ ، ٢٦٧ - ٢٧٢ .

(٥) الرسائل : ٢٧٨/١ .

وللغرض نفسه في مواجهة أقوياء اليوم ، ومؤيدي مظالمه الممارسة على الأمة يقول :

((.... لكن أيظن عالم اليوم وأقوياء اليوم ومؤيدو مظالم اليوم أن كل شيء انتهى عند هذا الحد ؟ .... أبدًا ....)) [1] .

ولإعادة ثقة الذات بمنهجها في محاكاة الكون ، وما حققته وما يمكن أن تحققه بالاتكاء على هذا المنهج في ميادين المعرفة ، وقدرتها على العطاء الخصب في هذا الميدان يقول في خطاب مطول :

((فالإنسان العربي أو سواه من البشر متى أدركوا ووعوا أن الظاهرة الصوتية في الإنسان هي الطريق لمناداة كل ظاهرة في هذه العوالم الواسعة أعلوها نداءً وحاديًا لكل ما في هذا الكون من ظاهرة محسوسة ، ورأوا توجيه القرآن الكريم إليهم : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم " [2] .

وقد يختلف الصوت المنادي بين إنسان وآخر ، فالذين سبقونا على أقدامهم الصوتية إلى ارتياد منازل لم نلحق بها ـ نحن العرب ـ لحاقًا حسيًّا ومقبوضًا عليه باليد والقدم ، لا يمكن أن نتضاءل وأن نقبل أن يقال عنا إننا ظاهرة صوتية ، ضوضاء وليس غير .... أبدًا ، فالأقدام التي هبطت على القمر والتي لحقت بأعماق ما في هذه الأرض ، ألا ترى أننا ـ نحن العرب ـ ممن شارك فيها مشاركة فعّالة ... ؟ فتاريخنا وتاريخ علمائنا لم يختف حتى الآن اختفاء الصوت في جبل ردّد الصدى ..! وقرآننا الكريم لو رأيناه ــ لا قدر الله ــ ظاهرة صوتية ، فمعنى ذلك أننا عمي وخرس وفراغ لا نرى شيئًا ولا نملأ حيزًا يملؤه فرخ القطا . ماذا في الآفاق التي فيها كل آية ؟ وماذا في النفس التي جاءت في صورة واحدة ومرادفة لما في الآفاق ؟ ليتني ممن يستطيع في وعي لا تزل به قدمه أن أحمل نفسي وألقي بها بعيدًا لترى كل ما في تلك الآفاق! ولكن حجمي ضئيل جدًا، وجناحي كسير ومهيض أمام رحلة كهذه ، ولكني أبقى متفائلاً أن نفس العربي المسلم وأخيه في العقيدة ستلحق على جناح السرعة بالوعد الكريم ، ستمنحهم الرحمة الطريق إلى رؤية هذه الآفاق ، لن يظلوا عميًا لا يبصرون ، أبدًا ، ولن يبقوا عنوانًا لكتاب مليء بالضوضاء الذاتية .

فالظاهرة الصوتية عندي هي التي ترى هذه العوالم الواسعة أمامها ، أشعر شعورًا بالغًا أن

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) سورة فصلت ، من الآية (٥٣) .

صوتًا عربيًا جهوريًا من فم قارئ لقرآن عربي مبـين يلقي على النفـس مـن مشـاهد هـذا الكـون وتظاهـره في الشموس والأقمار والمجرّات والبعد والسعة ما لا يستطيع سير حثيث أن يلحق ببعده وإن ركب جناح الخيال ، متى رآه الإنسان ؟ أرؤيته له في هذا العصر وليس غير ؟ أبدًا . لقد رآه الإنسان المسلم يوم نزل عليه القرآن الكريم في يومه البعيد ، ولكن إذا ضعف البصـر عنـد جيـل أو أجيال ولم يستطيعوا أن يقرأوا مشاهد هذا الكون ومنازله وبعده وأجرامـه وحركتـه سباحًا في الفضاء ، أنقول أيدينا مفرغة ، ولا شيء غير العرب ظاهرة صوتية ؟

من لم يقبل مني مثل هذه القناعات أنصحـه أن يقـرأ قرآنـه الكريـم قـراءة واعيـة وجـادة للوصول إلى الحقيقة وإلى تجاوز الباطل على الحق .)) [١] .

ولإعادة الثقة بالذات علـى المستوى المادي ، ومدخـورات الـذات الحسـية والمعنويـة في مواجهة اللهاث وراء ما لدى الآخرين يقول :

((لسنا فقـراء ، نحـن أغنـى البشـر ، لذلـك اختـاروا كلـب الاسـتعمار فـأدخلوه الغابـة وعلموه كيف ينذر بالخطر في نباحه ليستجيبوا له كلما أراد ذلـك وأرادت مصـالحهم أن تعتـدي على لقمة العيش وعلى أقدس ما عندنا ...!)) [٢] .

ولاستثارة النفوس وشحنها بالثقة بذاتها ، وإعدادهـا للانطـلاق باتجاه تجاوز خمولهـا ولا مبالاتها ، والعمل الجادّ على استعادة فعاليتها ، والبحث عن دورها ووجودها الإنساني ومكانهـا التاريخي في مواجهة ذل الواقع يقول :

((سأتفـاءل وإن طـال الزمـن ، وإن ذلـت رقابنـا وخفضنـا الطـرف كمـا خفضتـه بنو نمير [٣] ...! لا بد من الارتفاع لا بد من آت إلى هذه الحياة مـن أصلابنا وقائـل لمن يقـول لـه انتهيت ، أصابك الفناء ، لا ثم لا ، أنا موجود ، لست لقيطًا ، ولست غريبًا علـى هـذه الحيـاة ، أنا قائد الخير والمكلف بحمله إلى كل البشرية ، ....)) [٤] .

---

(١) الرسائل ٢/٢٥٠ - ٢٥٢ وانظر : ١/٥٣ ، ٢/٢٧ ، ٢١٩ ، ٣٨١ - ٢٨٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٧٨ .

(٣) إشارة إلى قول جرير في ديوانه (٢/٨٢١) يخاطب الراعي النميري :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

(٤) الرسائل ٢/٢٧٢ - ٢٧٣ .

ومرة أخرى يعمد إلى استثارة الذات العربية والإسلامية ممثلة في شبابها خاصة ؛ إلى بدء العمل الرزين الجاد في كل اتجاه لاستعادة صحة هذه الذات وفعاليتها ومكانها العالمي في مواجهة سلبية اليوم وذبوله يقول :

((ولدي :

متى تعي في سمو خلقي وعقلي ما بداخلك من غرائز خيِّرة أو غير خيّرة ؟ متى تتساقط أنياب الذئب عندك التي أكلت لحمك ودقت عظمك ورآك فيها عالم اليوم ذئبًا يأكل بعضه بعضًا ...!

متى تصنع بندقيتك بنفسك ؟ متى تكون بندقية عربية ؟ متى تنافس طيور الفضاء بطيورك العربية ؟ متى تبني جامعتك التي لا يهندسها لك إلا مهندس عربي ؟ متى تقرأ الكتاب العربي من ذهن الإنسان العربي حاملاً إلينا وإلى أطفالنا وإلى جامعاتنا شيئًا من أسرار علوم الآخرين ؟ متى نرى رواد الفضاء العربي ؟ متى نرى ، متى نسمع برحابة صدر الرجل العظيم حين قال للمرأة البسيطة : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! [١])) [٢] .

هكذا حاول الشيخ من خلال هذا الشحن النفسي أن يثير في النفوس انفعالات التقزز والامتعاض، والخوف ، والكبرياء والغيرة ضد هذا الواقع من ناحية ، وانفعالات الثقة بالنفس، والاعتداد بها ، وبث الطموح فيها ، والاعتزاز بالذات ومقومات الذات ومقدراتها المادية والمعنوية إزاءه من ناحية أخرى ، وذلك سعيًا إلى بناء نزعة التمرد الإيجابي والرزين على الواقع ، ومن ثم السعي الفعّال إلى تجاوزه والإفلات من ربقته والتحرر من قيوده .

الثاني : علاج إجرائي :

أما والواقع على هذه الحال ، أما والأمة ومقدراتها ومقوماتها الأخلاقية والروحية والعقلية والمنهجية والمادية في هذا الموقف الحرج ، أما وقد عادت للنفس حيويتها وقدراتها على رؤية وجه واقعها الكالح ، ورؤية ذاتها وأشيائها كما هما في ذلك الموقف ، أما وقد انعتقت من خمولها الذاتي ومن سلبيتها في مواجهة الواقع وأصبحت الآن - بعد هذا العلاج النفسي - مهيأة للحركة الجادّة والعمل المسئول على تجاوز واقعها ، والعودة إلى مكانها الطبيعي ، فكيف تكون

---

(١) ورد أصل الخبر في: سنن أبي داود ، كتاب : النكاح ، باب : الصداق ، وفي سنن الترمذي ، كتاب : النكاح ، باب : ما جاء في مهور النساء .

(٢) الرسائل ٣١٩/٢ - ٣٢٠ وانظر ٢٧٥/١ .

هذه الحركة ؟ وإلى أين تتجه ؟ ((... أننفعل انفعال طفل عاقبته أمه بالفطام وهو لم يبلغ سنته ؟ والانفعال والغضب هل حل مشكلة ؟ أبدًا ، إذا انفعل عقاب الجو وحام في سماء الغضب على جائر حاول اغتيال أفراخه ، أتراه حل مشكلة أم أن بندقية الرامي أسرع إلى قلبه من الخاطرة التي لا باب دونها فتطرقه ولا حائط لا تستطيع تجاوزه ؟)) [1] .

لا ، ليس بهذا الأسلوب الأحمق الذي لا يحل الأزمة ؛ ولا يزيل الحيف ؛ بل يضاعفها ، ويأخذ الجروح إلى مستويات أكثر عمقًا ، ويوغل بجذور الواقع في حياة الأمة وحركتها ، ومن هنا فلقد ذهب الشيخ يتلمس - في روية وهدوء وحكمة أنضجتها التجربة الطويلة ، والخبرة الواسعة بطبيعة أزمة أمته وتداخلاتها المعقدة - معالم المنهج الرّزين الذي يمكن للأمة أن تتحرك باتجاهه - بهدوء - لضبط حركتها على متنه إن هي أرادت أن تتجاوز واقعها الشامل ، وأن تستعيد مكانها الذي كانت فيه يومًا مطمئنة مع توازنها واستقرارها وأمنها في شتى شئونها الداخلية ، ومع مكانتها ووزنها وفعاليتها وعطائها في سياقها الإنساني العالمي ، ومع دورها الكامل ومع انضباطها في سياقها الكوني ، وعند ذلك فحسب ؛ يمكنها أن تستعيد لذاتها ولإنسانها خاصة ؛ وللإنسانية كلها أمنها واستقرارها وصحتها النفسية والروحية والفكرية والسلوكية ، كما كانت في قمة وجودها المترع بالمياه العذبة ، فما خطوط هذا المنهج الذي دعا الشيخ إلى التحرك باتجاهه ، وتثبيت الأقدام عليه .

لقد نثر الشيخ على امتداد رسالته الخطوط العامة لهذا المنهج ، وبمحاولة رصد هذه الخطوط ، واستقطابها هنا ، وتنظيمها ؛ أمكن الوصول إلى مخططه التالي :

أولاً : العودة إلى منهج الأمة في صدرها :

إذا كان انحراف الأمة في حركتها العامة عن المنهج القويم الذي وجدت فيه ذاتها ؛ هو الذي سبب لها عبر تاريخها كله - وفي هذا العصر على وجه أكثر حدة - الكوارث والنكبات والاضطراب نتيجة تصادمها مع ذاتها ومع سواها في هذا العالم ؛ بل ومع سياقها الكوني ؛ فإن العودة الشاملة المتدرجة المؤطرة بالرزانة والانضباط إلى الرسالة ، وإلى منهجها الكامل ، وانتظامها في سياقه ، وانضوائها تحت جناحه الحاني ؛ هي الحل لكل أزماتها النفسية والروحية والفكرية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والتشريعية .

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٨/١ .

يقول في خطاب مطول يبدؤه بعرض مركّز لواقع الأمة ليخلص منه إلى طرح منهج لتجاوز ذلك الواقع :

((ولدي

إذا كنّا في القرن العشرين ، وإذا كانت المسافة بينه وبين مُثُلنا وقيمنا ورسالتنا أحقابًا طويلة ، إذا كانت مدرسة يثرب في أخيارها وكبارها وأتقيائها وناصبي ميزان العدل والرحمة على جبهة الأرض لا نراهم إلا لمامًا ، وحين تضايقنا حضارة هذا العصر ومؤسساته المادية والجائعة لكل حبة قمح أو قطرة حياة إن كانت آتية من السماء إلينا أو آتية من جوف الأرض ، إذا كان هذا الواقع قد آلم أكثرنا وضاقوا بالحياة فتوتروا وضجروا وقلقوا ثم سخطوا على كل شيء وقسوا على أنفسهم وصار الأخ يرمي أخاه ببندقية أو بتهمة ، ويرد الواقع القائم هذا إلى ذاك ، ألا يمكن أن نصغي إلى الماضي البعيد الذي كنا في عُلُوه نصون الميراث الكريم ثم صرنا نهبط وننحدر من على قمة الجبل يومًا يومًا وعامًا عامًا وزمنًا زمنًا ؟ والإصغاء لا نريده متوترًا ولا منفعلاً ، نريده قراءة للماضي بكل ما فيه ، ويوم يكون ذلك وندرك أن شجرتنا العظيمة و التي أظلت في الزمن البعيد كل المتعبين وكل المظلومين ، وخذل كسرى أنوشروان آنذاك وقيصَرَ كلُّ الناس ، حتى حاشيتهما لاذت بالشجرة الإنسانية التي رحبت بكل من لاذ بها وأعطته الأمان ... متى أدركنا ذلك ومتى أدركنا الهوة الواسعة التي باعدت بيننا وبين هذه الشجرة الكريمة التي غرسها في بطحاء مكة وأرض يثرب رحمة السماء بالإنسان ، نستطيع أن نخرج من أزماتنا النفسية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتتساقط في الهوة الواسعة قذائف التهم وقذائف الدمار فتلمؤها وتكون قبرًا لها ، وعندئذ يلتئم الجرح العميق ولا أحد يستطيع أن ينكر علينا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أن حضارتنا ورسالتنا وتاريخنا ووجودنا ما قاموا إلا على عاصمة واحدة وعلى علم واحد وعلى أرض واحدة .))[1] .

هكذا ، إصغاء كامل، وعودة شاملة إلى الميراث الكريم كله .

ولأن عودة الأمة إلى الماضي ـ كما كانت معه ـ عودة كاملة متعذرة ؛ لاختلاف الظروف ؛ فلتكن العودة إلى المنهج الذي سلكته في الماضي فذلك هو الممكن ، وفي ذلك خيط النجاة يقول :

---

(١) المصدر نفسه ٢٧٣/١ ـ ٢٧٤ وانظر : ٢٣٤/١ ـ ٢٣٥ ، ٣٢٦ ، ٢٨ ، ٢٢١/٢ ، ٣٢٤ .

((ولدي :

لا أطمع في أن أحملك على أكتافي ثم أقذف بك من القرن العشرين إلى القرن العاشر ، فمثل هذا التصور لو مرّ بخاطري لشككت بعقلي ، فلا شيء عائد إلى الوراء وإن كانت أمانينا ، وإن كانت أحلامنا ، وإن كانت نبضات حنيننا واقفة بها ذكرياتنا على أطلاله ورسومه ، ولكن كي لا نغرق في الحاضر وفي الآتي لنبق ولو على خيط رفيع من الماضي يشدنا إلى ساحل النجاة)) [1] .

وإذًا فإن العودة الكاملة إلى المنهج الذي سلكته الأمة في صدر تاريخها في مختلف خطوطه الروحية والوجدانية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتشريعية هي سبيل خلاص الأمة من أزماتها ، وهي حبل النجاة المتين الذي لا بد للأمة من أن تقبض عليه حالاً ، وتستمسك به بقوة وإصرار ومثابرة ؛ لتعيد به ومن خلاله ذاتها إلى مكانها على القمة .

ثانيًا : أسس العودة :

وإذا كانت هذه الدعوة تتسم بالعمومية والشمول ؛ فإن الشيخ لا يدعها مرسلة هكذا ولكنه يتلافى ذلك حين يتحرك باتجاه تفصيل واقتراح طائفة من الأسس الكبرى ؛ التي يمكن أن تتكئ عليها الأمة وتستند إليها في طريقها إلى تحقيق هذه العودة ؛ لتكون هذه العودة عودة واعية متدرجة منضبطة ثابتة الخطى بعيدة عن الشد والتوتر الانفعالي والعشوائية والارتجال ، فما الأسس التي يمكن أن تتكئ عليها حركة العودة هذه ؟

إنها في نظر الشيخ :

١ـ تجاوز الخمول والسلبية في المواقف :

إذا كان طريق ((الألف ميل يبدأ بخطوة)) ـ كما يُقال ـ ؛ فإن الخطوة التي لا بد أن تُستَهل بها مسيرة العودة تتمثل في العمل باتجاه تجاوز الخمول الذي تقبع في بؤرته هذه الأمة إزاء واقعها ؛ الذي تكاد تكتفي فيه من الفعل بالتغني بالماضي تارة وبالبكاء على أطلاله أخرى ، يقول :

((أيمكن لنا أن نحمل التاريخ البعيد ونلقيه في وجه الشامتين بنا ونقول لهم كنا ونكتفي ؟ لو فعلنا هذا فكأنما نحمل قصيدة هاجية لنا أشد الهجاء وأعنفه تحقيرًا وتدميرًا لوجودنا

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٣/٢ .

القائم ...!))[(١)] .

لا بد للأمة من إجماع الرأي على تجاوز السلبية واللامبالاة تجاه هذا الواقع ، وتخطي مرحلة الأحلام والأمنيات الهائمة ، والإقلاع عن الهروب إلى قبور الماضي ، تلك الآفاق التي ليس فيها ما يروي عطش الحاضر ، كما أنه لم يرو في يوم عطش الماضي ، يقول :

((ولدي :

لو أنني عاشق لما كنت عذريًا في عشقي لمجرات هذا الكون ، فالعذريون في الزمن السحيق شابت لمة ذكرياتهم وعجزت لأن عذريًا واحدًا لم يراودها في خدرها البعيد ولم يستبح بيتها . فإذا نحن رأينا عشاق الكون يخرجون على مذاهب العذريين اليوم وينظمون قصائدهم في ليلى الكون وبثينته وعزة وعفراء في رحلات كونية ويضعونها قلائد في رقابهن ، أنهجع مع ذكرياتنا في وادي أشي ؟ ووادي العقيق ؟ نستمع إلى قصائد كثير في عزة وجميل في بثينة والمجنون في ليلاه ؟ أم نركب مطايانا وندفع بها إلى الخلف نستجدي قبور موتانا ونقيم للخرافة مهرجانًا ونضع على عنقها قلائد زمنية لم ينظمها الوعي فنظمتها أيدي المخرفين عند الجنائز الغائبة ...؟!! وهذا ما رفضه معتقدي .))[(٢)] .

لا بد للأمة - إن هي أرادت أن تزيح عن كاهلها أعباء هذا الواقع ، وأن تستعيد ذاتها الضائعة - من التحرك الجادّ باتجاه تجاوز خمولها وسلبيتها ، والتحرك إلى الأهداف العليا للأمة ، وتحاشي التوقف في حركتها عند حدود الاستسلام للواقع ، وتسلية الذات فيه بالأمنيات والنوايا الحسنة ، يقول :

((ولأني وأنت من القوم الذين بكت عيون أياماهم حتى أصابها العمى ، ولأني وأنت من القوم الذين شرِّدوا عن وطنهم الذي فيه ذكرياتهم وفيه مدافن موتاهم من آلاف السنين ، ألا ترى أن الآلام والأحزان ورسالة تأتي من هنا أو هناك ، أو جريدة حمل فيها قلم منافق أهواءه أو أهواء من اشتراه ، لا تعفينا من المسئولية في هذه الأرض والسماء ؟ لن تشفع لنا نوايانا مهما كانت خيِّرة ، فالنوايا إذا لم تمش على الطريق إن كان ضيّقًا أو واسعًا من أجل الهدف الكريم ، لا

---

(١) المصدر نفسه ٣٢٣/٢ ، وانظر ٣٥٥/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤١٠/١ - ٤١١ .

أدري أأعذارنا مقبولة هنا أو هناك عند الله ؟)) [١] .

هذه - إذن - هي الدعامة الأولى التي لا بد من بنائها ، والخطوة الأساسية التي ينبغي اتخاذها في حركة العودة ، والاتكاء عليها في هذه الحركة .

٢- الوعي بمسئوليات الذات :

فإذا بدأ تحول الأمة في حركتها من موقف الخمول والسلبية واللامبالاة إلى موقف العمل الجادّ المثمر ، فلتتكئ الخطوة التالية على دعامة الوعي الكامل بمسئوليات الذات وأدوارها التاريخية الكبرى ؛ التي يجب أن تعود إلى حملها وممارستها في سياقاتها الداخلية والعالمية والكونية ، كما تحملها ومارسها سلفها في صدر التاريخ ، يقول الشيخ :

((والرقاد الطويل متى يستيقظ ؟....لا أدري ، ولكني وإن كنت لا ألوم عمرًا أو زيدًا ، أضع خواطري وهواجسي ونبض الإحساس عندي بمسئولية الإنسان العربي وأخيه المسلم التي تخالف وإياها في الخطى وافترقا على غير ميعاد في اللقاء .)) [٢] ، ذلك أن ((لنا رسالة لم تكن عدمًا ولم تكن تهدمًا خلقيًّا وروحيًّا في الأرض ، أبدًا)) [٣] .

وفي هذا الإطار فإن ((كل واحد منا مؤاخذ من مكانه الذي هو فيه ، والمؤاخذة ربما لا تتساوى . ولكن الرجل المسئول والرجل المظلوم لا تعفيه دموعه وأنينه أو صراخه من المؤاخذة)) [٤] ، ف ((ليس فينا واحد معذور دون آخر ، فالعذر هنا لم يكن من مضيف ظن أن ضيافته للنزيل عليه أقل من حقه فألحقها بالمعاذير ، أبدًا ، ليس هذا ، فالدور عظيم ، وهو دور ليس ضيفًا يحل اليوم ويرحل غدًا ، إنه نزيل على هذه الأرض من المحيط إلى الخليج ، نزيل ما نوى الرحيل ولا فكر فيه حتى وإن أغرته النجوم أن تكون له منازل .)) [٥] .

---

(١) المصدر نفسه ٣٨٩/١ ، وانظر : ٢٤٤/١ ، ٣٢٧ – ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٢١٩/٢ ، ٢٤٢ – ٢٤٣ ، ٣٥٣ - ٣٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٨٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٧/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٨١/١ - ٣٨٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢١٩/١ وانظر: ٢١٩/١ ، ٣٢٧ - ٣٢٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٢٩٨/٢ ، ٢٤٢ .

وهكذا ؛ فإن الوعي الكامل بمسئوليات الذات في كافة سياقاتها ، وفي مختلف آفاق هذه السياقات ، والشعور العميق بخطورة هذه المسئولية ، وبضرورة تحمّلها خطوة ضرورية لا بد من اتخاذها ، ودعامة لا بد من إنجازها إنجازًا واعيا ؛ للتقدم منها إلى مواقع أخرى أكثر تقدمًا باتجاه المواجهة المصيرية مع الواقع .

٣ـ مواجهة الذات :

فإذا أصبحت الأمة في قمة استعدادها للحركة الواعية ضد هذا الواقع ، وإذا أصبحت في بؤرة شعورها بمسئولياتها الخاصة والعامة ، واستعدادها لحمل هذه المسئوليات والاضطلاع بدورها الكامل ؛ جاءت الخطوة التالية لتتمثل في مواجهة الذات في جرأة متعقلة ، وتحدٍّ رزين ؛ لمجابهتها بالحقيقة ـ كما هي ـ بمنأى عن أية محاولة للمراوغة أو المغالطة ، وذلك لبلورة وعي حقيقي يتسم بالشمول والعمق عن ذلك الواقع [١] ، يقول :

((نعم ، ألا ترى أن وادينا الكبير واقفة على جنباته أخت صخر تبكي وتنشج وتلقي رثاءها في أسماعنا ، إننا نعيش في هذا العالم على قافية غير موزونة وغير مستقيمة ، لنقابل أنفسنا ولنقابل الحقيقة ! ولا نغالط فيها واقعًا أليمًا !)) [٢] ، ف ((ما أحوجنا إلى اللوم وإلى النقد الهادف إلى الخير !)) [٣] ، ذلك أن ((الخلاص لا يأتي في ثياب (الغجرية) تضفي جلبابها الواسع ليستر اللقيط الذي ليس له أب ينتسب إليه والذي تحار هذه التائهة وسط الزحام العنيف تبحث عن مفحص قطاة لتحط فيه طفلها الغريب على هذه الحياة ..)) [٤] ، ولا يكون ـ كذلك ـ بلوم الآخرين وإسقاط واقعنا عليهم [٥] .

و ـ إذن ـ فإن اتخاذ القرار الحاسم بالغ الشجاعة بمواجهة الذات مواجهة متجردة ، ومجابهتها بالحقيقة تشكل دعامة أخرى أكثر تقدمًا لا بد من إنجازها إنجازًا متقنًا ؛ لكي تخطو الأمة من خلالها خطوة جادة باتجاه مجابهة الواقع .

---

(١) انظر الرسائل : ٢٤٢/١ .

(٢) الرسائل ٢٤٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٣/٢ وانظر ١١٨/١ ، ٢٧٥ ، ٣٨١ .

(٤) المصدر نفسه : ٩٣/١ .

(٥) انظر الرسائل : ٣٨١/١ .

٤ـ الوعي المعمق بواقع الذات :

ولكن ، ما هدف هذه المواجهة الجريئة مع الذات ؟

إنها تستهدف الوصول إلى وعي شامل معمق بواقع الأمة في سياقاتها المختلفة ، وواقع الإنسان فيها ، وعلل هذا الواقع وأسبابه ؛ ما كان منها يعود بجذوره إلى الماضي البعيد أو القريب ، وما كان منها من نبت الحاضر ، ما كان منها من هنا ، وما كان منها من هناك ، وتشخيص كل ذلك تشخيصًا موضوعيًّا متجردًا ـ كما هو في حقيقته وفي مختلف تجلياته ـ والاعتراف الشجاع به ، ذلك أنه يتعذر مواصلة المسيرة إلى خط المواجهة المباشر مع الواقع بثقة وقدرة على الحسم المتبصر في ظل الجهل به ، أو ببعضه ، أو المغالطة في تشخيصه ، أو تغييب بعض خطوطه ، ذلك أن شيئًا مثل هذا سيبقى على بعض بذوره التي قد تنمو فجأة لسبب من الأسباب .

يقول في هذا الإطار : ((ليت الوعي يستيقظ فيرى الأحداث الجسام فيمشي إليها ومعه بصيرته وبصره)) [1] ، و ((ليت كل عربي ومسلم يقيس بذراع من الوعي المسافة التي هبط منها إلى أعماق القاع ليدرك أنه غريق بجهالته وفي بعده عن أصالته وعن رسالته !)) [2] .

و ـ إذن ـ فإن معرفة واقع الذات ، والوعي الشامل المعمق به ـ كما هو في حقيقته ـ هو الدعامة الأخرى الأكثر تقدما التي لا بد أن تتكئ عليها الأمة في حركتها الجادّة الطامحة إلى مجابهة واقعها وتجاوزه ، وهي التي ستأخذ الأمة إلى المكان الذي تكون فيه وجهًا لوجه مع واقعها .

ثالثًا : على خط المواجهة مع الواقع :

فإذا ما تم إنجاز هذه الدعائم الأربع ، وتخطيها بثبات ووعي وحسم ، وأصبحت الأمة ـ من خلال هذه الحركة ـ في مواجهة الواقع الشرس في جميع خطوطه وعدده جاء الشيخ بعد ذلك ليقترح بناء مجموعة من الدعامات على خط عرضي واحد تقف عليه الأمة ، وتستند إليه ، وتستمد منه آلياتها الفعّالة في مجابهتها الحاسمة مع ذلك الواقع وعراكها معه لإزاحته من خط سيرها ، والتحرر من سلطاته الجائرة، ويتجسد هذا الخط المتقدم في دعائم الوعي والعمل التالية :

---

(١) الرسائل ١/٢٨٠ وانظر : ٢/٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٧٥ .

١ـ بناء الوعي السياسي :

إن أولى الدعائم التي يتكون منها خط المواجهة المباشرة مع الواقع ، وأكثرها فعالية وتأثيرًا ، وأقدرها على مد فعلها خارج دائرتها الخاصة ؛ إلى ضبط حركة الأمة ، وتفعيلها على دعائم الوعي والعمل الأخرى على خط المواجهة مع الواقع ، تتمثل في إعادة استنبات وعي سياسي متبصر لدى إنسان هذه الأمة ـ أيا كان موقعه من المسئولية ـ يقف عليه بثقة ، ويتسلح به ، ويخوض به ومن خلاله معركته مع الواقع ، ويتعامل به مع ذاته ومع أمته ومع الآخر ، وليرتكز هذا الوعي على الإيمان المطلق بوحدة الأمة أرضًا وإنسانًا وهدفًا ومبدءًا ومصيرًا ، إيمانًا ينتفي معه تشطر الأمة إلى يسار ويمين — على اعتبار ذلك المقوم المحوري في مقومات بناء الكيان المتين للأمة ـ وعلى الإحساس العميق بآلام الأمة وعذاباتها ، وبما جلبه عليها شتاتها من كوارث عاصفة ونكبات حادة في سياقاتها المختلفة [(١)] ، واستعادة الشعور بمكانة الأمة ودورها الإنساني والحضاري والتاريخي [(٢)] ، واستعادة الإحساس المخلص بالأخوة الإسلامية الحقة [(٣)] ؛ فذلك ـ كله ـ هو الوسيلة التي يمكن من خلالها رتق تمزق الأمة ، ولم شتاتها ، وتجاوز التشطر الذي عانته منذ زمن بعيد ؛ ولكنه اليوم أشد عمقًا فيها ، وهي أشد معاناة له .

في ظل هذا الإيمان ومن خلاله فليكن لدى القادة الوعي السياسي البصير الذي يمكنهم من رؤية ما يجري بين عاصمة عربية وأخرى ، وبين إنسان عربي وآخر ، وبين دبلوماسية عربية وأخرى،وآثاره المدمرة [(٤)]،وعيٌ يدفعهم إلى إلغاء كل شعار يبدد ويوزع؛والاستعاضة عنه بالشعار الواحد [(٥)] ، وإلى فتح أبوابهم لكل ناصح مخلص خائف عليهم وعلى أمته [(٦)] ، وإلى فتح الباب أمام الحرية الناضجة للتعبير عن الرأي [(٧)] ، وإلى إقامة العدل والحق في رعيتهم [(٨)] ، والتخلي عن

---

(١) انظر الرسائل : ٢٣٠/١ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ ، ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، ١٦١/٢ـ ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٨/١ ، ٢٨١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٧٩/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٧٧/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٧٧/١ .

(٦) المصدر نفسه : ١٠٦/١ ، ١١٧ـ ١١٨ .

(٧) المصدر نفسه : ٩٤/١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٢ .

(٨) المصدر نفسه : ١٠٥/١ ، ٢٣٢ .

الغضب والعصبية والتسلط لصالح الرفق والتسامح [١] ، وإلى أن يتخلى كل واحد منهم عن ذكائه السياسي الذي يتصور به أنه لا يكون كبيرًا وخالدًا في التاريخ إلا إذا خدع أخاه أو اغتال جاره أو سفه هذا وقدّر أنه الشر وأن ما عنده هو الخير [٢] ، وإلى مجاوزة الاغترار بما منحته إياه الحياة [٣] .

وفي ظل هذا الإيمان ومعه ؛ فليكن الوعي السياسي الذي يحمل الجميع من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد والرزانة ؛ التي تلجم الأهواء والانفعالات المضطربة ، والفوضى ، والتجاوزات الغاضبة بين الحاكم والمحكوم، وبين الأخ وأخيه ، ويعلو بالإنسان المسئول إلى المكان الذي ينسى فيه مصالحه الخاصة ، وهمومه الذاتية في غمرة انشغاله الدائم بمصالح أمته وهمومها [٤] ، ويأخذ العلاقات إلى مكان تصان معه الأرواح والدماء [٥] ، وتزول عنده الأحقاد والبغضاء والثارات الشخصية والغضب والتوتر التي طالما أتعبت الأمّة [٦] ، وإلى أن يطوي الجميع دفاترهم واجتهاداتهم ونظرياتهم ومذاهبهم ويضعونها على الرفّ ، ويستعيضوا عن ذلك - كله - بنصب الهدف الواحد ، والحمل عليه بالإرادة الواحدة ، وإدارة الحوار الكريم بين الجميع من القمة إلى القاعدة [٧] ، وإلى أن يتعاملوا مع الآخر تعاملاً واعيًا بالذات في هويتها وشخصيتها وأدوارها ومصالحها ، وبالآخر في ذاته وأهدافه ووسائله [٨] .

حين يتحقق ذلك يكون قد تم إنجاز جزء مهم من خط المواجهة المتمكنة مع الواقع [٩] ، وامتلاك سلاح قوي يمكّن الأمة من حسم العراك مع الواقع لصالحها لا على الصعيد السياسي فحسب ؛ بل على كافة أصعدة الوعي والعمل الأخرى ، إذا آمن الجميع وعمل على

---

(١) انظر الرسائل : : ٢/٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٢٣٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣١٨ .

(٥) المصدر نفسه : ١/١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٨٠ .

(٦) المصدر نفسه : ١/٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٧) المصدر نفسه : ١/٢٣٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٨) المصدر نفسه : ١/١٠٥ - ١٠٦ ، ١٨٠ ، ٢/٢٥ .

(٩) المصدر نفسه : ١/٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢/٣٧٨ .

أنه : ((جزء من أمة ذات رسالة لـن تتحقـق لهـا مكانتهـا في هـذا العـالم إلا حـين تلتقـي مـع ماضيها وحاضرها ومستقبلها علـى إخـاء ومحبـة ودعـوة إلى أن يكـون السـير إلى الهـدف الكريـم بوسائل كريمة ، دون هذا سنتسكع في بلاد الغرب أو الشرق حاملين رزمًـا مـن البشـاعة الـتي لا تحتمل .))، [١] نعم .

٢ـ بناء الوعي الديني :

وإذا كان الفقر الروحي الذي تحولت معه طائفة من أبناء هـذه الأمـة إلى كائنـات متفلتـة عن القيم والمبادئ الإنسانية ، وإذا كان الجهل الديـني الـذي تحـول معـه الديـن الواحـد إلى بـؤرة خلاف وتمزق وعنف متبادل ؛ قد جلبا على الأمة أكـثر الآلام وأشدهـا حـدة ؛ فـإن استعـادة الوعـي بالدين ، وإدراكه كما هو، ومن ثم الصدور عنه بما صدر به إنسـان هـذه الأمـة في صـدر تاريخها الرّاشد هو جزء آخر من الخطّ الأمامي المتقدم الذي تقف عليـه الأمـة في مواجهـة الواقـع مواجهة جادة مؤمنة بالنصر ، وإذن ؛ فلا بد من إعادة بناء الوعـي الديـني المؤسـس علـى حقـائق الرسالة وتشريعاتهـا ، وعلى ما فيها من سماحة ومرونة وسـعة وإنسـانية ورفـق ـ كمـا كـانت في منابتها الأولى ـ بما يعيد للإنسان اتساقه مع ذاته ومع أخيه ومع الحيـاة ومـع مسـئولياته الكونيـة ، وبما يعيد له أمنه الروحي والفكري والنفسـي والمادي ، وبما يعيد له إنسانيته ، ويأخذه بعيـدًا عـن القلق والقنوط والتشدد والانحلال والإلحاد [٢] .

وبهذا يكون الوعي بالدين وإدراكه وممارسته وبنائه في النفوس بما بنتـه الأمـة في صدرهـا جزءًا من الخطّ الحصين الذي تستند إليه الأمة في مواجهتها للواقع من ناحيـة ، وسـلاحًا فعـالاً في مواجهة هذا الواقع من ناحية ثانية ، ومغذيًّا محوريًّا لحركة الأمة وضابطًا لها على ذلـك الخـطّ مـن ناحية ثالثة .

٣ـ بناء الوعي التربوي :

وإذا كان ضمور الحس التربوي لدى المعنيين به في البيت وخارج البيت قـد جلـب علـى كثير من شباب هذه الأمة ـ ولا سيما في هذا العصر ـ الضيـاع ، واختلاف السـبل ، والانحـراف عن القيم الروحية والأخلاقية والوجدانية مما أدى في النهاية إلى تغذية الواقـع وتكريسـه ؛ فإنـه لا

---

(١) الرسائل : ١/١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) انظر الرسائل : ١/٦٩ ، ٢٨٩ ـ ٢٩٢ ، ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ، ٣٧٩ ـ ٣٨٠ ، ٢/٣٩٢ ، ٤٠٣ .

مناص من بناء وعي تربـوي مسئول يستند إلى إرادة قوية كريمة من الآباء والأمهات ، وممن يملكون أقدار هـذه الأمـة ، يسعى إلى ممارسة توعية وتربية وجدانية [(١)] تقوم على الالتصاق القوي بأبنائهم وبناتهم [(٢)] ، وعلى الحوار الحاني البناء والتسامح والتواضع والصداقة الحقـة [(٣)] ، وعلى الوعي الكامل بطبيعة العصر التي يتعذر معها الانغـلاق على الـذات [(٤)] ، وعلى الوعـي الشـامل بمخـاطره المحدقـة بشـباب الأمـة وشاباتهـا [(٥)] ، وبواقــع الأمــة الـذي أصبحـت فيـه مهـددة في وجودها [(٦)] ، ويسعى إلى غرس العقيدة بأسـرارها ، وبإكرامهـا للإنسـان ، وباسـتجلائها حقـائق هـذا الكـون وتشـريعاته ، وبعدالتها ورفقهـا وسماحتهـا ، وبأسلوبهـا في بنـاء المعرفـة في أعمـاق الأجيال [(٧)] ، وإلى تنظيف الملابـس الداخليـة مـن الأدران ، وحـرث التربـة وتنقيتهـا مـن أشـواك الطريق التي قد تنمو حتى تصير أشجارًا ضخمة وغابات تلـوذ بهـا الوحـوش [(٨)] ، ((دون ذلـك سيطول شقاؤنا ، وإن طالت لحانا نبقى أطفـالاً في أحضـان الضـرات الجـاهلات بحكمـة التشـريع وعدلـه ..)) [(٩)] علـى اعتبـار التربيـة المسئولـة ؛ هـي البدايـة الحقيقيـة لكـل عمليـة إصــلاح وتصحيح .

٤ـبناء الوعي الاجتماعي :

وإذا كانت الأبنية الاجتماعية العربية والإسلامية قد لحق بها الكثير من الأضـرار نتيجـة تراكم التقاليد المصطنعــة [(١٠)] ، والانميـاع فــي خضم المدنيــة المعاصــرة ـ بما فيها من سلبيات

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣١/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٦/١ ـ ٤٧ ، ٥١ ـ ٥٢ ، ٣١٩ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٦/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٦٨/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٨١/١ ـ ٢٨٢ .

(٧) المصدر نفسه : ١٠٥/١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، ٢١٩/٢ ـ ٢٢٠ .

(٨) المصدر نفسه : ٣١٩/١ .

(٩) الرسائل : ٣١٩/١ .

(١٠) انظر الرسائل : ١٥٩/٢ ـ ١٦١ .

اجتماعية [١] - ؛ فإن إعادة بنـاء الوعـي الاجتمـاعي بمـا بُـني عليـه مجتمـع الأوائـل ، مـن مكـارم الأخلاق والشمائل العربية ، والفضائل الأصيلة الراوية بمياه الرسالة ، وبما يحقق المساواة الحقة والإيثار [٢] وبما يعيد لكل فرد من أفراد الأسرة الصغيرة والكبيرة توازنه ودوره وأصالته الاجتماعية ليكون جنديًا يقظًا على ثغره [٣] ، هو ما لا بد من إنجازه في خط المواجهة مع الواقع لامتلاك سلاح آخر في هذه المواجهة .

٥- بناء الوعي الاقتصادي :

وإذا كانت عجلة اقتصاديات الأمـة وثرواتها قـد اتخذت مسارات مجتلبة مـن الخـارج شطرت الأمة بين مجموعة من الأكياس الموبوءة التي تجمعت في داخلها حصيلة مـن الـثراء المرتجل القائم - في جله - على السرقات والغش والربا والاستغلال ، ومجموعة أخرى - فيها سعة المجتمع - تضع إحدى يديها على بطنها الجائع وتتلمس بـالأخرى خيـط النجـاة في الصبر والاحتمـال [٤] ، وإذا كانت الأرض قد دفعت بما في أعماقها طوفانًا من الثروة المغرقة [٥] مما جعل عنصر الاقتصـاد مصدر شقاء واستلاب [٦] ؛ فإنه لا مخرج للأمة من هذا الواقع الاقتصـادي ((إلا إذا صنعنـا نحن بأنفسنا من ذواتنا ، من وعينا سفن نجاة ، ألواحها من صلابة أخلاقنا وسلوكنا.)) [٧] ، وبتكوين منهـج اقتصـادي عربي إسلامي واع ((يتحـدد فيـه مذهـب اقتصـادي يكسـو العـاري ويطعـم الجائع ويعلم الجاهل ويقف سدًا منيعًا أمام الذئاب المفترسة فيضع يده على رقابها شادًا عليها فـي محاسبة خانقة قائلاً للمرتشين والفاسدين " من أين لك هذا " [٨] ؟ مذكرًا إياهم : " ما مِنْ أهـــلِ

---

(١) المصدر نفسه : ١/٢٦٤ - ٢٦٦ ، ٣٨٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٧٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٦٦ - ٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه : ٢/٢٨٠ - ٢٨١ ، ٣٢٠ .

(٥) المصدر نفسه : ١/٢٠٢ ، ٢/٢٩ .

(٦) المصدر نفسه : ١/٣٤٦ .

(٧) الرسائل ٢/٢٩ .

(٨) هذه العبارة وردت في الطبري ، (٢/٤٩١) ، لعمر بن الخطّاب يسأل خالد بن الوليد بعد عزله عن مصدر ثرائه .

عَرْصَةٍ بات بينَهُمْ جائعٌ إلاّ بَرِئَتْ مِنْهُم الذِّمَّةُ "[١] .

هذه وغيرها قيمة كريمة في ديننا الحنيف لو أننا تمسكنا بها وحافظنا عليها وتركنا أمر تطبيقها وتنفيذها لمن تتوفر فيهم القدرة التامة على وعي الشريعة الإسلامية ونهجها القويم ، لكانت لنا وللعالم خير نبراس ينير الطريق المدلهمّ الذي تسير فيه حضارة العصر معصوبة العينين .))[٢] .

إن بناء هذا الوعي - الذي تتضاءل به أنانية الأغنياء ، وانشغالهم التامّ بذواتهم إلى حدودها المعقولة ، ويتضاءل به اهتمام الفقراء التام بالبحث عن لقمة عيشهم ، بالإضافة إلى كونه في ذاته إنجازًا لجزء مهم في خط المواجهة مع الواقع ، وسلاحًا فعّالاً تقارع به الأمة واقعها ، في الإطار الاقتصادي منه ؛ فإن من شأنه أن يصرف فواضل الاهتمامات - وهي حتمًا ستكون ضخمة - إلى تدعيم حركة الأمة ومضاعفة جهدها المبذول في الأطر الأخرى .

٦- بناء الوعي الحضاري :

وإذا كان واقع الأمة في مواجهة الزحف الحضاري ومصدّريه على النحو الذي أشير إليه في مبحث سابق[٣] ؛ فإن الخلاص من ربقة هذا الموقف الحرج لا يتم إلا من خلال استنبات وبناء وعي حضاري يتكئ على العناصر التالية :

أ - استلهام هوية الأمة وشخصيتها المميزة النابعة من رسالتها الإنسانية وأصالتها العربية ، والاعتداد الكامل، بها في كل تعامل، أو حوار مع هذه الحضارة وتلك المدنية ومصدّريها[٤] .

ب - الإدراك الكامل لواقع الأمة في سياقاتها المختلفة ، وواقع الآخر وأهدافه ووسائله[٥] .

جـ - الوعي الكامل بالحضارة وبالمدنية المعاصرة ؛ في مضامينها الفلسفية والتصورية والفكرية

---

(١) أخرجه الألباني بمعناه في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٤٩ .

(٢) الرسائل ٢/٢٨١ - ٢٨٢ .

(٣) راجع : الأمة في مواجهة الزحف الحضاري من هذا الفصل .

(٤) انظر الرسائل : ١/٢٢٩ ، ١٥٥ - ١٥٦ ، ٣٨٧ .

(٥) المصدر نفسه : ١/١٠٦ ، ١٨٠ ، ٢/١٧٩ - ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ٣١٨ - ٣١٩ .

والعلمية والمادية [١] ، والسمو بالذات إلى درجة احتمال ضغوطها [٢] .

د - الوعي الكامل بطبيعة العصر؛ التي لا مجال معهـا إلى الانكفـاء داخـل الـذات ، أو تجـاهل ما يحدث [٣] .

هـ - التعامل معها بحذر ويقظة ومرونة مسئولة وتحكّم تام، وقدرة على التمحيص والانتخـاب، واستقطاب الإيجـابي مـن مضامينهـا العلميـة والماديـة المفيـدة ، وإقصـاء مـا يتعـارض مـع مقومات الشخصية العربية الإسلامية الإنسانية المميزة، والهوية الخاصة للأمة وخاصة مـن مضامينها المعنوية ، بما يعيد للأمة اعتبارها العالمي ، وبمـا يجعلهـا شـريكًا حقيقيًّـا في صنـع الأحداث ، لا مجرد كائن يلهث في ذيل القافلة [٤] .

بهذا تستطيع أن تنجز جزءًا آخر من الخـط الـذي تقـف عليـه في مواجهـة واقعهـا ، وأن تمتلك السلاح الحضاري الفعّال الذي يعينها في سعيها إلى إزاحة هذا الواقع .

٧ـ بناء الوعي الفكري :

وإذا كان تشبع مساحة لا يستهان بها من رقعة فكر الأمة بغثات تصورات ورؤى أثقلتها أتربة الطريق الزمني الطويل من ناحية، وإذا كان وقوع الأمة في مهب العواصـف الفكريـة العاتيـة القادمة من خارج الحدود من ناحية أخرى ، قد ساهم - بفعالية - في صنع الواقع وتكريسه ، فـإن الخلاص من ذلك لا يكون إلا ؛ ببناء وعي فكري نشط قادر على تحرير الأمة من الآفـات الذاتيـة الدفينة في أعماقها وفي مواريثها التي جعلتها لا تبارح في ممارساتها الفكرية آفـاق قصـص العجـائز والقصاصين ، والزير سالم ، وإملاءات المدافن من الناحية الأولى [٥] ، وعلـى التعـامل مـع الوافـد تعاملاً حـذرًا ، كامل اليقظة ، مسـتقلاً ، قـادرًا علـى سـبر أغـواره ، وفحصـه ، وإدراك كنهـه ، ورفض سلبه ، والإفادة من إيجابه ، متكئًا - في ذلك كله - على المرتكزات التصوريـة والأخلاقيـة

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٤٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٦/١ ، ١٨٠ ، ٢٦٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٧/١ ، ٦٩ ، ١٥٥ - ١٥٦ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٣٤٦ ، ٢٥/٢ ، ٢١٨ - ٢١٩ ، ٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٥) المصدر نفسه : ١٣٩/١ ، ٤١١ - ٤١٢ .

للأمـة من الناحية الثانية [١] .

٨- استعادة الطموح المعرفي :

وإذا كـان واقـع الأمـة فـي الميدان المعرفي العلمي - خاصة - على النحو الذي كُشف عنه آنفًا [٢] ؛ وإذا كان الخمول في طلب المعرفة قد أورثها ذلك الواقع ؛ فإن تجاوزه لا يتـأتى إلا مـن خلال ؛ استعادة الروح العلمية الوثابة ، والطموح المعهـود ، والـنزول إلى ميـدان الفعـل العلمـي العالمي للمشاركة في صناعتـه وتوجيهه .

وإذا كانت الأمة - اليوم - في وضع لا يمكنها من الإبداع فلا ضير من التقليد ؛ إذ للعلـم هوية إنسانية شاملة ؛ تتجاوز به نطاق الإقليمية ليكون ملكًا للجميع ، ولا عيب مـن الإفـادة مما وصل إليه ويصل الآخرون ، فلقد كانوا يومًا تلاميذ لعلمـاء هـذه الأمـة ، ولم يعبهـم ذلـك ؛ بـل ذهب بهم إلى حيث هم اليـوم ، والمهـم للأمـة ــ هنـا ــ أن تتكـئ حركتهـا في هـذا الميـدان علـى رسالتهـا الإنسانيـة وأصالتها العربية ، وحينئذ ستعود الحياة إلى أوراق الشجرة الذابلة [٣] إن شاء الله .

٩- إيصال الرسالة :

وأخيرًا ، فإذا كان هذا هو واقع الأمة في سياقها الداخلي ، وإذا كـان الآخـر قـد سـعى ويسعى إلى فرض هذا الواقع على الأمة في كثير من خطوطه الكبرى ، وإذا كانت الأمة تعيش مع العالم عمومًا أزمة الواقع الخطر ، فإن من أقصـر السـبل وأنجـع الوسـائل في مواجهـة هـذا الآخـر، وانتشال ذاتها والإنسانية كلها من واقعها الحرج ، أن تعيد الأمة بنـاء ذاتهـا في سـياقها الداخلـي على الأسس المشار إليها آنفًا بناءً متينًا محكمًا ، لتتحرك بعد ذلك إلى مكان تسـتطيع منـه ممارسـة دورهـا العالمي ممارسـة كاملـة مـن خـلال خطـاب سـلوكي وفكـري مؤصـل وموثـق في صميـم الشخصية الإنسانية العربية الإسلامية بالممارسة الحية الملموسة ، قادر على إيصال صوت الرسالـة الإنسانية كاملاً واضحًا مؤثرًا في شكله ومحتواه ، ويقدم لأجيال الأمة وللإنسانية كلها ((الديـن

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٠٦ - ١٠٧ ، ٢٣١ .

(٢) راجع : الأمة في ميدان الفعل العالمي من هذا الفصل .

(٣) انظر الرسائل : ١/٥٠ ، ٥٣ ، ٩٤ ، ٢٣٤ ــ ٢٣٥ ، ٣١٨ ، ٢/٢٧ ، ٢١١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ .

في منابته وفي ملابسه وفي نصاعة وجهه)) [(١)] ، ويقدم لهما ((فضائل هذه الرسالة التي لا جناح ذهب بعيدًا ولا عدالة على الأرض ، إن كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية إلا والرسالة الإنسانية والهداية مصدرها.)) [(٢)] ، على اعتبار ((هذه العقيدة وهذه الرسالة العظيمة ليست لقبيلة ولا للعرب بل هي لكل البشر ..!)) [(٣)] ، وعلى اعتبارها ((الشمس المشرقة التي تطارد الظلام على وجه هذه الأرض)) [(٤)] ، وعلى اعتبار أنه ((لو عرفها أرباب النظريات المعاصرة وقرأوا معانيها السامية في سيرة الرسول العظيم والخلفاء الراشدين قولاً وعملاً وسلوكًا لما فارقوها ولما خرجوا عليها)) [(٥)] ، وفي هذا الإطار ف ((لو أن كتيبًا انبثق من عدالة هذه الرسالة ومن أخذها الإنسان إلى أعلى مراتب المعرفة والإكرام صار في متناول يد كل شاب على هذه الأرض مسلمًا أو غير مسلم ، لتبدلت الصورة وقرّ للإنسان داخل نفسه وخارجها دوره على هذه الأرض ..!)) [(٦)] .

ولكن إيصال صوت الرسالة من خلال هذا الخطاب إلى هؤلاء المتلقين لن يؤتي ثماره إلا إذا سبقه وصول صوتها الكامل عبر هذا الخطاب نفسه إلى الأمة ذاتها ـ في حاضرها ـ لكي تكون قادرة على نقل هذا الصوت الخيّر إلى أجيالها القادمة وإلى سواها ببلاغة مؤثرة ولذلك ، يقول الشيخ :

((في تصوري أن اختيار نخبة من عالم العرب والمسلمين يزكيها إخلاصها وتقاها وسعة أثوابها العلمية التي لا تضيق بكل سؤال وإن كان بدينًا وثقيلاً حمله ، فتقدم لهذه الأمة الصورة الكريمة عن فضائل هذه الرسالة التي لا جناح ذهب بعيدًا ولا عدالة على هذه الأرض إن كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية إلا والرسالة الإنسانية والهداية مصدرها .)) [(٧)] .

و ـ إذن ـ فلا مناص للأمة ، إن هي أرادت أن تتجاوز واقعها المتأزم الذي يفرضه

---

(١) الرسائل : ٢٩٠/١ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٢٠/٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٢٢٠/٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٢٨/١ .
(٥) المصدر نفسه : ٢٦/٢ .
(٦) المصدر نفسه : ٢٢١/٢ .
(٧) المصدر نفسه : ٢٢٠/٢ .

الآخر ويغذيه ويسعى إلى تكريسه ، متخذًا بذلك موقف العدو المتربص ، وإن هي أرادت أن تكون رسول خير عالمي يرقى إلى مستوى التكليف السماوي ؛ من أن تصعد في سلم المسئولية والعمل إلى المكان الذي تستطيع من خلاله ممارسة هذا الدور الإنساني المهم ، وتحويل الآخر من عدو شرس متربص بهذه الرسالة وبأهلها إلى حامل للوائها ، مدافع عنها ناشر لها ، متحرك تحت سمائها وعلى أرضها .

عندها فقط نستطيع أن نكون في موقف العطاء ف ((نعطي مما في هذه الرسالة من عطاء كريم لكل البشرية ونعطيهم من مكارم الأخلاق ، ونعطيهم عدالة الإنسانية ، ونعطيهم الروح ونعطيهم الحبل المتين الذي يشدهم بالسماء ، نعطيهم التسامح ، نعطيهم الحياة لا الموت ، لا الدمار ، لا الضياع ، لا ، التفسخ ، فهم اليوم يصدرون لنا الموت والدمار لا لأنهم أشرار فطروا على الشر ، ولكنهم في غياب عن الروح وعن القيم ... طوحت بهم اكتشافاتهم ومادياتهم وغرور الإنسان في متاهات الغلظة وجفاف القلب ..))[(١)] ، و ((إذًا لنجتهد ولنحكم هبة الله فينا مصدر المحاسبة ، فرسالتنا الإنسانية أعدل رسالة وأوسعها خطى في اتجاه الإصلاح.))[(٢)] ، فإذا تحقق ذلك كله ف((عندئذ نقول لكل طفل قتلت أمه وقتل أبوه وشرد في الصحراء : هذا هو بيتك وبيت آبائك وأجدادك، عد إليه، هذه مزرعتك ، هذه مقدساتك، هذه كرامتك.))[(٣)] .

تلك ((أمنيات أجذبها من أعماق نفسي ، ومن أعماق السنين ، وما كل الأمنيات بآتية من ذهن ثري فيسد الجائعات والظامئات من الأماني وهو ما أتصور أنه صدر مني عن ذهن ليس بثري ولا غني ، ولكن ما دام هذيانًا يحمل الإخلاص والحب ، لم أقل له قف وتراجع لأنك هذيان .. وقد لا تجد من يجالسك لحظة واحدة (ليسمعه) حتى وإن كان ولدي.))[(٤)] .

لكن ، يوم لا نصل إلى اليوم الذي فيه ((نقول هذا ، ويوم نبقى كأوراق الخريف ، يوم نبقى يسارًا ويمينًا ، يوم نحمل غضبنا ونعض بأحقادنا وكرهنا الجسد الواحد فمن حق عدونا أن يبشر قومه بالسلامة وعلى لسان شاعرنا القديم :

---

(١) المصدر نفسه : ١/١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢٨٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٢٣٢ .

(٤) المصدر نفسه :١/٢٨٣ وانظر ٢/٢١٢ - ٢١٣ .

"زَعَمَ الفرَزْدَقُ أنْ سَيقتُل مَرْبعًا   أبشِر بطول سَلامةٍ يا مَرْبَعُ " [١])) [٢] .

و((لنفتح مدرسة تدرس فيها الغجرية فلسفتها لبناتنا حتى إذا تشردن ـ لا قدر ا لله ـ يحسن العزف والنشيد على مزامير الحزن والبكاء والعويل ، لنعلمهن قبل فوات الأوان ، فنحن ـ في تصوريّ وفي ملامح الصورة عندي ، لا يمكن أن نصون كبرياءهنّ لأننا لا نعرف ما هي الكبرياء في أكثريتنا نحن العرب ، فما كان في الحمراء ليس عنا ببعيد ، وما كان في فلسطين بالأمس حصل في لبنان اليوم ، وممكن أن يكون هنا أو هناك غدًا)) [٣] .

ذلك يوم لا نحقق هذه العودة ، ولكنا ((نأمل أن تلحق بنا رحمة ا لله فتعيد إلينا صورتنا الكريمة وتريق علينا في شبابنا الغض من مائها الطاهر.)) [٤] ، ومن هنا كان اتجاه الشيخ برسالته إلى ذلك الشباب .

تلك ـ إذن ـ ملامح اللوحة في دائرة الواقع التاريخي ؛ في كافة قطاعاتها الوطنية ، والعربية والإسلامية ، والعالمية ، وفي كافة حقول كل قطاع ، وذلك هو واقع الإنسان وحركته في تلك القطاعات ـ كما وعاها الشيخ ؛ من خلال خبرته العميقة وتجربته الطويلة ، وكما خطت ملامحها يراعته ـ وذلك هو تعليله وتقويمه لذلك الواقع ، ومن ثم محاولته تطبيبه ، ليعطي الشيخ من خلال ذلك كله صورة واضحة للهم الكبير الذي يحمله تجاه وطنه وأمته والإنسانية كلها ، وهكذا قرأ الدارس مضامين الشيخ في هذه الدائرة .

*   *   *

*   *

---

(١) جرير ، الديوان : ٩١٦/٢ .

(٢) الرسائل : ٢٣٢/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٤٦/١ - ٢٤٧ .

(٤) المصدر نفسه : ١٠٨/١ .

الفصل الرابع

الخطاب في دائرة الكون

القطاع الأول : في العناصر الكونية الكـــــبرى

القطاع الثاني : الإنسان في سياقه الكوني العام

القطاع الثالث : الإنسان في مرجل المعانـــــاة

القطاع الرابع : في علاج الواقع الإنسانـــــي

توطئـــة

تم في الفصول الثلاثة السابقة رصـد أنشـطة خطـاب الشـيخ وجهـوده القرائيـة في دوائـر الإبداع ، والذات ، والواقع التاريخي .

أما في هذا الفصل فستكرس هذه الدراسة جهودها في سبيل رصد وتنظيم وعرض أنشطة ذلك الخطاب في الدائرة الكونية المطلقة ابتـداءً بـالأزل ، ومـرورًا بالإنسـان ، والحيـاة ، والكـون المحسوس ، والمـوت ، وانتهـاءً بـالأبد ؛ وقـد انبرى في عمليـات رصـد وعـرض وتحليـل وتفسـير ومحاكمة وعلاج بالغة الكثافة ، تستند إلى طاقات العقـل مـرّة ، وإلى طاقـات الخيـال ثانيـة ، وإلى طاقات الوجدان ثالثة ، وإلى مزيج من تلك الطاقات رابعة ، في مقاربات إبداعية ذات نظرة تأملية بالغة العمق ، وقراءة تغلـب عليهـا النزعـة الفلسـفية الشـاعرة ، وصـوت تسـتأثر نـبرة التسـاؤل بالنصيب الأوفر من مساحاته .

وعند فحص الخطاب المكرّس للعمل في هذه الدائرة فحصًا تصنيفيًـا تجلـى للـدارس وقـد انتظم في القطاعات الكبرى التالية :

القطاع الأول : في العناصر الكونية الكبرى :

إذ جاء الخطاب في مواضع كثيرة ليستوعب قراءات الشيخ في العناصر الكونيـة الكـبرى زمانًا ومكانًا وكائنًا ؛ كما هي في وعيه ، سـواء كـانت في تجربتـه الحيـة وفي خبرتـه المحققـة تحققًـا حسيًّا ، أو كانت في رؤاه وفي تصوراته المحققة تحققًا ثقافيًـا أو فكريًّـا ، أو كـانت في خيالـه محققـة تحققًا فلسفيًّا ، أو في وجدانه محققة تحققًا عاطفيًّا أو مجمل ذلك .

وعند فحص الخطاب الذي وظفه الشـيخ للعمـل في هـذا القطـاع لتحديـد الحقـول الـتي أعمل الخطاب فيها ؛ وللتعرف على طبيعة الأعمال التي كُلّف بممارستها هناك بدا للـدارس وقـد تـوزع في حقـول داخليـة متجـاورة ، وانشـغل كليًّـا أو جزئيًّـا في كـل حقـل مـن هـذه الحقـول باستيعاب قراءات الشيخ في عنصر كوني ما ، ابتداءً بالأزل ، وانتهاءً بـالأبد علـى نحـو يمكـن أن يكشف عنه في النظام التالي :

الحقل الأول : الإنسان في سياقه الكوني الخاصّ :

ينصرف الخطاب في هذا الحقل في مساحات واسعة منه إلى استيعاب عمليات الشيخ الإبداعية وحفرياته الدراسية التي اتخذت من الإنسان وحركته ومكابداته في سياقه الكوني الخاص في خطيه الاختياري والإجباري ، وفي علاقاته بهذا السياق موضوعًا لها ، في أنشطة رصد وعرض وتحليل وتفسير ومحاكمة وتقرير بالغة العمق ، شديدة النفاذ ، قوية المعالجة تستند إلى رصيد ثري من الخبرة الواعية بهذا الكائن ، ومن التجربة الحية المخصبة بقدرة فائقة على الملاحظة في أعماق وجدانية وفكرية تتسم بالصفاء الفطري وقدرة غير عادية على الربط والتأويل ، في استقطابات تتراوح ما بين الإشارة العارضة ، والمقاربة الخارجية الهادئة ، وبين المجادلة الاستبطانية الجادة .

وحين عمد الشيخ إلى إخضاع الإنسان في هذا السياق لهذه الدراسة الإبداعية المعمقة؛ فلقد حرص أشد الحرص على تحقيق أكبر قدر من الموضوعية الإبداعية لدراسته ، الأمر الذي دفعه إلى أن يجعل من ذاته هو وما يسكن هذه الذات من مواطن متجذر في تربتها ، أو وافد موثق من مصادره خارج الذات وداخلها المسرح الأساس لهذا النشاط الدراسي الإبداعي ، يؤكد ذلك كله قوله وهو يمارس إحدى عملياته في أعماق النفس الإنسانية :

((فأكثر الأحاسيس والمشاعر والنزعات القلقة عصاة ومذنبون لاذوا بظلام النفس وكهوفها من المحاسبة ، والمشكلة ليست ذاتية بحتة عند الإنسان ، وعندما أقول الإنسان آخذ التجربة مني وأردها إليّ ، ولا أدري من يشاركني في هذا الشعور ممن يخالفني ، فلست محللاً نفسيًّا أضع تجربتي وملاحظتي ممن يزورون عيادتي ، فأنا رجل لا مدرسة له ولا طبيب ولا كتاب ولا عيادة غير الفطرة والملاحظة في قلب هذه الصحراء الواسعة ، مضافًا إلى ذلك أنني جدار لي ستون عامًا مع الناس ومع الحياة ، في كل دقيقة وفي كل ثانية أشعر أن أخًا أو جارًا أو أمًّا أو أبًا أو صديقًا أو مشاغبًا يلصق بحائطي الذاتي أوراقه التي يخط فيها أفعاله وسلوكه وأخلاقه ونزعاته .))[1] .

وإذا كان الشيخ قد قرر المضي قدمًا في ممارسته عمليات الكشف والتحليل في أعماق هذا الكائن الغامض فلقد كان على وعي تام بوعورة مسالك هذه الأعماق ، وتداخل خطوطها

---

(١) الرسائل : ٢/٣١٤ - ٣١٥ وانظر : ٢/٩٧ .

واشتباك خيوطها وتأبيها على القراءة والتحليل ، يقول :

((وليس أعقد على القلم من تحليل النفس البشرية ، ممكن للإنسان أن يحلل مادة هذا الكون التي لا نفس فيها ولا روح ، ولعله قد اتجه إليها اتجاهًا مليئًا بالثقة ، وهو ما نشهده في هذا العالم المعاصر .)) [١] .

كما كان على وعي تام - أيضًا - بالبؤرة التي تستقطب اهتمامه من تلك الأعمال ، تلك البؤرة التي ستكون موضعًا لعملياته ، وبأهداف هذه العمليات ، يقول :

((ومنعطفات النفس وظلالها ميراث لم يجد من يلقي به خارج النفس ويطهّر جوانحه من رائحته التي كثيرًا ما أفسدت روائح الخرامى وروائح أشجار الصحراء وعتمت على جمالها في واد مربع أو روض حقنته السحب وأكرمته الرحمة به وجددت شبابه الذي ظن العدميون أن كل شيء مات فيه لا تعود إليه الحياة ....)) [٢] .

فالمنعطفات القصية في أعماق النفس البشرية وغاباتها وظلالها على الرغم من تأبيها على الاختراق ستكون مسرحًا لعمليات الشيخ الإبداعية ومعالجاته العميقة ، وسيكون كل جزء من الميراث المتراكم المتحصن في تلك الأعماق في متناول مشرط الشيخ ، وسيكون عرضة لانتزاعه من مكانه الذي طال ثواؤه فيه والإلقاء به خارجًا في عمليات طموحة تستهدف إنقاذ تلك الربوع الشفافة من أثقال ذلك الميراث القاتم الذي لم يكن إلا مصدرًا لبناء قيم الشر والقبح ، وهدم قيم الخير والجمال في أعماق النفس الإنسانية .

مرمى بعيد يسدد إليه هذا الشيخ النجدي غايته ، وطموح جامح يحفزه ، وهدف نبيل لا تتكسر موجاته المتلاحقة على صخور الذات ، فقد اختفت هذه الصخور في محيط الإنسانية ، وتداخلت الحدود في نفس الشيخ .

وعند فحص الخطاب الموظف في هذا الحقل لتحديد الجوانب التي يلقي الأضواء عليها من هذا العنصر فإنه يبدو وقد انتظم في جملة من المساحات ، انشغل فيها جميعًا بقراءة الإنسان ورصد حركته في سياقه الكوني الخاص وتأرجحه في هذه الحركة بين المثال والواقع في خطيه الإجباري والاختياري ، وعرض ما يصاحب هذه الحركة الكونية وما يتولد عنها من حركة وجدانية

---

(١) المصدر نفسه : ١٦٢/١ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٣/١ .

وروحية وفكرية ومن انعكاسات سلوكية .

يجري ذلك كله في خطاب تغلب عليه النزعة الإصلاحية المسئولة ، وفي قراءات معمقة تستهدف النفاذ إلى الحقيقة ، ومن ثم تجسيدها كما هي ، وتعريتها في خطوطها الأكثر بروزًا وتأثيرًا في حياة الإنسان ، تمهيدًا لعلاجها في مرحلة تالية ؛ فجاءت جهود الخطاب مكرسة لدراسة موضوعها في الجوانب التالية :

الجانب الأول : في صورة الإنسان :

في هذا الجانب يتجه الخطاب إلى عرض صورة الإنسان في إطارها الطبيعي الفطري ، في الوقت الذي يندفع فيه إلى أعماق هذه الصورة لرصد ما يسكنها ، والكشف عن حركته وتفاعلاته في تلك المنعطفات والشعاب الخفية ، ورسم معالم صورة الإنسان في خضم حركة عوالمه الداخلية وتفاعلاتها .

فالإنسان في تكوينه الخلقي الفطري فطرة وطبيعة [١] ، فيها التراب ، وفيها الروح [٢] ، وفيها قدح وعي أوسع من هذا الكون [٣] ، وفيها أبعاد معجزة لا قرار لها ولا تحدها الحدود ولا تلحق بها المقاييس [٤] ، ملأى بالخير وبالشر [٥] ، وبالقيمة وضدها [٦] ، وفيها مخازن سرية تندفن فيها أفعال الإنسان وروائحه وجثته [٧] ، وفيها المشاهد المرعبة [٨] ؛ ولكن فيها الخزامى وأشجار الصحراء وأوديتها ورياضها [٩] ، فيها أعمدة من الجراد الآكل للأخضر واليابس [١٠] ؛ ولكن

(١) انظر الرسائل ٤٠٥/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٣٩٣/١ - ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٧٠/٢ ، ٣٦٩ - ٣٧٠ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٠٤/٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٣٧/٢ ، ٣٨٠ ، ٤٤٠ .
(٥) المصدر نفسه : ٤٠٥/٢ .
(٦) المصدر نفسه : ٣١٤/٢ .
(٧) المصدر نفسه : ٤٠٤/٢ .
(٨) المصدر نفسه : ٩٦/٢ .
(٩) المصدر نفسه : ٢٢٣/١ .
(١٠) المصدر نفسه : ٤٠٥/١ .

فيها الربيع الخالد الذي لا يموت ولا يفنى كما يموت ربيع الصحراء [١] ، فيها غابة كبرى تتحرك في أدغالها الذئاب والضباع التي لا يهدأ جوعها ولا يرتوي عطشها ؛ ولكن حمائم الدوح تهدل على أغصانها [٢] ، فيها سكون الظلام الدامس ؛ ولكن الشموس والأقمار والنجوم والأضواء تتألق في فضاءاتها [٣] ، فيها فرعون وهامان وبنو أمية والساخرون ؛ ولكن فيها أفلاطون وسقراط وعمر بن عبدالعزيز والفضيل بن عياض [٤] ، فيها تزمجر أعاصيرُ وتسكن أخرى [٥] ، فيها ألغاز ورموز تقاتل دون افتضاحها ، وفيها عصاة ومذنبون لاذوا بظلام النفس وكهوفها من المحاسبة [٦] ، وفيها أورام يستعصي على الإنسان الشكوى منها، لأنها أجنة غير شرعية فلا بد من إخفائها وإلا انفضح أمره [٧] ، فيها براكين وصخور وبكاء واحتجاج وصراخ مكتوم [٨] ، وفيها جيش لجب من الهموم والفرح والحب والكره والرغبات وضدها [٩] ، فيها الماضي بما فيه من صخور وأودية ، وكثبان الرمال ، وأشجار الوادي، ومياه من السراب والنجوم البعيدة والشموس والأقمار ، وجمال القبيلة ورعاة الغنم وقطعانها ، وفيها واعظ القرية وشاعرها وعجائزها وجداتها وصغارها وكبارها [١٠] ، إنها صورة يظهر فيها الإنسان من نفسه ومعها، إما : في مدّ وجزر ، ما بين ثقل التراب وبلادته وتسافله وخفة الروح وحركتها وتعاليها ، ما بين الوعي العميق والمحتوى المحدود، ما بين الأبعاد المفتوحة وقصور الأدوات ، ما بين الخير والشر ، ما بين القيمة وضدها ، ما بين المشاهد المرعبة من ناحية ؛ وروائح الخزامى وأشجار الصحراء وأوديتها ورياضها من أخرى ، ما بين جوع الجراد وقواه المدمرة ؛ وما بين امتلاء الربيع ونموه

---

(١) المصدر نفسه : ٢٦٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٩٨/٢ - ٣٩٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٩٩/١ ، ٢٨٠/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٣٧/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٤٠٥/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٣١٤/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٤٠٧/١ - ٤٠٨ .

(٨) المصدر نفسه : ٩٦/٢ - ٩٧ .

(٩) المصدر نفسه : ٤٨/١ ، ٣٧١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٦٩/٢ .

الخالد ، ما بين عواء الذئاب والضباع وجوعها وظمئها وشراستها من ناحية ؛ وهديل الحمائم ووداعتها من ناحية أخرى، ما بين الظلام ورعبه من ناحية ؛ وتألق الأضواء وبهجتها من أخرى ، ما بين عدول فرعون وهامان وبني أمية والساخرين من ناحية ؛ واعتدال أفلاطون وسقراط والفضيل وعدل عمر بن عبدالعزيز ، ما بين زمجرة الأعاصير تارة ؛ وسكونها أخرى ، وما بين آلام الأورام والعلل الداخلية من ناحية ؛ وعدم القدرة على الشكوى منها والإفصاح عنها من ناحية أخرى ، وإما : متعثر الخطى وسط موكب لجب من الهموم والفرح ؛ والحب والكره ؛ والرغبات وضدها ، يثقل كاهله ميراث الماضي وجثته ؛ ويقلق إحساسه سجناء النفس من العصاة والمذنبين ، تحرقه براكين الداخل فيبكي وتجرح أعماقه ترديات الصخور فيصرخ .

صورة حية تفور بالحركة الموجعة [١] وتتشاجر فيها المتناقضات [٢] فتعلو فيها قيمة وتهبط أخرى [٣] ، في معركة متواصلة بين الخير والشر [٤] ، في ((حركة (دائبة) قد تفوق حركة هذا الكون وقلقه ، قد تفوق ضوءه وظلمته ، قد تفوق شموسه وأقماره ، ....)) [٥] .

إنها صورة يبدو فيها الإنسان مثقل الكاهل والسلوك بحمل النقيض واحتمال صراعه الذي لا يهدأ وجثت ضحاياه ، وهو في نطاق سلطتها يعبر هو من خلال سلوكه عنها ، وتعبر هي من خلال خطابه عن ذاتها [٦] ، وهو ماضٍ لا يلوي على شيء إلا أن المكابدة والبؤس يلويان عليه .

تلك هي الصورة الطبيعية الفطرية للإنسان ، وتلك هي مضامين الصورة ومحتوياتها ، وتلك هي صورة الإنسان وهو يندفع في موكبه الداخلي ومعه كما تراءت للشيخ ، وكما عكسها خطابه .

---

(١) المصدر نفسه : ٤٠٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٣٧/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٣١٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٥٤/١ .

(٥) الرسائل : ٣٩٩/١ .

(٦) انظر الرسائل : ٦٩/٢ - ٧٠ .

الجانب الثاني : في حركة الإنسان في زحام الذات :

وفي الجانب المجاور ينصرف الخطاب إلى رصد حركة الإنسان القلقة وسط الزحام المندفع في أعماقه ومعه ، في معزل عن إرادته تارة ومعها أخرى ، متعثر الخطى تارة وواثقها أخرى ، متهادي الكيان تارة ومتماسكه أخرى ، وجهوده المبذولة في التوفيق والموائمة بين هذه المتناقضات المتصارعة في أعماق ذاته من ناحية ، وبينها وبين رؤاه وتصوراته من ناحية ثانية ، وبين ذلك كله وبين رغبته في الظهور الدائم تحت الأضواء في المكان الأميز على الخط الأبيض المحاط بالإجلال، حيث يخيله عليه أناس بعيون ملؤها الرضا والإعجاب والانبهار ، ويرمقه عليه آخرون بعيون يملؤها الحسد والغيرة وربما الخجل ؛ في الوقت الذي يقهره فيه شعوره العميق بخجله من نفسه ، وذله أمام ذاته وأمام من يعرف حقيقة هذه الذات عارية ـ كما هي ـ ، فبينما ينهمك هذا النموذج الإنساني المهموم بهذا الهاجس المركب في عمليات تلفيق الذات وزخرفة صورتها والتمويه على عيوبها في ذلك المكان، يقتحم عليه الشيخ حماه فجأة ليقبض عليه في حالة تلبس كامل ، وليخترق عليه سراديب نفسه عنوة ، وليتوغل في موكبه المحجوب في محاولة جادة جريئة للكشف عن حقيقة ما يدور هناك وتعريته في العيون حين يقول :

((ولدي :

من تظن أن يكون هذا الذي يخجل داخل الذات ويستحي ؟ فيلبس عمامة التقوى ويخرج يعرضها في أسواق العامة ، والحوار داخل نفسه لم يكن حوارًا مشهودًا عليه ومسموعًا فتسقط من على هامته العمامة المستعارة ؟ أهو ضيف حطته الأقدار نزيلاً في بيت لئيم فلم يحسن ضيافته ولم يكرم وفادته ؟ أم أنه تشكل في وجه اللئيم نقبل جبهته صباح مساء ، وقبلي قال عنه أبو الطيب " ما كل دام جبهته عابد " [١] ، أسألك أو لا أسألك الجواب لاتملكه أنت ، قد أملكه أنا لأنه مفضوح لي في سوءاته وعوراته التي يتساوى فيها أكثر البشر .)) [٢] .

ما الجواب الذي يملكه هذا الشيخ الذي عجمت بصيرته حرارة الحياة ، وطول التجربة ، والخبرة المعمقة حتى رآه مفضوحًا في أكثر البشر ؟ .

---

(١) المتنبي ، الديوان : ١٨١/٢ والبيت :

وخلّ زيًّا لمن يحققهُ ... ما كلُّ دام جبينه عابد .

(٢) الرسائل ١/٤٠٦ - ٤٠٧ .

هذا ما يجسده قوله : ((كم من مرة وقفت أرقب سلوك الحيوان ، وكيف يجهر به في علانية دون سريرة ، ثم أعود بهذه الرقابة إلى الإنسان ذاته فماذا أجد ؟ أجد عند أكثر البشرية حيوانية أكثر فحشًا وتدنيًا من الحيوان ((الناهق)) على الطرقات ...!! فالحيوان يمارس في طبيعته قانونه الطبيعي في وضح النهار ، والإنسان تنتشر داخل نفسه أعمدة من الجراد الآكل للأخضر واليابس دون أن يسمح لجناح جرادة واحدة أن يخرج خارج فضاء السريرة ، كل شيء فيها صامت ودفين تغطيه لفائف النفاق والخداع والتشكل في ألوان مختلفة من المهانة المضللة والمعمية على عوراته ورغباته وحيوانيته ...))[1] .

وحين يفضح حركتنا ويلقي بسكان سرائرنا إلى الخارج في مثل قوله :

((... سرائرنا التي نضع عليها اللفائف السميكة ، ونقاتل دونها ، وندفنها في أثقل الأتربة والصخور ، ونحملها معنا إلى القبر ، ولا نعطي منها إلا ما نتصور أنه يثني علينا ويزكّينا ويجلب لنا إعجاب الآخرين ، ....))[2] .

ولم تكن نفس الشيخ بمنأى عن اقتحاماته ، فلقد كانت ذاته ـ دائما ـ النموذج الأول بين النماذج التي أخضعها الشيخ لتحليلاته ـ كما أشار إلى ذلك مرارًا ـ ، لذلك يمكن رؤيته في هذا السياق وقد انطوى على ذاته الخاصة، وانكب عليها يرصد ما يجول في أعماقها ويعريه ، ويلقي به إلى الخارج في عمليات استبطانية لا تفتقر ـ أبدًا ـ إلى شيء من العمق والصدق والجرأة ، وكأنه هنا يمارس مع نفسه ما يمارسه الطبيب النفساني مع مريضه ، رابطًا بين ذلك كله وبين ممارساته الإبداعية[3] .

ها هو ذا يقتحمها ويحاول الكشف عن مخبوءاتها ، من خلال تفسيره لموضوعات إبداعه وفضاءاته التي يأخذ متلقيه إليها ، وغاياته من ذلك كله حين يقول :

((ولدي :

أين الذئب ؟ فالجبل الذي ترددت أصداء عوائه على جنباته هو اليوم حزين تصرخ الثعالب فيه من منازل العقبان وفي غابات الذئاب . ولا أدري كيف ردود الفعل في نفسك لهذا

---

(١) المصدر نفسه : ٤٠٥/١ .

(٢) المصدر نفسه :١٥٣/٢ .

(٣) راجع مسوغات الفعل الإبداعي .

الذي أقصّ فيه أثر أشرس الوحوش والطيور فأخطه لك هنا ، أتراني بهذا أحمل في نفسي غابة من غابات الذئاب والطيور الكاسرة مالت بي حيثما مال بي الهوى إلى ذرى الجناح القوي واليد المفترسة ؟ من يدري ؟ .. فسيرى بك الآن على وجه الصحراء والسنين التي قضيناها معها قد يكون هروبًا بك من صحراء موحشة داخل النفق النفسي ، لو أخذتك نزيلاً فيه فماذا سترى ؟

قد تفقأ عينيك حتى لا ترى شيئًا ، قد تصاب بالرعب في النظرة الأولى فتتعجل فقدان البصر)) [١] .

وحين يقول : ((ويوم تصورت أنني عبَّرت وأعلنت في رسائلي الأولى إلى أبي الطيب ، وفي رسائلي هذه بمثل هذا الهذيان ، أتراني أحمل بندقيتي وأمشي وسط الغابة الكبرى داخل ذاتي أبحث عن فريسة ، ومن عسى أن تكون هذه ؟ أهي حمامة الدوح أم الضبع ؟ ولا أدري أضباع الصحراء وذئابها رموز طفولية له في عوائها وفي جوعها الذي لا يهدأ وظمئها الذي لا يرتوي ؟ ..)) [٢] .

ويوغل أكثر ؛ ويحتدّ في حركته القرائية لذاته ، ويعنف في التعرية ، ويبدع في التصوير وفي إسدال الحجب الشفافة من حوله وهو يجري أخطر العمليات في أعماق مرضاه في مثل قوله :

((قليل ما أعنيه في رسائلي إليك ، وشحيح ما أخطه من سريرتي ، لأني أكابد في هذه السريرة أورامًا يستعصي عليّ أن أشكو منها ، لأنها أجنة غير شرعية ، الأجنة الشرعية لا تتستر عليها الأنثى لأن شرعية الجنين في بيت المأذون قرئت لها الفاتحة ، ومن أثقلها الحمل في بيت السريرة تخشه [٣] تحت أسمال ثوبها وتنحني عليه حتى لا يراه المارة فتفتضح ، وفي أعماق السريرة يسائلها الجنين من أبي ؟ أله غطاء تسترين به عورتك ؟ يسائلها الطفل أو لا يسائلها فالسريرة صامتة .)) [٤] .

---

(١) الرسائل :٢/٩٥ - ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٣) أي تدسه وتخفيه خجلاً وحياءً .

(٤) الرسائل : ١/٤٠٧ - ٤٠٨ ، وانظر ١/٣٩٩ ، ٢/٦٩ - ٧٠ ، ٣١٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

إن اختراقات الشيخ لذاته في هذا السياق بالذات ، وقراءته لها ورصد حركتها الداخلية وتعرية فضاءاتها رصدًا وتعرية قد تصل إلى ما يظن أنه هجاء مقذع للذات ليس في حقيقته إلا ضرباً من الضباب الذي حاول الشيخ - كثيرًا - التخفي وراءه لسبب أو لآخر كما أشار إلى ذلك صراحة [1] ، وإن شئت قلت إنه لا يعدو كونه غلالة سابغة ترق حينًا وتغلظ أحيانًا يتراءى في أعماقها الشيخ النجدي وقد شمّر عن ساعده وأحكم الإمساك بمبضعه واستغرق في إجراء عملياته الخطرة .

وما هذا الضباب ، وما هذه الغلالة إلا إناء مدهش يقدم فيه الوجبة الإبداعية إلى متلقيه المستهدف بالخطاب في الوقت الذي يداري به سواه مرة ، ويشاغله ثانية ، ويخدعه ثالثة ، ويشبعه به رابعه عن العبور إلى الأعماق التي يتوغل فيها إلى مستوى يمكنه من التعرف على شخصية القضية الحقيقية الخاضعة للتحليل ، أو النموذج الإنساني الحقيقي الملقى على سرير المعالجة ، تلك القضية وذلك النموذج اللذان لا يربطهما بقضية السطح أو نموذجه سوى رابطة إحاليّة شديدة الخفاء ؛ كثيرة الروغان ، وهو أسلوب درج عليه الشيخ في مساحات واسعة من صفحة خطابه ، ومع ذلك فإنه يبقى لهذا الضباب وتبقى هذه الغلالة ويبقى لهذا الخطاب في مستواه المباشر قيمته في سياق تحليل الإنسان ورسم معالم صورته .

لكن ؛ هل انتهت معالجات الشيخ عند هذه الحدود من الرصد والقراءة في صورة الإنسان الفطرية ومحتواها ؟ .

الجواب ، لا ، فها هو ذا يختتم جهوده في هذا المستوى بمحاكمة هذه الصورة في الإنسان ؛ وتلك الحركة الخادعة في سلوكه حين يقول :

((لماذا تكون للإنسان ذاكرة ؟ ولماذا تكون له سريرة وعلانية ؟ لماذا يكون مثاليًّا وغير مثاليّ ؟ لماذا يكون في صفوف المصلين ناسكًا وفي أعماقه تضرب عساكر هولاكو وجنكيز خان خيامها استعدادًا للفوضى والتدمير والخراب ؟)) [2] .

استجواب للإنسان لا يتغيا الاحتجاج على طبيعته الخِلْقِيّة، فهذا جانب أمره بيد الله وحده ، ولكنه احتجاج على ما يحمله الإنسان من رعب في ذاكرته ، وعلى ما يواريه من سواد

---

(١) انظر الرسائل ٢/٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) الرسائل ١/٤٠٤ .

في سريرته ، وما يعرضه من بياض في علانيته ، إنه استجواب في احتجاج على السلوك المزدوج الذي تتسم به حركة الإنسان، وصدوره في ذلك عن إملاءات وحوش السريرة في الغالب ، وتخاذله المخزي أمام سلطتها ، وما يحمله ذلك السلوك من نفاق وخداع وتشكل لئيم ودخل .

ثم يتحرك الشيخ إلى مستوى تالٍ من القضية المعالجة حين يدون رؤيته لهذه العناصر في الشخصية الإنسانية فيما يشبه الأحكام والتقارير التي تسبق وصفات العلاج .

فأما الذاكرة ومحتواها فشيء أمره بيد الله ، ولا حيلة للإنسان فيه ، ولا سبيل له إلى درئه [1] ، وأما الازدواج بين السريرة والعلانية فضرورة لا بد منها في الحياة الإنسانية .

يقول : ((تصور لو أننا أصبحنا في يوم من الأيام وقد تكشفت للملأ كل سرائرنا التي نضع عليها اللفائف السميكة ونقاتل دونها وندفنها في أثقل الأتربة والصخور ونحملها معنا إلى القبر ولا نعطي منها إلا ما نتصور أنه يثني علينا ويزكّينا ويجلب لنا إعجاب الآخرين ، تصور لو أن كل شيء افتضح فينا ، ألا تتآكل الصور فيما بيننا ؟ ألا تختل الموازين ؟ ألا تنتكس المفاهيم ؟ ألا تبور الحياة وتختلط الخطى وتصير الهامات أقدامًا والأقدام هامات ؟)) [2] .

فالسريرة والعلانية - ذاتهما - في طبيعة الإنسان ضرورة كونية لا بد منها لكي تتحرك أمور الإنسان في أكبر قدر ممكن من الهدوء والتناسق والوئام ، ولو لم تكن للإنسان سريرة يواري فيها وجهه الكريه الذي يجفل منه الناس ، وعلانية يعرض عليها وجهه الجذاب لما انضبطت حركة الإنسان على أي خط ، ولا نتكست الصور رأسًا إلى قدم ، لكن حين يتجاوز هذا التجمل الضروري لضبط الذات ولقيام العلاقات الإنسانية الطيبة ولأخذ البشرية إلى مستوى مرضٍ من القدرة على التفاهم لتحقيق أكبر قدر ممكن من التوازن في المصالح المتناقضة،والتوفيق بين الرغبات المتضاربة ؛ أقول : حين يتجاوز التجمل هذه الحدود ليدلف بصاحبه إلى منطقة التدليس والنفاق والخداع واللعب على كل الحبال دفعة واحدة في انبتات تام عن المبادئ والقيم والمثل الإنسانية الثابتة التي من شأنها ، أن تحقق التوازن في بناء الشخصية الإنسانية ، وأن تحفظ لها تماسكها على فوهة هذا البركان الهادر في داخلها ، وصلابتها في مواجهة تدفقات حممه ، وأن تضبط سلوكها وتوائمها مع محيطها الإنساني وانتظامها في سياقه ؛ فإن ذلك يتحول إلى مرضٍ خبيث لا يدمر في

---

(١) انظر الرسائل : ١/٤٠٤ .

(٢) الرسائل : ٢/١٥٣ - ١٥٤ .

الإنسان مقومات الشخصية الإنسانية الرزينة فحسب ؛ بل إنه كثيرًا ما تفوح روائح الجثة المصابة به لتزكم ما تصل إليه من الأنوف ، ولتعمل عملها في تدمير العلاقات الإنسانية ، ومن ثم إطلاق الوحوش النفسية من مخابئها ، وهذا ما لا يمكن اغتفاره، أو قبول تبريره في سلوك الإنسان ، يقول :

((أعرني سمعك وأرهفه لي فقد ضعف صوتي وخفضته السنون ، فإذا همستْ به إليك في رسالتي هذه ذكرياتي فهي همسات تمشي على خجل ، تستحي من المارة ومن قرائها وإن كانوا الأبناء .

لو سألتني لماذا هذا الخجل ؟ ولماذا أصابتك آفته ؟ لو قلت لي : أليس لك سريرة تواري في مدفنها ما يخجلك وما تستحي منه ؟ لو قلت لي هذا ، ونصحتني أن أعرض لك ولزوّار بيتي ولجلسائك صورتي في ملابس النسك والتقوى والبراءة النفسية والعرضية ، أمن الممكن أن أكون مثاليًّا فتخدعني هذه بخداعي لك ؟ أمن الممكن أن أصلي أناء الليل وأطراف النهار بين صفوف المصلين وأنا على نجاسة ؟ ممكن ذلك ، وغير ممكن أن تقبل مني صلاتي لرضى المصلين عن وجودي معهم ، أخدعهم مثلما يخدعني أكثرهم ، ولكن النجاسة في أعماق السريرة تصيح : أنا نجاسة !)) [١] .

الذاكرة ومحتواها ، السريرة ومحتواها أمور بيد ا لله تعالى ، أما استحضار وحوش الذاكرة بما فيها من ضار وشرس وماكر ومتشكل في الممارسات السلوكية فهذا ما لا سبيل إلى قبوله .

هكذا جسد الخطاب في هذا الحقل معالم الصورة الفطرية للإنسان ، وشخص محتواها وعوالمها الخفية ، وعرى حركة تلك العوالم وتفاعلاتها ، ورصد حركة الإنسان وسلوكه في سياقه الإنساني الخاص في خضم الحاشية النفسية والفكرية المشحونة بالتنافر - كما هي في تجارب الشيخ وفي خبراته ، وكما هي في رؤاه وتصوراته - ومن ثم إخضاع ذلك كله لمحاكمة إبداعية سريعة تمهيدًا لعلاج ذلك في مرحلة تالية .

الجانب الثالث : في حوار الإنسان مع ذاته :

وفي جانب مجاور في هذا الحقل ينصرف الخطاب إلى رصد ملامح تواصل الإنسان مع ذاته ومع المقومات الوجدانية والعقلية لهذه الذات ، ومع محتواها الفطري المنسرب إليها من أصل

---

(١) المصدر نفسه ١/٤٠٣ - ٤٠٤ .

خلقتها ، والثقافي المنسرب إليها من شتى مصادر المعرفة المكتسبة ، وتفاعله الواعي أو غير الواعي مع ذلك كله ، والكشف عن عناصر السيطرة في هذا التفاعل ، ومحاولة تحديد الاتجاه السلوكي الملموس الذي يؤخذ إليه الإنسان في هذا الحوار ، وتفسيره ، ومن ثم الوصول إلى رسم معالم الصورة التي تنتهي إليها الأمور في هذا السياق في الغالب ؛ تمهيدًا لعلاج ذلك في مرحلة تالية .

يبدأ الشيخ هنا برسم معالم الصورة العامة للإنسان وهو يندفع عبر هذه الحياة إلى مدفنه وسط موكبه الوجداني والفكري ؛ وقد انخرط مع رفقاء رحلته الذاتية في حوار تذكيه طاقات الوعي ، ويتخذ فيه العقل والروح والفكر المنضبط المقاعد اللصيقة عند نموذج إنساني ما ؛ بينما تنفى اللذة والشهوة والغرائز الدنيا إلى ذيل الموكب ؛ لا يؤبه بهمهماتها المكتومة ، وتذكيه طاقات الجهل ، وتتخذ فيه اللذة والشهوة والغرائز الدنيا المقاعد اللصيقة عند نموذج إنساني آخر ؛ بينما ينفى العقل والروح والفكر إلى ذيل الموكب ؛ لا يلتفت إليها حين يقول :

((ولدي :

في طريق الإنسان إلى مدفنه سيسير في جيش لجب من الهموم والفرح والحب والكره والرغبات وضدها ، سيمشي إليه على أقدام حافية أو منتعلة بالوعي .

حقيقة السير لا خلاف عليها ، ولكن الخلاف والتباين في الحوار يصدر عن الإنسان نفسه فيما بينه وبين رفقاء الطريق ، من الناس من ترافقه في الرحلة الذاتية ملذاته وشهواته وغرائزه البحتة تناديه أو يناديها فتستجيب له أو يستجيب لها ، وبقية الحاشية العقلية والروحية والفكرية تظل في أقصى قافلة الطريق لا أحد يشعر بوجودها ، وعند رجل آخر تكون في مقدمة القافلة .)) [١] .

ذلك هو الحوار الذي لا بد سيقوم بين الإنسان ومحتواه ، وهؤلاء هم المحاورون ، وتلك هي طبيعة الحوار التي تكتسب شخصيتها المتفلتة أو المنضبطة من شخصيات المتحاورين .

وهنا يصرف الشيخ نظره عن المواكب التي يدور فيها الحوار المنضبط بالوعي ؛ حيث يكل المحاورين إلى وعيهم وإلى شعورهم بالمسئولية إلى المواكب التي يدور فيها الحوار المتفلت ليواصل هناك رصده وقراءته التأملية وتحليلاته الإبداعية .

---

(١) المصدر نفسه ٤٨/١ .

فالإنسان يتراءى له في هذا السياق بين : عاجز قد سئم السفر في أعماق نفسه والسير في قيعانها بحثًا عن الحقيقة دون أن يظفر بما يبل صداه إليها [١] ، وآخر ذاهل لا يسمع لنفسه صدى، ولا يلحظ فيها عابرًا ، ولا يحس فيها حركة [٢] .

وإذا كان الإنسان ـ اليوم ـ قد قاس البعد بين القمر وكوكبه فقدر أنه قفزة أو قفزات لم يلبث أن قفزها إليه على قدم وعيه المندفع إلى البعيد فإن ((الإنسان ذاته حتى الآن لم يرحل إلى نفسه)) [٣] ، لأنه ((حتى الآن لم يقدر بعده ولم يرم حبله ليقيس ذاته ، هو الآن في فوضى ، ....)) [٤] ، فإذا تكشفت له بعض أسرار نفسه ، أو وعى منها شيئًا لم يلبث أن يقيم من نفسه على نفسه رقيبًا يرصد أسرارها ؛ ويمارس معها عمليات فرز دقيقة ؛ فيخرج منها ما يزينه في عيون الآخرين ، ويلف ما عدا ذلك في رقاع غليظة ، ويواريه في تراب السريرة [٥] ، ولذلك لا ترى هذا النموذج الإنساني المصاب إلا راكبًا متن الرياح الكريهة ، العاصفة من قيعان نفسه ، مصطحبًا معه اللؤم والدناءة ، ذاهبًا إلى البعيد عما في نفسه من فضائل وشموس وأقمار [٦] .

لكن ؛ لم يندفع كثير من البشر في هذا الاتجاه الذي يأخذهم بعيدًا عن قيم الخير والفضيلة المركوزة في فطرهم ؟

إنه الجهل الحقيقي الذي يشل قدرة الإنسان على الالتصاق بذاته والتواؤم معها ، وانخفاض درجة الوعي بهذه الذات وبما يسكنها امتدادًا : إما لتواضع أدواته ، وقصر تجربته ، وتسطح خبرته عن أن تمكنه من اقتحام الأعماق البعيدة في هذه الذات ، وما يقع في نطاق أدواته وتجاربه وخبراته المتاحة من هذه الذات، ومحتواها أكثره دلائل مضللة لا تقوده إلى الحقيقة ، يقول الشيخ :

((وظني أن لكل شيء قرارًا وقاعًا ، إلا الإنسان ذاته ، ومشكلته مع هذا البعد أن لذاكرته خطى

---

(١) انظر الرسائل : ٣٩٧/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٩٩/١ .

(٣) الرسائل : ٦٢/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٦٣/٢ .

(٥) انظر الرسائل : ١٥٣/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٣٨٠/٢ .

قصيرة لا تحمله أكثر من أشبار هي عمره القصير خافقة به أمانيه وآماله واشتهاؤه .)) [١] .

وإما لذهوله عن هذه الذات ، وعما يندفن فيها من أسرار ، وما يملأ أرجاءها من حرارة وصراخ ودموع واحتجاج ، وما يجري فيها من حركة ؛ لأنه يمشي في هذه الحياة والقيد عاصب هامته ومثقلها بحمل الأحجار والأتربة ، فإذا مرّ على هذه الذات ، أو أخذته اليقظة المفاجئة إلى شيء فيها كان ذلك كارثة تضاف إلى كارثة ، يقول :

((هكذا تطرح الصور على حيطاننا التي تندفن فيها أسرارًا أبت سريرة الإنسان أن تبتذل وأن يلحق بها من يمشي والقيد عاصب هامته ومثقلها بحمل الأحجار والأتربة ، يمر عليها مرور الكارثة التي تتفجر في قلب جبل ظنه الإنسان ميتًا لا حرارة في جوفه ولا دموع ولا صراخ ولا احتجاج على الصخور والأتربة ، ظنه مرتعًا لشاته وماعزه وبعيره أو حصانه وليس غير ، فإذا الأسرار الدفينة ترفع الغطاء ، وعن ماذا ؟ عن بركان من الجحيم ينذر بأن في كل صورة من الصور التي تتراءى لنا جامدة نذيرًا أو بشيرًا وأعظم الصور وأضخمها هامة ووعيًا ومسئولية هي صورة الإنسان ، ورؤيتي لها في مثل هذا التداعي .)) [٢] .

ويوم تنصقل أدوات الإنسان التي تعينه على سبر أغوار ذاته ، وتشحذ على مسنّ الحياة الخشن ، ويوم تتراكم لديه التجارب التي يمكنه الاستناد إليها باطمئنان وهو يتوغل في شعاب هذه الذات ، ويوم تعمق لديه الخبرة التي تُمكنه من رؤية الأشياء داخل ذاته بوضوح أكثر ، ويوم يفيق من ذهوله عن ذاته ويستفيق فيه الوعي بها في مرجل الحياة التي شحنته بالحساسية ؛ يكون أوان الإفادة من ذلك قد شارف على النهاية ، وهنا يتراءى الإنسان في آخر الطريق وقد أدار وجهه إلى الخلف ، خشبة واقفة تنظر إلى الماضي بعين كسيرة ، يحرقها الوعي والندم ، يقول :

((ولدي :

لعلي أثقلت عودك الغض يوم حملت عليه عودي الذي يبس وتخشب وصار جذعًا من السنين الطويلة ، وما بين ((الأغصان)) الغضة و الجذع من تمايز في النمو بالحياة من فارق كبير يتراءى لنا ذلك فترة من الزمن ثم يلحق هذا بذاك ، ولكن مشكلة الإنسان أنه لا يدرك

---

(١) الرسائل ٣٣٧/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٦/٢ - ٩٧ .

صلاح الثمرة وجودتها ونقاءها في الأغصان الغضة إلا حين يكون جذعًا متخشبًا يابسًا ، وهنا لا يفيده الندم ولا تعود إليه الحياة وإن أسقته كل مياه السحب ، ....)) [١] .

تلك هي إشارات الشيخ والتفاتاته الإبداعية إلى تواصل الإنسان مع ذاته بمقوماتها الوجدانية والعقلية ، وإلى طبيعة تفاعله مع هذه الذات ، واتجاهه ومداه ، وانتهائه في الغالب الأعم إلى الندم والحسرة ، ذلك المعطى الذي يحاول الشيخ بشتى الوسائل أن يأخذ متلقيه الناشيء بعيدًا عنه .

* * *

وهذه هي صورة الإنسان في هذا الحقل الذي يجسده في سياقه الكوني الخاص ، في تكوينه الفطري الطبيعي ، وفي محتوى هذا التكوين ، وفي حركته الطامحة إلى المواءمة بين الأنماط المتنافرة داخل الذات وخارجها في سياقاته الوجدانية والفكرية ، وفي طبيعة تواصله مع ذاته وقدرته على فهمها والتحاور معها ، وهي صورة تعكس الإنسان في نموذجه الكوني الجريح ، وتشخص بوضوح هذا الجرح في موقعه وعمقه وتداعياته الحادة في وجدان الإنسان وفي سلوكه .

لقد اكتملت هنا ـ وعلى هذا المستوى ـ عمليات استكشاف هذا الجرح ، وتحليله، وتشخيصه ، وتدوين التقارير بشأنه ، ولم يعد إلا أن يدفع الشيخ إلى متلقيه بوصفة العلاج التي ستكون في مدار اهتمام قراءة تالية من هذا الفصل إن شاء الله .

لكن السؤال الذي أبى إلا أن يفرض نفسه ضيفًا على هذا الموقع هو ، أليس حمل وتحمل هذه الطبيعة التي فطر الله الإنسان عليها ـ كما جسد خطوطها خطاب الشيخ ـ ، والتأقلم معها ومع ما يسكنها من متناقضات ، والقدرة على تجاوز عناصر الضعف المركوزة في الذات ، والتمكن من ضبط ما يسكنها ، والتحكم فيه ؛ بما يكفي لأن تكون السلطة في تلك الأعماق لقيم الخير والجمال هو المؤشر الحقيقي إلى تميز الإنسان، وإلى عمق إنسانيته، وإلى قوة أرادته ؟ أليس هذا موضع الابتلاء الحقيقي للإنسان في هذه الحياة ؟ أليس هذا جزء هام يترتب عليه كل شيء سواه من الأمانة التي وكل الله تعالى إلى الإنسان شئون رعايتها في هذه الحياة ؟

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ .

* * *

---

(١) الرسائل : ٣٥٦/١ .